تفسير

مقاتل بن سليمان

الإمام أبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير
الأزدي بالولاء البلخي
المتوفى ١٥٠ هـ

تحقيق
أحمد فريد

الجزء الأول

المحتوى:
من أول سورة الفاتحة - إلى آخر سورة الأعراف

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Droits exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée de l'éditeur.

الطبعة الأولى
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3911-8

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كما ينبغي لجلال وجهه الكريم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه الأبرار المقربين.

وبعد: فمنذ أن نزل القرآن الكريم - كتاب الله الخالد والمعجز - انطلق الصحابة والتابعون يُفسرون غريبه، ويوضحون غامضه، وييسرون فهمه.

وكان هذا الكتاب العظيم محور الدراسات، ونقطة الارتكاز، من أجل الحفاظ عليه أبدع المفسرون، ولتوضيح مراده اجتهد المجتهدون، ولم تتوقف حركة التفسير - ولن تتوقف بإذن الله - محافظة على كتاب الله تعالى، هادفة إلى تقديم كل ما يعين المسلمين على فهم كتاب الله، والعمل به.

وألفت حول القرآن الحكيم كتب كثير فى تفسيره، وإعرابه، وقراءاته، وأسباب نزوله، وأحكامه، وإعجازه، وفضائله، ومنسوخه، وغير ذلك.

ونقدم هنا لكتاب «تفسير مقاتل بن سليمان»، وهو من التفاسير المتقدمة النافعة، والبعض يعتبر تفسير مقاتل أول تفسير كامل للقرآن الكريم، حيث كان التفسير فى عهد الصحابة يعتمد على المأثور عن رسول الله ﷺ، غير أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا متفاوتين فى قدرتهم على تفسير القرآن تبعًا لمقدار سماعهم التفسير من رسول الله ﷺ، ولمقدار ما شاهدوا من أسباب النزول ولمدى ما فتح الله به عليهم من طريق الرأى والاجتهاد، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

نسأل الله الإخلاص والقبول، والتوفيق لغاية الوصول، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أهل الفضل وسلم تسليمًا كثيرًا.

وهذه المقدمة تشتمل على:

١ - المصنف فى سطور.

٢ - من روى عنهم مقاتل.

٣ - من أخذوا عنه.

٤ - الثناء على مقاتل فى التفسير.

٥ - مقاتل وعلم الحديث.

٦ - الكتاب فى سطور.

٧ - مؤلفات مقاتل فى علوم القرآن والتفسير.

* * *

المصنف فى سطور

هو مقاتل بن سليمان بن بشير البلخى مولى الأزد، كنيته أبو الحسن[١]، ولد مقاتل بمدينة بلخ من أقليم خراسان، ونشأ بها ثم تحول إلى مرو، وكلتاهما من أشهر مدن خراسان.

وكانت له منزلة فى خراسان حتى كان يتوسط فى الصلح بين أمراء خراسان والخارجين عليهم، ثم تحول إلى العراق، فنزل بالبصرة، وكان بالبصرة خطة بنى أسد، وهم بنو أسد بن مالك، وكان مقاتل من مواليهم بالبصرة، ودخل مقاتل بغداد فحدث بها، ثم عاد إلى البصرة وتوفى فيها سنة ١٥٠هـ.

وكان مقاتل يقول بإثبات الصفات[٢]، وغلا فى ذلك حتى أوهم التشبيه والتجسيم، ولعل غلوه هذا كان فى مقابلة غلو الجهمية والمعتزلة فى القول بنفى الصفات عن الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته فى: الكامل فى التاريخ لابن الأثير (٣٥٤/٥)، الجرح والتعديل للرازى (٣٥٥/٤) ط/الهند، تهذيب الأسماء للنووى (١١١/٢)، سير أعلام النبلاء للذهبى (٦٥/٦)، ميزان الاعتدال له (١٩٦/٣)، الأعلام للزركلى (٣٠٦/٨)، معجم المؤلفين (٣١٧/١٢)، وفيات الأعيان (٣٤١/٥)، تهذيب التهذيب (٣٨٤/١٠).

(٢) نسب إلى مقاتل، وإلى غيره من المجسمة، القول: بأن الله جسم، وأنه جثة على صورة الإنسان، لحم ودم وشعر وعظم، له جوارح وأعضاء، من يد ورجل ورأس وعينين، وهو مع هذا لا يشبهه غيره. وقالت المقاتلية - أصحاب مقاتل بن سليمان - فى تعليل ذلك: لأنا لم نشهد شيئًا موسومًا بالسمع والبصر، والعقل والعلم، والحياة والقدرة، إلا ما كان لحمًا ودمًا.

وهذا رأى فاسد بعيد عن عقائد الدين التى قررها الوحى، ونطق بها الرسول الأمين، وأجمع عليها الصحابة والسلف الصالح والتابعين من هذه الأمة.

قال أبو حامد الغزالى: فمن خطر بباله أن الله جسم مركب من أعضاء فهو عابد صنم، فإن كل جسم مخلوق، وعبادة المخلوق كفر، وعبادة الصنم كانت كفرًا، لأنه مخلوق فمن عبد جسمًا فهو كافر، بإجماع الأمة السلف منهم والخلف.

انظر فى ذلك: البدء والتاريخ (٨٠/١)، الفرق والتاريخ (١١٨)، أصول الدين (٢١)، الفرق المفترقة بين أهل الزيغ والزندقة (٧٦)، مقالات الإسلاميين (١٥٢/١)، الحور العين (١٤٤)، المواقف (٢٧٣).

وقد طار صيت مقاتل فى قوله بإثبات الصفات ومبالغته فى ذلك حتى سأل الخليفة مقاتلاً، فقال له: بلغنى أنك تشبه، فقال: إنما أقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ فمن قال غير ذلك فقد كذب.

من روى عنهم:

روى مقاتل عن: ثابت البنانى، وسعيد المقبرى، وعطاء بن أبى رباح، وعطية بن سعد العوفى، وعمرو بن شعيب، وابن شهاب الزهرى، ونافع مولى ابن عمر، وزيد بن أسلم، وشرحبيل بن سعد مولى الأنصار، وعبد الله بن بريدة، وعبد الله بن أبى بكر بن أنس بن مالك، ومحمد بن سيرين، وأبى إسحاق السبيعى، وأبى الزبير المكى.

وقد ادعى مقاتل أنه روى عن مجاهد بن جبر المكى، ولكن إبرهيم الحربى أنكر ذلك، وقال: لم يسمع مقاتل من مجاهد شيئًا و لم يلقه.

من أخذوا عنه:

إسماعيل بن عياش، وسعد بن الصلت، وسفيان بن عيينة، وعبد الرحمن بن محمد الحاربى، وعبد الرزاق بن همام، والوليد بن مسلم، وأبو نصير سعدال، وابن سعيد البلخى، وأبو حيوة شريح بن بريد الحمصى، وأبو نصر منصور بن عبد الحميد الباوردى، وأبو الجنيد الضرير، وأبو يحيى الحمانى، وبقية بن الوليد، وشبابة بن سوار، وعماد بن قيراط النيسابورى، وعبد الله بن المبارك، وعبد الرحمن بن سليمان ابن أبى الجوب، وعبد الصمد بن عبد الوارث، وعتاب بن محمد بن شوذب، وعلى بن الجعد، وعيسى بن أبى فاطمة وهو ابن صبيح، وعيسى بن يونس، وحرمى بن عمارة بن أبى حنيفة، وحماد بن محمد النوارى، وحمزة بن زناد الطوسى، ونصر بن حماد الوارق، ويحيى ابن شبل، ويوسف بن خالد السمتى، والوليد بن مرثد البيروتى.

* * *

الثناء على مقاتل فى علم التفسير

قد أثنى بعض الثقات على مقاتل ورفعوا منزلته:

فالإمام الشافعى يقول: من أراد أن يتبحر فى تفسير القرآن فهو عيال على مقاتل بن سليمان.

وعن سفيان بن عيينة سمعت مشعرًا يقول لحماد بن عمرو: كيف رأيت الرجل، يعنى مقاتلاً، قال: أن كان ما يجئ به علمًا فما أعلمه.

وقال عبد الله بن المبارك، حين رأى تفسير مقاتل، ياله من علم لو كان له إسناد.

وقال عباد بن كثير: ما بقى أحد أعلم بكتاب الله من مقاتل.

وقال حماد بن أبى حنيفة: مقاتل أعلم بالتفسير من الكلبى.

وقال بقية: كنت كثيرًا أسمع شعبة وهو يسأل عن مقاتل بن سليمان، فما سمعت قط ذكره إلا بخير.

وقال على بن الحسين بن واقد المروزى، عن عبد المجيد من أهل مرو، سألت مقاتل بن حيان، فقلت: يا أبا بسطام أأنت أعلم أم مقاتل بن سليمان؟ قال: ما وجدت علم مقاتل فى علم الناس إلا كالبحر الأخضر فى سائر البحور.

وقال على بن الحسين بن واقد أيضًا سمعت أبا نصير يقول: صحبت مقاتل بن سليمان، ثلاث عشرة سنة فما رأيته يلبس قميصًا قط إلا لبس تحته صوفًا.

ونلاحظ أن الثناء على مقاتل يتجه إلى تفسيره للقرآن الكريم، أما فى الحديث فمقاتل متهم غير موثوق به عند أئمة الحديث.

* * *

مقاتل وعلم الحديث

جرح رجال الحديث مقاتلاً واتهموه بالكذب والوضع:

فقال يحيى بن معين: ليس حديثه بشيء، ليس بثقة.

وقال محمد بن سعد: أصحاب الحديث ينقون حديثه وينكرونه.

وقال البخارى: منكر الحديث سكتوا عنه. وقال عنه أيضًا: لا شيء البتة.

وقال النسائى: كذاب. وقال أيضًا: الكذابون المعروفون بوضع الحديث على رسول الله ﷺ أربعة: إبراهيم بن أبى يحيى بالمدينة، والواقدى ببغداد، ومقاتل بن سليمان بخراسان، ومحمد بن سعيد، ويعرف بالمصلوب، بالشام.

وقال أبو حاتم بن حيان: كان يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن الذى يوافق كتبهم، وكان مشبهًا يشبه الرب عز وجل بالمخلوقين وكان يكذب مع ذلك فى الحديث.

وقال زكريا بن يحيى الساجى: قالوا: كان كذابًا متروك الحديث.

وقال أبو أحمد بن عدى: عامة حديثه مما لا يتابع عليه، على أن كثيرًا من الثقات والمعروفين قد حدث عنه، ومع ضعفه يكتب حديثه.

وعن منصور الكاتب، عن أبى عبيد الله، قال: قال لى أمير المؤمنين المهدى: لما أتانا نعى مقاتل أشتد ذلك على، فذكرته لأمير المؤمنين أبى جعفر، فقال: لا يكبر عليك، فإنه كان يقول لى: انظر ما تحب أن أحدثه فيك حتى أحدثه.

وذكروا أن مقاتلاً قال للمهدى: إن شئت وضعت لك أحاديث فى العباس، فقال المهدى: لا حاجة لى فيها.

ونخلص من هذا إلى أن بعض الأئمة أثنى على مقاتل، وبعضهم جرحه ولم يوثقه.

والقاعدة فى علم الحديث أنه إذا اجتمع فى الرأى جرح مبين السبب وتعديل، فالجرح مقدم على التعديل، وأن كثر عدد المعدلين، لأن مع الجارح زيادة علم لم يطلع عليها المعدل.

ولكن هذا لا يمنعنا أن نستفيد بما خلفه من تراث فى التفسير النقلى والعقلى، شريطة أن نكون حذرين فى قبول الأحاديث التى يوردها، فلا نقبلها إلا إذا وردت من طريق آخر صحيح.

أما الجانب العقلى فى تفسير فهو فيه بحر زاخر، وهو سابق غير مسبوق بشهادة الإمام الشافعى له.

* * *

الكتاب فى سطور

يجب أن نعلم أن تفسير مقاتل يجمع بين المأثور والمعقول، ويتميز بالبساطة والسهولة، والإحاطة التامة بمعانى الآيات ونظائرها فى القرآن، وما يتعلق بها فى السنة، واختلاط العقل بالنقل يظهر واضحًا فى تفسير مقاتل.

ويعتمد مقاتل فى تفسيره على جمع الآيات المتصلة بموضوع واحد، ويورد الأحاديث المتعلقة بالآية بعد أن يحذف أسانيدها، ولذلك اختلط الصحيح بالعليل فى تفسيره، وظهرت فيه إسرائيليات أهل الكتاب بصورة واضحة خصوصًا حول الأنبياء السابقين الذين عصم الله ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بأمر منهى عنه.

وتأثر مقاتل بإسرائيليات اليهود فى تفسيره لآيات الأحزاب المتعلقة بزواج النبى من زينب بنت جحش، فأعظم الفرية على رسول الله ﷺ.

فنجد أن أبرز العيوب فى تفسير مقاتل:

١ - الإسرائيليات، ونقل علوم اليهود والنصارى إلى تفسير القرآن.

٢ - حذف الأسانيد فى وقت كان الرواة يهتمون فيه كثيرًا بالأسانيد، مما جعل الصحيح يختلط بالعليل.

وإلى جوار هذه العيوب التى لصقت بمقاتل، نجد مميزات جعلت صاحبها يصل إلى أسمى المعانى وأعلاها، وهو يفسر كتاب الله فى سهولة ويسر، ولذا حظى بإعجاب المعجبين وثناء الأئمة الأعلام.

فشهادة الإمام الشافعى لمقاتل بأن الناس عيال عليه فى التفسير.

وأثر عن الإمام أحمد بن حنبل أن لمقاتل علم بالقرآن.

وأثر عن إبراهيم الحربى أن الحسد هو الذى حمل الناس على الطعن فى مقاتل.

وقال عبد الله بن المبارك: ياله من علم لو كان له إسناد.

ويجب أن نعلم أن التفسير بالمأثور كان هو المؤلف فى عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم، وأنه كان يقتصر على ما أثر عن السلف فى تفسير الآيات، ويسكت عن

تفسير الآيات التى لم يؤثر فى تفسيرها شيء، وأن تفسير مقاتل من أوائل التفاسير التى فسرت القرآن كله آية آية، وأن هذه الطريقة لم تكن مألوفة من قبل، ولذلك أنكرها العلماء على مقاتل، كما أن تفسير مقاتل أقدم تفسير كامل للقرآن الكريم وصل إلينا.

* * *

مؤلفات مقاتل فى التفسير وعلوم القرآن

١ - التفسير الكبير، وهو تفسير كامل للقرآن، وهو كتابنا هذا.

٢ - نوادر التفسير.

٣ - الناسخ والمنسوخ.

٤ - الرد على القدرية.

٥ - الوجوه والنظائر فى القرآن.

٦ - تفسير خمسمائة آية من القرآن الكريم.

٧ - الأقسام واللغات.

٨ - الآيات المتشابهات.

* * *

كتبه

أحمد فريد

وصف النسخ المخطوطة

النسخة الأولى: مجلد من نسخة كتبت في القرن الرابع الهجري، برواية أبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم الجلاب، محفوظ بالمكتبة الأزهرية بالقاهرة رقم (٥١٦) ١٠٦٠٨ تفسير، يوجد بأوله وآخره نقص، كتبت بقلم معتاد قديم بها آثار رطوبة وأكل أرضة وترميم وخروم، يقع في ٢٧٧ ورقة.

النسخة الثانية: نسخة أحمد الثالث جزئين: الجزء الأول: وقد كتبت سنة ٨٨٦ هـ بقلم نسخي بخط محمد بن أحمد بن عمر السنبلاويني بالقاهرة، والقرآن فيه مميز بالأحمر والتفسير بالأزرق، ويبتدىء بأول القرآن، وينتهي بآخر سورة مريم، وهو محفوظ بمكتبة أحمد الثالث في تركيا برقم ١/٧٤، ويقع في ٢٣٦ ورقة.

الجزء الثاني: ويبتدىء بسورة طه، وينتهي بآخر القرآن. وفي معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة نسخة ميكروفيلم لهذا الجزء تحت رقم (١٠٢، ١٠٣) تفسير.

النسخة الثالثة: نسخة فيض الله، وهي الجزء الثاني من نسخة كتبت سنة ٥٢٤ هـ بخط نسخي، كتبه أبو القاسم إسماعيل بن أبي جعفر الروياني، يبتدىء بتفسير سورة مريم، وينتهي بآخر القرآن، وهو محفوظ بمكتبة فيض الله في تركيا برقم ٧٩، ويقع في ١٧٤ ورقة، وفي معهد المخطوطات بجامعة الدولة العربية بالقاهرة ميكروفيلم لهذا الجزء برقم (١٠١) تفسير.

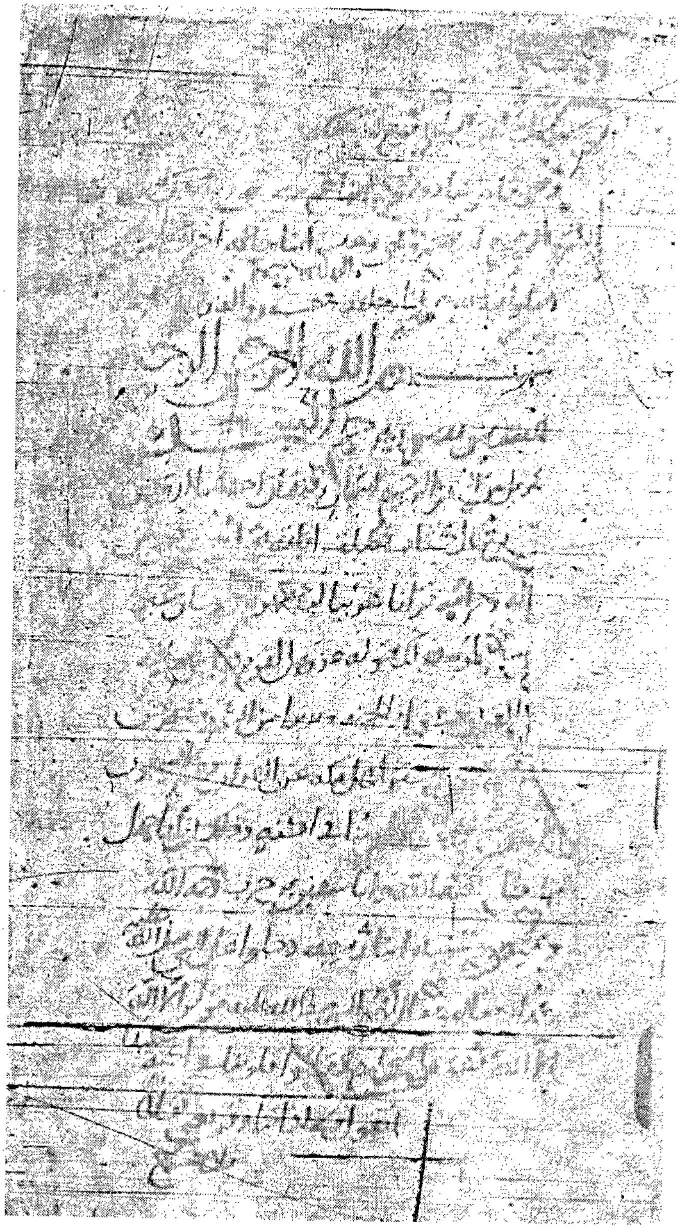

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة من مخطوط تفسير مقاتل

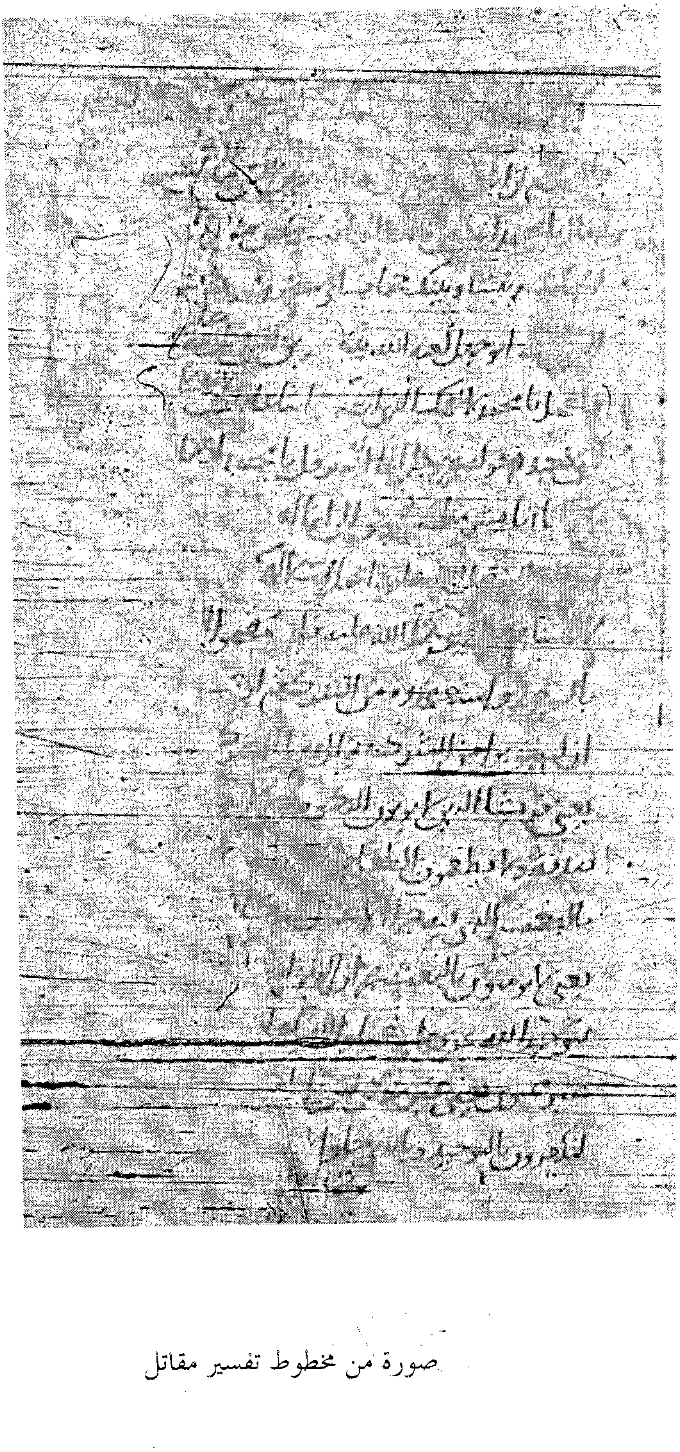

صورة من مخطوط تفسير مقاتل

صورة من مخطوط تفسير مقاتل

سورة الناس مكية عددها اربع آيات

صورة من مخطوط تفسير مقاتل

صورة من مخطوط تفسير مقاتل

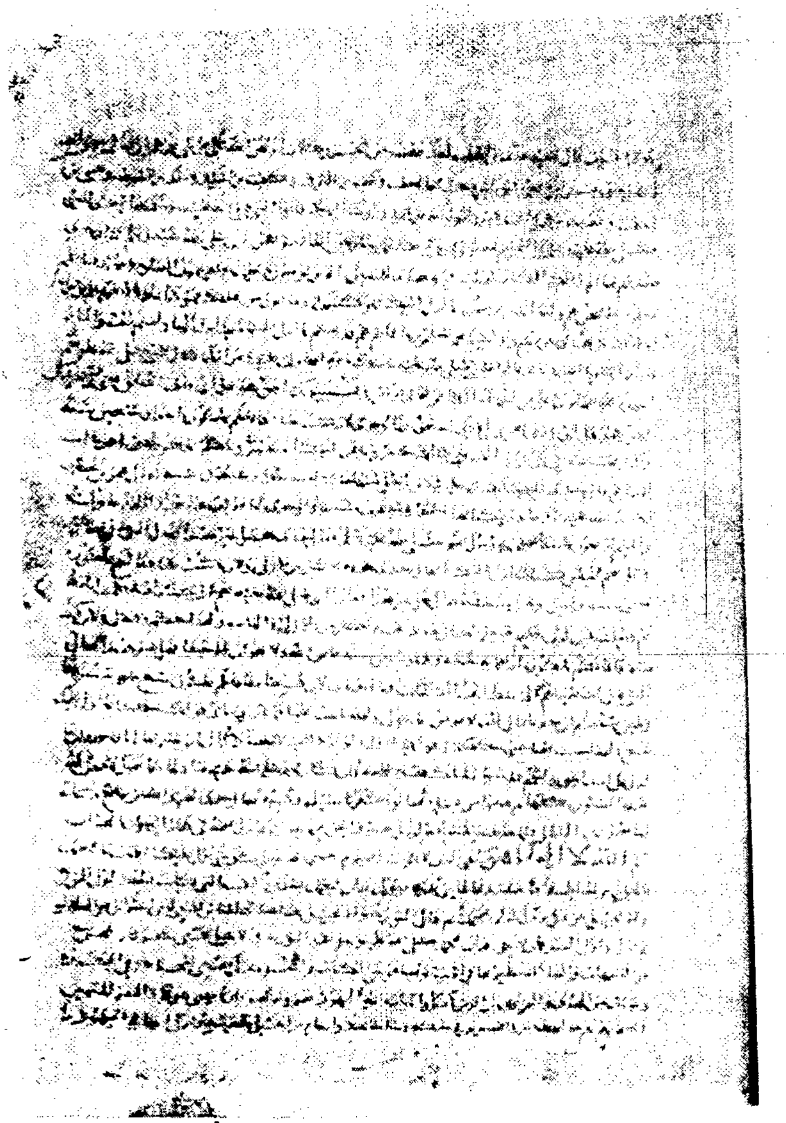

صورة من مخطوط تفسير مقاتل

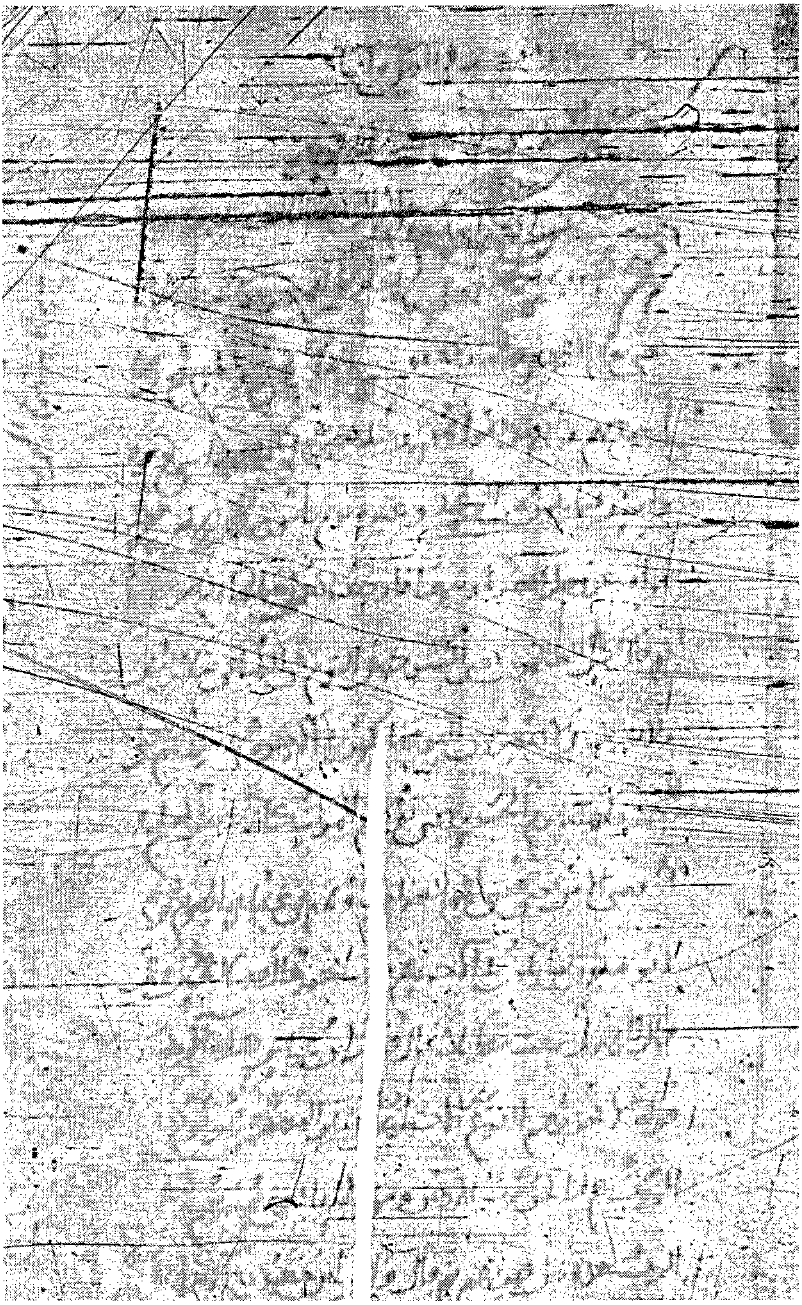

صورة من مخطوط تفسير مقاتل

مقدمة المصنف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

أخبرنا القاضى أبو بكر محمد بن عقيل بن زيد الشهرزورى، رضى الله عنه، قال: حدثنا القاضى أبو عبد الله محمد بن على بن زادلج، قال: حدثنا عبد الخالق بن الحسن، قال عبيد الله بن ثابت بن يعقوب الثورى المقرئ، قال: حدثنا أبى، قال: حدثنا الهذيل ابن حبيب أبو صالح الزيدانى، عن مقاتل بن سليمان، عن ثلاثين رجلاً، منهم اثنى عشر رجلاً من التابعين، منهم من زاد على صاحبه الحرف، ومنهم من وافق صاحبه فى التفسير، فمن الاثنى عشر: عطاء بن أبى رباح، والضحاك بن مزاحم، ونافع مولى ابن عمر، والزبير، وابن شهاب الزهرى، ومحمد بن سيرين، وابن أبى مليكة، وشهر بن حوشب، وعكرمة، وعطية الكوفى، وأبو إسحاق الشعبى، ومحمد بن على بن الحسين ابن على، ومن بعد هؤلاء قتادة ونظراؤه، حتى ألفت هذا الكتاب.

قال عبد الخالق بن الحسن: وجدت على ظهر كتاب عبيد الله بن ثابت، عن أبيه تمام الثلاثين الذين روى عنهم مقاتل. قال: حدثنا الهذيل، قال: رجال مقاتل الذين أخذ التفسير عنهم سوى من سمينا: قتادة بن دعامة، وسليمان بن مهران الأعمش، وحماد بن أبى سليمان، وإسماعيل بن أبى خالد، وابن طاوس اليمانى، وعبد الكريم وعبد القدوس صاحبى الحسن، وأبو روق، وابن أبى نجيح، وليث بن سليم، وأيوب، وعمرو بن دينار، وداود بن أبى هند، والقاسم بن محمد، وعمرو بن شعيب، والحكم بن عتبة، وهشام بن حسان، وسفيان الثورى. ثم قال أبو محمد: قال أبى: فقلت لأبى صالح: لم كتب عن سفيان وهو أكبر منه؟ فقال: إن مقاتل عُمِّر، فكتب عن الصغار والكبار.

قال أبو محمد: قال أبى: قال أبو صالح: بذلك أخبرنى مقاتل. قال: حدثنا عبد الله، قال: وحدثنى أبى، قال: حدثنا الهذيل، عن مقاتل، قال: أنزل القرآن على خمسة أوجه: أمره، ونهيه، ووعده، ووعيده، وخبر الأولين. قال: حدثنا عبيد الله، قال: وحدثنى أبى، قال: حدثنى الهذيل، عن المسيب، عن الأعمش، عن ابن جبير، عن ابن عباس، رضى الله عنه، قال: تعلموا التأويل قبل أن يجىء أقوام يتأولونه على غير تأويله.

قال: حدثنا عبيد الله، قال: حدثنى أبى، قال: حدثنا الهذيل، عن أبى قلابة، عن ابن عباس، قال: ما أنزل الله عز وجل كتابًا، إلا أحب أن يعلم تأويله. قال: حدثنا عبيد الله، قال: حدثنى أبى، قال: حدثنا الهذيل، عن إسماعيل بن عياش الحمصى، قال: أخبرنى معاذ ابن رفاعة، عن إبراهيم العذرى، قال: يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. قال: حدثنا عبيد الله، قال: حدثنى أبى، قال: حدثنا الهذيل، عن سفيان الواسطى، قال: إن مثل من قرأ القرآن ولم يعلم تفسيره، كمثل رجل جاءه كتاب أعز الناس عليه، ففرح به، فطلب من يقرؤه له، فلم يجده وهو أمى، فهكذا من قرأ القرآن ولم يدر ما فيه.

قال: حدثنا عبيد الله، قال: وحدثنى أبى، عن الهذيل، عن على بن عاصم، عن عطاء ابن السائب، عن أبى عبد الرحمن السلمى، عن ابن مسعود، قال: كنا إذا علمنا رسول الله ﷺ العشر آيات من القرآن، لم نجاوزهن إلى غيرهن حتى نعلم ما فيهن. قال: حدثنا عبيد الله، قال: وحدثنى أبى، قال: حدثنى الهذيل، عن ابن المسيب، عن الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس، قال: القرآن على أربعة أوجه: تفسير يعلمه العلماء، وعربية تعرفها العرب، وحلال وحرام لا يسع الناس جهله، وتأويل لا يعلمه إلا الله عز وجل، قلت: وما التأويل؟ قال: ما هو كائن.

قال: حدثنا عبيد الله، قال: وحدثنا أبى، عن الهذيل، عن مقاتل، أنه قال: فى القرآن خاص وعام، خاص للمسلمين، وخاص فى المشركين، وعام لجميع الناس، ومتشابه، ومحكم، ومفسر، ومبهم، وإضمار، وتمام، وصلات فى الكلام مع ناسخ ومنسوخ، وتقديم وتأخير، وأشباه مع وجوه كثيرة، وجواب فى سورة أخرى، وأمثال ضربها الله عز وجل لنفسه، وأمثال ضربها للكافر والصنم، وأمثال ضربها للدنيا، والبعث، والآخرة، وخبر الأولين، وخبر ما فى الجنة والنار، وخاص لمشرك واحد، وفرائض، وأحكام، وحدود، وخبر ما فى قلوب المؤمنين، وخبر ما فى قلوب الكافرين، وخصومة مشركى العرب، وتفسير، وللتفسير تفسير.

قال: حدثنا عبيد الله، قال: حدثنا أبى، عن الهذيل بن حبيب، عن مقاتل، قال: من قرأ القرآن فلم يعلم تأويله، فهو فيه أمى. قال: حدثنا عبيد الله، قال: حدثنى أبى، عن الهذيل، عن مقاتل، عن عبد الكريم الجزرى، قال: ما أجد أعظم أجرًا يوم القيامة ممن علم القرآن وعلمه.

وذكر مقاتل حساب الجمل، فقال: يبدأ بحروف أبى جاد، فألحقها بها ألـف واحـد، ب اثنين، ج ثلاثة، د أربعة، هـ خمسة، و ستة، ز سبعة، ح ثمانية، ط تسعة، ى عشرة، ك عشرون، ل ثلاثون، م أربعون، ن خمسـون، ص ستون، ع سبعون، ف ثمانون، س تسعون، ق مائة، ر مائتين، ش ثلاثمائـة، ت أربعمائـة، باقى المعجـم: ث خمسمائة، خ ستمائة، ذ سبعمائة، ض ثمانمائة، ظ تسعمائة، غ ألف.

قال: وحدثنا عبيد الله، قال: وحدثنى أبى، عن الهذيل، عن مقاتل، قال: قال رسـول الله ﷺ: «ما أنزل الله عز وجل فى القرآن سورة مثل فاتحة الكتاب، ولا نزل فـى كتب الأنبياء مثلها»، قال: وقال النبى ﷺ: «أعطيت بالتوراة السبع الطوال وهن القرآن، وأعطيت بالإنجيل المثانى وهن هدى القرآن، وأعطيت بالزبور المئين وهن ريحان القـرآن، وفضلنى بالمفصل».

قال: حدثنا عبيد الله، قال: حدثنى الهذيل، عن المسيب بن شريك، عن أبى روق، عن الضحاك، فى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿الٓمٓرۚ﴾، قال: أنا الله أعلم. قـال: حدثنا عبيد الله، قال: حدثنى أبى، قال: حدثنا الهذيل، عن أبى جعفر الرازى، عن أبى العالية فى قوله سبحانه: ﴿الٓمٓرۚ﴾، قال: هذه من الثمانية وعشرين حرفًا التى دارت الألسن كلها بها، وليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسماء الله عز وجل، وليس منها اسم إلا وهو فى الآية وبلا آية، وليس منها حرف إلا وهو فى مدة قوم وآجالهم، فالألف مفتاح اسم الله جل جلاله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد. الألف آلاؤه، واللام لطفه، والميم مجده.

قال: حدثنا عبيد الله، قال: وحدثنى أبى، قال: حدثنا الهذيل، عن أبى بكر الهذلى، عن عكرمة فى قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾، يعنى التوراة والإنجيل، قال أبو روق: فى قوله سبحانه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، لا شك فيه، و ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، قال: كرامة لهم هداهم إليه، وأما قوله سبحانه: و ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، يعنى بالغيب لا إله إلا الله، وبما جاء به محمد ﷺ، ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، يعنى الصلاة المكتوبة، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [المائدة: ٥٥]، يعنى المفروضة، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، قال روق: هذه للعرب خاصة. قال: وقال أبو صالح، قال الكلبى: قالت اليهود: جُدَىٌّ وحُيَىٌّ ومن معهما نحن المتقون الذين يؤمنون بالغيب آمنا بمحمد قبل أن يبعث. قال الكلبى: هاتان الآيتان نزلتا فى اليهود.

* * *

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال: حدثنا عبيد الله، قال: وحدثنى أبى، عن الهذيل، عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد، قال: قال: فاتحة الكتاب مدنية.

قال: حدثنا عبيد الله، قال: وحدثنى أبى، عن الهذيل، عن مقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ، قال: «فاتحة الكتاب مدنية».

سورة فاتحة الكتاب سبع آيات كوفية، وهى مدنية، ويقال: مكية[(١)].

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ [آية: ١]

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[(٢)]، يعنى الشكر لله، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آية: ٢]، يعنى الجن والإنس، مثل قوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [آية: ٣]، اسمان رفيقان، أحدهما أرق من الآخر ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، يعنى المترحم، ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، يعنى المتعطف بالرحمة، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [آية: ٤]، يعنى يوم الحساب، كقوله سبحانه: ﴿أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣]، يعنى لمحاسبون، وذلك أن ملوك الدنيا يملكون فى الدنيا، فأخبر سبحانه أنه لا يملك يوم القيامة أحد غيره، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ

---

(١) كل ما ورد فى مكية بعض السور أومدنيتها من أقوال الصحابة والتابعين، انظر أسباب النزول للواحدى (١١).

(٢) انظر القراءة فى: (معانى القرآن للفراء ٣/١، إعراب القرآن للنحاس ١٢٠/١، إعراب القرآن للعكبرى ٣/١، الكشاف للزمخشرى ٨/١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٣٦/١، مجمع البيان للطبرسى ٢١/١، شرح التصريح للشيخ خالد الأزهرى ٣٥٥/٢ الخصائص ١٤٧/٢).

﴿٦﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، يعنى نوحد، كقوله سبحانه فى المفصل: ﴿عَابِدَاتٍ﴾ [التحريم: ٥]، يعني موحدات، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١) [آية: ٥] على عبادتك، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٢) [آية: ٦]، يعنى دين الإسلام؛ لأن غير دين الإسلام ليس بمستقيم، وفى قراءة ابن مسعود: ارشدنا، ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٣)، يعنى دلنا على طريق الذين أنعمت عليهم،

---

(١) وهى قراءة على أيضا. انظر القراءة فى: (البحر المحيط ١/٢٣، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١/١٤٦، إعراب القرآن للنحاس ١/١٢٢، إعراب القرآن للعكبرى، تفسير الآلوسى ١/٨٦).

(٢) قراءة الحسن رضى الله عنه: «اهْدِنا صراطا مستقيما» وهى أيضًا قراءة: زيد بن على، والضحاك، ونصر بن على أيضا. انظر: (إتحاف فضلاء البشر للبنا ١٢٣، البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ١/٢٦).

(٣) ذكر ابن جنى عن أبو بكر أحمد بن موسى: أن فيها سبعَ قراءَات: عليهُمُو، وهى قراءة أبى عمرو، وابن كثير، وأبى جعفر، وابن أبى إسحاق، وقالون، وعيسى الثقفى، وابن محيصن، والأعرج، والخفاف، ومسلم بن جندب. انظر: (إعراب القرآن للنحاس ١/١٢٤، إعراب القرآن للعكبرى ١/٦، البحر المحيط ١/٢٦، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١/١٤٨، مجمع البيان للطبرسى ١/٢٨، إتحاف فضلاء البشر للبنا ١٢٤، التبيان فى تفسير القرآن ١/٤٣، والتيسير للدانى ١٩).

«وعليهُمْ»: وهى قراءة حمزة، وأبى الحسن الأخفش، ويعقوب، والمطوعى، والشنبوذى. انظر: (إعراب القرآن لأبى جعفر النحاس ١/١٢٤، الجامع لأحكام القرآن ١/١٤٨، إعراب القرآن للعكبرى ١/٥، البحر المحيط لأبى حيان ١/٢٦ إتحاف فضلاء البشر ١٢٣، التبيان فى تفسر القرآن للطوسى ١/٤٣١، الحجة المنسوب لابن خالويه ٦٣، الحجة لأبى زرعة ٨٠، السبعة فى القراءات لابن مجاهد ١٠٨، غيث النفع للصفاقسى ٦٣، مجمع البيان للطبرسى ١/٢٨).

وعليهُمْ بسكون الميم مع ضمة الهاء، وهى قراءة حمزة، وأبى الحسن الأخفش، ويعقوب، والمطوعى، والشنبوذى. انظر: (إعراب القرآن لأبى جعفر النحاس ١/١٢٤، الجامع لأحكام القرآن ١/١٤٨، إعراب القرآن للعكبرى ١/٥، البحر المحيط لأبى حيان ١/٢٦ إتحاف فضلاء البشر ١٢٣، التبيان فى تفسر القرآن للطوسى ١/٤٣١، الحجة المنسوب لابن خالويه ٦٣، الحجة لأبى زرعة ٨٠، السبعة فى القراءات لابن مجاهد ١٠٨، غيث النفع للصفاقسى ٦٣، مجمع البيان للطبرسى ١/٢٨).

وعليهِمى وعليهِمْ بكسر الهاء وسكون الميم، وهىقراءة الحسن البصرى، وعمرو بن فائد. انظر:=

يعنى النبيين الذين أنعم الله عليهم بالنبوة، كقوله سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ [مريم: ٥٨]، ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ، يعنى دلنا على دين غير اليهود الذين غضب الله عليهم، فجعل منهم القردة والخنازير، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [آية: ٧]، يقول: ولا دين المشركين، يعنى النصارى.

قال: حدثنا عبيد الله، قال: حدثنى أبى، عن الهذيل، عن مقاتل، عن مرثد، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: قسمت هذه السورة بينى وبين عبدى نصفين، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، يقول الله عز وجل: شكرنى عبدى، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ، يقول الله: مدحنى عبدى، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ، يقول الله: أثنى علىَّ عبدى، ولعبدى بقية السورة، وإذا قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، يقول الله: هذه لعبدى إياى يستعين، وإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ، يقول الله: فهذه لعبدى، وإذا قال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ، يقول الله: فهذه لعبدى، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ، فهذه لعبدى» (١).

قال: حدثنا عبيد الله، قال: حدثنى أبى، قال: حدثنا الهذيل، عن مقاتل، قال: إذا قرأ أحدكم هذه السورة فبلغ خاتمتها، فقال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ، فليقل: آمين، فإن الملائكة تؤمن، فإن وافق تأمين الناس، غفر للقوم ما تقدم من ذنوبهم.

=(إعراب القرآن للنحاس ١/١٢٤، البحر المحيط لأبى حيان ١/٢٦، إعراب القرآن للعكبرى ١/٥١، مجمع البيان للطبرسى ١/٢٨).

وعليهمُو بكسر الهاء وواو بعد الميم قراءة ابن كثير، والأعرج، وقالون. انظر: (السبعة فى القراءات لابن مجاهد ١٠٨، غيث النفع للصفاقسى ٦٣، البحر المحيط ١/٢٦، الحجة لأبى زرعة ٨٠، شرح الكافية للرضى ٢/١٢).

وعليهِمُ مكسورة الهاء مضمومة الميم من غير واو وهى قراءة الأعرج. انظر: (مجمع البيان فى تفسير القرآن للطبرسى ١/٢٨، إعراب القرآن للعكبرى ١/٦١، البحر المحيط لأبى حيان ١/٢٧، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١/١٤٩)..

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (١/٦) وعزاه لمالك فى الموطأ، وسفيان بن عيينة فى تفسيره، وأبو عبيد فى فضائله، وابن أبى شيبة، وأحمد فى مسنده، والبخارى فى جزء القراءة، ومسلم فى صحيحه وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن جرير وابن الأنبارى فى المصاحف وابن حبان والدارقطنى والبيهقى فى السنن عن أبى هريرة.

قال: حدثنا عبيد الله، قال: حدثنى أبى، قال: حدثنى هذيل، عن وكيع، عن منصور، عن مجاهد، قال: لما نزلت فاتحة الكتاب رنَّ إبليس.

قال: حدثنا عبيد الله، قال: حدثنى أبى، عن صالح، عن وكيع، عن سفيان الثورى، عن السدى، عن عبد خير، عن على، رضى الله عنه، فى قوله عز وجل: ﴿**سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي**﴾ [الحجر: ٨٧]، قال: هى فاتحة الكتاب.

* * *

سُورَةُ البَقَرَةِ

سورة البقرة مدنية، وهى مائتان وثمانون آية وعشر وست آيات كوفية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾

﴿الٓمٓ﴾ (١) [آية: ١] ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، وذلك أن كعب بن الأشرف، وكعب بن أسيد، لما دعاهما النبى ﷺ إلى الإسلام، قالا: ما أنزل الله كتابًا من بعد موسى، تكذيبًا به، فأنزل الله عز وجل فى قولهما: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، بمعنى هذا الكتاب الذى كفرت به اليهود، ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾، يعنى لا شك فيه أنه من الله جاء، وهو أنزله على محمد ﷺ، ثم قال: هذا القرآن ﴿هُدٗى﴾ من الضلالة ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [آية: ٢] من الشرك.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

ثم نعتهم، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، يعنى يؤمنون بالقرآن أنه من الله تعالى جاء، وهو أنزله على محمد ﷺ، فيحلون حلاله ويحرمون حرامه، ويعملون بما فيه، ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المكتوبة الخمس، يعنى يقيمون ركوعها وسجودها فى مواقيتها، ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ من الأموال ﴿يُنفِقُونَ﴾ [آية: ٣]، يعنى الزكاة المفروضة نظيرها فى لقمان، فهاتان الآيتان نزلتا فى مؤمنى أصحاب النبى ﷺ والمهاجرين.

---

(١) أورد السيوطى فى الدر المنثور فى تفسير هذه الأحرف آثار منها: ما أخرج وكيع وعبد بن حميد عن أبى عبد الرحمن السلمى أنه كان يعد ﴿الم﴾ آية ﴿وحم﴾ آية.

وأخرج البخارى فى تاريخه والترمذى وصححه وابن الضريس ومحمد بن نصر وابن الأنبارى فى المصاحف والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو ذر الهروى فى فضائله والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشرة أمثالها. لا أقول ﴿ألم﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

ثم ذكر مؤمنى أهل التوراة، عبد الله بن سلام وأصحابه، منهم: أسيد بن زيد، وأسد بن كعب، وسلام بن قيس، وثعلبة بن عمر، وابن يامين، واسمه سلام، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾، يعنى يصدقون ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد من القرآن أنه من الله نزل، ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ على الأنبياء، يعنى التوراة والإنجيل والزبور، ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [آية: ٤]، يعنى يصدقون بالبعث الذى فيه جزاء الأعمال بأنه كائن، ثم جمعهم جميعًا، فقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آية: ٥].

فلما سمع أبو ياسر بن أخطب اليهودى بهؤلاء الآيات، قال لأخيه جدى بن أخطب: لقد سمعت من محمد كلمات أنزلهن الله على موسى بن عمران، فقال جدى لأخيه: لا تعجل حتى تتثبت فى أمره، فعمد أبو ياسر وجدى ابنا أخطب، وكعب بن الأشرف، وكعب بن أسيد، ومالك بن الضيف، وحيى بن أخطب، وسعيد بن عمرو الشاعر، وأبو لبابة بن عمرو، ورؤساء اليهود، فأتوا النبى ﷺ، فقال جدى للنبى ﷺ: يا أبا القاسم، أخبرنى أبو ياسر بكلمات تقولهن آنفًا، فقرأهن النبى ﷺ، فقال جدى: صدقتم، أما ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾، فنحن هم، وأما ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ فهو كتابك، ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، فهو كتابنا، ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾، فأنتم هم قد آمنتم بما أنزل إليكم وإلينا، وآمنتم بالجنة والنار، فآيتان فينا وآيتان فيكم.

ثم قالوا للنبى ﷺ: ننشدك بالله أنها نزلت عليك من السماء، فقال النبى ﷺ: «أشهد بالله أنها نزلت علىَّ من السماء»، فذلك قوله سبحانه فى يونس: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى﴾ [يونس: ٥٣]، يعنى ويستخبرونك أحق هو؟ قل: ﴿إِى وَرَبِّى﴾، ويعنى بلى وربى إنه لحق. فقال جدى: لئن كنت صادقًا، فإنكم تملكون إحدى وسبعين سنة، ولقد بعث الله عز وجل فى بنى إسرائيل ألف نبى كلهم يخبرون عن أمتك و لم يخبرونا كم تملكون حتى أخبرتنا أنت الأن، ثم قال جدى لليهود: كيف ندخل فى دين رجل منتهى ملك أمته إحدى وسبعون سنة، فقال عمر بن الخطاب، رضوان الله عليه: وما يدريك أنها إحدى وسبعون سنة؟ فقال جدى: أما ألف

فى الحساب فواحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون سنة، فضحك رسول الله ﷺ، فقال جدى: هل غير هذا؟ فقال النبى ﷺ: «نعم، ﴿المص كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ » [الأعراف: ١، ٢].

فقال جدى: هذه أكبر من الأولى، ولئن كنت صادقًا، فإنكم تملكون مائتى سنة واثنتين وثلاثين سنة، ثم قال: هل غير هذا؟ فقال النبى ﷺ: «﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ » [هود: ١]، فقال جدى: هذه أكبر من الأولى والثانية، وقد حكم وفصل، ولئن كنت صادقًا، فإنكم تملكون أربعمائة سنة وثلاثًا وستين سنة، فاتق الله ولا تقولن إلا حقًا، فهل غير هذا؟ فقال النبى ﷺ: «﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ » [الرعد: ١]، فقال جدى: لئن كنت صادقًا، فإنكم تملكون سبعمائة سنة وأربعًا وثلاثين سنة، ثم إن جدى قال: الأن لا نؤمن بما تقول، ولقد خلطت علينا، فما ندرى بأى قولك نأخذ، وأيما أنزل عليك نتبع، ولقد لبست علينا حتى شككنا فى قولك الأول، ولولا ذلك لاتبعناك.

قال أبو ياسر: أما أنا فأشهد أن ما أنزل على أنبيائنا حق، وأنهم قد بينوا لنا ملك هذه الأمة، فإن كان محمد صادقًا فيما يقول، ليجمعن له هذه السنون كلها، ثم نهضوا من عنده، فقالوا: كفرنا بقليله وكثيره، فقال جدى لعبد الله بن سلام وأصحابه: أما تعرفون الباطل فيما خلط عليكم؟ فقالوا: بلى نعرف الحق فيما يقول، فأنزل الله عز وجل فى كفار اليهود بالقرآن: ﴿الم اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ﴾ الذى لا يموت، ﴿الْقَيُّومُ﴾ ، يعنى القائم على كل شىء، ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يا محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾ لم ينزل باطلاً، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ، يقول سبحانه: قرآن محمد يصدق الكتب التى كانت قبله، ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ ، يعنى لبنى إسرائيل من الضلالة، ثم قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ١ - ٤]، يعنى قرآن محمد بعد التوراة والإنجيل، يعنى بالفرقان المخرج من الشبهات والضلالة، نظيرها فى الأنبياء، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، يعنى المخرج. وفى البقرة: ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ﴾ ، اليهود كفروا بالقرآن، يعنى هؤلاء النفر المسلمين وأصحابهم، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ﴾ فى ملكه وسلطانه، ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤] من أهل معصيته.

وأنزلت أيضًا فى اليهود فى هؤلاء النفر وما يحسبون من المتشابه، ﴿هُوَ الَّذِىَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

فأما المحكمات، فالآيات الثلاث اللاتى فى الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، إلى قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣]، فهن محكمات و لم ينسخهن شىء من الكتاب، وإنما سمين أم الكتاب؛ لأن تحريم هؤلاء الآيات فى كل كتاب أنزله الله عز وجل.

﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، يعنى: ﴿آلم﴾، ﴿آلمص﴾، ﴿الر﴾، ﴿المر﴾، شبهوا على هؤلاء النفر من اليهود كم تملك هذه الأمة من السنين، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾، يعنى ميل عن الهدى، وهم هؤلاء اليهود، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ﴾، يعنى الكفر، ﴿وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ﴾، يعنى منتهى كم يملكون. يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ﴾، يعنى كم تملك هذه الأمة من السنين، ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ﴾، يعنى عبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، يعنى بالقرآن كله، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧] يعنى من كان له لب أو عقل.

ثم قال ابن صلام وأصحابه: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ كما أزغت قلوب اليهود ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلى الإسلام، ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

فآيتان من أول هذه السورة نزلتا فى أصحاب النبى ﷺ المهاجرين والأنصار، والآيتان اللتان تليانهما نزلتا فى مشركى العرب، وثلاث عشرة آية فى المنافقين من أهل التوراة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [(١)] [آية: ٦]،

---

(١) قرئ «أَنذَرْتهم»، بهمزة واحدة من غير مدّ، وهى قراءة ابن كثير، والزهرى، وابن محيصن. انظر: (الكشاف ١/٢٦، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى، تفسير الفخر الرازى ١/١٧٨، الحجة لأبى زرعة ٨٦، الأشباه والنظائر ١/٤١، حاشية الخضرى ٢/٦٣).

يعنى لا يصدقون، ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، يعنى طبع الله على قلوبهم، فهم لا يعقلون الهدى، ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾، يعنى آذانهم، فلا يسمعون الهدى، ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾، يعنى غطاء فلا يبصرون الهدى، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آية: ٧]، يعنى وافر لا انقطاع له.

نزلت هاتان الآيتان فى مشركى العرب، منهم: شيبة وعتبة ابنا ربيعة، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، اسمه عمرو، وعبد الله بن أبى أمية، وأمية بن خلف، وعمرو بن وهب، والعاص بن وائل، والحارث بن عمرو، والنضر بن الحارث، وعدى بن مطعم بن عدى، وعامر بن خالد، أبو البحترى بن هشام.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

ثم رجع إلى المنافقين، فقال عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، يعنى صدقنا بالله بأنه واحد لا شريك له، وصدقنا بالبعث الذى فيه جزاء الأعمال بأنه كائن، فكذبهم الله عز وجل، فقال: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [آية: ٨]، يعنى بمصدقين بالتوحيد ولا بالبعث الذى فيه جزاء الأعمال.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ (١) حين أظهروا الإيمان بمحمد، وأسروا التكذيب، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آية: ٩]، نزلت فى منافقى أهل الكتاب اليهود، منهم: عبد الله بن أبى بن سلول، وجد بن قيس، والحارث بن عمرو، ومغيث بن قشير، وعمرو بن زيد، فخدهم الله فى الآخرة حين يقول فى سورة الحديث: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]، فقال لهم استهزاء بهم كما استهزؤوا فى الدنيا بالمؤمنين حين قالوا: آمنا وليسوا بمؤمنين، وذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، أيضًا على الصراط حين يقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾.

---

(١) قراءة أبى طالوت عبد السلام بن شدّاد، والجارُود بن أبى سَبْرة «وما يُخْدَعُونَ إلا أَنْفُسَهُمْ»، بضم الياءِ وفتح الدال، انظر: (إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٠، البحر المحيط لأبى حيان ١/ ٥٧، الكشاف للزمخشرى ١/ ٣٢، الإنصاف (بحاشية الكشاف) لابن المنير الإسكندرى ١/ ٣٢، الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٩٦، تفسير الفخر الرازى ١/ ١٩٢).

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾(١)، يعنى الشك بالله وبمحمد، نظيرها فى سورة محمد: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [محمد: ٢٩] يعنى الشك. ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾، يعنى شكًا فى قلوبهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، يعنى وجيع فى الآخرة، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [آية: ١٠] لقولهم: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، وذلك أن عبد الله بن أبى المنافق قال لأصحابه: انظروا إلىَّ وإلى ما أصنع، فتعلموا منى وانظروا دفعى فى هؤلاء القوم كيف أدفعهم عن نفسى وعنكم، فقال أصحابه: أنت سيدنا ومعلمنا، ولولا أنت لم نستطع أن نجتمع مع هؤلاء، فقال عبد الله بن أبىٍّ لأبى بكر الصديق وأخذ بيده: مرحبًا بسيد بنى تميم بن مرة، ثانى اثنين، وصاحبه فى الغار، وصفيه من أمته، الباذل نفسه وماله.

ثم أخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: مرحبًا بسيد بنى عدى بن كعب، القوى فى أمر الله، الباذل نفسه وماله، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب، فقال: مرحبًا بسيد بنى هاشم، غير رجل واحد اختصه الله بالنبوة لما علم من صدق نيته ويقينه، فقال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: ويحك يا ابن أبى، اتق الله ولا تنافق، وأصلح ولا تفسد، فإن المنافق شر خليقة الله، وأخبثهم خبثًا، وأكثرهم غشًا، فقال عبد الله بن أبى بن سلول: يا عمر مهلاً، فوالله لقد آمنت كإيمانكم، وشهدت كشهادتكم، فافترقوا على ذلك.

فانطلق أبو بكر وعمر وعلى، رحمة الله عليهم، إلى رسول الله ﷺ، فأخبروه بالذى قاله عبد الله، فأنزل الله عز وجل على نبيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، يعنى لا تعملوا فى الأرض بالمعاصى، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [آية: ١١]، يعنى مطيعين.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

---

(١) قال ابن دريد عن أبى حاتم، عن الأصمعى، عن أبى عمرو: «فى قُلُوبِهِم مَرْض» ساكنة. انظر: (الكشاف للزمخشرى ١/٣٢، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١/١٩٧، البحر المحيط لأبى حيان ١/٥٨، اللسان مادة «مرض»، جمهرة اللغة لابن دريد مادة «رضم»).

يقول الله سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾، يعنى العاصين، ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [آية: ١٢] بأنهم مفسدون، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ نزلت فى منذر بن معاذ، وأبى لبابة، ومعاذ بن جبل، وأسيد، قالوا لليهود: صدقوا بمحمد إنه نبى، كما صدق به عبد الله بن سلام وأصحابه، فقالت اليهود: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ﴾، يعنى نصدق، ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، يعنى الجهال، يعنون عبد الله بن سلام وأصحابه، يقول الله عز وجل ردًا عليهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [آية: ١٣] بأنهم السفهاء.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

ثم أخبر عنهم، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، يعنى صدقوا من أصحاب النبى ﷺ، ﴿قَالُوٓا۟﴾ هم: ﴿ءَامَنَّا﴾ صدقنا بمحمد، ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾، يعنى رؤساء اليهود: كعب بن الأشرف وأصحابه، ﴿قَالُوٓا۟﴾ لهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ على دينكم، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [آية: ١٤] بمحمد وأصحابه، فقال الله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ فى الآخرة إذا ضرب بينهم وبين المؤمنين بسور له باب على الصراط، فيبقون فى الظلمة حتى يقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]، فهذا من الاستهزاء بهم، ثم قال سبحانه: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ ويلجهم ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [آية: ١٥]، يعنى فى ضلالتهم يترددون.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

ثم نعتهم، فقال سبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾(١)، وذلك أن اليهود وجدوا نعت محمد النبى ﷺ فى التوراة قبل أن يُبعث، فآمنوا به وظنوا أنه من ولد إسحاق، عليه السلام، فلما بُعث محمد ﷺ من العرب من ولد إسماعيل، عليه

(١) قراءة يحيى بن يَعْمَر وابن أبى إسحاق، وأبى السَّمال: «اشتروا الضَّلالة». انظر: (الخصائص لابن جنى ٢/٣٣٧، ٣/١٣٢، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١/٢١٠، مجمع البيان للطبرسى ١/٥٢، معانى القرآن للأخفش ١/٤٥ التبيان فى تفسير القرآن للطوسى ١/٨٢، إعراب القرآن للنحاس ١/١٤٢، البحر المحيط لأبى حيان ١/٧١، إعراب القرآن للعكبرى ١/١٢، الأشباه والنظائر للسيوطى ١/١٧٠، جمع الجوامع للسيوطى ١/١٨٢).

السلام، كفروا به حسدًا، واشتروا الضلالة بالهدى، يقول: باعوا الهدى الذى كانوا فيه من الإيمان بمحمد ﷺ قبل أن يُبعث، بالضلالة التى دخلوا فيها بعدما بُعث من تكذيبهم بمحمد ﷺ، فبئس التجارة، فذلك قوله سبحانه: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [آية: ١٦] من الضلالة.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾

ثم ضرب الله للمنافقين مثلاً، فقال عز وجل: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ طفئت ناره، يقول الله عز وجل: مثل المنافق إذا تكلم بالإيمان كان له نور بمنزلة المستوقد نارًا يمشى بضوئها ما دامت ناره تتقد، فإذا ترك الإيمان كان فى ظلمة كظلمة من طفئت ناره، فقام لا يهتدى ولا يبصر، فذلك قوله سبحانه: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، يعنى بإيمانهم، نظيرها فى سورة النور: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، يعنى به الإيمان، وقال سبحانه فى الأنعام: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، يعنى يهتدى به الذين تكلموا به، ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ﴾، يعنى الشرك، ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [آية: ١٧] الهدى.

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

ثم نعتهم، فقال سبحانه: ﴿صُمٌّۢ﴾ لا يسمعون، يعنى لا يعقلون، ﴿بُكْمٌ﴾ خرس لا يتكلمون بالهدى، ﴿عُمْىٌ﴾ فهم لا يبصرون الهدى حين ذهب الله بنورهم، يعنى بإيمانهم، ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [آية: ١٨] عن الضلالة إلى الهدى، ثم ضرب للمنافقين مثلاً، فقال سبحانه: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، يعنى المطر، ﴿فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ مثل المطر مثل القرآن، كما أن المطر حياة الناس، فكذلك القرآن حياة لمن آمن به، ومثل الظلمات، يعنى الكافر بالقرآن، يعنى الضلالة التى هم فيها، ومثل الرعد ما خوفوا به من الوعيد فى القرآن، ومثل البرق الذى فى المطر مثل الإيمان، وهو النور الذى فى القرآن، ﴿يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾، يقول: مثل المنافق إذا سمع القرآن، فصهم أذنيه كراهية للقرآن، كمثل الذى جعل أصبعيه فى أذنيه من شدة الصواعق، ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾، يعنى مخافة الموت، يقول: كما كره الموت من الصاعقة، فكذلك

يكره الكافر القرآن، فالموت خير له من الكفر بالله عز وجل والقرآن، ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آية: ١٩]، يعنى أحاطه علمه بالكافرين.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

ثم قال سبحانه: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾ الذى فى المطر ﴿يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾[1]، يعنى يذهب بأبصارهم من شدة نوره، يقول سبحانه: مثل الإيمان إذا تكلم به المنافق مثل نور البرق الذى يكاد أن يذهب بأبصارهم، ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ البرق ﴿مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾، يقول: كلما تكلموا بالإيمان مضوا فيه، يقول: ويضيء لهم نورًا يهتدون به، ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ البرق، أى ذهب ضوءه، ﴿قَامُوا۟﴾ فى ظلمة لا يبصرون الهدى، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ فلا يسمعون ﴿وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ فلا يرون أبدًا عقوبة لهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آية: ٢٠] من ذلك وغيره.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾، يعنى المنافقين واليهود وحدوا ربكم، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ ولم تكونوا شيئًا، ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الأمم الخالية ﴿لَعَلَّكُمْ﴾، يعنى لكى ﴿تَتَّقُونَ﴾ [آية: ٢١] الشرك وتوحدوا الله عز وجل إذا تفكرتم فى خلقكم وخلق الذين من قبلكم، ثم دل على نفسه بصنعه ليوحدوه وذكرهم النعم، فقال سبحانه: اعبدوا ربكم ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾، يعنى بساطًا، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾، يعنى سقفًا، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، يعنى المطر، ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾، يقول: فأخرج بالمطر من الأرض أنواعًا ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، يقول: لا تجعلوا مع الله شركاء، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٢٢] أن هذا الذى ذكر كله من صنعه، فكيف تعبدون غيره؟.

---

(١) عن ابن مجاهد قرئ «يَخَطِّف» بنصب الياءِ والخاءِ والتشديد، وهى قراءة الحسن البصرى، وأبى رجاء، ويونس، ومجاهد. انظر: (معانى القرآن للأخفش ١/٥٠، إعراب القرآن للعكبرى ١/١٣، البحر المحيط لأبى حيان ١/٩٠، إعراب القرآن للنحاس ١/١٤٥، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١/٢٢٣، الكشاف للزمخشرى ١/٤٢، لسان العرب مادة «خطف» ٩/٧٥).

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)﴾

قالت اليهود، منهم: رفاعة بن زيد، وزيد بن عمرو: ما يشبه هذا الكلام الوحى، وإنا لفى شك منه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾، يعنى فى شك، ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ من القرآن ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، يعنى محمدًا ﷺ، ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن﴾ الله ﴿مِّثْلِهِ﴾، يعنى مثل هذا القرآن، ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم﴾، يقول: واستعينوا بالآلهة التى تعبدون ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آية: ٢٣] بأن محمدًا ﷺ يقول من تلقاء نفسه.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾

ثم يقول سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾، يعنى تجيئوا به، فيها تقديمها، ولن تفعلوا ذلك، فإن تفعلوا فأتوا بسورة من مثل هذا القرآن، فلم يجيبوه وسكتوا، يقول الله سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾(١)، وتلك الحجارة تحت الأرض الثانية مثل الكبريت تجعل فى أعناقهم إذا اشتعلت فيها النار احترقت عامة اليوم، فكان وهجها على وجوههم، وذلك قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، يعنى شدة العذاب ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٢٤].

ثم قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آية: ٢٤] بالتوحيد يخوفهم الله عز وجل، فلم يخافوا، فقالوا من تكذيبهم: هذه النار وقودها الناس، فما بال الحجارة، فرق المؤمنون عند التخويف.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)﴾

فأنزل الله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، يعنى البساتين، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ﴾ كلما أطعموا منها

---

(١) انظر: (الكشاف للزمخشرى ١/٥٠، البحر المحيط ١/١٠٧، إعراب القرآن للنحاس ١/١٥١، إعراب القرآن ١/١٥، الجامع لأحكام القرآن ١/٢٣٦، تفسير الفخر الرازى ١/٢٢٩).

من الجنة من ثمرة، ﴿رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾، وذلك أن لهم فى الجنة رزقهم فيها بكرة وعشيًا، فإذا أتوا بالفاكهة فى صحاف الدر والياقوت فى مقدار بكرة الدنيا وأتوا بالفاكهة غيرها على مقدار عشاء الدنيا، فإذا نظروا إليه متشابه الألوان، قالوا: هذا الذى رزقنا من قبل، يعنى أطعمنا بكرة، فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير الذى أتوا به بكرة، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾، يعنى يشبه بعضه بعضًا فى الألوان، مختلفًا فى الطعم، ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ خلقن فى الجنة مع شجرها وحللها، مطهرة من الحيض والغائط والبول والأقذار كلها، ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آية: ٢٥] لا يموتون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾، وذلك أن الله عز وجل ذكر العنكبوت والذباب فى القرآن، فضحكت اليهود، وقالت: ما يشبه هذا من الأمثال، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾، يعنى أن الله عز وجل لا يمنعه الحياء أن يصف للخلق مثلاً، ﴿مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (١)، يعنى يصدقون بالقرآن، ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾، أى هذا المثل هو ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالقرآن، يعنى اليهود، ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ الذى ذكر ﴿مَثَلًا﴾، إنما يقوله محمد من تلقاء نفسه وليس من الله، فأنزل الله عز وجل: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ﴾، أى يضل الله بهذا المثل ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس، يعنى اليهود، ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ﴾، أى بهذا المثل ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس، يعنى المؤمنين، ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ﴾، أى

---

(١) قراءة رُؤبة: «مَثَلا ما بَعُوضَةٌ»، بالرفع. وهى قراءة الضحاك، وإبراهيم بن أبى عبلة، وقطرب، ومالك بن دينار، وابن السماك. انظر: (الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١/٢٤٣، البحر المحيط لأبى حيان ١/١٢٣، إعراب القرآن للنحاس ١/١٥٣، إعراب القرآن للعكبرى ١/١٦، تفسير الفخر الرازى ١/٢٣٨، شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك للأشمونى ١/١٦٨ حاشية الخضرى ١/٨٠).

بهذا المثل ﴿إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [آية: ٢٦]، يعني اليهود.

ثم أخبر فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾، فنقضوا العهد الأول، ونقضوا ما أخذ عليهم في التوراة أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأن يؤمنوا بالنبي ﷺ، وكفروا بعيسى وبمحمد، عليهما السلام، وآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض، ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، يعني ويعملون فيها بالمعاصي، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [آية: ٢٧] في العقوبة، يعني اليهود، ونظيرها في الرعد: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من إيمان بمحمد ﷺ، ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ بأنه واحد لا شريك له، ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾، يعني نطفًا ﴿فَأَحْيَٰكُمْ ۖ﴾، يعني فخلقكم، وذلك قوله سبحانه: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم: ١٩]، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند إحيائكم، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ من بعد الموت يوم القيامة، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [آية: ٢٨]، فيجزيكم بأعمالكم، فأما اليهود، فعرفوا وسكتوا، وأما المشركون، فقالوا: أئذا كنا ترابًا، من يقدر أن يبعثنا من بعد الموت؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من شيء ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ فبدأ بخلقهن، وخلق الأرض ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾، يعني فخلقهن ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ﴾، فهذا أعظم من خلق الإنسان، وذلك قوله سبحانه: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من الخلق ﴿عَلِيمٌ﴾ [آية: ٢٩] بالبعث وغيره.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَإِذْ﴾، يعني وقد ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾، وذلك

أن الله عز وجل خلق الملائكة والجن قبل خلق الشياطين والإنس، وهو آدم، عليه السلام، فجعلهم سكان الأرض، وجعل الملائكة سكان السماوات، فوقع فى الجن الفتن والحسد، فاقتتلوا، فبعث الله جندًا من أهل سماء الدنيا، يقال لهم: الجن، إبليس عدو الله منهم، خلقوا جميعًا من نار، وهم خزان الجنة رأسهم إبليس، فهبطوا إلى الأرض، فلم يكلفوا من العبادة فى الأرض ما كلفوا فى السماء، فأحبوا القيام فى الأرض، فأوحى الله عز وجل إليهم: إنى جاعل فى الأرض خليفة سواكم ورافعكم إلىَّ، فكرهوا ذلك؛ لأنهم كانوا أهون الملائكة أعمالاً، ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾، يقول: أتجعل فى الأرض ﴿مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾، يعنى من يعمل فيها بالمعاصى ﴿وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ بغير حق كفعل الجن، ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾، يقول: نحن نذكرك بأمرك، كقوله سبحانه: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ [الرعد: ١٣]، يعنى يذكره بأمره، ونقدس لك ونصلى لك ونعظم أمرك.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [آية: ٣٠] إن فى علمى أنكم سكان السماء، ويكون آدم وذريته سكان الأرض، ويكون منهم من يسبح بحمدى ويعبدنى، فخلق آدم، عليه السلام، من طين أحمر وأبيض من السبخة والعذبة، فمن ثم نسله أبيض وأحمر وأسود مؤمن وكافر، فحسد إبليس تلك الصورة، فقال للملائكة الذين هم معه: أرأيتم هذا الذى لم تروا شيئًا من الخلق على خلقته، إن فضل علىَّ ماذا تصنعون؟ قالوا: نسمع ونطيع لأمر الله، وأسر عدو الله إبليس فى نفسه، لئن فضل آدم عليه لا يطيعه وليستزنه، فترك آدم طينًا أربعين سنة مصورًا، فجعل إبليس يدخل من دبره ويخرج من فيه، ويقول: أنا نار وهذا طين أجوف، والنار تغلب الطين ولأغلبنه، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]، يعنى قوله يومئذ: لأغلبنه، وقوله: لأحتنكن، يعنى لأحتوين على ذريته إلا قليلاً، فقال للروح: ادخلى هذا الجسد، فقالت: أى رب، أين تدخلنى هذا الجسد المظلم؟ فقال الله تبارك وتعالى: ادخليه كرهًا، فدخلته كرهًا، وهى لا تخرج منه إلا كرهًا، ثم نفخ فيه الروح من قبل رأسه، فترددت الروح فيه حتى بلغت نصف جسده موضع السرة، فجعل للقعود، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: ١١]، فجعلت الروح تتردد فيه حتى بلغت أصابع الرجلين، فأرادت أن تخرج منها، فلم تجد منفذًا، فرجعت إلى الرأس، فخرجت من المنخرين، فعطس عند ذلك

لخروجها من منخريه، فقال: الحمد لله، فكان أول كلامه، فرد ربه عـز وجـل: يرحمـك الله، لهذا خلقتك، تسبح بحمدى وتقدس لى، فسبقت رحمته لآدم عليه السلام.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾(١)، ثـم إن الله تبـارك وتعـالى حشـر الطـير والـدواب وهوام الأرض كلها، فعلم آدم، عليه السلام، أسماءها، فقال: يا آدم، هـذا فـرس، وهـذا بغل، وهذا حمار، حتى سمى له كل دابة وكل طير باسمه، ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، ثم عرض أهل تلك الأسماء على الملائكة الذين هم فى الأرض، ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى﴾، يعنى أخـبرونى ﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، يعنـى دواب الأرض كلـها ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آيـة: ٣١] بأنى جاعل فى الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ قـالت الملائكـة: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آية: ٣٢].

قال: حدثنا عبيد الله، قال: حدثنى أبى، قال: حدثنا الهذيل، قال: قـال مقـاتل: قـال الله عز وجل لهم: كيف تدعون العلم فيما لم يخلق بعد ولم تـروه وأنتـم لا تعلمـون مـن ترون.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿قَالَ﴾ الله عـز وجـل لآدم: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾(٢)، يقـول: أخـبر الملائكـة

---

(١) قراءة يزيد البربرى: «وعُلِّمَ آدمُ الأسماءَ كُلَّها»، وقراءة الحسن البصرى، واليمانى. انظر: (البحر المحيط لأبى حيان ١/١٤٥، الكشاف للزمخشرى ١/٦٢، إعراب القرآن للعكبرى، إتحاف فضلاء البشر للبنا ١٣٢).

(٢) قراءة الحسـن رحمـه الله: «أنْبِـهِمْ»، وقـراءة ابـن كثـير، والأعـرج، والقـواس. انظـر: (الكشـاف للزمخشرى ١/٦٢، البحر المحيط لأبى حيان ١/١٤٩، إعراب القرآن للعكبرى ١/١٨).

وروى عنه: «أنبيهُمُ»، قراءة حمزة، والحسن. انظر: (غيث النفع للصفاقسى ١٠٦، إتحاف فضلاء البشر للبنا ١٣٣).

=

بأسماء دواب الأرض والطير كلها، ففعل، قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ﴾ ما يكون في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾، يعني ما أظهرت الملائكة لإبليس من السمع والطاعة للرب ﴿وَ﴾ أعلم ﴿مَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [آية: ٣٣]، يعني إبليس وحده ما كان أسر إبليس في نفسه من المعصية لله عز وجل في السجود لآدم.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾

ثم قال: ﴿وَإِذۡ﴾، يعني وقد ﴿قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الذين خلقوا من مارج من نار السموم ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ وحده، فاستثنى لم يسجد ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾، يعني وتكبر عن السجود لآدم، وإنما أمره الله عز وجل بالسجود لآدم لما علم الله منه، فأحب أن يظهر ذلك للملائكة ما كان أسر في نفسه، قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]، ﴿وَكَانَ﴾ إبليس ﴿مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آية: ٣٤] الذين أوجب الله عز وجل لهم الشقاء في علمه، فمن ثم لم يسجد.

﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾

﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، يعني حواء خلقا يوم الجمعة، ﴿وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ﴾، يعني ما ﴿شِئۡتُمَا﴾، وإذا شئتما من حيث شئتما، ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، يعني السنبلة، وهي الحنطة، ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آية: ٣٥] لأنفسكما.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾، يقول سبحانه: فاستزلهما الشيطان عنها، يعني عن الطاعة، وهو إبليس، ﴿فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ من الخير في الجنة، ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ﴾ منها، يعني آدم وحواء وإبليس بوحي منه، فهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس

= وعن ابن عامر «أنبئْهِم» بهمز وكسر الهاء. انظر: (مجمع البيان للطبرسي ١/٧٨، السبعة في القراءات لابن مجاهد ١٥٣، البحر المحيط لأبي حيان ١/١٤٩).

=

بالبصرة، وهى الأيلة، وهبط آدم فى واد اسمه نوذ فى شعب يقال له: سرنديب، فاجتمع آدم وحواء بالمزدلفة، فمن ثم جمع لاجتماعهما بها، ثم قال: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، فإبليس لهما عدو، وهما إبليس عدو، ثم قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [آية: ٣٦]، يعنى بلاغًا إلى منتهى آجالكم الموت.

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾

وهبط إبليس قبل آدم، ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ بعدما هبط إلى الأرض يوم الجمعة، يعنى بالكلمات أن قال: رب، أكان هذا شيء كنت قدرته عليَّ قبل أن تخلقنى، فسبق لى به الكتاب أنى عامله، وسبقت لى منك الرحمة حين خلقتنى؟ قال: نعم يا آدم، قال: يا رب، خلقتنى بيدك، فسويتني ونفخت من روحك، فعطست فحمدتك، فدعوت لى برحمتك، فسبقت رحمتك إلىَّ غضبك؟ قال: نعم يا آدم، قال: أخرجتنى من الجنة، وأنزلتنى إلى الأرض يا رب، إن تبت وأصلحت ترجعنى إلى الجنة؟ قال الله عز وجل له: نعم يا آدم، فتاب آدم وحواء يوم الجمعة، فعند ذلك قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿فَتَابَ﴾ الله عز وجل ﴿عَلَيْهِ﴾ يوم الجمعة، ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [آية: ٣٧] لخلقه، ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾، يعنى من الجنة جميعًا، آدم، وحواء، وإبليس، فأوحى الله إليهم بعدما هبطوا، ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾، يعنى ذرية آدم، فإن يأتيكم يا ذرية آدم ﴿مِّنِّي هُدًى﴾، يعنى رسولاً وكتابًا فيه البيان، ثم أخبر بمستقر من اتبع الهدى فى الآخرة، قال سبحانه: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾، يعنى رسولى وكتابى، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آية: ٣٨] من الموت.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

ثم أخبر بمستقر من ترك الهدى، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ برسلى ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ القرآن ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آية: ٣٩] لا يموتون.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [(١)]، يعنى أجدادهم، فكانت النعمة حين أنجاهم من آل فرعون، وأهلك عدوهم، وحين فرق البحر لهم، وحين أنزل عليهم المن والسلوى، وحين ظلل عليهم الغمام بالنهار من حر الشمس، وجعل لهم عمودًا من نور يضىء لهم بالليل إذا لم يكن ضوء القمر، وفجر لهم اثنى عشر عينًا من الحجر، وأعطاهم التوراة فيها بيان كل شىء، فدلهم على صنعه ليوحدوه عز وجل.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ ، يعنى اليهود، وذلك أن الله عز وجل عهد إليهم فى التوراة أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وأن يؤمنوا بمحمد ﷺ وبالنبيين والكتاب، فأخبر الله عز وجل عنهم فى المائدة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي﴾ بمحمد ﷺ ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ ، يعنى ونصرتموهم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: ١٢]، فهذا الذى قال الله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ الذى عهدت إليكم فى التوراة، فإذا فعلتم ذلك ﴿أُوفِ﴾ لكم ﴿بِعَهْدِكُمْ﴾ ، يعنى المغفرة والجنة، فعاهدهم إن أوفوا له بما قال المغفرة والجنة، فكفروا بمحمد ﷺ، وبعيسى، عليه السلام، فذلك قوله سبحانه: ﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ١٢]، فهذا وفاء الرب عز وجل لهم، ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [آية: ٤٠]، يعنى وإياى فخافون فى محمد ﷺ، فمن كذب به فله النار.

﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾

ثم قال: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا﴾ نزلت فى كعب بن الأشرف وأصحابه رءوس اليهود، يقول: صدقوا بما أنزلت من القرآن على محمد مصدقًا ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يقول: محمد تصديقه معكم أنه نبى رسول، ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ ، يعنى محمدًا، فتتابع اليهود كلها على كفر به، فلما كفروا تتابعت اليهود كلها، أهل خيبر، وأهل فدك، وأهل قريظة وغيرهم على الكفر بمحمد ﷺ، ثم قال لرءوس اليهود: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ، وذلك أن رءوس اليهود كتموا أمر محمد ﷺ فى التوراة، وكتموا

---

(١) قراءة الحسن والزهرى وابن أبى إسحاق، وعيسى الثقفى والأعمش «إسْرايِيل» بلا همز. وقراءة حمزة، والأزرق، وأبى جعفر، والمطوعى عيسى بن عمر. انظر: (البحر المحيط لأبى حيان ١/١٧١، الجامع لأحكام القرآن ١/٣٣١، إتحاف فضلاء البشر ١٣٥).

أمره عن سفلة اليهود، وكانت للرؤساء منهم مأكلة فى كل عام من زرعهم وثمارهم، ولو تابعوا محمدًا ﷺ لحبست تلك المأكلة عنهم، فقال الله لهم: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، يعنى بكتمان بعث محمد ﷺ عرضًا قليلاً من الدنيا مما تصيبون من سفلة اليهود، ثم خوفهم ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [آية: ٤١] فى محمد، فمن كذب به فله النار.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ثم قال لليهود: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾، وذلك أن اليهود يقرون ببعض أمر محمد ويكتمون بعضًا ليصدقوا فى ذلك، فقال الله عز وجل: ولا تخلطوا الحق بالباطل، نظيرها فى آل عمران والأنعام: ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ [الأنعام: ٨٢]، يعنى ولم يخلطوا بشرك ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾، أى ولا تكتموا أمر محمد ﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٤٢] أن محمدًا نبى ونعته فى التوراة.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

وقال لليهود: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فى مواقيتها ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، يعنى وأعطوا الزكاة من أموالكم، ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آية: ٤٣]، يعنى اليهود صلوا مع المصلين، يعنى مع المؤمنين من أصحاب النبى محمد ﷺ.

﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾، وذلك أن اليهود قالوا لبعض أصحاب النبى ﷺ: إن محمدًا حق فاتبعوه ترشدوا، فقال الله عز وجل لليهود: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾، يعنى أصحاب محمد، ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾، يقول: وتتركون أنفسكم فلا تتبعوه، ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعنى التوراة فيها بيان أمر محمد ونعته، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آية: ٤٤] أنتم فتتبعونه.

ثم قال: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟﴾ على طلب الآخرة ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ على الفرائض، ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ الخمس حافظوا عليها فى مواقيتها، ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾، يعنى حين صرفت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة، فكبر ذلك على اليهود منهم: جدىّ بن أخطب،

وسعيد بن عمرو الشاعر وغيرهم، ثم استثنى، فقال: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [آية: ٤٥]، يعنى إلا على المتواضعين من المؤمنين، لم يكبر عليهم تحويل القبلة، ثم نعت الخاشعين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾، يعنى يعلمون يقينًا ﴿أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾، يعنى فى الآخرة، ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [آية: ٤٦] فيجزيهم بأعمالهم.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، يعنى اليهود بالمدينة، ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، يعنى أجدادكم، والنعمة عليهم حين أنجاهم من آل فرعون، فأهلك عدوهم، والخير الذى أنزل عليهم فى أرض التيه، وأعطاهم التوراة، ثم قال: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آية: ٤٧]، يعنى عالمى ذلك الزمان، يعنى أجدادهم من غير بنى إسرائيل.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)﴾

ثم خوفهم، فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ﴾، يقول: لا تغنى نفس كافرة ﴿عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ من المنفعة فى الآخرة، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾، يعنى من هذه النفس الكافرة، ﴿شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾، يعنى فداء، كفعل أهل الدنيا بعضهم من بعض، ثم قال: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [آية: ٤٨]، يقول: ولا هم يمنعون من العذاب.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)﴾

ثم ذكرهم النعم ليوحدوه، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم﴾، يعنى أنقذناكم ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، يعنى أهل مصر، ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، يعنى يعذبونكم شدة العذاب، يعنى ذبح الأبناء واستحياء النساء؛ لأن فرعون أمر بذبح البنين فى حجور أمهاتهم، ثم بين العذاب، فقال: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ فى حجور أمهاتهم، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، يعنى قتل البنين وترك البنات، قتل منهم فرعون ثمانية عشر طفلاً مخافة أن يكون فيهم مولود يكون هلاكه فى سببه، يقول الله عز وجل: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾، يعنى فيما يخبركم من قتل الأبناء وترك البنات ﴿بَلَاءٌ﴾، يعنى نقمة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [آية: ٤٩] فاذكروا فضله عليكم حين أنجاكم من آل فرعون.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ وذلك أنه فرق البحر يمينًا وشمالاً كالجبلين المتقابلين كل واحد منهما على الآخر، وبينهما كوى من طريق إلى طريق، ينظر كل سبط إلى الآخر ليكون آنس لهم، ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ من الغرق ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، يعنى أهل مصر، يعنى القبط ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آية: ٥٠] أجدادهم يعلمون أن ذلك حق، وكان ذلك من النعم.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ﴾، يعنى الميعاد ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، يعنى ثلاثين من ذى القعدة وعشر ليال من ذى الحجة، فكان الميعاد الجبل؛ ليعطى التوراة، وكان موسى، عليه السلام، أخبر بنى إسرائيل بمصر، فقال لهم: إذا خرجنا منها أتيناكم من الله عز وجل بكتاب يبين لكم فيه ما تأتون وما تتقون، فلما فارقهم موسى مع السبعين، واستخلف هارون أخاه عليهم، اتخذوا العجل، فذلك قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، يقول: من بعد انطلاق موسى إلى الجبل ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آية: ٥١]، وذلك أن موسى قطع البحر يوم العاشر من المحرم، فقال بنو إسرائيل: وعدتنا يا موسى أن تأتينا بكتاب من ربنا إلى شهر، فأتنا بما وعدتنا، فانطلق موسى وأخبرهم أنه يرجع إلى أربعين يومًا عن أمر ربه عز وجل، فلما سار موسى فدنا من الجبل، أمر السبعين أن يقيموا فى أصل الجبل، وصعد موسى الجبل، فكلم ربه تبارك اسمه، وأخذ الألواح فيها التوراة، فلما مضى عشرون يومًا، قالوا: أخلفنا موسى العهد، فعدوا عشرين يومًا وعشرين ليلة، فقالوا: هذا أربعون يومًا، فاتخذوا العجل، فأخبر الله عز وجل موسى بذلك على الجبل، فقال موسى لربه: من صنع لهم العجل؟ قال: السامرى صنعه لهم، قال موسى لربه: فمن نفخ فيه الروح؟ قال الرب عز وجل: أنا، فقال موسى: يا رب، السامرى سنع لهم العجل فأضلهم، وصنعت فيه الخوار، فأنت فتنت قومى، فمن ثم قال الله عز وجل: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]، يعنى الذين خلفهم مع هارون سوى السبعين حين أمرهم بعبادة العجل.

فلما نزل موسى من الجبل إلى السبعين، أخبرهم بما كان، ولم يخبرهم بأمر العجل،

فقال السبعون لموسى: نحن أصحابك جئنا معك و لم نخالفك فى أمر، ولنا عليك حق، فأرنا الله جهرة، يعنى معاينة، كما رأيته، فقال موسى: والله ما رأيته، ولقد أردته على ذلك فأبى، وتجلى للجبل فجعله دكًا، يعنى فصار دكًا، وكان أشد منى وأقوى، فقالوا: إنا لا نؤمن بك ولا نقبل ما جئت به حتى نريناه معاينة، فلما قالوا ذلك أخذتهم الصاعقة، يعنى الموت عقوبة، فذلك قوله سبحانه: ﴿**فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ**﴾ [البقرة: ٥٥]، يعنى الموت، نظيرها: ﴿**وَخَرَّ موسَى صَعِقًا**﴾ [الأعراف: ١٤٣]، يعنى ميتًا، وكقوله عز وجل: ﴿**فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ**﴾ [الزمر: ٦٨]، يعنى فمات ﴿**وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾، يعنى السبعين.

ثم أنعم الله عليهم فبعثهم، وذلك أنهم لما صعقوا قام موسى يبكى، وظن أنهم إنما صعقوا بخطيئة العجل، فقال عز وجل فى سورة الأعراف: ﴿**رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا**﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وقال: يا رب، ما أقول لبنى إسرائيل إذا رجعت إليهم وقد أهلكت أحبارهم، فبعثهم الله عز وجل لما وجد موسى من أمرهم، فذلك قوله سبحانه: ﴿**ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [آية: ٥٢]، يقول: لكى تشكروا ربكم فى هذه النعمة، فبعثوا يوم ماتوا، ثم انصرفوا مع موسى راجعين، فلما دنوا من العسكر على ساحل البحر، سمعوا اللغط حول العجل، فقالوا: هذا قتال فى المحلة، فقال موسى، عليه السلام: ليس بقتال، ولكنه صوت الفتنة، فلما دخلوا المعسكر رأى موسى ماذا يصنعون حول العجل، فغضب وألقى الألواح، فانكسر منها لوحان، فارتفع من اللوح بعض كلام الله عز وجل، فأمر بالسامرى فأخرج من محلة بنى إسرائيل، ثم عمد إلى العجل فبرده بالمبرد وأحرقه بالنار، ثم ذراه فى البحر، فذلك قوله: ﴿**لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا**﴾ [طه: ٩٧].

فقال موسى: إنكم ظلمتم، أى ضررتم، أنفسكم باتخاذكم العجل إلهًا من دون الله سبحانه وتعالى، فتوبوا إلى بارئكم، يعنى خالقكم، وندم القوم على صنيعهم، فذلك قوله سبحانه: ﴿**وَلَمَّا سُقِطَ فَى أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ**﴾، يعنى أشركوا بالله عز وجل، ﴿**قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف: ١٤٩]، فقالوا: كيف لنا بالتوبة يا موسى، قال: اقتلوا أنفسكم، يعنى يقتل بعضكم بعضًا، كقوله سبحانه فى النساء: ﴿**وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ**﴾، يقول: لا يقتل بعضكم بعضًا، ﴿**إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**﴾ [النساء: ٢٩]، يعنى ذلك القتل والتوبة خير لكم عند بارئكم، يعنى عند خالقكم.

قالوا: قد فعلنا، فلما أصبحوا أمر موسى، عليه السلام، البقية الاثنى عشر ألفًا الذين لم يعبدوا العجل أن يقتلوهم بالسيف والخناجر، فخرج من كل بنى أب على حدة من منازلهم، فقعدوا بأفنية بيوتهم، فقال بعضهم لبعض: هؤلاء إخوانكم أتوكم شاهرين السيوف، فاتقوا الله واصبروا، فلعنة الله على رجل حل جيوبه، أو قام من مجلسه، أو اتقى بيد أو رجل، أو حار إليهم طرفة عين، قالوا: آمين، فقتلوهم من لدن طلوع الشمس إلى انتصاف النهار يوم الجمعة، وأرسل الله عز وجل عليهم الظلمة حتى لا يعرف بعضهم بعضًا، فبلغت القتلى سبعين ألفًا، ثم أنزل الله عز وجل الرحمة، فلم يحد فيهم السلاح، فأخبر الله عز وجل موسى، عليه السلام، أنه قد نزلت الرحمة، فقال لهم: قد نزلت الرحمة، ثم أمر موسى المنادى فنادى: أن ارفعوا سيوفكم عن إخوانكم، فجعل الله عز وجل القتلى شهداء، وتاب الله على الأحياء، وعفى عن الذين صبروا للقتل، فلم يقتلوا، فمن مات قبل أن يأتيهم موسى، عليه السلام، على عبادة العجل دخل النار، ومن هرب من القتل لعنهم الله، فضربت عليهم الذلة والمسكنة، فذلك قوله: ﴿**سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [الأعراف: ١٥٢]، وذلك قوله سبحانه: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ**﴾ [الأعراف: ١٦٧].

فكان الرجل يأتى نادى قومه وهم جلوس، فيقتل من العشرة ثلاثة ويدع البقية، ويقتل الخمسة من العشرين، ومن كتب عليهم الشهادة ويبقى الذين لم يقض لهم أن يقتلوا، فذلك قوله عز وجل: ﴿**ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم**﴾، فلم نهلككم جميعًا ﴿**مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ**﴾، يعنى بعد العجل ﴿**لَعَلَّكُمْ**﴾، يعنى لكى ﴿**تَشْكُرُونَ**﴾ [البقرة: ٥٢] ربكم فى هذه النعم، يعنى العفو، فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم، وذلك قوله سبحانه فى الأعراف: ﴿**وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا**﴾، يعنى من بعد عبادة العجل ﴿**وَآمَنُواْ**﴾، يعنى وصدقوا بأن الله واحد لا شريك له، ﴿**إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الأعراف: ١٥٣] لذو تجاوز عنهم رحيم بهم عند التوبة.

﴿**وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾**﴾

﴿**وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ**﴾، يعنى التوراة، ﴿**وَٱلْفُرْقَانَ**﴾، يعنى النصر حين فرق بين الحق والباطل، ونصر موسى وأهلك فرعون، نظيرها فى الأنفال قوله سبحانه:

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾، يعنى يوم النصر، ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، فنصر الله عز وجل المؤمنين وهزم المشركين، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آية: ٥٣] من الضلالة بالتوراة، يعنى بالنور.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [آية: ٥٤]، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آية: ٥٥]، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آية: ٥٦].

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾، وذلك أن موسى، عليه السلام، قالت له بنو إسرائيل وهم فى التيه: كيف لنا بالأبنية، وقد نزلنا فى القفر، وخرجنا من العمران، من حر الشمس، فظلل الله عز وجل عليهم الغمام الأبيض يقيهم حر الشمس، ثم إنهم سألوا موسى، عليه السلام، الطعام، فأنزل الله عليهم طعام الجنة، وهو ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾، أما المن، فهو الترنجبين، فكان ينزل بالليل على شجرهم أبيض كالثلج، حلو مثل العسل، فيغدون عليه كل إنسان صاع لكل ليلة، فيغدون عليه فيأخذون ما يكفيهم ليومهم، ذلك لكل رجل صاع، ولا يرفعون منه فى غد، ويأخذون يوم الجمعة ليومين؛ لأن السبت كان عندهم لا يشخصون فيه ولا يعملون، كان هذا لهم فى التيه، وتنبت ثيابهم مع أولادهم، فأما الرجال، فكانت ثيابهم عليهم لا تبلى ولا تنخرق ولا تدنس.

وأما السلوى، فهو الطير، وذلك أن بنى إسرائيل سألوا موسى اللحم وهم فى التيه، فسأل موسى ربه عز وجل، فقال الله: لأطعمنهم أقل الطير لحمًا، فبعث الله سبحانه السماء، فأمطرت لهم السلوى وهى السمانا، وجمعتهم ريح الجنوب، وهى طير حمر تكون فى طريق مصر، فأمطرت قدر ميل فى عرض الأرض، وقدر رمح فى السماء

بعضه على بعض، فقال الله عز وجل لهم: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ﴾، يعني من حلال، كقوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٦]، يعني حلالاً طيبًا في غير مأثم، وإذا وجدوا الماء فهو حرام، فمن ثم قال: ﴿طَيِّبًا﴾، يعني حلالاً من ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من السلوى، ولا تطغوا فيه، يعني تعصوا الله في الرزق فيما رزقكم، ولا ترفعوا منه لغد، فرفعوا وقددوا مخافة أن ينفد، ولو لم يفعلوا لدام لهم ذلك، فقددوا منه ورفعوا فدود وتغير ما قددوا منه وما رفعوا فعصوا ربهم، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾، يعني وما ضرونا، يعني ما نقصونا من ملكنا بمعصيتهم شيئًا حين رفعوا وقددوا منه في غد، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آية: ٥٧]، يعني أنفسهم يضرون، نظيرها في الأعراف قوله سبحانه: ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٠] إلى آخر الآية.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، يعني إيلياء وهم يومئذ من وراء البحر، ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، يعني ما شئتم، وإذ شئتم، وحيث شئتم، ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، يعني باب إيلياء سجدًا، فدخلوا متحرفين على شق وجوههم، ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾، وذلك أن بني إسرائيل خرجوا مع يوشع بن نون بن اليشامع بن عميهوذ بن غيران بن شوناخ بن إفراييم بن يوسف، عليه السلام، من أرض التيه إلى العمران حيال أريحا، وكانوا أصابوا خطيئة، فأراد الله عز وجل أن يغفر لهم، وكانت الخطيئة أن موسى، عليه السلام، كان أمرهم أن يدخلوا أرض أريحا التي فيها الجبارون، فلهذا قال لهم: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾، يعني بحطة حط عنا خطايانا.

ثم قال: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آية: ٥٨] الذين لم يصيبوا خطيئة، فزادهم الله إحسانًا إلى إحسانهم، فلما دخلوا إلى الباب، فعل المحسنون ما أمروا به، وقال الآخرون: هطا سقماثا يعنون حنطة حمراء، قالوا: ذلك استهزاء وتبديلاً، لما أمروا به، فدخلوا مستقلين، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا﴾، يعني عذابًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، كقوله

فى سورة الأعراف: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ [الأعراف: ٧١]، يعنى عذابًا، ويقال: الطاعون، ويقال: الظلمة شبه النار، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [آية: ٥٩]، وأهلك منهم سبعون ألفًا فى يوم واحد عقوبة لقولهم: هطا سقماثا، فهذا القول ظلمهم.

﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾، وهم فى التيه، قالوا: من أين لنا شراب نشرب؟ فدعا موسى، عليه السلام، ربه أن يسقيهم، فأوحى الله عز وجل إلى موسى، عليه السلام: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، وكان الحجر خفيفًا مربعًا، فضربه، ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ﴾ من الحجر ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، فرووا بإذن الله عز وجل، وكانوا اثنى عشر سبطًا، لكل سبط من بنى إسرائيل عين تجرى على حدة، لا يخالطهم غيرهم، فذلك قوله سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، يعنى كل سبط مشربهم، يقول الله عز وجل: ﴿كُلُوا۟﴾ من المن والسلوى، ﴿وَٱشْرَبُوا۟﴾ من العيون، وهو ﴿مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ حلالاً طيبًا، فذلك قوله سبحانه: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، يقول: لا تعلوا ولا تسعوا فى الأرض ﴿مُفْسِدِينَ﴾ [آية: ٦٠]، يقول: لا تعملوا فى الأرض بالمعاصى، فرفعوا من المن والسلوى لغد، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ [طه: ٨١]، يقول: لا ترفعوا منه لغد، وكان موسى ﷺ إذا ظعن حمل الحجر معه، وتنصب العيون منه.

ثم إنهم قالوا: يا موسى، فأين اللباس؟ فجعلت الثياب تطول مع أولادهم، وتبقى على كبارهم، ولا تمزق ولا تبلى ولا تدنس، وكان لهم عمود من نور يضىء لهم بالليل إذا ارتحلوا وغاب القمر، فلما طال عليهم المن والسلوى، سألوا موسى نبات الأرض،

فذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ﴾ فى التيه ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾، يعنى المن والسلوى، ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا﴾ (١)، يعنى الثوم(٢)، ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾، فغضب موسى، عليه السلام، ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾، يقول: الذى هو دون المن والسلوى من نبات الأرض ﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾، يعنى المن والسلوى، فقال موسى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ من الأمصار، ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ من نبات الأرض، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾، يعنى على اليهود الذلة، وهى الجزية، ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾، يعنى الفقر، ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، يعنى استوجبوا غضب الله عز وجل، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذل والمسكنة الذى نزل بهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، يعنى القرآن، ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [آية: ٦١] فى أديانهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾، يعنى اليهود، ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾، وهم قوم يصلون للقبلة، يقرءون الزبور ويعبدون الملائكة، وذلك أن سلمان الفارسى كان من جند سابور، فأتى النبى ﷺ، فأسلم، وذكر سلمان أمر الراهب وأصحابه، وأنهم مجتهدون فى دينهم يصلون ويصومون، فقال النبى ﷺ: «هم فى النار»، فأنزل الله عز وجل فيمن صدق منهم بمحمد ﷺ وبما جاء به: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، يعنى صدقوا، يعنى أقروا وليسوا بمنافقين، ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، يقول: من صدق منهم بالله عز وجل، بأنه واحد لا

---

(١) قراءة يحيى بن وثاب والأشهب: «وقُثّائها»، وقراءة طلحة بن مصرف. انظر: (إعراب القرآن للنحاس ١/١٨١، إعراب القرآن للعكبرى ١/٢٣، الكشاف للزمخشرى ١/٧٢، البحر المحيط لأبى حيان ١/٢٣٣، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١/٤٢٤).

(٢) قراءة ابن مسعود وابن عباس: «وثُومِها»، بالثاءِ. وقال أبو الفتح: يقال: الثُّومُ والفُومُ بمعنى واحد؛ كقولهم: جدث وجدف، وقام زيد ثم عمرو، ويقال أيضا فمَّ عمرو. فالفاءُ بدل فيهما جميعا، ألا ترى إلى سعة تصرف الثاءِ فى جدث؛ لقولهم أجداث ولم يقولوا أجداف، وإلى كثرة ثُمَّ وقلة فُمَّ؟ ويقال: الفومُ: الحنطة انظر: (معانى القرآن للفراء ١/٤١، الكشاف للزمخشرى ١/٧٢، جامع البيان للطبرى ٢/١٢٩، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١/٤٢٥، البحر المحيط لأبى حيان ١/٢٣٣، تفسير الفخر الرازى ١/٣٦٦، اللسان مادة «فوم»).

شريك له، وصدق بالبعث الذى فيه جزاء الأعمال، بأنه كائن، ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من نزول العذاب، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آية: ٦٢] عند الموت، يقول: إن الذين آمنوا، يعنى صدقوا بتوحيد الله تعالى، ومن آمن من الذين هادووا ومن النصارى ومن الصابئين، من آمن منهم بالله واليوم الآخر فيما تقدم إلى آخر الآية.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ فى التوراة، وأن تعملوا بما فيها، فلما قرأوا التوراة وفيها الحدود والأحكام، كرهوا أن يقروا بما فيها، رفع الله عز وجل عليهم الجبل ليرضخ به رءوسهم، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾، يعنى الجبل، فلما رأوا ذلك أقروا بما فيها، فذلك قوله: ﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧١]، ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾، يقول: ما أعطيناكم من التوراة بالجد والمواظبة عليه، ﴿وَاذْكُرُوا﴾ يقول: احفظوا ﴿مَا فِيهِ﴾ من أمره ونهيه ولا تضيعوه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [آية: ٦٣]، يقول: لكى تتقوا المعاصى.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ يقول: أعرضتم ﴿مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ عن الحق من بعد الجبل، ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾، يعنى نعمته لعاقبكم، و﴿لَكُنتُم﴾ فى الآخرة ﴿مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آية: ٦٤] فى العقوبة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾، يعنى اليهود ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾، فصادوا فيه السمك، وكان محرمًا عليهم صيد السمك يوم السبت، فأمهلهم الله سبحانه بعد صيد السمك سنين، ثم مسخهم الله قردة، فذلك قوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ﴾ بوحى ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [آية: ٦٥]، يعنى صاغرين.

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾ لبنى إسرائيل ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾، يقول: أخذناهم بمعاصيهم قبل صيد الحيتان، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ ما استنوا من سنة سيئة، فاقتدى بها من بعدهم، فالنكال هى العقوبة، ثم مسخهم الله عز وجل فى زمان داود، عليه السلام، قردة ثم حذر هذه الأمة، فقال سبحانه: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آية: ٦٦]، يعنى تعظهم يا محمد أن ريكبوا ما ركبت بنو إسرائيل من المعاصى، فيستحلوا محرمًا أو صيدًا فى حرم الله، أو تستحلوا أنتم حرامًا لا ينبغى فينزل بكم من العقوبة مثل ما نزل بالذين استحلوا صيد السمك يوم السبت.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ يا بنى إسرائيل، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ بأرض مصر قبل الغرق، وذلك أن أخوين كانا فى بنى إسرائيل، فقتلا ابن عم لهما ليلاً بمصر ليرثاه، ثم حملاه فألقياه بين القريتين. قال: حدثنا عبيد الله، قال: حدثنى أبى، قال: حدثنا الهذيل، عن مقاتل، عن أبى مليكة، عن ابن عباس، رضى الله عنه، أنه قال: قاسوا ما بين القريتين، فكانتا سواء، فلما أصبحوا أخذوا أهل القرية، فقالوا: والله ما قتلناه ولا علمنا له قاتلاً، قالوا: يا موسى، ادع لنا ربك يطلع على القاتل إن كنت نبيًا كما تزعم، فدعا موسى ربه عز وجل، فأتاه جبريل، عليه السلام، فأمره بذبح بقرة، فقال لهم موسى: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، فتضربوه ببعضها فيحيا، فيخبركم بقاتله، واسم المقتول عاميل، فظنوا أنه يستهزئ بهم، فقالوا: نسألك عن القاتل لتخبرنا به، فتأمرنا بذبح بقرة استهزاء بنا، فذلك قولهم لموسى: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [آية: ٦٧]، يعنى من المستهزئين، فعلموا أن عنده علم ذلك.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ يا موسى، ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، أى سل لنا ربك ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾، إن ربكم يقول: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾، يعنى ليست بكبيرة ولا بكر، أى شابة، ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، يعنى بالعوان بين الكبيرة والشابة، ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [آية: ٦٨]، فانطلقوا ثم رجعوا إلى موسى، ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، أى سل ربك ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾، يعنى صافية اللون نقية ﴿تَسُرُّ﴾، يعنى تعجب ﴿ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [آية: ٦٩]، يعنى من رآها، فشددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، قال النبى ﷺ: «إنما أمروا ببقرة، ولو عمدوا إلى أدنى بقرة لأجزأت عنهم، والذى نفس محمد بيده، لو لم يستثنوا ما بينت لهم آخر الأبد».

فانطلقوا ثم رجعوا ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ تشكل ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [آية: ٧٠]، لو لم يستثنوا لم يهتدوا لها أبدًا، فعند ذلك هموا أن يفعلوا ما أمروا، ولو أنهم عمدوا إلى الصفة الأولى فذبحوها لأجزأت عنهم.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾، أى قال موسى: إن الله يقول: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾، يقول: ليست بالذلول التى يعمل عليها فى الحرث، ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾، يقول: ليست بالذلول التى يسقى عليها بالسواقى الماء للحرث، ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾، يعنى صحيحة ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾، يقول: لا وضح فيها، يقول: ليس فيها سواد ولا بياض ولا حمرة، ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ﴾ يا موسى ﴿جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾، يقول: الأن بينت لنا الحق، فانطلقوا حتى وجدوها عند امرأة اسمها نوريا بنت رام، فاستاموا بها، فقالوا لموسى: إنها لا تباع إلا بملء مسكها ذهبًا، قال موسى: لا تظلموا، انطلقوا اشتروها بما عز وهان، فاشتروها بملء مسكها ذهبًا، ﴿فَذَبَحُوهَا﴾، فقالوا لموسى: قد ذبحناها، قال: خذوا منها عضوًا فاضربوا به القتيل، فضربوا القتيل بفخذ البقرة اليمنى، فقام القتيل وأوداجه تشخب دمًا، فقال: قتلنى فلان وفلان، يعنى ابنى عمه، ثم وقع ميتًا، فأخذا فقتلا، فذلك قوله سبحانه ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [آية: ٧١].

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ

ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَءْتُمْ فِيهَا﴾، فاختلفتم فى قتلها، فقال أهل هذه القرية الأخرى: أنتم قتلتموه، وقال الآخرون: أنتم قتلتموه، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [آية: ٧٢]، يعنى كتمان قتل المقتول، ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ﴾، يقول: هكذا ﴿يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، فكان ذلك من آياته وعجائبه، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يقول: لكى ﴿تَعْقِلُونَ﴾ [آية: ٧٣]، فتعتبروا فى البعث، وإنما فعل الله ذلك بهم؛ لأنه كان فى بنى إسرائيل من يشك فى البعث، فأراد الله عز وجل أن يعلمهم أنه قادر على أن يبعث الموتى، وذلك قوله سبحانه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتعتبروا فى البعث.

فقالوا: نحن لم نقتله، ولكن كذب علينا، فلما كذبوا المقتول، ضرب الله لهم مثلاً، وذلك قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ فى الشدة، فلم تطمئن، يعنى تلين، حتى كذبتم المقتول، ثم قال: ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، يعنى من بعد حياة المقتول، ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ﴾ فشبه قلوبهم حين لم تلن بالحجارة فى الشدة، ثم عذر الحجارة وعاب قلوبهم، فقال: فهى كالحجارة فى القسوة، ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، ثم قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ﴾ ما هى ألين من قلوبهم، فمنها ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا﴾، يعنى ما ﴿يَشَّقَّقُ﴾، يعنى يتصدع، ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾، يقول: من بعض الحجارة الذى يهبط من أعلاه، فهؤلاء جميعًا ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ يفعلون ذلك، وبنو إسرائيل لا يخشون الله، ولا ترق قلوبهم كفعل الحجارة، ولا يقبلون إلى طاعة رهم، ثم وعدهم، فقال عز وجل: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آية: ٧٤] من المعاصى.

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أى النبى ﷺ وحده، ﴿أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾، أن يصدقوا قولك يا محمد، يعنى يهود المدينة، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ على عهد موسى، عليه السلام، ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، وذلك أن السبعين الذين اختارهم موسى حين قالوا: ﴿أَرِنَا

اللّهِ جَهْرَةً﴾، فعاقبهم الله عز وجل وأماتهم عقوبة، وبقى موسى وحده يبكى، فلما أحياهم الله سبحانه، قالوا: قد علمنا الأن أنك لم تر ربك، ولكن سمعت صوته، فأسمعنا صوته، قالو موسى: أما هذا فعسى، قال موسى: يا رب، إن عبادك هؤلاء بنى إسرائيل يحبون أن يسمعوا كلامك، فقال: من أحب منهم أن يسمع كلامى فليعتزل النساء ثلاثة أيام، وليغتسل يوم الثالث، وليلبس ثيابًا جددًا، ثم ليأتى الجبل فأسمعه كلامى.

ففعلوا ذلك، ثم انطلقوا مع موسى إلى الجبل، فقال لهم موسى: إذا رأيتم السحابة قد غشيت، ورأيتم فيها نورًا، وسمعتم فيها صوتًا، فاسجدوا لربكم، وانظروا ما يأمركم به فافعلوا، قالوا: نعم، فصعد موسى، عليه السلام، الجبل، فجاءت الغمامة، فحالت بينهم وبين موسى، ورأوا النور، وسمعوا صوتًا كصوت الصور، وهو البوق، فسجدوا، وسمعوه وهو يقول: إنى أنا ربكم، لا إله إلا أنا الحى القيوم، وأنا الذى أخرجتكم من أرض مصر بيد رقيقة وذراع شديد، فلا تعبدوا إلهًا غيرى، ولا تشركوا بى شيئًا، ولا تجعلوا لى شبهًا، فإنكم لن ترونى، ولكن تسمعون كلامى، فلما أن سمعوا الكلام، ذهبت أرواحهم من هول ما سمعوا، ثم أفاقوا وهم سجود، فقالوا لموسى، عليه السلام: إنا لا نطيق أن نسمع كلام ربنا، فكن بيننا وبين ربنا، فليقل لك وقل أنت لنا، قال موسى: يا رب، إن بنى إسرائيل لم يطيقوا أن يسمعوا كلامك، فقل لى وأقل لهم، قال الله عز وجل: نعم ما رأوا.

فجعل الله عز وجل يأمر موسى، ثم يخبرهم موسى، ويقولون: سمعنا ربنا وأطعنا، فلما فرغ من أمره ونهيه، ارتفعت السحابة، وذهب الصوت، فرفع القوم رءوسهم، ورجعوا إلى قومهم، قيل لهم: ماذا أمركم به ربكم ونهاكم عنه؟ فقال بعضهم: أمرنا بكذا وكذا، ونهانا عن كذا وكذا، وقال آخرون: واتبع فى آخر قوله: إن لم تستطيعوا ترك ما نهاكم عنه، فافعلوا ما تستطيعون، فذلك قوله سبحانه: ﴿**أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ**﴾، يعنى طائفة من بنى إسرائيل، ﴿**يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ**﴾ ﴿**ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ**﴾ وفهموه، ﴿**وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [آية: ٧٥] أنهم حرفوا الكلام.

﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦)**﴾

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾، يعنى صدقنا بمحمد، عليه السلام، بأنه نبى، وذلك أن الرجل المسلم كان يلقى من اليهود حليفه أو أخاه من الرضاعة، فيسأله: أتجدون محمدًا فى كتابكم، فيقولون: نعم، إن نبوة صاحبكم حق، وإنا نعرفه، فسمع كعب بن الأشرف، وكعب بن أسيد، ومالك بن الضيف، وجدى بن أخطب، فقالوا لليهود فى السر: أتحدثون أصحاب محمد ﷺ بما فتح الله لكم، يعنى بما بين لكم فى التوراة من أمر محمد ﷺ، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم﴾، يعنى ليخاصموكم ﴿بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ باعترافكم أن محمدًا، عليه السلام، نبى ثم لا تتابعوه، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آية: ٧٦]، يعنى أفلا ترون أن هذه حجة لهم عليكم.

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾

فقال الله عز وجل: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ فى الخلا ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [آية: ٧٧] فى الملاء، فيقول بعضهم لبعض: أتحدثونهم بأمر محمد ﷺ، أولا يعلمون حين قالوا: إنا نجد محمدًا فى كتابنا وإنا لنعرفه، ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾، يقول: من اليهود من لا يقرأ التوراة إلا أن يحدثهم عنها رءوس اليهود، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [آية: ٧٨] فى غير يقين ما يستيقنون به، فإن كذبوا رءوس اليهود أو صدقوا تابعوهم باعترافهم، فليس لهم بالتوراة علم إلا ما حدثوا عنها.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، سوى نعت محمد، عليه السلام، وذلك أن رءوس اليهود بالمدينة محوا نعت محمد ﷺ من التوراة، وكتبوا سوى نعته، وقالوا لليهود سوى نعت محمد، ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا﴾ النعت ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، يعنى عرضًا يسيرًا مما يعطيهم سفلة اليهود كل سنة من زروعهم وثمارهم، يقول: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، يعنى فى التوراة من تغيير نعت محمد ﷺ، ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [آية: ٧٩] من تلك المآكل على التكذيب بمحمد ﷺ، ولو تابعوا محمدًا، عليه السلام، إذًا لحبست عنهم تلك المآكل.

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾، يعنى اليهود ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾؛ لأنا أبناء الله وأحباؤه، يعنى ولد أنبياء الله، إلا أربعين يومًا التى عبد آباؤنا فيها العجل، ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾، فعلمتم بما عهد إليكم فى التوراة، فإن كنتم فعلتم ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ﴾، يعنى بل تقولون ﴿عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٨٠]، فإنه ليس بمعذبكم إلا تلك الأيام، فإذا مضت تلك الأيام مقدار كل يوم ألف سنة، قالت الخزنة: يا أعداء الله، ذهب الأجل وبقى الأبد، وأيقنوا بالخلود.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

فلما قالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة، أكذبهم الله عز وجل، فقال: ﴿بَلَىٰ﴾ يخلد فيها ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، يعنى الشرك، ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ حتى مات على الشرك، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آية: ٨١]، يعنى لا يموتون، ثم بين مستقر المؤمنين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آية: ٨٢] لا يموتون.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَإِذْ﴾، يعنى ولقد ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، يعنى برًا بهما ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، يعنى ذوى القرابة صلته، ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ واليتيم أن تصدق عليه وابن السبيل، يعنى الضيف أن تحسن إليه، ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، يعنى حقًا، نظيرها فى طه قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ [طه: ٨٦] يعنى حقًا، وقوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، يعنى ﴿لِلنَّاسِ﴾ أجمعين صدقًا فى محمد وعن الإيمان.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ، يعنى أتموا الصلاة لمواقيتها، ﴿وَءَاتُواْ﴾ وأعطوا ﴿ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ ، يعنى أعرضتم عن الإيمان، فلم تقروا ببعث محمد ﷺ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آية: ٨٣]، يعنى ابن سلام، وسلام بن قيس، وثعلبة بن سلام، وقيس ابن أخت عبد الله بن سلام، وأسيد وأسد ابنى كعب، ويامين، وابن يامين، وهم مؤمنو أهل التوراة. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ فى التوراة، يعنى ولقد أخذنا ميثاقكم فى التوراة ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ ، يقول: لا يقتل بعضكم بعضًا، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم﴾ ، يعنى لا يخرج بعضكم بعضًا ﴿مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بهذا ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آية: ٨٤] أن هذا فى التوراة.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ معشر اليهود بالمدينة ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ ، يعنى يقتل بعضكم بعضًا، ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا﴾ ، يعنى طائفة ﴿مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ﴾ ، يعنى تعاونون ﴿عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ﴾ ، يعنى بالمعصية ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ ، يعنى بالظلم، ومكتوب عليهم فى التوراة أن يفدوا أسراهم فيشتروهم إذا أسرهم أهل الروم فى القتال إن كان عبدًا أو أمة، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ، يقول: تصدقون ببعض ما فى التوراة لمن يقتل، والإخراج من الديار، فهو محرم عليكم إخراجهم، ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ﴾ ، يعنى الهوان ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ ، فكان خزى أهل قريظة القتل والسبى، وخزى أهل النضير الجلاء والنفى من منازلهم وجناتهم التى بالمدينة إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام، فكان هذا خزيًا لهم وهوانًا لهم، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ ، يعنى رءوس اليهود، يقول: هم أشد عذابًا، يعنى رءوس اليهود من أهل ملتهم؛ لأنهم أول من كفر بمحمد ﷺ من اليهود، ثم أوعدهم، فقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آية: ٨٥].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾

ثم نعتهم، فقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ﴾، يعنى اختاروا ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾، يقول: باعوا الآخرة بالدنيا مما يصيبون من سفلة اليهود من المآكل، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ فى الآخرة ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [آية: ٨٦]، يعنى ولا هم يمنعون من العذاب.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾، يقول: أعطينا موسى التوراة، ﴿وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾، يقول: وأتبعنا من بعد موسى ﴿بِٱلرُّسُلِۖ﴾ إلى قومهم، ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، يقول: وأعطينا عيسى ابن مريم العجائب التى كان يصنعها من خلق الطير، وإبراء الأكمه والأبرص، وأحياء الموتى بإذن الله، ثم قال سبحانه: ﴿وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾، يقول: وقوينا عيسى بجبريل، عليهما السلام، فقالت اليهود عند ذلك: فجئنا يا محمد بمثل ما جاء به موسى من الآيات كما تزعم، يقول الله عز وجل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾، يعنى اليهود، ﴿ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾، يعنى تكبرتم عن الإيمان برسولى، يعنى محمدًا ﷺ، ﴿فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ﴾، يعنى طائفة من الأنبياء كذبتم بهم، منهم عيسى ومحمد ﷺ، ﴿وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ [آية: ٨٧]، يعنى وطائفة قتلتموهم، منهم زكريا، ويحيى، والأنبياء أيضًا، فعرفوا أن الذى قال لهم النبى ﷺ حق فسكتوا.

﴿وَقَالُواْ﴾ للنبى ﷺ: ﴿قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ﴾، يعنى فى غطاء، ويعنون فى أكنة عليها الغطاء، فلا تفهم ولا تفقه ما تقول يا محمد، كراهية لما سمعوا من النبى ﷺ من قوله: «إنكم كذبتم فريقًا من الأنبياء وفريقًا قتلتم»، فإن كنت صادقًا فأفهمنا ما تقول، يقول الله عز وجل: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ فطبع على قلوبهم، ﴿فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [آية: ٨٨]، يعنى بالقليل بأنهم لا يصدقون بأنه من الله، وكفروا بما سواه مما جاء به

محمد ﷺ، فذلك قوله عز وجل فى النساء: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]، وإنما سمى اليهود من قبل يهوذا بن يعقوب.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، يعنى قرآن محمد ﷺ، ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ فى التوراة بتصديق محمد ﷺ وقرآنه فى التوراة، نزلت فى اليهود، منهم: أبو رافع، وابن أبى الحقيق، وأبو نافع، وغرار، ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ﴾ أن يبعث محمد ﷺ رسولاً ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، نظيرها فى الأنفال: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ [الأنفال: ١٩]، يعنى إن تستنصروا بخروج محمد ﷺ على مشركى العرب: جهينة، ومزينة، وبنى عذرة، وأسد، وغطفان، ومن يليهم، كانت اليهود إذا قاتلوهم قالوا: اللهم إنا نسألك باسم النبى الذى نجده فى كتابنا تبعثه فى آخر الزمان أن تنصرنا، فينصرون عليهم، فلما بعث الله عز وجل محمدًا ﷺ من غير بنى إسرائيل كفروا به وهم يعرفونه، فذلك قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ محمد ﴿مَّا عَرَفُواْ﴾ أى بما عرفوا من أمره فى التوراة، ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آية: ٨٩]، يعنى اليهود.

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾، يقول: بئسما باعوا أنفسهم بعرض يسير من الدنيا مما كانوا يصيبون من سفلة اليهود من المأكل فى كل عام، ثم قال: ﴿أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن على محمد ﷺ، ﴿بَغْيًا﴾، يعنى حسدًا لمحمد، إذ كان من العرب، يقول الله عز وجل: ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من النبوة والكتاب، ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، يعنى محمدًا ﷺ، ثم قال سبحانه: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾، يقول: استوجبوا بغضب من الله حين كفروا بعيسى ﷺ على غضب بكفرهم بمحمد ﷺ وبما جاء به، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ من اليهود ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آية: ٩٠]، يعنى الهوان.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

ثم قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، يعنى اليهود، منهم: أبو ياسر، والنعمان بن أوفى، ﴿ءَامِنُوا۟﴾، يعنى صدقوا ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن على محمد، ﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، يعنى التوراة، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾، يعنى بما بعد التوراة الإنجيل والفرقان، ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾، يعنى قرآن محمد ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾، يقول تصديقًا لمحمد بما أنزل الله عليه من القرآن مكتوبًا عندهم فى التوراة، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾، وذلك أن النبى ﷺ دعا اليهود إلى الإيمان، فقالوا للنبى ﷺ: آتنا بالآيات والقربان كما كانت الأنبياء تجىء بها إلى قومهم، يقول الله سبحانه: فقد كانت الأنبياء تجىء إلى آبائهم، فكانوا يقتلونهم، فقال الله عز وجل: قل يا محمد فلم تقتلون أنبياء الله من قبل، يقول: فلم قتلتم أنبياء الله ﴿مِن قَبْلُ﴾، يعنى آباءهم، وقد جاءوا بالآيات والقربان، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آية: ٩١]، يعنى إن كنتم صادقين بأن الله عهد إليكم فى التوراة ألا تؤمنوا بالرسول حتى يأتيكم بقربان تأكله النار، فقد جاءوا بالقربان، فلم قتلتموهم، يعنى أباءهم.

﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

ثم قال لمحمد ﷺ: قل لليهود: ﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، يعنى بالآيات التسع، ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهًا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، يعنى من بعد انطلاق موسى إلى الجبل، ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آية: ٩٢] لأنفسكم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾، يعنى وقد أخذنا ميثاقكم فى التوراة، يعنى اليهود، يعنى على أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تؤمنوا بالكتاب والنبيين، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾، حين لم يقبلوا التوراة، قال موسى: يا رب، إن عبادك لم يقبلوا

كتابك، وعصوا أمرك، فأمر الله عز وجل الملائكة وجبريل، فرفعوا من الأرض المقدسة جبلاً فوق رءوسهم، فحال الجبل بينهم وبين السماء، فقال موسى، عليه السلام، لبنى إسرائيل: إن لم تقبلوا التوراة طرح هذا الجبل، فيرضخ به رءوسكم، وكان الجبل منهم قدر ميل، فلما رأوا ذلك قبلوها، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧١]، ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾، يعنى ما آتيناكم من التوراة بالجد والمواظبة عليه، فرجع الجبل إلى مكانه، فقال موسى لبنى إسرائيل: ﴿وَاسْمَعُوا﴾، يقول: اسمعوا ما فى التوراة من الحدود، والأحكام، والشدة، ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ بذلك الذى تخوفنا به من أمر الجبل، ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك، فلا نتبع ما جئتنا به من الشدة فى التوراة، والعجل كان أرفق بنا، وأهون علينا مما جئتنا به من الشدة، يقول الله عز وجل: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾، قال لهم موسى: أن تحبوا شيئًا دونه يعدل حبه فى قلوبكم، كحب الله خالقكم، ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آية: ٩٣]، كما تزعمون.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾

ثم أخبر أنه حين رفع الجبل عليهم والبحر من ورائهم، خافوا الهلكة، فقبلوا التوراة، ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾، يعنى الجنة، وذلك أن اليهود قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وأن الله لن يعذبنا، فقال الله عز وجل للنبى ﷺ: قل لهم ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ ﴿مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آية: ٩٤]، يقول: فأحبوا الموت إن كنتم أولياء الله وأحباؤه، وأنكم فى الجنة، قال الله عز وجل للنبى ﷺ: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، ألم أمسخهم قردة بمعصيتهم.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

ثم أخبر عنهم بمعصيتهم، فقال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾، يعنى ولن يحبوه أبدًا، يعنى

الموت، ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ من ذنوبهم وتكذيبهم بالله ورسوله، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آية: ٩٥]، يعنى اليهود، فأبوا أن يتمنوه، فقال النبى ﷺ: «لو تمنوا الموت ما قام منهم رجل من مجلسه حتى يغصه الله عز وجل بريقه فيموت»، ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ﴾، أى وأحرص الناس على الحياة من الذين أشركوا، أى مشركى العرب، ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ﴾، يعنى اليهود، ﴿لَوۡ يُعَمَّرُ﴾ فى الدنيا ﴿أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ﴾ فيها ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [آية: ٩٦]، فأبوا أن يتمنوه، فقال النبى ﷺ: «لو تمنوا الموت ما قام منهم رجل من مجلسه حتى يغصه الله عز وجل بريقه فيموت».

﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

فقالت اليهود: إن جبريل لنا عدو، أمر أن يجعل النبوة فينا، فجعلها فى غيرنا من عداوته إيانا، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ﴾، يعنى اليهود، ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، يقول جبريل، عليه السلام: تلاه عليك ليثبت به فؤادك، يعنى قلبك، نظيرها فى الشعراء قوله سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، ثم قال: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾، يعنى قرآن محمد ﷺ يصدق الكتب التى كانت قبله، ﴿وَهُدٗى﴾، أى وهذا القرآن هدى من الضلالة، ﴿وَبُشۡرَىٰ﴾ لمن آمن به من المؤمنين، ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آية: ٩٧].

﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، يعنى بالملائكة جبريل، ورسله يعنى محمدًا وعيسى ﷺ، كفرت اليهود بهم وبجبريل وبميكائيل، يقول الله عز وجل: ﴿وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آية: ٩٨]، يعنى اليهود.

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾، يعنى القرآن، ثم قال: ﴿بَيِّنَٰتٖۖ﴾، يعنى ما فيه من الحلال والحرام، ﴿وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ﴾، يعنى بالآيات، ﴿إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [آية: ٩٩]، يعنى اليهود.

ثم قال سبحانه: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا﴾ بينهم وبين النبى ﷺ ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ من اليهود، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [آية: ١٠٠]، يعنى لا يصدقون بالقرآن أنه من الله جاء.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾، يعنى اليهود، ﴿رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، يعنى محمدًا ﷺ، ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾، يعنى يصدق محمدًا أنه نبى رسول معهم فى التوراة، ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعنى جعل طائفة من اليهود ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾، يعنى ما فى التوراة من أمر محمد، ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾، فلم يتبعوه ولم يبينوه للناس، ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [آية: ١٠١] بأن محمدًا رسول نبى؛ لأن تصديقه معهم، نزلت فى كعب ابن الأشرف، وكعب بن أسيد، وأبى ياسر بن أخطب، وسعيد بن عمرو الشاعر، ومالك بن الضيف، وحيى بن أخطب، وأبى لبابة بن عمرو.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾، يعنى اليهود، ﴿مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾، يعنى ما تلت الشياطين على عهد سليمان وفى سلطانه، وذلك أن طائفة من الشياطين كتبوا كتابًا فيه سحر، فدفنوه فى مصلى سليمان حين خرج من ملكه، ووضعوه تحت كرسيه، فلما توفى سليمان، استخرجوا الكتاب، فقالوا: إن سليمان تملككم بهذا الكتاب به كانت تجىء الريح، وبه سخرت الشياطين، فعلموه الناس، فأبرأ الله عز وجل منه سليمان، ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، فتركت اليهود كتاب الأنبياء واتبعوا ما قالت من السحر، ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ

﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ﴾ (١)، أى واتبعوا ما أنزل على الملكين، يعنى هاروت وماروت، وكانا من الملائكة مكانهما فى السماء واحد، ثم قال: ببابل، أى وهما ببابل، وإنما سميت بابل؛ لأن الألسن تبلبلت بها حين ألقى إبراهيم ﷺ فى النار.

ثم قال: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، وذلك أن هاروت وماروت يصنعان من السحر الفرقة، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ بعد قولهما: ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ إذا وصفا فيتعلمون منهما ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ (٢)، والفرقة أن يؤخذ الرجل عن امرأته، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ﴾، يعنى السحرة، ﴿بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ﴾، يعنى بالسحر من أحد، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ فى ضره، ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا

---

(١) قراءة الحسن وابن عباس، والضحاك بن مزاحم، وعبد الرحمن بن أبزى: «وما أُنزلَ عَلَى المَلِكين»، بكسر اللام، وقراءة وأبى الأسود الدؤلى، والحسن البصرى.
قيل: أراد «بالمَلِكين» داود وسليمان عليهما السلام.
قال أبو الفتح: إن قيل: كيف أطلق الله سبحانه على داود وسليمان اسم المِلك، وإنما هما عبدان له تعالى كسائر عبيده من الأنبياءِ وغيرهم؟.
قيل: جاز ذلك؛ لأنه أطلق عليهما اللفظ الذى يُعتاد حينئذ فيهما، ويطلقه الناس عليهما، فخوطب الإنسان على ذلك باللفظ الذى يعتاده أهل الوقت إذ ذاك، ونظيره قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الكَرِيم﴾ وإنما هو فى النار الذليل المهان، لكنه خوطب بما كان يخاطب به فى الدنيا، وفيه مع هذا ضرب من التبكيت له، والإذكار بسوءِ أفعاله، وقد مضى نحو هذا.
انظر: (الكشاف للزمخشرى ١/٨٥، مجمع البيان للطبرسى ١/١٧٠، معانى القرآن للفراء ١/٦٤، إعراب القرآن للعكبرى ١/٣٢، البحر المحيط لأبى حيان ١/٣٢٩، التبيان للطوسى ١/٣٧٠،٣٧٣، جامع البيان للطبرى ٢/٤٣٥، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٢/٥٢).
(٢) قراءة الحسن وقَتَادة: «بَينَ المَرِ وَزَوجِهِ»، بفتح الميم وكسر الراءِ خفيفة من غير همز. قال أبو الفتح: أما قراءة الحسن وقتادة : «بينَ المَرِ»، بفتح الميم وخفة الراءِ من غير همز فواضح الطريق؛ وذلك أنه على التخفيف القياسى، كقولك فى الخبءِ: هذا الخَبُ، ورأيت الخَبَ ومررت بالخَبِ، تحذف الهمزة وتلقى حركتها على الباءِ قبلها. وتقول فى الجُزءِ: هذا الجُزُ، ورأيتَ الجُزَ، ومررت بالجُزِ. وعليه القراءة: «الَّذِى يُخرِجُ الخَبَ فى السمواتِ والأَرض». وقراءة الزهرى. انظر: (البحر المحيط لأبى حيان ١/٣٣٢).
وقراءة الزهرى «المَرِّ» بفتح الميم وتشديد الراءِ. انظر: (إعراب القرآن للعكبرى ١/٣٣، البحر المحيط لأبى حيان ١/٣٣٢، الكشاف للزمخشرى ١/٨٦).
وقراءة ابن أبى إسحاق: «المُرْءِ» بضم الميم وسكون الراء والهمز. انظر: (الكشاف للزمخشرى ١/٨٦، البحر المحيط لأبى حيان ١/٣٣٢).

﴿يَضُرُّهُمْ﴾، فيتعلمون السحر من الشياطين، والفرقة من هاروت وماروت، ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾، يقول: لقد علمت اليهود فى التوراة لمن اختار السحر ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾، يقول: ما له فى الآخرة من نصيب، نظيرها فى براءة قوله سبحانه: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٩]، وكقوله: ﴿أُوْلَـئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧]، يعنى نصيب، ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا﴾، يقول: باعوا ﴿بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ من السحر ﴿لَوْ﴾، يعنى إن ﴿كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [آية: ١٠٢]، ولكنهم لا يعلمون.

كان أبو صالح يروى عن الحسن فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾، قال: وكان هاروت وماروت مطيعين لله عز وجل، هبطا بالسحر ابتلاء من الله لخلقه، وعهد إليهما عهدًا أن لا يعلما أحدًا سحرًا حتى يقولا له مقدمة: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾، يعنى محنة وبلوى، ﴿فَلاَ تَكْفُرْ﴾، فإذا أبى عليهما إلا تعليم السحر، قالا له: اذهب إلى موضع كذا وكذا، فإنك إذا أتيته وفعلت كذا وكذا، كنت ساحرًا.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

ثم قال لليهود: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾، يعنى صدقوا بمحمد ﷺ، ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الشرك، ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، يقول: لكان ثوابهم عند الله ﴿خَيْرٌ﴾ من السحر والكفر ﴿لَوْ﴾، يعنى إن ﴿كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [آية: ١٠٣]، نظيرها فى المائدة: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٦٠]، يعنى ثوابًا.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾، وذلك أن المؤمنين قالوا للنبى ﷺ: راعنا سمك، كقولهم فى الجاهلية بعضهم لبعض، وراعنا فى كلام اليهود الشتم، فلما سمعت ذلك اليهود من المشركين أعجبهم، فقالوا مثل ذلك للنبى ﷺ، فقال رجل من الأنصار، وهو سعد بن عبادة الأنصارى لليهود: لئن قالها رجل منكم للنبى ﷺ لأضربن عنقه، فوعظ الله عز وجل المؤمنين، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا﴾ للنبى ﷺ: ﴿رَاعِنَا﴾ ﴿وَ﴾ لكن ﴿وَقُولُوا انظُرْنَا﴾، قولوا للنبى ﷺ اسمع منا، ثم قال:

﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ ما تؤمرون به، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾، يعنى اليهود، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آية: ١٠٤]، يعنى وجيعًا.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، منهم: قيس بن عمرو، وعازار بن ينحوم، وذلك أن الأنصار دعوا خلفاءهم من اليهود إلى الإسلام، فقالوا للمسلمين: ما تدعون إلى خير مما نحن عليه، ووددنا أنكم على هدى، وأنه كما تقولون، فكذبهم الله سبحانه، فقال: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾، يعنى دينه الإسلام، ﴿مَن يَشَآءُ﴾، نظيرها فى هل أتى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ﴾ [الإنسان: ٣١]، يعنى فى دينه الإسلام، فاختص المؤمنين، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [آية: ١٠٥]، فاختصهم لدينه.

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾، يعنى نبدل من آية فنحولها فيها تقديم، يقول: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾، يقول: نأت من الوحى مكانها أفضل منها لكم وأنفع لكم، ثم قال: ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾، يقول: أو نأت بمثل ما نسخنا أو ننسها، يقول: أو نتركها كما هى، فلا ننسخها، وذلك أن كفار مكة قالوا للنبى ﷺ: إنما تقولت أنت يا محمد هذا القرآن من تلقاء نفسك، قلت كذا وكذا، ثم غيرت فقلت كذا وكذا، فأنزل الله عز وجل يعظم نفسه تبارك اسمه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آية: ١٠٦]، من الناسخ والمنسوخ قدير.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا

نَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾، يحكم فيهما ما يشاء، ويأمر بأمر، ثم يأمر بغيره، ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾، يعنى قريب ينفعكم، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ [آية: ١٠٧]، يعنى ولا مانع يمنعكم من الله لقولهم: إن القرآن ليس من الله، وإنما تقوله محمد ﷺ من تلقاء نفسه، نظيرها فى براءة قوله سبحانه: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى الأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقال عز وجل فى النحل: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١] أنك لن تقول إلا ما قيل لك.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ﴾، يعنى يقول: تريدون أن تسألوا محمدًا أن يريكم ربكم جهرة، ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ﴾ محمد، يعنى كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿أَرِنَا اللَّهِ جَهْرَةً﴾، ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ﴾، يعنى من يشتر ﴿ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، يعنى اليهود، ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [آية: ١٠٨]، يعنى قد أخطأ قصد طريق الهدى، كقوله سبحانه فى القصص: ﴿عَسَى رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]، يعنى قصد الطريق.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وذلك أن نفرًا من اليهود، منهم: فنحاص، وزيد بن قيس، بعد قتال أُحُد، دعوا حذيفة، وعمارًا إلى دينهم، وقالوا لهما: إنكما لن تصيبا خيرًا للذى أصابهم يوم أُحُد من البلاء، وقالوا لهما: ديننا أفضل من دينكم، ونحن أهدى منكم سبيلاً، قال لهم عمار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد، قال عمار: فإنى عهدت ربى أن لا أكفر بمحمد أبدًا، ولا أتبع دينًا غير دينه، فقالت اليهود: أما عمار، فقد ضل وصبأ عن الهدى بعد إذ بصره الله، فكيف أنت يا حذيفة؟ ألا تبايعنا؟ قال حذيفة: الله ربى، ومحمد نبيى، والقرآن إمامى، أطيع ربى، وأقتدى برسولى، وأعمل بكتاب الله ربى حتى يأتينى اليقين على الإسلام، والله السلام ومنه السلام، فقالوا: وإله موسى، لقد أشربت قلوبكم حب محمد، فقال عمار: ربى أحمده، وربى أكرم محمدًا، ومنه اشتق الجلالة، إن محمدًا أحمد هو محمد.

ثم أتيا النبى ﷺ فأخبراه، فقال: «ما رددتما عليهما؟»، فقالا: قلنا: الله ربنا، ومحمد رسولنا، والقرآن إمامنا، الله نطيع، وبمحمد نقتدى، وبكتاب الله نعمل، فقال النبى ﷺ: «أصبتما أخا الخير، وأفلحتما»، فأنزل الله عز وجل يحذر المؤمنين: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ فى التوراة أن محمدًا نبى، ودينه الإسلام، ثم قال سبحانه: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾، يقول: اتركوهم واصفحوا، يقول: وأعرضوا عن اليهود، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، فأتى الله عز وجل بأمره فى أهل قريظة القتل والسبى، وفى أهل النضير الجلاء والنفى من منازلهم وجناتهم التى بالمدينة إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آية: ١٠٩]، من القتل والجلاء قدير.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، يقول: وأتموها لمواقيتها، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، يقول: آتوا زكاة أموالكم، ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ فى الصدقة، ثم قال: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آية: ١١٠]، ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ﴾ على ديننا، ﴿هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾، يقول الله سبحانه: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، يقول: تمنوا على الله، فقال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، يعنى حجتكم من التوراة والإنجيل ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آية: ١١١] بما تقولون.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾

فأكذبهم الله عز وجل، فقال: ﴿بَلَىٰ﴾ لكن يدخلها ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، يعنى أخلص دينه لله، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فى عمله، ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آية: ١١٢] عند الموت، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾، يعنى ابن صوريا وأصحابه، ﴿لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من الدين، فمالك يا محمد والنصارى اتبع ديننا، ﴿وَقَالَتِ

﴿ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ من الدين، فمالك يا محمد واليهود، اتبع ديننا، يقول الله عز وجل: ﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾، يقول: وهم يقرءون التوراة والإنجيل، يعنى يهود المدينة ونصارى نجران، ﴿كَذَٰلِكَ﴾، يعنى هكذا، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ بتوحيد ربهم، يعنى مشركى العرب أن محمدًا وأصحابه ليسوا على شىء من الدين، يقول الله: ﴿مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾، يعنى مثل ما قالت اليهود والنصارى بعضهم لبعض، فذلك قوله سبحانه فى المائدة: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤]، يقول: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، يعنى بين مشركى العرب وبين أهل الكتاب، ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ﴾ من الدين ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾ [آية: ١١٣].

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤﴾

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾، نزلت فى الطياخوس بن ببليس الرومى ومن معه من أهل الروم، يقول: فلا أحد أظلم ﴿مِمَّن مَّنَعَ﴾، يعنى نصارى الروم ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، يعنى بيت المقدس أن يصلى فيه، ﴿أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾، يعنى التوحيد، ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾، وذلك أن الروم ظهروا على اليهود، فقتلوهم وسبوهم وخربوا بيت المقدس، وألقوا فيه الجيف، وذبحوا فيه الخنازير، ثم كان على عهد الروم الثانية ططسر بن سناباتوس، ويقال: اصطفانوس، فقتلهم وخرب بيت المقدس، فلم يعمر حتى بناه المسلمون فى زمان عمر بن الخطاب، رضوان الله عليه، يقول الله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، يعنى أهل الروم ﴿مَا كَانَ﴾ ينبغى ﴿لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ﴾، يعنى الأرض المقدسة إذ بعث محمد ﷺ ﴿إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾، فلا يدخل بيت المقدس اليوم الرومى إلا خائفًا متنكرًا، فمن قدر عليه منهم، فإنه يعاقب، ثم أخبر عن أهل الروم، فقال: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾، يعنى الهوان إن لم تقتل مقاتلتهم وتسب ذراريهم بأيدى المسلمين فى ثلاث مدائن: قسطنطينية، والرومية، ومدينة أخرى وهى عمورية، فهذا خزيهم فى الدنيا، ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [آية: ١١٤] من النار.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ﴾، وذلك أن ناسًا من المؤمنين كانا فى سفر، فحضرت الصلاة فى يوم غيم، فمنهم من صلى قبل المشرق، ومنهم من صلى قبل المغرب، وذلك قبل أن تحول القبلة إلى الكعبة، فلما طلعت الشمس عرفوا أنهم قد صلوا لغير القبلة، فقدموا المدينة، فأخبروا النبى ﷺ بذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ﴾، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ﴾ تحولوا وجوهكم فى الصلاة، ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ فثم الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾، لتوسيعه عليهم فى ترك القبلة حين جهلوها، ﴿عَلِيمٌ﴾ [آية: ١١٥] بما نووا، وأنزل الله عز وجل: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى آخر الآية.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ﴾، إنما نزلت فى نصارى نجران السيد والعاقب ومن معهما من الوفد قدموا على النبى ﷺ بالمدينة، فقالوا: عيسى ابن الله، فأكذبهم الله سبحانه وعظم نفسه، تعالى عما يقولون، فقال: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [آية: ١١٦]، يعنى لله، يعنى من فيهما، يعنى عيسى ﷺ وغيره عبيده، وفى ملكه، ثم قال: قانتون، يعنى مقرون بالعبودية، ثم عظم نفسه، فقال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ ابتدعهما ولم يكونا شيئًا، ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ فى علمه أنه كائن، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آية: ١١٧]، لا يثنى قوله كفعل المخلوقين، وذلك أن الله عز وجل، قضى أن يكون عيسى ﷺ فى بطن أمه من غير أب، فقال له: كن، فكان.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ١١٨ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ١١٩ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بتوحيد ربهم، يعنى مشركى العرب للنبى ﷺ، ﴿لَوْلَا﴾ يعنون هلا ﴿يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ يخبرنا بأنك رسوله، ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ﴾ كما كانت الأنبياء تأتيهم الآيات تجىء إلى قومهم، يقول الله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ﴾، يقول: هكذا قالت بنو إسرائيل من قبل مشركى العرب، فقالوا

فى سورة البقرة، والنساء لموسى: ﴿أَرِنَا اللَّهِ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، وأتوا بالآيات وسمعوا الكلام فحرفوه، فهل هؤلاء إلا مثل أولئك؟ فذلك قوله سبحانه: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾، ثم قال: وإن كذب مشركو العرب بمحمد، ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، أى فقد بينا الآيات، فذلك قوله سبحانه فى العنكبوت: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ﴾، يعنى بيان أمر محمد آيات ﴿بَيِّنَاتٌ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، يعنى واضحات فى التوراة أنه أمى لا يقرأ الكتاب ولا يخط بيمينه، ﴿لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [آية: ١١٨]، يعنى مؤمنى أهل التوراة.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾، يقول: لم نرسلك عبثًا لغير شىء، ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾، بشيرًا بالجنة ونذيرًا من النار، ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [آية: ١١٩]، فإن الله قد أحصاها عليهم، ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ﴾ من أهل المدينة، ﴿وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ من أهل نجران، ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾، وذلك أنهم دعوا النبى ﷺ إلى دينهم وزعموا أنهم على الهدى، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلۡ﴾ لهم: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾، يعنى الإسلام ﴿هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ﴾، ثم حذر نبيه ﷺ، فقال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾، يعنى أهل الكتاب على دينهم ﴿بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، وعلم البيان، ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾، يعنى قريب فينفعك ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ [آية: ١٢٠]، يعنى ولا مانع.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾

ثم ذكر مؤمنى أهل التوراة، عبد الله بن سلام وأصحابه، فقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾، يعنى أعطيناهم التوراة، ﴿يَتۡلُونَهُۥ﴾، يعنى نعت محمد ﷺ فى التوراة، ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ فى التوراة ولا يحرفون نعته، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾، يقول: أولئك يصدقون بمحمد، يعنى عبد الله بن سلام وأصحابه، ثم قال: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾، يعنى بمحمد من أهل التوراة، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [آية: ١٢١] فى العقوبة.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آية:

١٢٢]، يعنى عالمى ذلك الزمان، يعنى عالمى أجدادهم، يعنى بالمن والسلوى والحجر والغمام.

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا ﴾، يعنى اخشوا يومًا يوم القيامة ﴿ لَّا تَجْزِى نَفْسٌ ﴾ كافرة ﴿ عَن نَّفْسٍ ﴾ كافرة ﴿ شَيْـًٔا ﴾ من المنفعة، ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾، يعنى فداء، ﴿ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ ﴾، يعنى شفاعة نبى ولا شهيد ولا صديق، ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [آية: ١٢٣]، يعنى يمتنعون من العذاب.

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ ﴾، يعنى بذلك كل مسألة فى القرآن مما سأل إبراهيم من قوله: ﴿ **رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ** ﴾ [البقرة: ١٢٦]، ومن قوله: ﴿ **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وحين قال: ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ** ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وحين قال لقومه حين حاجوه: ﴿ **إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ** ﴾ [الأنعام: ٧٨].

وحين قال: ﴿ **إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا** ﴾ [الأنعام: ٧٩]، وحين ألقى فى النار، وحين أراد ذبح ابنه، وحين قال: ﴿ **رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [الصافات: ١٠٠]، وحين سأل الولد، وحين قال: ﴿ **وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ** ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وحين قال: ﴿ **فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ** ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وحين قال: ﴿ **رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وما كان نحو هذا فى القرآن، وما سأل إبراهيم فاستجاب له، ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾، ثم زاده الله مما لم يكن فى مسألته، ﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ فى الدين يقتدى بسنتك، ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم: يا رب، ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ فاجعلهم أئمة، ﴿ قَالَ ﴾ الله: إن فى ذريتك الظلمة، يعنى اليهود والنصارى، ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [آية: ١٢٤]، يعنى المشركين من ذريتك، قال: لا ينال طاعتى الظلمة من ذريتك، ولا أجعلهم أئمة، أنحلها أوليائى وأجنبها أعدائى.

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ

إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ يقولون: يثوبون إليه فى كل عام ليقضوا منه وطرا، ثم قال: ﴿وَأَمْنًا﴾ لمن دخله وعاذ به فى الجاهلية، ومن أصاب اليوم حدًا ثم لجأ إليه أمن فيه حتى يخرج من الحرم، ثم يقام عليه ما أحل بنفسه، ثم قال: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، يعنى صلاة، و لم يؤمروا بمسحه ولا تقبيله، وذلك أنه كان ثلاثمائة وستون صنمًا فى الكعبة، فكسرها النبى ﷺ، ثم قال: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ من الأوثان، فلا تذرا حوله صنمًا ولا وثنًا، يعنى حول البيت ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ بالبيت من غير أهل مكة، ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾، يعنى أهل مكة مقيمين بها، ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [آية: ١٢٥] فى الصلوات.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، يعنى مكة، فقال الله عز وجل: نعم، فحرمه من الخوف، ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ﴾ من المقيمين بمكة، ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ﴾، يعنى من صدق منهم بالله ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ وصدق بالله أنه واحد لا شريك له، وصدق بالبعث الذى فيه جزاء الأعمال، فأما مكة، فجعلها الله أمنًا، وأما الرزق، فإن إبراهيم اختص بمسائلته الرزق للمؤمنين، ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ﴾، أى قال الله عز وجل: والذين كفروا أرزقهم أيضًا مع الذين آمنوا، ولكنها لهم متعة من الدنيا، ﴿قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ (١) ألجئه إن مات على كفره ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آية: ١٢٦].

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ

---

(١) قراءة ابن محيصن: ثم «أطَّرُّه» يدغم الضاد فى الطاءِ. قال أبو الفتح: هذه لغة مرذولة، أعنى: إدغام الضاد فى الطاءِ؛ وذلك لما فيها من الامتداد والفُشُوّ، فإنها من الحروف الخمسة التى يدغم فيها ما يجاورها، ولا تدغم هى فيما يجاورها. انظر: (الكشاف للزمخشرى ١/٩٣، إعراب القرآن للنحاس ١/٢١٢، مجمع البيان للطبرسى ١/٢٠٥، البحر المحيط ١/٣٨٤، إتحاف فضلاء البشر للبنا ١٤٨).

عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾، يعنى أساس البيت الحرام الذى كان رفع ليالى الطوفان على عهد نوح، فبناه إبراهيم وإسماعيل على ذلك الأصل، وأعانهم الله عز وجل بسبعة أملاك على البناء ملك إبراهيم، وملك إسماعيل، وملك هاجر، والملك الموكل بالبيت، وملك الشمس، وملك القمر، وملك آخر، فلما فرغا من بناء البيت، قالا: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾، يعنى بناء هذا البيت الحرام، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آية: ١٢٧] لدعائهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾.

ثم قالا: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾، يعنى مخلصين لك، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، يعنى علمنا مناسكنا، نظيرها: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، يعنى بما علمك الله، ونظيرها: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، يعنى يرى الله، ونظيرها أيضًا: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [سبأ: ٦]، يعنى ويعلم، ونظيرها: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾، يعنى وليرين الله، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]، يعنى ويرى.

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ فنصلى لك، ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾، يعنى إبراهيم وإسماعيل أنفسهما، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [آية: ١٢٨]، ففعل الله عز وجل ذلك به، فنزل جبريل، عليه السلام، فانطلق بإبراهيم ﷺ إلى عرفات وإلى المشاعر ليريه ويعلمه كيف يسأل ربه، فلما أراه الله المناسك والمشاعر، علم أن الله عز وجل سيجعل فى ذريتهما أمة مسلمة، كما سألا ربهما، فقالا عند ذلك: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾، يعنى فى ذريتنا ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، يعنى محمد ﷺ، ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾، يعنى يقرأ عليهم آيات القرآن، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يقول: يعلمهم ما يتلى عليهم من القرآن، ثم قال: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾، يعنى الموعظة التى فى القرآن من الحلال والحرام، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، يعنى ويطهرهم من الشرك والكفر، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آية: ١٢٩]، فاستجاب الله له فى سورة الجمعة، فقال: ﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [الجمعة: ٢] إلى آخر الآية.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ

فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا
تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا
وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا
تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾، وذلك أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجرًا إلى الإسلام، فقال لهما: ألستما تعلمان أن الله عز وجل قال لموسى: إني باعث نبيًا من ذرية إسماعيل يقال له: أحمد، يحيد أمته عن النار، وأنه ملعون من كذب بأحمد النبي، وملعون من لم يتبع دينه؟ فأسلم سلمة، وأبى مهاجر، ورغب عن الإسلام، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾، يعني الإسلام، ثم استثنى، ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾، يعني إلا من خسر نفسه من أهل الكتاب، ﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ﴾، يعني إبراهيم، يعني اخترناه بالنبوة والرسالة في الدنيا، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آية: ١٣٠].

﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ﴾، يقول: أخلص، ﴿قَالَ أَسۡلَمۡتُ﴾، يعني أخلصت ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آية: ١٣١]، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾، يعني بالإخلاص ﴿إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ الأربعة: إسماعيل، وإسحاق، ومدين، ومداين، ثم وصى بها يعقوب بنيه يوسف وإخوانه اثني عشر ذكرًا بنيه، ﴿وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ﴾، أي فقال يعقوب لبنيه الاثني عشر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ عز وجل ﴿ٱصۡطَفَىٰ﴾، يعني اختار ﴿لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾، يعني دين الإسلام، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آية: ١٣٢]، يعني مخلصون بالتوحيد، ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾، وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: يا محمد، ألست تعلم أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه بدين اليهودية، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾، قال الله عز وجل: إن اليهود لم يشهدوا وصية يعقوب لبنيه، ﴿إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ يوسف وإخوته: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي﴾، أي بعد موتي، ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ (١) ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾

---

(١) قراءة ابن عباس والحسن ويحيى بن يعمر وعاصم الجحدري وأبي رجاء بخلاف: «وإلـه أبيك» بالتوحيد. انظر: (معاني القرآن للفراء ١/٨٢، جامع البيان للطبري ٣/٩٩، الكشاف=

[آية: ١٣٣]، يعنى مخلصون له بالتوحيد.

يقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾، يعنى عصبة، ﴿قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾، من العمل، يعنى الدين، يعنى إبراهيم وبنيه، ويعقوب وبنيه، ثم قال لليهود، ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ من الدين، ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [آية: ١٣٤] أولئك.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾، وذلك أن رءوس اليهود كعب بن الأشرف، وكعب بن أسيد، وأبا ياسر بن أخطب، ومالك بن الضيف، وعازارا، وإشماويل، وحميشا، ونصارى نجران السيد، والعاقب ومن معهما، قالوا للمؤمنين: كونوا على ديننا، فإنه ليس دين إلا ديننا، فكذبهم الله تعالى، فقال: ﴿قُلْ بَلْ﴾ الدين ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، يعنى الإسلام، ثم قال: ﴿حَنِيفًا﴾، يعنى مخلصًا، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية: ١٣٥]، يعنى من اليهود والنصارى.

ثم أمر الله عز وجل المؤمنين، فقال: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ بأنه واحد لا شريك له، ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، يعنى قرآن محمد ﷺ، ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

=للزمخشرى ١/٩٦، إعراب القرآن للعكبرى ١/٣٨، إعراب القرآن للنحاس ١/٢١٦، الجامع لأحكام القرآن ٢/١٣٨، إتحاف فضلاء البشر ١٤٨ البحر المحيط لأبى حيان ١/٤٠٢، لسان العرب مادة «أبى» ١٤/٦).

﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾، وهم بنو يعقوب يوسف وإخوته، فنزل على هؤلاء صحف إبراهيم، قال: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾، يعنى التوراة، ﴿وَ﴾ ما أوتى ﴿وَعِيسَىٰ﴾، يعنى الإنجيل، يقول: ما أنزل على موسى وعيسى وصدقنا، ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾، وأوتى داود وسليمان الزبور، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾، فنؤمن ببعض النبيين ونكفر ببعض، كفعل أهل الكتاب، ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [آية: ١٣٦]، يعنى مخلصون، نظيرها فى آل عمران.

يقول الله سبحانه: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، يقول: فإن صدق أهل الكتاب بالذى صدقتم به يا معشر المسلمين من الإيمان بجميع الأنبياء والكتب، ﴿فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ من الضلالة، ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ﴾، أى وإن كفروا بالنبيين وجميع الكتب، ﴿فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾، يعنى فى ضلال واختلاف، نظيرها: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]، يعنى لفى ضلال واختلاف؛ لأن اليهود كفروا بعيسى ومحمد، صلى الله عليهما وسلم، وبما جاءا به، وكفرت النصارى بمحمد ﷺ وبما جاء به، فلما نزلت هذه الآية قرأها النبى ﷺ على اليهود والنصارى، فقال: «إن الله عز وجل أمرنى أن أوصى بهذه الآية، فإن أنتم آمنتم، يعنى صدقتم بالنبى ﷺ والكتاب، فقد اهتديتم، وإن توليتم وأبيتم عن الإيمان، فإنما أنتم فى شقاق».

فلما سمعت اليهود ذكر عيسى ﷺ، قالوا: لا نؤمن بعيسى، وقالت النصارى: وعيسى بمنزلتهم مع الأنبياء، ولكنه ولد الله، يقول: إن أبوا أن يؤمنوا بمثل ما آمنتم به، ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ يا محمد، يعنى أهل الكتاب، ففعل الله عز وجل ذلك، فقتل أهل قريظة، وأجلى بنى النضير من المدينة إلى الشام، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [آية: ١٣٧]، لقولهم للمؤمنين: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾، ثم قال: ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما قالوا: قل لهم: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ﴾ التى صبغ الناس عليها، ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ﴾، يعنى الإسلام؛ لقولهم للمؤمنين: اتبعوا ديننا، فإنه ليس دين إلا ديننا، يقول الله عز وجل: دين الله، ومن أحسن من الله دينًا؟! يعنى الإسلام، ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [آية: ١٣٨]، يعنى موحدون.

﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾، يقول: أتخاصموننا فى الله، ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾، فقال لهم: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾ [آية: ١٣٩]، يقول: لنا ديننا

ولكم دينكم، يعنى أن يهود أهل المدينة ونصارى أهل نجران قالوا للمؤمنين: إن أنبياء الله كانوا منا من بنى إسرائيل، فكانوا على ديننا، فأنزل الله عز وجل يكذبهم: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾، وإنما سموا الأسباط؛ لأنه ولد لكل واحد منهم أمة من الناس، ﴿كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ﴾ بدينهم ﴿أَمِ اللَّهُ﴾، ثم قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، يقول: فلا أحد أظلم ﴿مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آية: ١٤٠]، فكتموا تلك الشهادة التى عندهم، وذلك أن الله عز وجل بين أمر محمد فى التوراة والإنجيل، وكتموا تلك الشهادة التى عندهم، وذلك قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، يعنى أمر محمد ﷺ.

فلما قالوا: إن إبراهيم وبنيه، ويعقوب وبنيه كانوا على ديننا، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾، يعنى عصبة، يعنى إبراهيم وبنيه ويعقوب وبنيه، ﴿قَدْ خَلَتْ﴾، يعنى قد مضت، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾، يعنى من العمل، يعنى من الدين، ﴿وَلَكُمْ﴾ معشر اليهود والنصارى، ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ من العمل، يعنى من الدين، ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [آية: ١٤١] أولئك.

﴿۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾، وذلك أن النبى ﷺ وأصحابه كانوا بمكة يصلون ركعتين بالغداة وركعتين بالعشى، فلما عرج بالنبى ﷺ إلى السماء ليلاً، أمر بالصلوات الخمس، فصارت الركعتان للمسافر، وللمقيم أربع ركعات، فلما هاجر إلى المدينة لليلتين خلتا من ربيع الأول، أمر أن يصلى نحو بيت المقدس؛ لئلا يكذب به أهل الكتاب إذا صلى إلى غير قبلتهم مع ما يجدون من نعته فى التوراة، فصلى النبى ﷺ وأصحابه قبل بيت المقدس من أول مقدمه المدينة سبعة عشر شهرًا، وصلت الأنصار قبل بيت المقدس سنتين قبل هجرة النبى ﷺ، وكانت الكعبة أحب القبلتين إلى النبى ﷺ، فقال

لجبريل، عليه السلام: «وددت أن ربى صرفنى عن قبلة اليهود إلى غيرها»، فقال جبريل، عليه السلام: إنما أنا عبد مثلك لا أملك شيئًا، فاسأل ربك ذلك، وصعد جبريل إلى السماء، وجعل النبى ﷺ يديم النظر إلى السماء رجاء أن يأتيه جبريل، عليه السلام، بما سأل.

فأنزل الله عز وجل فى رجب عند صلاة الأولى قبل قتال بدر بشهرين: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، ولما صرفت القبلة إلى الكعبة، قال مشركو مكة: قد تردد على أمره واشتاق إلى مولد آبائه، وقد توجه إليكم وهو راجع إلى دينكم، فكان قولهم هذا سفهًا منهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، يعنى مشركى مكة، ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾، يقول: ما صرفهم ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ الأولى ﴿ٱلَّتِى كَانُوا عَلَيْهَاۚ قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آية: ١٤٢]، يعنى دين الإسلام، يهدى الله نبيه والمؤمنين لدينه.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، وذلك أن اليهود منهم مرحب، ورافع، وربيعة، قالوا لمعاذ: ما ترك محمد قبلتنا إلا حسدًا، وإن قبلتنا قبلة الأنبياء، ولقد علم محمد أنا عدل بين الناس، فقال معاذ: إنا على حق وعدل، فأنزل الله عز وجل فى قول معاذ: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، يعنى وهكذا، ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، يعنى عدلاً، نظيرها فى ن والقلم، قوله سبحانه: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم: ٢٨]، يعنى أعدلهم، وقوله سبحانه: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، يعنى أعدل، فقول الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، يعنى أمة محمد تشهد بالعدل فى الآخرة بين الأنبياء وبين أممهم، ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، يعنى على الرسل هل بلغت الرسالة عن ربها إلى أممهم، ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾، يعنى محمد ﷺ ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾، يعنى على أمته أنه بلغهم الرسالة.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾، يعنى بيت المقدس، ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾، إلا لنرى ﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾، يعنى محمدًا ﷺ على دينه فى القبلة ومن يخالفه من اليهود، ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾، يقول: ومن يرجع إلى دينه الأول، ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾، يعنى القبلة حين صرفها عن بيت المقدس إلى الكعبة، فعظمت على اليهود، ثم استثنى،

فقال: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ فإنه لا يكبر عليهم ذلك، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ ، وذلك أن حيى بن أخطب اليهودى وأصحابه قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس، أكانت هدى أم ضلالة، فوالله لئن كانت هدى لقد تحولتم عنه، ولئن كانت ضلالة لقد دنتم الله بها فتقربتم إليه بها، وإن من مات منكم عليها مات على الضلالة.

فقال المسلمون: إنما الهدى ما أمر الله عز وجل به، والضلالة ما نهى الله عنه، قالوا: فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا؟ وكان قد مات قبل أن تحول القبلة إلى الكعبة: أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار بن مالك ابن الخزرج، من بنى النجار، ومات البراء بن معرور بن صخر بن سنان بن عبيد بن عدى بن سلمة بن سعد بن على بن شاردة بن زيد بن جشم بن الخزرج، من بنى سلمة، وكانا من النقباء، ومات رجال، فانطلقت عشائرهم، فقالوا للنبى ﷺ: توفى إخواننا وهم يصلون إلى القبلة الأولى، وقد صرفك الله عز وجل إلى قبلة إبراهيم، عليه السلام، فكيف بإخواننا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ ، يعنى إيمان صلاتكم نحو بيت المقدس، يقول: لقد تقبلت منهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ﴾ ، يعنى يرق لهم، ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آية: ١٤٣] حين قبلها منهم قبل تحويل القبلة.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، يعنى نرى أنك تديم نظرك إلى السماء، ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾، يعنى لنحولنك إلى ﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾؛ لأن الكعبة كانت أحب إلى النبى ﷺ من بيت المقدس، ﴿فَوَلِّ﴾، يعنى فحول ﴿وَجْهَكَ شَطْرَ﴾، يعنى تلقاء ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ من الأرض ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، يعنى فحولوا وجوهكم فى الصلاة تلقاءه، وقد كان النبى ﷺ يصلى فى مسجد بنى سلمة، فصلى ركعة، ثم حولت القبلة إلى الكعبة، وفرض الله صيام رمضان، وتحويل القبلة، والصلاة إلى الكعبة قبل بدر بشهرين، وحرم الخمر قبل الخندق.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعنى أهل التوراة، وهم اليهود، منهم الحميس بن عمرو، قال: يا محمد، ما أمرت بهذا الأمر، وما هذا إلا شىء ابتدعته، يعنى فى أمر القبلة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعنى أهل التوراة، ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، بأن القبلة هى الكعبة، فأوعدهم الله، فقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [آية: ١٤٤]، يعنى عما يعملون من كفرهم بالقبلة، ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعنى اليهود، ينحوم بن سكين، ورافع بن سكين، ورافع ابن حريملة، ومن النصارى أهل نجران السيد والعاقب، فقالوا للنبى ﷺ: ائتنا بآية نعرفها كما كانت الأنبياء تأتى بها، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ﴾، يقول: ولئن جئت يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾، يعنى الكعبة، ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾، يعنى بيت المقدس، ثم قال: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾، يقول: إن اليهود يصلون قبل المغرب لبيت المقدس، والنصارى قبل المشرق، فأنزل الله عز وجل يحذر نبيه ﷺ ويخوفه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾، فصليت إلى قبلتهم ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، يعنى البيان، ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آية: ١٤٥].

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾، يعنى اليهود منهم: أبو ياسر بن أخطب، وكعب بن الأشرف، وكعب بن أسيد، وسلام بن صوريا، وكنانة بن أبى الحقيق، ووهب بن يهوذا، وأبو نافع، فقالوا للنبى ﷺ: لم تطوفون بالكعبة، وإنما هى حجارة مبنية، فقال النبى ﷺ: «إنكم لتعلمون أن الطواف بالبيت حق، فإنه هو القبلة مكتوب فى التوراة والإنجيل، ولكنكم تكتمون ما فى كتاب الله من الحق وتجحدونه، فقال ابن صوريا: ما كتمنا شيئًا مما فى كتابنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يقول: أعطيناهم التوراة، ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾، أى يعرفون البيت الحرام أنه القبلة،

﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ﴾، يعنى طائفة من هؤلاء الرءوس ﴿لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾، يعنى أمر القبلة ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آية: ١٤٦] أن البيت هو القبلة.

ثم قال سبحانه: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ﴾ يا محمد إن القبلة التى وليناكها هى القبلة، ﴿فَلَا﴾، يعنى لئلا ﴿تَكُونَنَّ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [آية: ١٤٧]، يعنى من الشاكين أن البيت الحرام هو القبلة، ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾، يقول: لكل أهل ملة قبلة هم مستقبلوها، يريدون بها الله عز وجل، ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾، يقول: سارعوا فى الصالحات من الأعمال، ﴿أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ﴾ من الأرض أنتم وأهل الكتاب، ﴿يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ﴾ يوم القيامة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آية: ١٤٨] من البعث وغيره قدير.

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ﴾، يقول: ومن أين توجهت من الأرض، ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾، يقول: فحول وجهك فى الصلاة تلقاء المسجد الحرام، ﴿وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [آية: ١٤٩]، ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾، يعنى الحرم كله، فإنه مسجد كله، ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ﴾ من الأرض، ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾، يعنى فحولوا وجوهكم تلقاءه، ثم قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾، يعنى اليهود فى أن الكعبة هى القبلة ولا حجة لهم عليكم فى انصرافكم إليها، ثم استثنى، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾، يعنى من الناس، يعنى مشركى العرب، وذلك أن مشركى مكة قالوا: إن الكعبة هى القبلة، فما بال محمد تركها وكانت لهم فى ذلك حجة، يقول الله عز وجل: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ أن يكون لهم عليكم حجة فى شىء غيرها، ﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾ فى ترك أمرى فى أمر القبلة، ثم قال عز وجل: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ فى انصرافكم إلى الكعبة وهى القبلة، ﴿وَلَعَلَّكُمۡ﴾ ولكى ﴿تَهۡتَدُونَ﴾ [آية: ١٥٠] من الضلالة، فإن الصلاة قبل بيت المقدس بعد ما نسخت الصلاة إليه ضلالة.

قال: حدثنا عبيد الله بن ثابت، قال: حدثنا أبى، قال الهذيل، عن ليث بن سعد، عن يزيد بن أبى حبيب، عن أبى الجهم مرثد، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: إنكم ستفتحون قسطنطينية والرومية وحمقلة. قال: حدثنا عبيد الله، قال: حدثنا أبى، قال: حدثنا الهذيل، عن ابن لهيعة، عن أبى قبيل، عن عبد الله بن عمرو، قال: إنكم ستفتحون

رومية، فإذا دخلتموها فادخلوا كنيستها الشرقية، فعدوا سبع بلاطات واقلعوا الثامنة، وهى بلاطة حمراء، فإن تحتها عصا موسى، وإنجيل عيسى، وحُلى إيلياء، يعنى بيت المقدس، هذا خزيهم فى الدنيا، ولهم فى الآخرة عذاب النار.

قال: حدثنا عبيد الله، قال: حدثنى أبى، عن الهذيل بن حبيب، عن مقاتل، قال: كل من ملك القبط يسمى قيطوس، وكل من ملك الروم يسمى قيصر، وكل من ملك الفرس يسمى كسرى(١).

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾، يعنى محمدًا ﷺ، ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ القرآن ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾، يعنى ويطهركم من الشرك والكفر، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾، يعنى القرآن، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾، يعنى الحلال والحرام، ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [آية: ١٥١]، إذا فعلت ذلك بكم، ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾، يقول: فاذكرونى بالطاعة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بخير، ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [آية: ١٥٢]، يقول: اشكروا الله عز وجل فى هذه النعم لا تكفروا بها لقوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ إلى آخر الآية.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، يقول: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلوات الخمس فى مواقيتها نحو الكعبة، حين عيرتهم اليهود بترك قبلتهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آية: ١٥٣] على الفرائض والصلاة، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾، نزلت فى قتلى بدر من المسلمين، وهم أربعة عشر

---

(١) هذان الأثران من الإسرائيليات.

رجلاً من المسلمين، ثمانية من الأنصار، وستة من المهاجرين، فمن المهاجرين: عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وعمير بن نضلة، وعقيل بن بكير، ومهجع ابن عبد الله مولى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وصفوان بن بيضاء، فهؤلاء ستة من المهاجرين، ومن الأنصار: سعد بن خيثمة بن الحارث بن النخاط بن كعب بن غنم بن أسلم بن مالك بن الأوس، ومبشر بن عبد المنذر، ويزيد بن الحارث، وعمر بن الحمام، ورافع بن المعلى، وحارثة بن سراقة، ومعوذ بن عفراء، وعوف بن عفراء، وعما ابنا الحارث بن مالك بن سوار، فهؤلاء ثمانية من الأنصار.

وذلك أن الرجل كان يقتل فى سبيل الله، فيقولون: مات فلان، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ معشر المؤمنين ﴿لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾ ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ مرزوقون فى الجنة عند الله، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [آية: ١٥٤] بأنهم أحياء مرزوقون، ومساكن أرواح الشهداء سدرة المنتهى فى جنة المأوى، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾، يعنى القحط، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾، يعنى قحط المطر، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آية: ١٥٥] على هذه البلية بالجنة.

ثم نعت أهل المصيبة، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾، يعنى فيما ذكر من هذه الآية، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [آية: ١٥٦]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾، يعنى مغفرة، كقوله سبحانه: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، يعنى استغفر لهم، ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾، يعنى استغفارك ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] من ربهم، ﴿وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [آية: ١٥٧] للاسترجاع (١).

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، وذلك أن الحُمس، وهم: قريش، وكنانة، وخزاعة، وعامر بن صعصعة، قالوا: ليست الصفا والمروة من شعائر الله، وكان على الصفا صنم يقال له: نائلة، وعلى المروة صنم يقال له: يساف فى الجاهلية، قالوا: إنه

(١) قال عبد الله بن ثابت: سمعت أبى يقول: سمعت هذا الكتاب من أوله إلى آخره من هذيل أبى صالح، عن مقاتل بن سليمان ببغداد فى درب السدرة فى المدينة سنة تسعين ومائة، وسمعته من أوله إلى آخره قراءة عليه فى سنة أربعين ومائتين، ومات وهو ابن خمس وثمانين. قال أبو عمرو: وسمعت هذا الكتاب من عبد الله بن ثابت سنة أربع وثمانين ومائتين.

حرج علينا فى الطواف بينهما، فكانوا لا يطوفون بينهما، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، يقول: هما من أمر المناسك التى أمر الله بها، ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (١)، يقول: لا حرج عليه أن يطوف بينهما لقولهم: إن علينا حرجًا فى الطواف بينهما، ثم قال سبحانه: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ بعد الفريضة، فزاد فى الطواف، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [آية: ١٥٨] لأعمالكم عليم بها، وقد طاف إبراهيم الخليل ﷺ بين الصفا والمروة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾، وذلك أن معاذ بن جبل، وسعد بن معاذ، وحارثة بن زيد، سألوا اليهود عن أمر محمد ﷺ وعن الرجم وغيره فكتموهم، يعنى اليهود، منهم: كعب ابن الأشرف، وابن صوريا، ﴿مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، يعنى ما بين الله عز وجل فى التوراة، يعنى الرجم والحلال والحرام، ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾، يعنى أمر محمد ﷺ فى التوراة، فكتموه الناس، يقول الله سبحانه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ﴾، يعنى أمر محمد ﷺ، ﴿لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعنى لبنى إسرائيل فى التوراة، وذلك قوله سبحانه فى العنكبوت: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾، أى بمحمد ﷺ ﴿إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، يعنى المكذبون بالتوراة، وهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [آية: ١٥٩]، وذلك أن الكافر يضرب فى قبره فيصيح ويسمع صوته الخليقة كلهم، غير الجن والإنس، فيقولون: إنما كان يحبس عنا الرزق بذنب هذا، فتلعنهم الخليقة، فهم اللاعنون.

ثم استثنى مؤمنى أهل التوراة، فقال سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ من الكفر

---

(١) قراءة علىّ وابن عباس كرم الله وجوههما بخلاف وسعيد بن جُبير، وأنس ابن مالك ومحمد بن سِيرين وأُبىّ بن كعب وابن مسعود وميمون بن مهران: «ألاّ يَطَّوف بهما» وقراءة شهر، وعطاء. انظر: (معانى القرآن للفراء ٩٥/١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٨٢/٢ الكشاف للزمخشرى ١٠٤/١، البحر المحيط لأبى حيان ٤٥٦/١، تفسير الفخر الرازى ٤٥/٢).

﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ العمل ﴿وَبَيَّنُواْ﴾ أمر محمد ﷺ للناس، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، يعنى أتجاوز عنهم، ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [آية: ١٦٠]، ثم ذكر من مات من اليهود على الكفر، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَ﴾ لعنة ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَ﴾ لعنة ﴿وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [آية: ١٦١]، يعنى المؤمنين جميعًا، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾، يعنى فى اللعنة، واللعنة النار، ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ [آية: ١٦٢]، لا يناظر بهم حتى يعذبوا.

ثم قال لأهل الكتاب: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾، يقول: ربكم رب واحد، فوحد نفسه تبارك اسمه، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [آية: ١٦٣].

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وذلك أن كفار مكة قالوا لرسول الله ﷺ: ائتنا بآية، اجعل لنا الصفا ذهبًا، فقال الله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي﴾، يعنى السفن التى ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ فى معايشهم، ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ﴾، يعنى بالماء ﴿ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ بيبسها، ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾، يعنى وبسط، ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ فى العذاب والرحمة، ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [آية: ١٦٤]، فيما ذكر من صنعه فيوحدوه.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، يعنى مشركى العرب، ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا﴾، يعنى شركاء، وهى الآلهة، ﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾، يقول: يحبون آلهتهم كما يحب الذين

آمنوا ربهم، ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ منهم لآلهتهم، ثم أخبر عنهم، فقال: ﴿وَلَوۡ يَرَى﴾ محمد يوم القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، يعني مشركي العرب ستراهم يا محمد في الآخرة ﴿إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ فيعلمون حينئذ ﴿أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [آية: ١٦٥]، ثم أخبر سبحانه عنهم، فقال: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾، يعني القادة، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾، يعني الأتباع، ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾، يعني القادة والأتباع، ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ [آية: ١٦٦]، يعني المنازل والأرحام التي كانوا يجتمعون عليها من معاصي الله، ويتحابون عليها في غير عبادة الله، انقطع عنهم ذلك وندموا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾، أي الأتباع: ﴿لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ﴾، يعني رجعة إلى الدنيا، ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ﴾ من القادة، ﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ﴾ في الآخرة، وذلك قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ﴾، يعني يتبرأ ﴿بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يقول: هكذا ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، يعني القادة والأتباع ﴿حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ﴾، يعني ندامة، ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [آية: ١٦٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾، يعني مما حرموا من الحرث والأنعام، نزلت في ثقيف، وفي بني عامر بن صعصعة، وخزاعة، وبني مدلج، وعامر والحارث ابني عبد مناة، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، يعني تزيين الشيطان في تحريم الحرث والأنعام، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [آية: ١٦٨]، يعني بين، ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ﴾، يعني بالإثم، ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾، يعني وبالمعاصي؛ لأنه لكم عدو مبين، ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأنه حرم عليكم ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [آية: ١٦٩] أنتم أنه حرمه.

ثم أخبر عنهم، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن في تحليل ما

حرموه، ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ من أمر الدين، فإن آباءنا أمرونا أن نعبد ما كانوا يعبدون، قل يا محمد: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾ من الدين ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [آية: ١٧٠] به أفتتبعونهم، ثم ضرب لهم مثلاً، فقال سبحانه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾، يعني الشاة والحمار، ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، يعني مثل الكافر كمثل البهيمة إن أمرت أن تأكل أو تشرب سمعت صوتًا ولا تعقل ما يقال لها، فكذلك الكافر الذين يسمع الهدى والموعظة إذا دعي إليها، فلا يعقل ولا يفهم بمنزلة البهيمة، يقول: ﴿صُمٌّ﴾، فلا يسمعون الهدى، ﴿بُكْمٌ﴾، فلا يتكلمون بالهدى، ﴿عُمْىٌ﴾، فلا يبصرون الهدى، ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [آية: ١٧١] الهدى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من تحليل الحرث والأنعام، يعني بالطيب الحلال، ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [آية: ١٧٢]، ولا تحرموا ما أحل الله لكم من الحرث والأنعام، ثم بين ما حرم، فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾، يقول: وما ذبح للأوثان، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ إلى شيء مما حرم الله ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ استحلاله، ﴿وَلَا عَادٍ﴾، يعني ولا معتديًا لم يضطر إليه، ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في أكله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما أكل من الحرام في الاضطرار، ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آية: ١٧٣]، إذ رخص لهم في الاضطرار، مثلها في الأنعام، والمضطر يأكل على قدر قوته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعني التوراة أنزلت في رءوس اليهود، منهم: كعب بن الأشرف، وابن صوريا، كتموا أمر محمد ﷺ في التوراة،

﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ، يعنى عرضًا من الدنيا، ويختارون على الكفر بمحمد ثمنًا قليلاً، يعنى عرضًا من الدنيا يسيرًا مما يصيبون من سفلة اليهود من المآكل كل عام، ولو تابعوا محمدًا لحبست عنهم تلك المآكل، فقال الله تعالى ذكره: ﴿أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ، يقول: ولا يزكى لهم أعمالهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آية: ١٧٤]، يعنى وجيع.

ثم أخبر عنهم، فقال سبحانه: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ ، يعنى باعوا الهدى الذى كانوا فيه من إيمان بمحمد ﷺ قبل أن يبعث بالضلالة التى دخلوا فيها بعدما بعث محمد، ثم قال: ﴿وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ ، أى اختاروا العذاب على المغفرة، ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [آية: ١٧٥]، يقول: أى شىء جرأهم على عمل يدخلهم النار، فما أصبرهم عليها إلا أعمالهم الخبيثة، ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذى نزل بهم فى الآخرة ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ، يعنى القرآن، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ، يقول: لم ينزل باطلاً لغير شىء، فلم يؤمنوا به، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ ، يعنى فى القرآن، ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [آية: ١٧٦]، يعنى لفى ضلال بعيد، يعنى طويل.

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ ، يعنى ليس التقوى أن تحولوا وجوهكم فى الصلاة ﴿قِبَلَ﴾ ، يعنى تلقاء ﴿ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ ، فلا تفعلوا ذلك، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ ، يعنى صدق بالله بأنه واحد لا شريك له، ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ، يعنى وصدق بالبعث الذى فيه جزاء الأعمال بأنه كائن ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ، أى وصدق بالملائكة، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ ، يعنى وأعطى المال ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ له أعطى ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ، يعنى والضيف نازل عليك ﴿وَ﴾ أعطى ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ ، فهذا تطوع، ثم قال سبحانه: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المكتوبة ﴿وَءَاتَى﴾ وأعطى ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ فيما

بينهم وبين الناس، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، يعنى الفقر، والضراء يعنى البلاء، ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾، يعنى وعند القتال هم صابرون، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾ فى إيمانهم، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [آية: ١٧٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ إذا كان عمدًا، وذلك أن حيين من العرب اقتتلوا فى الجاهلية قبل الإسلام بقليل، وكانت بينهم قتلى وجرحى، حتى قتل العبيد والنساء، فلم يأخذ بعضهم من بعض الأموال حتى أسلموا، وكان أحد الحيين له طول على الآخر فى العدد والأموال، فحلفوا ألا نرضى حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم، وبالمرأة منا الرجل منهم، فأنز الله عز وجل: ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ﴾، فسوى بينهم فى الدماء، وأمرهم بالعدل فرضوا، فصارت منسوخة نسختها الآية التى فى المائدة قوله سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا﴾ فيما قضينا ﴿عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، يعنى النفس المسلم الحر بالنفس، المسلم الحر، والمسلمة الحرة بالمسلمة الحرة، ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾.

ثم رجع إلى أول الآية فى قوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ إذا كان عمدًا إذا عفى ولى المقتول عن أخيه القاتل ورضى بالدية، ﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، يعنى الطالب ليطلب ذلك فى رفق، ثم قال للمطلوب: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾، يقول: ليؤدى الدية إلى الطالب عفوًا فى غير مشقة ولا أذى، ﴿ذَٰلِكَ﴾ العفو والدية ﴿تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ إذ جعل فى قتل العمد العفو والدية، ثم قال: ﴿وَرَحۡمَةٞۗ﴾، يعنى وتراحموا، وكان الله عز وجل حكم على أهل التوراة أن يقتل القاتل، ولا يعفى عنه، ولا يقبل منه الدية، وحكم على أهل الإنجيل العفو، ولا يقتل القاتل بالقصاص، ولا يأخذ ولى المقتول الدية.

ثم جعل الله عز وجل التخفيف لأمة محمد ﷺ إن شاء ولى المقتول قتل القاتل، وإن شاء عفا عنه، وإن شاء أخذ منه الدية، فكان لأهل التوراة أن يقتل قاتل الخطأ والعمد،

فرخص الله عز وجل لأمة محمد ﷺ، فذلك قوله سبحانه فى الأعراف: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] من التشديدات، وهم أن يقتل قاتل العمد ولا يعفى عنه، ولا يؤخذ منه الدية، ثم قال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آية: ١٧٨]، يعنى وجيع، فإنه يقتل، ولا يؤخذ منه دية، قال النبى ﷺ: «لا عفو عمن قتل القاتل بعد أخذ الدية، وقد جعل الله له عذابًا أليمًا».

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، يعنى بقاء يحجز بعضكم عن بعض ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، يعنى من كان له لب أو عقل، فذكر القصاص، فيحجزه الخوف عن القتل، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾، يعنى لكى ﴿تَتَّقُونَ﴾ [آية: ١٧٩] الدماء مخافة القصاص.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾، يعنى فرض عليكم، نظيرها: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦]، يعنى فرض، نظيرها أيضًا: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا﴾، يعنى ما فرضناها ﴿عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]، يعنى الرهبانية، ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ﴾ بعد موته ﴿خَيْرًا﴾، يعنى المال، ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، يعنى تفضيل الوالدين على الأقربين فى الوصية، وليوص للأقربين بالمعروف.

والذين لا يرثون يقول الله عز وجل تلك الوصية ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آية: ١٨٠]، فمن لم يوص لقرابته عند موته، فقد ختم عمله بالمعصية، ثم نزلت آية الميراث بعد هذه الآية، فنسخت للوالدين(١)، وبقيت الوصية للأقربين الذين لا يرثون، ما بينه وبين ثلث ماله، ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾، يقول: من بدل وصية الميت، يعنى الوصى والولى بعدما سمعه من الميت، فلم يمض وصيته، ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾، يعنى الوصى والولى وبرىء منه الميت، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لوصية الميت، ﴿عَلِيمٌ﴾ [آية: ١٨١] بها.

ثم قال: ﴿فَمَنْ خَافَ﴾، يعنى الوصى ﴿مِن مُّوصٍ﴾، يعنى الميت ﴿جَنَفًا﴾ ميلاً

---

(١) هذا فيه نظر لأن آية المواريث لا تعارض الوصية بل تؤكدها من حيث أنها تدل على تقديم الوصية مطلقًا.

عن الحق خطأ، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ تعمدًا للجنف، أى إن جار الميت فى وصيته عمدًا أو خطأ، فلم يعدل، فخاف الوصى أو الولى من جور وصيته، ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الورثة بالحق والعدل، ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ حين خالف جور الميت، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمصلح ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آية: ١٨٢] به إذا رخص فى مخالفة جور الميت.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، وذلك أن لبيد الأنصارى من بنى عبد الأشهل كبر فعجز عن الصوم، فقال للنبى ﷺ: ما على من عجز عن الصوم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، يعنى فرض عليكم، نظيرها: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾، يعنى فرض عليكم القتال، ﴿كَمَا كُتِبَ﴾، يعنى كما فرض ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، يعنى أهل الإنجيل، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [آية: ١٨٣]، يعنى لكى تتقون الطعام والشراب والجماع، فمن صلى العشاء الآخرة أو نام قبل أن يصلى العشاء الآخرة، حرم عليه ما يحرم على الصائم.

وكان ذلك على الذين من قبلنا ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾، وهى دون الأربعين، فإذا كانت فوق الأربعين فلا يقال لهم: ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾، ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾، أى ومن كان يطيق الصوم، وليس بمريض ولا مسافر، فإن شاء صام، وإن شاء أفطر، وعليه فدية ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، لكل مسكين نصف صاع حنطة، ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾، فزاد على مسكين فأطعم مسكينين أو ثلاثة مكان كل يوم، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ من أن يطعم مسكينًا واحدًا، ثم قال: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ﴾، يعنى ولأن تصوموا خير ﴿لَّكُمْ﴾ من الطعام ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آية: ١٨٤]، وكان المؤمنون قبل رمضان يصومون عاشوراء ولا يصومون غيره، ثم أنزل الله عز وجل صوم رمضان بعد، فنسخ الطعام، وثبت الصوم، إلا على من لا يطيق الصوم، فليفطر وليطعم مكان كل يوم مسكينًا نصف صاع حنطة.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ

﴿وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

ثم بين لهم أى شهر يصومون، فقال عز وجل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، من اللوح المحفوظ فى عشرين شهرًا، وأنزل به جبريل، عليه السلام، عشرين سنة، ثم قال سبحانه: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ﴾، يعنى فى الدين من الشبهة والضلالة، نظيرها فى آل عمران [الآية: ٤]: ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾، يعنى المخرج من الشبهات، ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ﴾، فواجب عليه الصيام، ولا يطعم، ﴿وَمَن كَانَ﴾ منكم ﴿مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، فلم يصم، فإذا برئ المريض من مرضه، ﴿فَعِدَّةٌ﴾ فليصم عدة ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ﴾، إن شاء صام متتابعًا، وإن شاء متقطعًا، وهكذا المسافر، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾، يعنى الرفق فى أمر دينكم حين رخص للمريض والمسافر فى الفطر، ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، يعنى الضيق فى الدين، فلو لم يرخص للمريض والمسافر، كان عسرًا، ثم قال عز وجل: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾، يعنى تمام الأيام المعدودات، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟﴾، يعنى لكى تعظموا ﴿ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ من أمر دينه، ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾، يعنى لكى، ﴿تَشْكُرُونَ﴾ [آية: ١٨٥] ربكم فى هذه النعم إذ هداكم لأمر دينه.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾، وذلك أنه كان فى الصوم الأول أن الرجل إذا صلى العشاء الآخرة، أو نام قبل أن يصليها، حرم عليه الطعام والشراب والجماع، كما يحرم بالنهار على الصائم، ثم إن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، صلى العشاء الآخرة، ثم جامع امرأته[1]، فلما فرغ ندم وبكا، فلما أصبح أتى النبى ﷺ فأخبره، فقال: يا نبى الله، إنى أعتذر إلى الله عز وجل، ثم إليك من نفسى هذه الخاطئة واقعت أهلى بعد الصلاة، فهل تجد لى رخصة، فقال له النبى ﷺ: «لم تك جديرًا بذلك يا عمر»، فرجع حزينًا، ورأى النبى ﷺ صرمة بن أنس بن صرمة بن مالك، من بنى

(١) انظر: أسباب النزول للواحدى (ص ٢٧، ٢٨)، وأسباب النزول للسيوطى (ص ٢٥)، وتفسير ابن كثير (١/ ٢٢١).

عدى بن النجار عند العشاء، فقال النبى ﷺ: «يا أبا قيس، ما لك طليحًا؟»، فقال: يا رسول الله، ظللت أمس فى حديقتى، فلما أمسيت أتيت أهلى، وأرادت المرأة أن تطعمنى شيئًا سخنًا، فأبطأت علىَّ بالطعام، فرقدت فأيقظتنى وقد حرم علىَّ الطعام، فأمسيت وقد أجهدنى الصوم.

واعترف رجال من المسلمين عند ذلك بما كانوا يصنعون بعد العشاء، فقالوا: ما توبتنا ومخرجنا مما علمنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾، أى فأعلمهم أنى قريب منهم فى الاستجابة، ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى﴾ بالطاعة، ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِى﴾، يعنى وليصدقوا بى، فإنى قريب سريع الإجابة أجيبهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [آية: ١٨٦]، يعنى لكى يهتدون.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِى الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

ثم قال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ رخصة للمؤمنين بعد صنيع عمر، رضى الله عنه، ﴿الرَّفَثُ﴾، يعنى الجماع، ﴿إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾، يقول: هن سكن لكم، وأنتم سكن لهن، ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، يعنى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فى جماع امرأته، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾، يعنى فتجاوز عنكم، ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾.

قوله سبحانه: ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ بالمعصية، نظيرها: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، فخالفتاهما، يعنى بالمعصية، وكقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]، يعنى على معصية، ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾، يقول: تركك فلم يعاقبكم، ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾، يعنى جامعوهن من حيث أحللت لكم الجماع الليل كله، ﴿وَابْتَغُوا﴾ من نسائكم ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ من الولد، يعنى واطلبوا ما قضى لكم وأنزل فى صرمة بن أنس، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ

﴿ٱلۡأَسۡوَدِ﴾، حتى يتبين لكم وجه الصبح، يعنى بياض النهار من سواد الليل، ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾، والخيط الأبيض يعنى أول بياض الصبح، الضوء المعترض قبل المشرق، والخيط الأسود أول سواد الليل، ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾، نزلت فى على بن أبى طالب، رضى الله عنه، وعمار بن ياسر، وأبى عبيدة بن الجراح، كان أحدهم يعتكف، فإذا أراد الغائط من السحر رجع إلى أهله بالليل، فيباشر ويجامع امرأته ويغتسل ويرجع إلى المسجد، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾ ﴿وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾، يقول: لا تجامعوا النساء ليلاً ولا نهارًا مادمتم معتكفين، ثم قال عز وجل: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ المباشرة تلك معصية الله، ﴿فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾، يعنى أمره ﴿لِلنَّاسِ﴾ وأمر الاعتكاف، ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾، يعنى لكى ﴿يَتَّقُونَ﴾ [آية: ١٨٧] المعاصى فى الاعتكاف.

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٨﴾

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، يعنى ظلمًا، وذلك أن امرأ القيس بن عابس، وعبدان بن أشوع الحضرمى اختصما فى أرض، فكان امرؤ القيس المطلوب، وعبدان الطالب، فلم يكن لعبدان بينة، وأراد امرؤ القيس أن يحلف، فقرأ النبى ﷺ: «﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾» [آل عمران: ٧٧]، يعنى عرضًا يسيرًا من الدنيا، إلى آخر الآية، فلما سمعها امرؤ القيس كره أن يحلف، و لم يخاصمه فى أرضه، وحكمه فيها، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ ﴿وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ﴾، يقول: لا يدلين أحدكم بخصومة فى استحلال مال أخيه، وهو يعلم أنه مبطل، فذلك قوله سبحانه: ﴿لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا﴾، يعنى طائفة، ﴿مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آية: ١٨٨] أنكم تدعون الباطل، فقال النبى ﷺ: «إنما أنا بشر مثلكم، فلعلى بعضكم أعلم بحجته، فأقضى له وهو مبطل»، ثم قال عليه السلام: «أيما رجل قضيت له بمال امرئ مسلم، فإنما هى قطعة من نار جهنم أقطعها، فلا تأكلوها».

﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩﴾

قوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾، نزلت فى معاذ بن جبل، وثعلبة بن غنمة، وهما من الأنصار، فقال معاذ: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو مثل الخيط، ثم يزيد حتى يمتلئ فيستوى، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ فى أجل دينهم، وصومهم، وفطرهم، وعدة نسائهم، والشروط التى بينهم إلى أجل، ثم قال عز وجل: ﴿وَٱلْحَجِّ﴾، يقول: وقت حجهم والأهلة مواقيت لهم، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾، وذلك أن الأنصار فى الجاهلية وفى الإسلام كانوا إذا أحرم أحدهم بالحج أو بالعمرة، وهو من أهل المدن، وهو مقيم فى أهله لم يدخل منزله من باب الدار، ولكن يوضع له سلم إلى ظهر البيت فيصعد فيه، وينحدر منه، أو يتسور من الجدار، وينقب بعض بيوته، فيدخل منه ويخرج منه، فلا يزال كذلك حتى يتوجه إلى مكة محرمًا، وإذا كان من أهل الوبر دخل وخرج من وراء بيته.

وأن النبى ﷺ دخل يومًا نخلاً لبنى النجار، ودخل معه قطبة بن عامر بن حديدة الأنصارى من بنى سلمة بن جشم من قبل الجدار، وهو محرم، فلما خرج النبى ﷺ من الباب وهو محرم، خرج قطبة من الباب، فقال رجل: هذا قطبة خرج من الباب وهو محرم، فقال النبى ﷺ: «ما حملك أن تخرج من الباب وأنت محرم؟»، قال: يا نبى، رأيتك خرجت من الباب وأنت محرم، فخرجت معك، ودينى دينك، فقال النبى ﷺ: «خرجت لأنى من أحمس»، فقال قطبة للنبى ﷺ: إن كنت أحمسيًا فإنى أحمسى، وقد رضيت بهديك ودينك، فاستننت بسنتك، فأنزل الله فى قول قطبة بن عامر للنبى ﷺ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ﴾، يعنى التقوى، ﴿بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الله واتبع أمره، ثم قال عز وجل: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ولا تعصوه يحذركم ﴿لَعَلَّكُمْ﴾، يقول: لكى ﴿تُفْلِحُونَ﴾ [آية: ١٨٩]، والحمس قريش، وكنانة، وخزاعة، وعامر بن صعصعة، الذين لا يسلون السمن ولا يأكلون الأقط ولا يبنون الشعر والوبر.

﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ

ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾، وذلك أن الله عز وجل نهى النبى ﷺ والمؤمنين عن الشهر الحرام أن يقاتلوا فى الحرم إلا أن يبدأهم المشركون بالقتال، وأن النبى ﷺ بينا هو وأصحابه معتمرون إلى مكة فى ذى القعدة، وهم محرمون عام الحديبية، والمسلمون يومئذ ألف وأربعمائة رجل، فصدهم مشركو مكة عن المسجد الحرام وبدأوهم بالقتال، فرخص الله فى القتال، فقال سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ﴾ فتبدأوا بقتالهم فى الشهر الحرام وفى الحرم، فإنه عدوان، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [آية: ١٩٠]، ثم قال سبحانه: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾، يعنى أين أدركتموهم فى الحل والحرم، ﴿وَأَخْرِجُوهُم﴾ من مكة ﴿مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ﴾، يعنى من مكة، ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ﴾، يعنى الشرك أعظم عند الله عز وجل جرمًا من القتل، نظيرها: ﴿أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ [التوبة: ٤٩]، يعنى فى الكفر وقعوا، فلما نزلت: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾، أنزل الله عز وجل بعد: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، يعنى أرض الحرم كله، فنسخت هذه الآية، ثم رخص لهم، ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ﴾، يعنى حتى يبدءوا بقتالكم فى الحرم، ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ﴾ فيه، ﴿فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آية: ١٩١] إن بدأوا بالقتال فى الحرم أن يقاتلوا فيه.

ثم قال سبحانه: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ عن قتالكم ووحدوا ربهم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لشركهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آية: ١٩٢] بهم فى الإسلام، نظيرها فى الأنفال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه﴾ [الأنفال: ٣٩] إلى آخر الآية، ثم قال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ أبدًا ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، يقول: حتى لا يكون فيهم شرك فيوحدوا ربهم ولا يعبدوا غيره، يعنى مشركى العرب خاصة، ﴿وَيَكُونَ﴾، يعنى ويقوم ﴿ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾، فيوحدوه ولا يعبدوا غيره، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ عن الشرك ووحدوا ربهم، ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ﴾، يعنى فلا سبيل ﴿إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آية: ١٩٣] الذين لا يوحدون ربهم، نظيرها فى القصص: ﴿فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ [القصص: ٢٨]، يعنى فلا سبيل علىَّ.

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾، وذلك أن النبى ﷺ والمسلمين ساروا إلى مكة محرمين بعمرة، ومن كان معه عام الحديبية، لست سنين من هجرته إلى المدينة، فصدهم مشركو مكة، وأهدى أربعين بدنة، ويقال: مائة بدنة، فردوه وحبسوه شهرين لا يصل إلى البيت، وكانت بيعة الرضوان عامئذ، فصالحهم النبى ﷺ على أن ينحر الهدى مكانه فى أرض الحرم ويرجع فى يدخل مكة، فإذا كان العام المقبل خرجت قريش من مكة، وأخلوا له مكة ثلاثة أيام، ليس مع المسلمين سلاح إلا فى غمده، فرجع النبى ﷺ، ثم توجه من فوره ذلك إلى خيبر، فافتتحها فى المحرم، ثم رجع إلى المدينة، فلما كان العام المقبل، وأحرم النبى ﷺ وأصحابه بعمرة فى ذى القعدة وأهدوا.

ثم أقبلوا من المدينة، فأخلى لهم المشركون مكة ثلاثة أيام، وأدخلهم الله عز وجل مكة، فقضوا عمرتهم ونحروا البدن، فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ﴾ الذى دخلتم فيه مكة هذا العام ﴿بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾، يعنى الذى صدوكم فيه العام الأول، ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ﴾، يعنى اقتصصت لك منهم فى الشهر الحرام، يعنى فى ذى القعدة كما صدوكم فى الشهر الحرام، وذلك أنهم فرحوا وافتخروا حين صدوا النبى ﷺ عن المسجد الحرام، فأدخله الله عز وجل من قابل، ثم قال سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾، وذلك أن أصحاب النبى ﷺ أهلوا إلى مكة محرمين بعمرة، فخافوا ألا يفى لهم المشركون بدخول المسجد الحرام، وأن يقاتلوهم عنده، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ فقاتلكم فى الحرم، ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾، يقول: فقاتلوهم فيه، ﴿بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ فيه، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، يعنى المؤمنين، ولا تبدءوهم بالقتال فى الحرم، فإن بدأ المشركون فقاتلوهم، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ فى النصر ﴿مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [آية: ١٩٤]، الشرك، فخبرهم أنه ناصرهم.

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾

قوله سبحانه: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وذلك أن النبى ﷺ والمسلمين ساروا من المدينة إلى مكة محرمين بعمرة فى العام الذى أدخله الله عز وجل مكة، فقال ناس من العرب منازلهم حول المدينة: والله ما لنا زاد، وما يطعمنا أحد، فأمر الله عز وجل بالصدقة عليهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾، أى ولا تكفوا أيديكم

عن الصدقة فتهلكوا. وقال رجل من الفقراء: يا رسول الله، ما نجد ما نأكل، فبأى شيء نتصدق، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، فإن أمسكتم عنها فهى التهلكة، ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ﴾ النفقة فى سبيل الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آية: ١٩٥]، يعنى من أحسن فى أمر النفقة فى طاعة الله.

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١٩٦) ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩٧)﴾

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ من المواقيت، ولا تستحلوا فيهما ما لا ينبغى لكم، فريضتان واجبتان، ويقال: العمرة هى الحج الأصغر، وتمام الحج والعمرة المواقيت والإحرام خالصًا لا يخالطه شيء من أمر الدنيا، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يشركون فى إحرامهم، فأمر الله عز وجل النبى ﷺ والمسلمين أن يتموهما لله، فقال: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، وهو ألا يخلطوهما بشيء، ثم خوفهم أن يستحلوا منهما ما لا ينبغى، فقال سبحانه فى آخر الآية: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾، يقول: فإن حبستم كقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ أُحصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، يعنى حبسوا، نظيرها أيضًا: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨]، يعنى محبسًا.

يقول: إن حبسكم فى إحرامكم بحج أو بعمرة كسر أو مرض أو عدو عن المسجد الحرام، ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾، يعنى فليقم محرمًا مكانه ويبعث ما استيسر من الهدى أو بثمن الهدى، فيشترى له الهدى، فإذا نحر الهدى عنه، فإنه يحل من إحرامه مكانه، ثم قال: ﴿وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ﴾ فى الإحرام، ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ﴾، يعنى حتى يدخل الهدى مكة، فإذا نحر الهدى حل من إحرامه، ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾، وذلك أن كعب بن عجرة الأنصارى كان محرمًا بعمرة عام الحديبية، فرأى النبى ﷺ على مقدم رأسه

قملاً كثيرًا، فقال النبى ﷺ: «يا كعب، أيؤذيك هوام رأسك؟»، قال: نعم يا نبى الله، فأمره رسول الله ﷺ أن يحلق، فأنزل الله عز وجل فى كعب: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾، فحلق رأسه، ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾، فعليه فدية صيام ثلاثة أيام إن شاء متتابعًا، وإن شاء متقطعًا، ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من حنطة، ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾، يعنى شاة أو بقرة أو بعيرًا ينحره، ثم يطعمه المساكين بمكة، ولا يأكل منه، وهو بالخيار، إن شاء ذبح شاة أو بقرة أو بعيرًا، فأما كعب، فذبح بقرة.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ من الحبس من العدو عن البيت الحرام، ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾، يقول: وهو يريد الحج، فإن دخل مكة وهو محرم بعمرة فى غرة شوال، أو ذى القعدة، أو فى عشر من ذى الحجة، ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾، يعنى شاة فما فوقها يذبحها فيأكل منها ويطعم، فقال أبو هريرة، وسلمان، وأبو العرباض للنبى ﷺ: إنا لا نجد الهدى، فلنصم ثلاثة أيام، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الهدى فليصم، ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾ فى عشر الأضحى فى أول يوم من العشر إلى يوم عرفة، فإن كان يوم عرفة يوم الثالث، تم صومه، ثم قال: ﴿وَسَبْعَةٍ﴾، يعنى ولتصوموا سبعة أيام ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ من منى إلى أهليكم، ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾، فمن شاء صام فى الطريق، ومن شاء صام فى أهله، إن شاء متتابعًا، وإن شاء متقطعًا، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ التمتع ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [آية: ١٩٦]، يعنى من لم يكن منزله فى أرض الحرم كله، فمن كان أهله فى أرض الحرم، فلا متعة عليه ولا صوم.

ثم قال عز وجل: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾، يقول: من أحرم بالحج، فليحرم فى شوال، أو فى ذى القعدة، أو فى عشر ذى الحجة، فمن أحرم فى سوى هذه الأشهر، فقد أخطأ السنة، وليجعلها عمرة، ثم قال: ﴿فَمَن فَرَضَ﴾، يقول: فمن أحرم ﴿فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾، أى الحج، ﴿فَلَا رَفَثَ﴾، يعنى فلا جماع، كقوله سبحانه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾، يعنى الجماع ﴿إِلَى نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾، يعنى ولا سباب، ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾، يعنى ولا مراء، كقوله سبحانه: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ [غافر: ٤]، يعنى ما يمارى حتى يغضب وهو محرم، أو يغضب صاحبه وهو محرم، فمن فعل ذلك فليطعم مسكينًا، وذلك أن النبى ﷺ أمر فى حجة

الوداع، فقال: «من لم يكن معه هدى فليحل من إحرامه، وليجعلها عمرة»، فقالوا للنبى ﷺ: إنا أهللنا بالحج، فذلك جداهم للنبى ﷺ.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾، يعنى مما نهى من ترك الرفث والفسوق والجدال، ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾، فيجزيكم به، ثم قال عز وجل: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾، وذلك أن ناسًا من أهل اليمن وغيرهم كانوا يحجون بغير زاد، وكانوا يصيبون من أهل الطريق ظلمًا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ من الطعام ما تكفون به وجوهكم عن الناس وطلبهم، وخير الزاد التقوى، يقول الله تبارك اسمه: التقوى خير زاد من غيره، ولا تظلمون من تمرون عليه، ﴿وَاتَّقُونِ﴾ ولا تعصون ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آية: ١٩٧]، يعنى يا أهل اللب والعقل، فلما نزلت هذه الآية قال النبى ﷺ: «تزودوا ما تكفون به وجوهكم عن الناس، وخير ما تزودتم التقوى».

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يحجون منهم الحاج والتاجر، فلما أسلموا قالوا للنبى ﷺ: إن سوق عكاظ وسوق منى وذى المجاز فى الجاهلية كانت تقوم قبل الحج وبعد الحج، فهل يصلح لنا البيع والشراء فى أيام حجنا قبل الحج وبعد الحج، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾، فى مواسم الحج، يعنى التجارة، فرخص الله سبحانه فى التجارة، ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ بعد غروب، ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ تلك الليلة ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾، فإذا أصبحتم، يعنى بالمشعر حيث يبيت الناس بالمزدلفة، فاذكروا الله، ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ لأمر دينه، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل أن يهديكم لدينه ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [آية: ١٩٨]، يعنى عن الهدى.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي

﴿ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾، وذلك الحمس، قريش، وكنانة، وخزاعة، وعامر بن صعصعة، كانوا يبيتون بالمشعر الحرام، ولا يخرجون من الحرم خشية أن يقتلوا، وكانوا لا يقفون بعرفات، فأنزل الله عز وجل فيهم يأمرهم بالوقوف بعرفات، فقال لهم: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾(١)، يعنى ربيعة، واليمن كانوا يفيضون من عرفات قبل غروب الشمس، ويفيضون من جمع إذا طلعت الشمس، فخالف النبى ﷺ فى الإفاضة، ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ لذنوبكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوب المؤمنين، ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آية: ١٩٩] بهم.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ بعد أيام التشريق، ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾، وذلك أنهم كانوا إذا فرغوا من المناسك وقفوا بين مسجد منى وبين الجبل يذكر كل واحد منهم أباه ومحاسنه، ويذكر صنائعه فى الجاهليو أنه كان من أمره كذا وكذا، ويدعو له بالخير، فقال الله عز وجل: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾، كذكر الأبناء الآباء، فإنى أنا فعلت ذلك الخير إلى آبائكم الذين تتنون عليهم، ثم قال سبحانه: ﴿أَوْ أَشَدَّ﴾، يعنى أكثر ﴿ذِكْرًا﴾ لله منكم لآبائكم، وكانوا إذا قضوا مناسكهم قالوا: اللهم أكثر أموالنا، وأبناءنا، ومواشينا، وأطل بقاءنا، وأنزل علينا الغيث، وأنبت لنا المرعى، وأصحبنا فى سفرنا، وأعطنا الظفر على عدونا، ولا يسألون ربهم عن أمر آخرتهم شيئًا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا﴾، يعنى أعطنا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾، يعنى هذا الذى ذكر، فقال سبحانه: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [آية: ٢٠٠]، يعنى من نصيب، نظيرها فى براءة: ﴿فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاقِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٩]، يعنى بنصيبهم، فهؤلاء مشركو العرب. فلما أسلموا وحجوا دعوا ربهم، فقال سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آية: ٢٠١]، أى دعوا ربهم أن يؤتيهم ﴿فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، يعنى الرزق الواسع، وأن يؤتيهم ﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ

---

(١) انظر: (الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٢/٤٢٨، إعراب القرآن للعكبرى ١/٥١، البحر المحيط ٢/١٠٠، ١٠١، تفسير الفخر الرازى ٢/١٧٩).

﴿حَسَنَةً﴾، فيجعل ثوابهم الجنة، وأن يقيهم ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾.

ثم أخبر عنهم، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾، يقول: حظ من أعمالهم الحسنة، ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آية: ٢٠٢]، يقول: كأنه قد كان، فهؤلاء المؤمنون.

﴿۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)﴾

﴿۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ إذا رميتم الجمار، يعنى أيام التشريق، والأيام المعلومات يعنى يوم النحر ويومين من أيام التشريق بعد النحر، فكان عمر، رضى الله عنه، يكبر فى قبته بمنى، فيرفع صوته، فيسمع أهل مسجد منى فيكبرون كلهم حتى يرتج منى تكبيرًا، ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، يعنى بعد يوم النحر بيومين، يقول: من تعجل فنفر قبل غروب الشمس، ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، يقول: فلا ذنب عليه، يقول: ذنوبه مغفورة، فمن لم ينفر حتى تغرب الشمس فليقم إلى الغد يوم الثالث، فيرمى الجمار، ثم ينفر مع الناس، قال: ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ إلى يوم الثالث حتى ينفر الناس، ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾(١)، يقول: لا ذنب عليه، يقول: ذنوبه مغفورة، ثم قال: ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ قتل الصيد، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، ولا تستحلوا قتل الصيد فى الإحرام، ﴿وَاعْلَمُوا﴾ يخوفهم ﴿أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آية: ٢٠٣] فى الآخرة فيجزيكم بأعمالكم، نظيرها فى المائدة: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦] فيجزيكم بأعمالكم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، نزلت فى الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب بن أبى سلمة الثقفى، وأمه اسمها ريطة بنت عبد الله بن أبى قيس القرشى، من بنى عامر بن لؤى، وكان عديد بنى زهرة، وكان يأتى النبى ﷺ فيخبره أنه يحبه ويحلف بالله على ذلك، ويخبره أنه يتابعه على دينه، فكان النبى ﷺ يعجبه ذلك

---

(١) انظر: (الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٣/١٤، البحر المحيط لأبى حيان ٢/١١١).

ويدنيه في المجلس، وفي قلبه غير ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ﴾ ما يقول، يعني يمينه التي حلف بالله، و﴿مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ أن الذي يقول حق ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [آية: ٢٠٤]، يقول: جدلاً بالباطل، كقوله سبحانه: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، يعني جدلاء خصماء.

ثم أخبر نبيه ﷺ، فقال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾، يعني إذا توارى وكان رجلاً مانعًا جريئًا على القتل، ﴿سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمعاصي؛ ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾، يعني في الأرض، ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾(١)، يعني كل دابة، وذلك أنه عمد إلى كديس بالطائف إلى رجل مسلم، فأحرقه وعقر دابته، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [آية: ٢٠٥]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾، يعني الحمية، نظيرها في ص آية: ٢ قوله سبحانه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، يعني حمية بالإثم، ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ شدة عذاب، ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آية: ٢٠٦]، وكان الأخنس يسمى أبي بن شريق، من بني زهرة بن كعب بن لؤي بن غالب، وإنما سمي الأخنس؛ لأنه يوم بدر رد ثلاثمائة رجل من بني زهرة عن قتال النبي ﷺ، وقال لهم: إن محمدًا ابن أختكم، وأنتم أحق من كف عنه، فإن كان نبيًا لم نقتله، وإن كان كاذبًا كنتم أحق من كف عنه، فخنس بهم، فمن ثم سمي الأخنس.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾، وذلك أن كفار مكة أخذوا عمارًا، وبلالاً، وخبابًا، وصهيبًا، فعذبوهم لإسلامهم حتى يشتموا النبي ﷺ، فأما صهيب بن سنان مولى عبد الله بن جدعان القرشي، وكان شخصًا ضعيفًا، فقال لأهل مكة: لا تعذبوني، هل لكم إلى خير؟ قالوا: وما هو؟ قال: أنا شيخ كبير، لا

(١) انظر: (معاني القرآن للفراء ١/١٢٤، الكشاف للزمخشري ١/١٢٣، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/١٧، جامع البيان للطبري ٤/٢٤٣، إعراب القرآن للعكبري ١/٥٢، البحر المحيط لأبي حيان ٢/١١٦، تفسير الفخر الرازي ٢/١٩٠، لسان العرب مادة «هلك» ١٠/٥٠٣).

يضركم إن كنت معكم أو مع غيركم، لئن كنت معكم لا أنفعكم، ولئن كنت مع غيركم لا أضركم، وإن لى عليكم لحقًا لخدمتى وجوارى إياكم، فقد علمت أنكم إنما تريدون مالى، وما تريدون نفسى، فخذوا مالى واتركونى ودينى غير راحلة، فإن أردت أن ألحق بالمدينة فلا تمنعونى، فقال بعضهم لبعض: صدق، خذوا ماله فتعاونوا به على عدوكم، ففعلوا ذلك، فاشترى نفسه بماله كله غير راحلة، واشترط ألا يمنع عن صلاة، ولا هجرة.

فأقام بين أظهرهم ما شاء، ثم ركب راحلته نهارًا حتى أتى المدينة مهاجرًا، فلقيه أبو بكر، رضى الله عنه، فقال: ربح البيع يا صهيب، فقال: وبيعك لا يخسر، فقال أبو بكر، رضى الله عنه: قد أنزل الله فيك: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آية: ٢٠٧]، يعنى للفعل فعل الرومى صهيب بن سنان مولى عبد الله بن جدعان بن عمرو بن سعيد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى.

قال عبد الله بن ثابت: سمعت أبى يقول: سمعت هذا الكتاب من أوله إلى آخره من الهذيل أبى صالح، عن مقاتل بن سليمان ببغداد درب السدرة سنة تسعين ومائة، قال: وسمعته من أوله إلى آخره قراءة عليه فى المدينة فى سنة أربع ومائتين، وهو ابن خمس وثمانين سنة، رحمنا الله وإياهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾، وذلك أن عبد الله بن سلام، وسلام بن قيس، وأسيد وأسد ابنا كعب، ويامين بن يامين، وهم مؤمنوا أهل التوراة، استأذنوا النبى ﷺ فى قراءة التوراة فى الصلاة، وفى أمر السبت، وأن يعملوا ببعض ما فى التوراة، فقال الله عز وجل: خذوا سنة محمد ﷺ وشرائعه، فإن قرآن محمد ينسخ كل كتاب كان قبله، فقال: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾، يعنى فى شرائع الإسلام كلها، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، يعنى تزيين الشيطان، فإن السُنة الأولى بعدما بعث محمد ﷺ ضلالة من خطوات الشيطان، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [آية: ٢٠٨]، يعنى بين.

﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾، يعنى ضللتم عن الهدى وفعلتم هذا ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾، يعنى شرائع محمد ﷺ وأمره، ثم حذرهم عقوبته، فقال: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ

﴿عَزِيزٌ﴾ فى نقمته، ﴿حَكِيمٌ﴾ [آية: ٢٠٩] حكم عليهم العذاب، ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾، يعنى ما ينظرون، ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾[1]، يعنى كهيئة الضبابة أبيض، ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فى غير ظلل فى سبعين حجابًا من نور عرشه والملائكة يسبحون، فذلك قوله: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٥]، يعنى وليس بسحاب، ثم قال سبحانه: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، يعنى وقع العذاب، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [آية: ٢١٠]، يقول: يصير أمر الخلائق إليه فى الآخرة.

﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۢ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾

﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، يعنى يهود المدينة، ﴿كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۢ بَيِّنَةٖۗ﴾، يعنى كم أعطيناهم من آية بينة، يعنى حين فرق بهم البحر، وأهلك عدوهم، وأنزل عليهم المن والسلوى والغمام والحجر، فكفروا برب هذه النعم حين كفروا بمحمد ﷺ، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾، فخوفهم عقوبته بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [آية: ٢١١] إذا عاقب.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾﴾

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾، وما بسط لهم فيها من الخير، نزلت فى المنافقين عبد الله بن أبى وأصحابه، ﴿وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فى أمر المعيشة بأنهم فقراء، نزلت فى عبد الله بن ياسر المخزومى، وصهيب بن سنان، من بنى تيم بن مرة، وبلال بن رباح مولى أبى بكر، رضى الله عنه، وخباب بن الأرت مولى ابن أم بهار الثقفى حليف بنى زهرة، وسالم مولى أبى حذيفة، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، وعبد الله بن مسعود، وأبى هريرة الدوسى، وفى نحوهم من الفقراء، يقول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ الشرك، يعنى هؤلاء النفر، ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾، يعنى

---

(١) انظر: (جامع البيان للطبرى ٢٦١/٤، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٢٥/٣، الكشاف للزمخشرى ١٢٧/١، البحر المحيط لأبى حيان ١٢٥/٢، إعراب القرآن للنحاس ٢٥١/١، إعراب القرآن للعكبرى ٥٣/١، تفسير الفخر الرازى ١٩٩/٢).

فوق المنافقين والكافرين ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آية: ٢١٢]، حين يبسط للكافرين الرزق، ويقدر على المؤمنين يقول: ليس فوقى ملك يحاسبنى، أنا الملك أعطى من شئت بغير حساب حين أبسط للكافرين فى الرزق وأقتر على المؤمنين.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣)﴾

﴿كَانَ النَّاسُ﴾، يعنى أهل السفينة، ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، يعنى على ملة الإسلام وحدها، وذلك أن عبد الله بن سلام خاصم اليهود فى أمر محمد ﷺ، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ولوط بن حران بن آزر، فبعثهم الله ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ بالجنة، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من النار، ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾، يعنى صحف إبراهيم؛ ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾؛ ليقضى الكتاب ﴿فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من الدين، فدعا بها إبراهيم وإسحاق قومهما، ودعا بها إسماعيل جرهم، فآمنوا به، ودعا بها يعقوب أهل مصر، ودعا بها لوط سدوم وعامورا وصابورا ودمامورا، فلم يسلم منهم غير ابنتيه ريثا وزعوتا، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾، يعنى أعطوا الكتاب، ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، يعنى البيان، ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، يقول: تفرقوا بغيًا وحسدًا بينهم، ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾، يقول: حين اختلفوا فى القرآن، ﴿مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾، يعنى التوحيد، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آية: ٢١٣]، يعنى دين الإسلام؛ لأن غير دين الإسلام باطل.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾

ثم بين للمؤمنين أن لابد لهم من البلاء والمشقة فى ذات الله، فقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾، نظيرها فى آل عمران قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وفى العنكبوت: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢]، وذلك أن

المنافقين قالوا للمؤمنين فى قتال أُحُد: لم تقتلون أنفسكم وتهلكون أموالكم، فإنه لو كان محمد بيننا لم يسلط عليكم القتل، فرد المؤمنون عليهم، فقالوا: قال الله: من قتل منا دخل الجنة، فقال المنافقون: لم تمنون أنفسكم بالباطل؟ فأنزل الله عز وجل يوم أُحُد: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾، نزلت فى عثمان بن عفان وأصحابه، رحمهم الله.

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ﴾، يعنى سنة، ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم﴾ من البلاء، يعنى مؤمنى الأمم الخالية، ثم أخبر عنهم ليعظ أصحاب النبى ﷺ، فقال سبحانه: ﴿مَّسَّتْهُمُ﴾، يعنى أصابتهم ﴿ٱلْبَأْسَآءُ﴾، يعنى الشدة، وهى البلاء، ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾، يعنى البلاء، ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾، يعنى وخوفوا ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ وهو اليسع ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، وهو حزقيا الملك حين حضر القتال ومن معه من المؤمنين، ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾، فقال الله عز وجل: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [آية: ٢١٤]، يعنى سريع، وإن ميشا بن حزقيا قتل اليسع، واسمه اشعيا.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ من أموالهم، وذلك أن الله أمر بالصدقة، فقال عمرو بن الجموح الأنصارى من بنى سلمة بن جشم بن الخزرج، قُتل يوم أُحُد، رضى الله عنه، قال: يا رسول الله، كم ننفق؟ وعلى من ننفق؟ فأنزل الله عز وجل فى قول عمرو: كم ننفق؟ وعلى من ننفق؟: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ من الصدقة، ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ من مال، كقوله سبحانه: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، يعنى مالاً، ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، فهؤلاء موضع نفقة أموالكم، ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ من أموالكم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آية: ٢١٥]، يعنى بما أنفقتم عليم.

وأنزل فى قول عمرو: يا رسول الله، كم ننفق من أموالنا؟ وعلى من ننفق؟ قول الله عز وجل: ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾، يعنى فضل قوتك، فإن كان الرجل من أصحاب الذهب والفضة أمسك الثلث وتصدق بسائره، وإن كان من أصحاب الزرع والنخل أمسك ما يكفيه فى سنته وتصدق بسائره، وإن كان ممن يعمل بيده أمسك ما يكفيه يومه ذلك وتصدق بسائره، فبين الله عز وجل ما ينفقون فى هذه الآية، فقال: ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾،

يعنى فضل القوت، ﴿كَذَلِكَ﴾ يعظكم هكذا ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾، يعنى أمر الصدقات، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، يقول لكى تتفكروا فى أمر الدنيا، فتقولون: هى دار بلاء، وهى دار فناء، ثم تتفكروا فى الآخرة فتعرفون فضلها، فتقولون: هى دار خير، ودار بقاء، فتعملون لها فى أيام حياتكم، فهذا التفكر فيهما، فشق على الناس حين أمرهم أن يتصدقوا بالفضل، حتى نزلت آية الصدقات فى براءة، فكان لهم الفضل وإن كثر إذا أدوا الزكاة.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾، يعنى فرض عليكم، كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾، يعنى فرض، ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾، يعنى مشقة لكم، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فيجعل الله عاقبته فتحًا وغنيمة وشهادة، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا﴾، يعنى القعود عن الجهاد، ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾، فيجعل الله عاقبته شر، فلا تصيبون ظفرًا ولا غنيمة، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٢١٦]، أى والله يعلم من ذلك ما لا تعلمون.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾، وذلك أن النبى ﷺ بعث عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب على سرية فى جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين، على رأس ستة عشر شهرًا، بعد قدوم النبى ﷺ المدينة، فلما ودع رسول الله ﷺ، فاضت عيناه، ووجد من فراق النبى ﷺ بعد أن عقد له اللواء، فلما رأى النبى ﷺ وجده، بعث مكانه عبد الله ابن جحش الأسدى من بنى غنم بن دودان، وأمه عمة النبى ﷺ أميمة بنت عبد المطلب، وهو حليف لبنى عبد شمس، وكتب له كتابًا، وأمره أن يتوجه قبل مكة، ولا يقرأ الكتاب حتى يسير ليلتين، فلما سار عبد الله ليلتين، قرأ الكتاب، فإذا فيه: سر باسم الله

إلى بطن نخلة، على اسم الله وبركته، ولا تكرهن أحد من أصحابك على السير، وامض لأمرى ومن اتبعك منهم، فترصد بها عير قريش، فلما قرأ الكتاب استرجع عبد الله، واتبع استرجاعه بسمع وطاعة الله عز وجل ولرسوله ﷺ.

ثم قال عبد الله لأصحابه: من أحب منكم أن يسير معى فليسر، ومن أحب أن يرجع فليرجع، وهم ثمانية رهط من المهاجرين: عبد الله بن جحش الأسدى، وسعد بن أبى وقاص الزهرى، وعتبة بن غزوان المزنى حليف لقريش، وأبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وسهل بن بيضاء القرشى، ويقال: سهل من بنى الحارث بن فهد، وعامر بن ربيعة القرشى من بنى عدى بن كعب، وواقد بن عبد الله التميمى، فرجع من القوم سعد ابن أبى وقاص، وعتبة بن غزوان، وسار عبد الله ومعه خمسة نفر وهو سادسهم، فلما قدموا لبطن نخلة بين مكة والطائف، حملوا على أهل العير، فقتلوا عمر بن الحضرمى القرشى، قتله واقد بن عبد الله التميمى، رماه بسهم، فكان أول قتيل فى الإسلام من المشركين، وأسروا عثمان بن عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة المخزومى، فغديا بعد ذلك فى المدينة، وأفلتهم نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومى على فرس له جواد أنثى، فقدم مكة من الغد، وأخبر الخبر مشركى مكة، وكرهوا الطلب؛ لأنه أول يوم من رجب، وسار المسلمون بالأسارى والغنيمة حتى قدموا المدينة، فقالوا: يا نبى الله، أصبنا القوم نهارًا، فلما أمسينا رأينا هلال رجب، فما ندرى أصبناهم فى رجب أو فى آخر يوم من جمادى الآخرة.

وأقبل مشركو مكة على مسلميهم، فقالوا: يا معشر الصباة، ألا ترون أن إخوانكم استحلوا القتال فى الشهر الحرام، وأخذوا أسارانا وأموالنا، وأنتم تزعمون أنكم على دين الله، أفوجدتم هذا فى دين الله حيث أمن الخائف، وربطت الخيل، ووضعت الأسنة، وبدأ الناس لمعاشهم، فقال المسلمون: الله ورسوله أعلم، وكتب مسلمو مكة إلى عبد الله بن جحش أن المشركين عابونا فى القتال، وأخذ الأسرى والأموال فى الشهر الحرام، فاسأل رسول الله ﷺ: ألنا فى ذلك متكلم، أو أنزل الله بذلك قرآنًا، فدفع عبد الله بن جحش الأسدى الكتاب إلى النبى ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ ﴿قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾، ولم يرخص فيه القتال.

ثم قال: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعنى دين الإسلام، ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾، أى وكفر

بالله، ﴿وَ﴾ صد عن ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ﴾ من عند المسجد الحرام، فذلك صدهم، وذلك أنهم أخرجوا النبى ﷺ وأصحابه من مكة، ﴿أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، فهذا أكبر عند الله من القتل والأسر وأخذ الأموال، ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ﴾، يعنى الإشراك الذى أنتم فيه ﴿أَكۡبَرُ﴾ عند الله ﴿مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾، ثم أخبر عز وجل عن رأى مشركى العرب فى المسلمين، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾، يعنى مشركى مكة ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿عَن دِينِكُمۡ﴾ الإسلام، ﴿إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾، ثم خوفهم، فقال: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ الإسلام، يقول: ومن ينقلب كافرًا بعد إيمانه، ﴿فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ﴾، يعنى بطلت ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ الخبيثة، فلا ثواب لهم ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَ﴾ لا فى ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آية: ٢١٧]، يعنى لا يموتون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾﴾

فكتب عبد الله بن جحش إلى مسلمى أهل مكة بهذه الآية، وكتب إليهم إن عيروكم، فعيروهم بما صنعوا، وقال عبد الله بن جحش وأصحابه: أصبنا القوم فى رجب، فنرجو أن يكون لنا أجر المجاهدين فى سبيل الله، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آية: ٢١٨]. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾، إلى المدينة، ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ المشركين ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾، يعنى جنة الله، نظيرها فى آل عمران قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ اللَّـهِ﴾ [آل عمران: ١٠٧]، يعنى ففى جنة الله؛ لقولهم للنبى ﷺ: هل لنا أجر المجاهدين فى سبيل الله.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ لاستحلالهم القتل والأسر والأموال فى الشهر الحرام، فكانت هذه أول سرية، وأول غنيمة، وأول خمس، وأول قتيل، وأول أسر كان فى الإسلام، فأما نوفل بن عبد الله الذى أفلت يومئذ، فإنه يوم الخندق ضرب بطن فرسه ليدخل الخندق على المسلمين فى غزوة الأحزاب، فوقع فى الخندق، فتحطم هو وفرسه، فقتله الله تعالى، وطلب المشركون جيفته بثمن، فقال ﷺ: «خذوه، فإنه خبيث الجيفة، خبيث الدية».

﴿۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾

﴿۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ﴾، يعنى القمار، نزلت فى عبد الرحمن بن عوف، وعمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب، ونفر من الأنصار، رضى الله عنهم، وذلك أن الرجل كان يقول فى الجاهلية: أين أصحاب الجزور، فيقوم نفر، فيشترون الجزور، فيجعلون لكل رجل منهم سهم، ثم يقرعون، فمن خرج سهمه يبرأ من الثمن، حتى يبقى آخرهم رجلاً، فيكون ثمن الجزور كله عليه وحده، ولا حق له فى الجزور، ويقتسم الجزور بقيتهم بينهم، فذلك الميسر، قال سبحانه: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، فى ركوبهما؛ لأن فيهما ترك الصلاة، وترك ذكر الله عز وجل، وركوب المحارم، ثم قال سبحانه: ﴿وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، يعنى بالمنافع اللذة والتجارة فى ركوبهما قبل التحريم، فلما حرمهما الله عز وجل، قال: ﴿وَإِثْمُهُمَآ﴾ بعد التحريم، ﴿أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾، قبل التحريم، وأنزل الله عز وجل تحريمهما بعد هذه الآية بسنة، والمنفعة فى الميسر أن بعضهم ينتفع به، وبعضهم يخسر، يعنى المقامر، وإنما سمى الميسر؛ لأنهم قالوا: يسروا لنا ثمن الجزور، يقول الرجل: افعل كذا وكذا.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [آية: ٢١٩]، ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ﴾، وذلك أن الله عز وجل أنزل فى أموال اليتامى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾ [النساء: ١٠]، فلما نزلت هذه الآية، أشفق المسلمون من خلطة اليتامى، فعزلوا بيت اليتيم وطعامه وخدامه على حدة مخافة العذر، فشق ذلك على المسلمين، وعلى اليتامى اعتزالهم، فقال ثابت بن رفاعة للنبى ﷺ: قد سمعنا ما أنزل الله عز وجل فى اليتامى فعزلناهم، والذى لهم، وعزلنا الذى لنا، فشق ذلك علينا وعليهم، وليس كلنا يجد سعة فى عزل اليتيم وطعامه وخادمه، فهل يصلح لنا خلطتهم، فيكون البيت والطعام واحد والخدمة وركوب الدابة، ولا نرزأهم شيئًا، إلا أن نعود عليهم بأفضل منه، فأنزل الله عز وجل فى قول ثابت بن رفاعة الأنصارى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾(١)، يقول: ما كان لليتيم فيه صلاح، فهو خير أن تفعلوه.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ فى المسكن والطعام والخدمة وركوب الدابة، ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾، فهم إخوانكم، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ﴾ لمال اليتيم، ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ لماله، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾، يقول: لآثمكم فى دينكم، نظيرها فى براءة قوله سبحانه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، يقول: ما أثمتم، فحرم عليكم خلطتهم فى الذى لهم، كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، فلم تنتفعوا بشىء منه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ فى ملكه ﴿حَكِيمٌ﴾ [آية: ٢٢٠]، يعنى ما حكم فى أموال اليتامى.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ﴾، نزلت فى أبى مرثد الغنوى، واسمه أيمن، وفى عناق القرشية، وذلك أن أبا مرثد كان رجلاً صالحًا، وكان المشركون أسروا أناسًا بمكة، وكان أبو مرثد ينطلق إلى مكة مستخفيًا، فإذا كان الليل أخذ الطريق، وإذا كان النهار تعسف الجبال؛ لئلا يراه أحد، حتى يقدم مكة، فيرصد المسلمين ليلاً، فإذا أخرجهم المشركون للبراز، تركوهم عند البراز والغائط، فينطلق أبو مرثد، فيجعل الرجل منهم على عنقه حتى إذا أخرجه من مكة كسر قيده بفهر ويلحقه بالمدينة، كان ذلك دأبه، فانطلق يومًا حتى انتهى إلى مكة، فلقيته عناق، وكان يصيب منها فى الجاهلية، فقالت: أبا مرثد، ما لك فى حاجة، فقال: إن الله عز وجل قد حرم الزنا.

فلما أيست منه أنذرت به كفار مكة، فخرجوا يطلبونه، فاستتر منهم بالشجر، فلم يقدروا عليه، فلما رجعوا احتمل بعض المسلمين حتى أخرجه من مكة، فكسر قيده، ورجع إلى المدينة، فأتى النبى ﷺ فأخبره بالخبر، فقال: والذى بعثك بالحق، لو شئت أن آخذهم وأنا مستتر بالشجرة لفعلت، فقال له النبى ﷺ: اشكر ربك أبا مرثد، إن الله عز وجل حجزهم عنك، فقال أبو مرثد: يا رسول الله، إن عناق أحبها، وكان بينى وبينها

---

(١) انظر: (البحر المحيط لأبى حيان ٢/١٦١، الكشاف للزمخشرى ١/١٣٣).

فى الجاهلية، أفتأذن لى فى تزويجها، فإنها لتعجبنى، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾، يصدقن بتوحيد الله، ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾، يعنى مصدقة بتوحيد الله، ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾؛ لقوله: إنها لتعجبنى، ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [آية: ٢٢١].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾، يعنى قذر، نزلت فى عمرو بن الدحداح الأنصارى، من قضاعة، فلما نزلت هذه الآية لم يؤاكلوهن فى إناء واحد، وأخرجوهن من البيوت والفرش كفعل العجم، فقال ناس من العرب للنبى ﷺ: قد شق علينا اعتزال الحائض، والبرد شديد، فإن آثرناهم بالثياب هلك سائر البيت، وإن آثرنا أهل البيت هلكت النساء بردًا، فقال النبى ﷺ: «إنكم لم تؤمروا أن تعزلوهن من البيوت، إنما أمرتم باعتزال الفرج إذا حضن، ويؤتين إذا طهرن»، وقرأ عليهم: ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾، يعنى يغتسلن، ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾، يعنى اغتسلن من المحيض، ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾، أى يؤتين غير حيض فى فروجهن التى نهى عنها فى الحيض، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ من الذنوب، ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [آية: ٢٢٢] من الأحداث والجنابة والحيض.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾، وذلك أن حيى بن أخطب ونفرًا من اليهود قالوا للمسلمين: إنه لا يحل لكم جماع النساء إلا مستلقيات، وإنا نجد فى كتاب الله عز وجل أن جماع المرأة غير مستلقية ذنبًا عند الله عز وجل، فقال المسلمون لرسول الله ﷺ: إنا كنا فى الجاهلية وفى الإسلام نأتى النساء على كل حال، فزعمت اليهود أنه ذنب عند الله عز وجل إلا مستلقيات، فأنزل الله عز وجل: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾، يعنى مزرعة للولد، ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ فى الفروج، ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ من الولد، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾

يعظكم، فلا تقربوهن حيضًا، ثم حذرهم، فقال سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾، فيجزيكم بأعمالكم، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آية: ٢٢٣]، يعنى المصدقين بأمر الله ونهيه بالجنة.

﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾

﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾، نزلت فى أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، وفى ابنه عبد الرحمن، حلف أبو بكر، رضى الله عنه، ألا يصله حتى يسلم، وذلك أن الرجل كان إذا حلف، قال: لا يحل إلا إبرار القسم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾، يقول: لا يحلف على ما هو فى معصية ألا يصل قرابته، وذلك أن الرجل يحلف أن لا يدخل على جاره، ولا يكلمه، ولا يصلح بين إخوانه، والرجل يريد الصلح بين الرجلين، فيغضبه أحدهما أو يتهمه، فيحلف المصلح أن لا يتكلم بينهما، قال الله عز وجل: لا تحلفوا ألا تصلوا القرابة: ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ﴾ الله ﴿وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، فهو خير لكم من وفاء باليمين فى معصية الله، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لليمين؛ لقولهم: حلفنا عليها، ﴿عَلِيمٌ﴾ [آية: ٢٢٤]، يقول: عالم بها، كان هذا قبل أن تنزل الكفارة فى المائدة.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، وهو الرجل يحلف على أمر يرى أنه فيه صادق وهو مخطئ، فلا يؤاخذه الله بها، ولا كفارة عليه فيها، فذلك العفو، ثم قال عز وجل: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، يعنى بما عقدت قلوبكم من المأثم، يعنى اليمين الكاذبة التى حلف عليها، وهو يعلم أنه فيها كاذب، فهذه فيها كفارة، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾، يعنى ذا تجاوز عن اليمين التى حلف عليها، ﴿حَلِيمٌ﴾ [آية: ٢٢٥]، حين لا يوجب فيها الكفارة.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾

ثم نزلت الكفارة فى سورة المائدة، فبين فيها ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾، يعنى يقسمون ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾، فهو الرجل يحلف أن لا يقرب امرأته، ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو﴾، يعنى

فإن رجع فى يمينه فجامعها قبل أربعة أشهر، فهى امرأته، وعليه أن يكفر عن يمينه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لهذه اليمين، ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آية: ٢٢٦] به، إذ جعل الله عز وجل الكفارة فيها؛ لأنه لم يكن أنزل الكفارة فى المائدة، ثم نزلت بعد ذلك الكفارة فى المائدة.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ﴾، يعنى فإن حققوا ﴿ٱلطَّلَـٰقَ﴾، يعنى أنفذوا فى السراح، فلم يجامعها أربعة أشهر بانت منه بتطليقة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ ليمينه، ﴿عَلِيمٌ﴾ [آية: ٢٢٧]، يعنى عالم بها.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾، يعنى ثلاث حيض إذا كانت ممن تحيض، ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد، ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ﴾، يعنى يصدقن بالله بأنه واحد لا شريك له، ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، يصدقن بالبعث الذى فيه جزاء الأعمال بأنه كائن، ثم قال عز وجل: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، يقول: الزوج أحق برجعتها وهى حبلى، نزلت فى إسماعيل الغفارى وفى امرأته لم تشعر بحبلها، ثم قال سبحانه: ﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا﴾، يعنى بالمراجعة فيما بينهما، فعمد إسماعيل فراجعها وهى حبلى، فولدت منه، ثم ماتت ومات ولدها، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، يقول: لهن من الحق على أزواجهن مثل ما لأزواجهن عليهن، ثم قال سبحانه: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، يقول: لأزواجهن عليهن فضيلة فى الحق وبما ساق إليها من الحق، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ فى ملكه، ﴿حَكِيمٌ﴾ [آية: ٢٢٨]، يعنى حكم الرحمة عليها فى الحبل.

﴿ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا

طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾

ثم نسختها الآية التى بعدها، فأنزل الله بعد ذلك بأيام يسيرة، فبين للرجل كيف يطلق المرأة، وكيف تعتد، فقال: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾، يعنى بإحسان، ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾، يعنى التطليقة الثالثة فى غير ضرار، كما أمر الله سبحانه فى وفاء المهر، ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ إذا أردتم طلاقها ﴿أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾، وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته، أخرجها من بيته، فلا يعطيها شيئًا من المهر، ثم استثنى ورخص، فقال سبحانه: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾، يعنى أمر الله عز وجل فيما أمرهما، وذلك أن تخاف المرأة الفتنة على نفسها، فتعصى الله فيما أمرها زوجها، أو يخاف الزوج أن لم تطعه امرأته أن يعتدى عليها، يقول سبحانه: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾، يعنى علمتم، ﴿أَلَّا يُقِيمَا﴾، يعنى الحاكم، ﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾، يعنى أمر الله فى أنفسهما إن نشزت عليه، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾، يعنى الزوج والزوجة، ﴿فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ من شىء، يقول: لا حرج عليهما إذا رضيا أن تفتدى منه ويقبل منها الفدية ثم يفترقا، وكانت نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى من بنى الحارث بن الخزرج، وفى امرأته أم حبيبة بنت عبد الله بن أبى رأس المنافقين، وكان أمهرها حديقة فردتها عليه، واختلعت منه، فهى أول خلعة كانت فى الإسلام، ثم قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، يعنى أمر الله فيهما، ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾، يقول: ومن يخالف أمر الله إلى غيره، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [آية: ٢٢٩] لأنفسهم.

ثم رجع إلى الآية الأولى فى قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ بعد التطليقتين تطليقة أخرى، سواء أكان بها حبل أم لا، ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ فيجامعها، فنخست هذه الآية الآية التى قبلها فى قوله عز وجل ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، ونزلت ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ فى تميمة بنت وهب بن عتيك النقرى، وفى زوجها رفاعة بن عبد الرحمن بن الزبير، وتزوجها عبد الرحمن بن

الزبير القرظى، يقول: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الأخير عبد الرحمن، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾، يعنى الزوج الأول رفاعة، ولا على المرأة تميمة، ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ بمهر جديد ونكاح جديد، ﴿إِن ظَنَّآ﴾، يعنى إن حسبا، ﴿أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أمر الله فيما أمرهما، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، يعنى أمر الله فى الطلاق، يعنى ما ذكر من أحكام الزوج والمرأة فى الطلاق وفى المراجعة، ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٢٣٠].

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ واحدة، ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، يعنى انقضاء عدتهن من قبل أن تغتسل من قرئها الثالث، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، يعنى بإحسان من غير ذرار، فيوفيها المهر والمتعة، نزلت فى ثابت بن ياسر الأنصارى فى الطعام والكسوة وغير ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾، وذلك أنه طلق امرأته، فلما أرادت أن تبين منه راجعها، فما زال يضارها بالطلاق ويراجعها، يريد بذلك أن يمنعها من الزواج لتفتدى منه، فذلك قوله سبحانه: ﴿لِّتَعْتَدُوا۟﴾، وكان ذلك عدوانًا، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾، يعنى استهزاء فيما أمر الله عز وجل فى كتابه من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، ولا تتخذوها لعبًا، ﴿وَٱذْكُرُوا۟﴾، يعنى واحفظوا ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام، ﴿وَ﴾ احفظوا ﴿وَمَآ أَنزَلَ﴾ الله ﴿عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعنى القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ والموعظة التى فى القرآن من أمره ونهيه، يقول: ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾، يعنى بالقرآن، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، يعظكم فلا تعصوه فيهن، ثم حذرهم، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من أعمالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ [آية: ٢٣١]، فيجزيكم بها.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ تطليقة واحدة، ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، يقول: انقضت عدتهن، نزلت فى أبى البداح بن عاصم بن عدى الأنصارى، من بنى العجلان الأنصارى، وهو حى من قضاعة، وفى امرأته جمل بنت يسار المزنى، بانت منه بتطليقة، فأراد مراجعتها، فمنعها أخوها، وقال: لئن فعلت لا أكلمك أبدًا، أنكحتك وأكرمتك وآثرتك على قومى فطلقتها، وأجحفت بها، والله لا أزوجكها أبدًا، فقال الله عز وجل، يعنى معقل: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾، يعنى فلا تمنعوهن أن يراجعهن أزواجهن، ﴿إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، يعنى بمهر جديد ونكاح جديد، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى ذكر من النهى ألا يمنعها من الزوج ذلك، ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، يعنى يصدق بالله بأنه واحد لا شريك له، ويصدق بالبعث الذى فيه جزاء الأعمال، فليفعل ما

أمره الله عز وجل من المراجعة، ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾، يعنى خير لكم من الفرقة، ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لقلوبكم من الريبة، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ حب كل واحد منهما لصاحبه، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٢٣٢] ذلك منهما.

فلما نزلت هذه الآية، قال ﷺ: «يا معقل، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، فلا تمنع أختك فلانًا»، يعنى أبا البداح، قال: فإنى أنا أؤمن بالله واليوم الآخر، وأشهدك أنى قد أنكحته.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)﴾

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾، يعنى إذا طلقن، ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾، يعنى يكمل الرضاعة، وليس الحولان بالفريضة، فمن شاء أرضع فوق الحولين، ومن شاء قصر عنهما، ثم قال: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ إذا طلق امرأته وله ولد رضيع ترضعه أمه، فعلى الأب رزق الأم والكسوة، ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾، يعنى إلا ما أطاقت من النفقة والكسوة، ثم قال سبحانه: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾(١)، يقول: لا يجعل بالرجل إذا طلق امرأته أن يضارها، فينزع منها ولدها وهى لا تريد ذلك، فيقطعه عن أمه، فيضارها بذلك بعد أن ترضى بعطية الأب من النفقة والكسوة.

ثم ذكر الأم، فقال: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾، يعنى لا يجمل بالمرأة أن تضار زوجها وتلقى إليه ولدها، ثم قال فى التقديم: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾، يقول: وعلى من يرث اليتيم إذا مات الأب مثل ما على الأب من النفقة والكسوة لو كان حيًا، فلا يضار الوارث الأم، وهى بمنزلة الأب إذا لم يكن لليتيم ماله، ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا

---

(١) انظر: (الكشاف للزمخشرى ١/١٤١، البحر المحيط لأبى حيان ٢/٢١٥، التبيان للطوسى ٢/٢٥٥، مجمع البيان للطبرسى، إعراب القرآن للعكبرى ١/٥٧، النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ٢/٢٢٧، ٢٢٨، إتحاف فضلاء البشر للبنا ١٥٨).

وَتَشَاوُرٖ﴾، يقول: واتفقا، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ﴾، يعني لا حرج ما لم يضار أحدهما صاحبه أن يفصلا الولد قبل الحولين، والأم أحق بولدها من المرضع إذا رضيت من النفقة والكسوة بما يرضى به غيرها، فإن لم ترض الأم بما يرضى به غيرها من النفقة، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ﴾، يقول عز وجل: فلا جناح على الوالد أن يسترضع لولده، ويسلم للظئر أجرها، ولا كسوة لها، ولا رزق، وإنما هو أجرها، قوله سبحانه: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم﴾ لأمر الله في المراضع، ﴿مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾، يقول: ما أعطيتم الظئر من فضل على أجرها، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ولا تعصوه فيما حذركم الله في هذه الآية من أمر المضارة والكسوة والنفقة للأم وأجر الظئر، ثم حذرهم، فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [آية: ٢٣٣].

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾[1] من يوم يموت زوجها، ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾، يعني إذا مضى الأجل مما ذكر في هذه الآية، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ في قراءة ابن مسعود: «لا حرج عليهن»، ﴿فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾، يعني لا حرج على المرأة إذا انقضت عدتها أن تتشوف وتتزين وتلتمس الأزواج، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [آية: ٢٣٤] من أمر العدة.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥﴾

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾، يعني لا حرج على الرجل أن يقول للمرأة قبل أن تنقضي عدتها: إنك لتعجبينني، وما أجاوزك إلى غيرك، فهذا التعريض، ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾، فلا جناح عليكم أن تسروا في قلوبكم

(١) انظر: (إعراب القرآن للعكبري ٥٨/١، مجمع البيان للطبرسي ٣٣٦/٢، الكشاف للزمخشري ١٤٣/١، البحر المحيط لأبي حيان ٢٢٠/٢).

تزويجهن في العدة، ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾، يعني الجماع في العدة، ثم استثنى، فقال: ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ عدة حسنة، نظيرها في النساء: ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨]، يعني عدة حسنة، فتقول: وهي في العدة، إنه حبيب إلي أن أكرمك وأن آتي ما أحببت ولا أجاوزك إلى غيرك، ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾، يعني ولا تحققوا عقدة النكاح، يعني لا تواعدوهن في العدة، ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾، يعني حتى تنقضي عدتها، ثم خوفهم، فقال سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾، يعني ما في قلوبكم من أمورهن، ﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾، أي فاحذروا أن ترتكبوا في العدة ما لا يحل، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾، يعني ذا تجاوز لكم، ﴿حَلِيمٌ﴾ [آية: ٢٣٥] لا يعجل بالعقوبة.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، يقول: وإن لم تسموا لهن المهر، فلا حرج في الطلاق في هذه الأحوال كلها، وهو الرجل يطلق امرأته قبل أن يجامعها ولم يسم لها مهرًا، فلا مهر لها، ولا عدة عليها، ولا المتعة بالمعروف ويجبر الزوج على متعة هذه المرأة التي طلقها قبل أن يسمي لها مهرًا، وليس بمؤقت، نزلت في رجل من الأنصار تزوج امرأة من بني حنيفة، ولم يسم لها مهرًا، ثم طلقها قبل أن يمسها، فقال النبي ﷺ: «هل متعتها بشيء؟»، قال: لا، قال النبي ﷺ: «متعها بقلنسوتك، أما إنها لا تساوي شيئًا، ولكن أحببت أن أحيي سنة»، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ في المال، ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ في المال، ﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وليس بمؤقت، وهو واجب، ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آية: ٢٣٦].

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

ثم إن النبي ﷺ كساه ثوبين بعد ذلك، فتزوج امرأة فأمهرها أحد ثوبيه، ثم قال سبحانه: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾، يعني من قبل الجماع، ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ﴾ من المهر ﴿فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ عليكم من المهر، ثم استثنى،

فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾[(١)]، يعنى إلا أن يتركن، يعنى المرأة تترك نصف مهرها، فتقول المرأة: أما إنه لم يدخل بى ولم ينظر لى إلى عورة، فتعفو عن نصف مهرها وتتركه لزوجها، وهى بالخيار، ثم قال: ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾، يعنى الزوج، فيوفيها المهر كله، فيقول: كانت فى حبالى ومنعتها من الأزواج، فيعطيها المهر كله، وهو بالخيار، ثم قال: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟﴾، يعنى ولأن تعفوا، ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، يعنى المرأة والزوج كلاهما أمرهما أن يأخذا بالفضل فى الترك، ثم قال عز وجل: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟﴾، يعنى المرأة والزوج، يقول: لا تتركوا ﴿ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[(٢)] فى الخير حين أمرها أن تترك نصف المهر للزوج، وأمر الزوج أن يوفيها المهر كله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آية: ٢٣٧]، يعنى بصيرًا أن ترك أو وفاها.

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ الخمس فى مواقيتها، ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾، يعنى صلاة العصر، ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [آية: ٢٣٨] فى صلاتكم، يعنى مطيعين، نظيرها: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، يعنى من المطيعين، وكقوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل: ١٢٠]، يعنى مطيعًا، وكقوله سبحانه: ﴿قَانِتَاتٌ﴾ [النساء: ٣٤]، يعنى مطيعات، وذلك أن أهل الأوثان يقومون فى صلاتهم عاصين، قال الله: قوموا أنتم مطيعين، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ العدو فصلوا، ﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾، يقول: على أرجلكم أو على دوابكم، فصلوا ركعتين حيث كان وجهه إذا كان الخوف شديدًا، فإن لم يستطع السجود، فليومئ برأسه إيماء، وليجعل السجود أخفض من الركوع، ولا يجعل جبهته على شىء، ثم قال سبحانه: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ العدو، ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾، يقول: فصلوا لله، ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٢٣٩].

---

(١) انظر: (البحر المحيط ٢/٢٣٦، ٢٣٧، مجمع البيان للطبرسى ٢/٣٤١، الكشاف للزمخشرى ١/١٤٦، الجامع لأحكام القرآن ٣/٢٠٨، شرح التصريح ٢/١٥).

(٢) انظر: (مجمع البيان ٢/٣٤١، الجامع لأحكام القرآن ٣/٢٠٨، البحر المحيط ٢/٢٣٨، إعراب القرآن للعكبرى ١/٥٩).

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾، يعنى بالمتاع أن ينفق عليها فى الطعام والكسوة سنة ما لم تتزوج، قال: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، يقول: لا تخرج من بيت زوجها سنة وهى كارهة، ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ إلى أهلهن طائعة قبل الحلول، فلا نفقة لها، فعدتها ثلاثة قروء، يقول: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فى قراءة ابن مسعود: «فلا جناح عليهن»، ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾، يعنى بالمعروف، يعنى أن تتشوف وتتزين وتلتمس الأزواج، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [آية: ٢٤٠]، عزيز فى ملكه، حكيم فيما حكم من النفقة حولاً، نزلت فى حكيم بن الأشرف، قدم الطائف ومات بالمدينة وله أبوان وأولاد، فأعطى النبى ﷺ الميراث الوالدين، وأعطى الأولاد بالمعروف، ولم يعط امرأته شيئًا.

غير أن النبى ﷺ أمر بالنفقة عليها فى الطعام والكسوة حولاً، فإن كانت المرأة من أهل المدر، التمست السكنى فيما بينها وبين الحول، وإن كانت من أهل الوبر نسجت ما تسكن فيه إلى الحول، فكان هذا قبل أن تنزل آية المواريث، ثم نزل: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ نسخت هذه الحول، ثم أنزل الله عز وجل آية المواريث، فجعل لهن الربع والثمن، فنسخت نصيبها من الميراث نفقة سنة، ثم قال: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ﴾ اللاتى دخل بهن ﴿مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، يعنى على قدر مال الزوج، ولا يجبر الزوج على المتعة؛ لأن لها المهر كامل، ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آية: ٢٤١] أن يمتع الرجل امرأته، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، يقول: هكذا يبين الله لكم أمره فى المتعة، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾، يعنى لكى ﴿تَعْقِلُونَ﴾ [آية: ٢٤٢].

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن

ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ**﴾ من بنى إسرائيل ﴿**أُلُوفٌ**﴾ ثمانية آلاف، ﴿**حَذَرَ ٱلْمَوْتِ**﴾، يعنى حذر القتل، وذلك أن نبيهم حزقيل بن دوم، وهو ذو الكفل بن دوم، ندبهم إلى قتال عدوهم، فأبوا عليه جبنًا عن عدوهم واعتلوا، فقالوا: إن الأرض التى نبعث إليها لنقاتل عدونا، هى أرض يكون فيها الطاعون، فأرسل الله عز وجل عليهم الموت، فلما رأوا أن الموت كثر فيهم، خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت، فلما رأى ذلك حزقيل، قال: اللهم رب يعقوب وإله موسى، قد ترى معصية عبادك، فأرهم آية فى أنفسهم حتى يعلموا أنهم لن يستطيعوا فرارًا منك، فأمهلهم الله عز وجل حتى خرجوا من ديارهم، وهى قرية تسمى دامردان.

فلما خرجوا قال الله عز وجل لهم: ﴿**فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟**﴾ عبرة لهم، فماتوا جميعًا وماتت دوابهم كموت رجل واحد ثمانية أيام، فخرج إليهم الناس، فعجزوا عن دفنهم حتى حظروا عليهم وأروحت أجسادهم، ﴿**ثُمَّ**﴾ إن الله عز وجل ﴿**أَحْيَٰهُمْ**﴾ بعد ثمانية أيام وبهن نتن شديد، ثم إن حزقيل بكى إلى ربه عز وجل، فقال: اللهم رب إبراهيم وإله موسى، لا تكن على عبادك الظلمة كأنفسهم، واذكر فيهم ميثاق الأولين، فسمع الله عز وجل، فأمره أن يدعوهم بكلمة واحدة، فقاموا كقيام رجل واحد كان وسنانًا فاستيقظ، فذلك قوله عز وجل: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ**﴾ [آية: ٢٤٣] رب هذه النعمة حين أحياهم بعدما أراهم عقوبته، ثم أمرهم عز وجل أن يرجعوا إلى عدوهم فيجاهدوا، فذلك قوله: ﴿**مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ**﴾ أنه أحياهم بعدما أماتهم، ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ**﴾.

وقوله سبحانه: ﴿**وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ**﴾؛ لقولهم: إن الأرض التى نبعث إليها فيها الطاعون، ﴿**عَلِيمٌ**﴾ [آية: ٢٤٤] بذلك، حتى إنه ليوجد فى ذلك السبط من اليهود ريح كريح الموتى، وكانوا ثمانية آلاف ﴿**مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾ طيبة بها نفسه محتسبًا، ﴿**فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ**﴾ بها ﴿**أَضْعَافًا كَثِيرَةً**﴾، نزلت فى أبى الدحداح، واسمه عمر بن الدحداح الأنصارى، وذلك أن النبى ﷺ قال:

«من تصدق بصدقة، فله مثلها فى الجنة»، قال أبو الدحداح: إن تصدقت بحديقتى فلى مثلها فى الجنة؟ قال: «نعم»، قال: وأم الدحداح معى؟ قال: «نعم»، قال: والصبية؟ قال: «نعم».

وكان له حديقتان، فتصدق بأفضلهما واسمها الجنينة، فضاعف الله عز وجل صدقته ألفى ألف ضعف، فذلك قوله عز وجل: ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾، يعنى يقتر ويوسع، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [آية: ٢٤٥] فيجزيكم بأعمالكم، فرجع أبو الدحداح إلى حديقته، فوجد أم الدحداح والصبية فى الحديقة التى جعلها صدقة، فقام على باب الحديقة، وتحرج أن يدخلها، وقال: يا أم الدحداح، قالت له: لبيك يا أبا الدحداح، قال: إنى قد جعلت حديقتى هذه صدقة، واشترطت مثلها فى الجنة، وأم الدحداح معى، والصبية معى، قالت: بارك الله لك فيما اشتريت، فخرجوا منها، وسلم الحديقة إلى النبى ﷺ. فقال: كم من نخلة مدلا عذوقها لأبى الدحداح فى الجنة لو اجتمع على عذق منها أهل منى أن يقلوه ما أقلوه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)﴾

قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾، وذلك أن كفار بنى إسرائيل قهروا مؤمنيهم، فقتلوهم وسبوهم وأخرجوهم من ديارهم وأبنائهم، فمكثوا زمانًا ليس لهم ملك يقاتل عدوهم، والعدو بين فلسطين ومصر، ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾، فقالوا لنبى لهم، عليه السلام، اسمه اشماويل، وهو بالعربية إسماعيل بن هلقابا، واسم أمه حنة، وهو من نسل هارون بن عمران أخو موسى: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ﴾ عدونا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ﴾ لهم نبيهم ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ﴾ بعث الله لكم ملكًا و﴿كُتِبَ﴾، يعنى وفرض ﴿عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ﴾ أى فلما فرض، كقوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾، يعنى فرض عليكم، ﴿عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾، يعنى على بنى إسرائيل، ﴿تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾، يعنى كره القتال العصابة الذين وقفوا

فى النهر، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آية: ٢٤٦]، يعينهم لقولهم: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾، وكان القليل أصحاب الفرقة ثلاثمائة وثلاثة عشر عدد أصحاب بدر.

﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧﴾

وقال النبى ﷺ يوم بدر: «إنكم على عدد أصحاب طالوت»، ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ﴾ إسماعيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ عز وجل ﴿قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾، يعنى من أين يكون له الملك ﴿عَلَيۡنَا﴾، وليس طالوت من سبط النبوة ولا من سبط الملوك، وكان طالوت فيهم حقير الشأن دون، ﴿وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ﴾، منا الأنبياء والملوك، وكانت النبوة فى سبط لاوى بن يعقوب والملوك فى سبط يهوذا بن يعقوب، ﴿وَلَمۡ يُؤۡتَ﴾ طالوت ﴿سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ أن ينفق علينا، ﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم إسماعيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ عز وجل ﴿ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ﴾، يعنى اختاره، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾، يعنى اختاره، ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾، وكان أعلم بنى إسرائيل، وكان طالوت من سبط بنيامين، وكان جسيمًا عالمًا، وكان اسمه شارل بن كيس، وبالعربية طالوت بن قيس، وسمى طالوت لطوله، ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ بعطية الملك ﴿عَلِيمٞ﴾ [آية: ٢٤٧] بمن يعطيه الملك.

﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨﴾

فلما أنكروا أن يكون طالوت عليهم ملكًا، ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ﴾ أنه من الله ﴿أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ (١) الذى أخذ منكم، ﴿فِيهِ

---

(١) انظر: (البحر المحيط ٢٦١/٢، إعراب القرآن للنحاس ٢٧٨/١، إعراب القرآن للعكبرى ٦١/١، تفسير الفخر الرازى ٢٩٥/٢).

سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾، ورأس كرأس الهرة، ولها جناحان، فإذا صوتت عرفوا أن النصر لهم، فكانوا يقدمونها أمام الصف، ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ ﴾، يعنى بالبقية رضراضا من الألواح وقفير من فى طست من ذهب وعصا موسى، عليه السلام، وعمامته، وكان التابوت يكون مع الأنبياء إذا حضروا القتال قدموه بين أيديهم يستفتحون به على عدوهم، فلما تفرقت بنو إسرائيل وعصوا الأنبياء، سلط الله عز وجل عليهم عدوهم، فقتلوهم وغلبوهم على التابوت، فدفنوه فى مخرأة لهم، فابتلاهم الله عز وجل بالبواسير، فكان الرجل إذا تبرز عند التابوت أخذه الباسور، ففشى ذلك فيهم فهجروه، فقالوا: ما ابتلينا بهذه إلا بفعلنا بالتابوت، فاستخرجوه، ثم وجهوه إلى بنى إسرائيل على بقرة ذات لبن، وبعث الله عز وجل الملائكة، فساقوا العجلة، فإذا التابوت بين أظهرهم، فذلك قوله سبحانه، ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾، يعنى تسوقه الملائكة، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾، يعنى فى رد التابوت، ﴿لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آية: ٢٤٨]، يعنى مصدقين بأن طالوت ملكه من الله عز وجل.

وكان التابوت من عود الشمشار التى تتخذ منه الأمشاط الصفر مموه بالذهب، فلما رأوا التابوت أيقنوا بأن ملك طالوت من الله عز وجل، فسمعوا له وأطاعوا، وكان موسى عليه السلام، ترك التابوت فى التيه قبل موته عند يوشع بن نون، ثم إن طالوت تجهز لقتال جالوت، وقال النبى إسماعيل لطالوت: إن الله عز وجل سيبعث رجلاً من أصحابك فيقتل جالوت، وأعطاه النبى ﷺ درعًا، فقال لطالوت: من صلحت هذه الدرع عليه، لم تقصر عليه، ولم تطل، فإنه قاتل جالوت، فاجعل لقاتله نصف ملكك ونصف مالك.

فبلغ ذلك داود النبى ﷺ وهو يرعى الغنم فى الجبل، فاستودع غنمه ربه جل وعز، فقال: آتى الناس وأطالع أخوتى، وهم سبعة من طالوت، وانظر ما هذا الخبر، فمر داود، عليه السلام، على حجر، فقال: يا داود خذنى، فأنا حجر هارون الذى قتل به كذا وكذا، فارم بى جالوت الجبار، فأقع فى بطنه، فأنفذ من جانبه الآخر، فأخذه فألقاه فى مخلاته، ثم مر بحجر آخر، فقال له: يا داود خذنى، فأنا حجر موسى الذى قتل بى كذا وكذا، فارم بى جالوت، فأقع فى قلبه فأنفذ من الجانب الآخر، فألقاه فى مخلاته، ثم مر بحجر آخر، فقال: يا داود خذنى، فأنا الذى أقتل جالوت الجبار، فأستعين بالريح فتلقى البيضة فأقع فى دماغه فأقتله، فأخذه فألقاه فى مخلاته.

ثم انطلق حتى دخل على طالوت، فقال: أنا قاتل جالوت بإذن الله، وكان داود، عليه السلام، رث المنظر، هبير، دوير، فأنكر طالوت أن يقتله داود، عليه السلام، فقال داود: تجعل لى نصف ملكك ونصف مالك إن قتلت جالوت الجبار؟ قال طالوت: لك ذلك عندى، وأزوجك ابنتى، ولن يخفى علىَّ إن كنت أنت صاحبه، قد أتانى قومى كلهم يزعم أنه يقتله، وقد أخبرنى إسماعيل أن الله يبعث له رجلاً من أصحابى فيقتله، فالبس هذا الدرع، فلبسها داود، عليه السلام، فطالت عليه، فانتفض فيها، فتقلص منها وجعل داود يدعو الله عز وجل، ثم انتفض فيها، فتقلص منها، ثم انتفض فيها الثالثة فاستوت عليه، فعلم طالوت أنه يقتل جالوت.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾، وهم مائة ألف إنسان، فسار فى حر شديد، ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ﴾ عز وجل ﴿مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ بين الأردن وفلسطين، ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾، يقول: ليس معى على عدوى، كقول إبراهيم، عليه السلام: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى﴾ [إبراهيم: ٣٦]، يعنى معى، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، فإنه معى على عدوى، ثم استثنى، فقال: ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾، الغرفة يشرب منها الرجل وخدمه ودابته ويملأ قربته، ووصلوا إلى النهر من مفازة، وأصابهم العطش، فلما رأى الناس الماء ابتدروا فوقعوا فيه، ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، والقليل ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، عدة أصحاب النبى ﷺ يوم بدر.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾، أى جاوز النهر ﴿هُوَ﴾، يعنى طالوت، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾، وكلهم مؤمنون، فقال العصاة الذين وقعوا فى النهر: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، فرد عليهم أصحاب الغرفة، ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾، يعنى الذين يعلمون، كقوله سبحانه: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ [القيامة: ٢٨]، يعنى وعلم،

وكقوله عز وجل: ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]، وكقوله عز وجل: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ﴾ [المطففين: ٤]، أى ألا يعلم ﴿أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ﴾ ؛ لأنهم قد طابت أنفسهم بالموت، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ﴾ ، يعنى جند ﴿قَلِيلَةٍ﴾ عددهم، ﴿غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ عددهم ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [آية: ٢٤٩]، يعنى بنى إسرائيل فى النصر على عدوهم، فرد طالوت العصاة وسار بأصحاب الغرفة حتى عاينوا العدو.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا﴾ لقتال ﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ ، قال أصحاب الغرفة: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ ، يعنى ألق، أصبب علينا صبرًا، كقوله سبحانه: ﴿أُفْرِغْ﴾ ، يعنى أصبب، ﴿عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ عند القتال حتى لا تزول، ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آية: ٢٥٠]، يعنى جالوت وجنوده، وكانوا يعبدون الأوثان، فاستجاب الله لهم، وكانوا مؤمنين، أصحاب الغرفة فى العصاة.

فلما التقى الجمعان وطالوت فى قلة وجالوت فى كثرة، عمد داود، عليه السلام، فقام بحيال جالوت، لا يقوم ذلك المكان إلا من يريد قتال جالوت، فجعل الناس يسخرون من داود حين قام بحيال جالوت، وكان جالوت من قوم عاد عليه بيضة فيها ثلاثمائة رطل، فقال جالوت: من أين هذا الفتى؟ ارجع ويحك، فإنى أراك ضعيفًا، ولا أرى لك قوة، ولا أرى معك سلاحًا، ارجع فإنى أرحمك، فقال داود، عليه السلام: أنا أقتلك بإذن الله عز وجل، فقال جالوت: بأى شىء تقتلنى؟ وقد قمت مقام الأشقياء، ولا أرى معك سلاحًا إلا عصاك هذه، هلم فاضربنى بها ما شئت، وهى عصاه التى كان يرد بها غنمه، قال داود: أقتلك بإذن الله بما شاء الله.

فتقدم جالوت ليأخذه بيده مقتدرًا عليه فى نفسه، وقد صارت الحجارة الثلاثة حجرًا واحدًا، فلما دنا جالوت من داود، أخرج الحجر من مخلاته، وألقت الريح البيضة عن رأسه، فرماه فوقع الحجر فى دماغه حتى خرج من أسفله، وانهزم الكفار، وطالوت ومن معه وقوف ينظرون، فذلك قوله سبحانه: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ بحذافة فيها حجر واحد، وقتل معه ثلاثون ألفًا، وطلب داود نصف مال طالوت ونصف ملكه، فحسده طالوت على صنيعه وأخرجه، فذهب داود حتى نزل قرية من قرى بنى إسرائيل وندم طالوت على صنيعه، فقال فى نفسه: عمدت إلى خير أهل الأرض بعثه الله عز وجل لقتل جالوت فطردته، ولم أف له، وكان دواد، عليه السلام، أحب إلى بنى إسرائيل من طالوت.

فانطلق فى طلب داود، فطرق امرأة ليلاً من قدماء بنى إسرائيل تعلم اسم الله الأعظم، وهى تبكى على داود، فضرب بابها، فقالت: من هذا؟ قال: أنا طالوت، فقالت: أنت أشقى الناس وأشرهم، هل تعلم ما صنعت؟ طردت داود النبى ﷺ، وكان أمره من الله عز وجل، وكانت لك آية فيه من أمر الدرع وصفة أشماويل وظهوره على جالوت، وقتل الله عز وجل به أهل الأوثان فانهزموا، ثم غدرت بداود وطردته، هلكت يا شقى، فقال لها: إنما أتيتك لأسألك ما توبتى؟ قالت: توبتك أن تأتى مدينة بلقاء، فتقاتل أهلها وحدك، فإن افتتحتها، فهى توبتك، فانطلق طالوت، فقاتل أهل بلقاء وحده، فقتل وعمدت بنو إسرائيل إلى داود، عليه السلام، فردوه وملكوه، ولم يجتمع بنو إسرائيل لملك قط غير داود، عليه السلام، فكانوا اثنى عشر سبطًا، لكل سبط ملك بينهم(١)، فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾.

﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾، يعنى ملكه اثنا عشر سبطًا، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾، يعنى الزبور، ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾، علمه صنعة الدروع، وكلام الدواب والطير، وتسبيح الجبال، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، يقول الله سبحانه: لولا دفع الله المشركين بالمسلمين، لغلب المشركون على الأرض، فقتلوا المسلمين، وخرجوا المساجد والبيع والكنائس والصوامع، فذلك قوله سبحانه: ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾، يقول: هلكت الأرض نظيرها: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤]، يعنى أهلكوها، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آية: ٢٥١]

(١) هذه الرواية من الإسرائيليات، وقد أخذ ذلك على المصنف ولم يرد عن الرسول ﷺ مثل ذلك.

فى الدفع عنهم. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾، يعنى القرآن، ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [آية: ٢٥٢].

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾، وهو موسى ﷺ، ومنهم من اتخذه خليلاً، وهو إبراهيم ﷺ، ومنهم من أعطى الزبور، وتسبيح الجبال والطير، وهو داود ﷺ، ومنهم من سخرت له الريح والشياطين، وعلم منطق الطير، وهو سليمان ﷺ، ومنهم من يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص، ويخلق من الطين طيرًا، وهو عيسى ﷺ، فهذه الدرجات، يعنى الفضائل، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ على بعض، ﴿وَءَاتَيْنَا﴾، يقول: وأعطينا ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، يعنى ما كان يصنع من العجائب، وما كان يحيى من الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويخلق من الطين.

ثم قال: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، يقول سبحانه: وقويناه بجبريل، عليه السلام، ثم قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾، يعنى من بعد عيسى وموسى، وبينهما ألف نبى، أولهم وآخرهم عيسى، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، يعنى العجائب التى كان يصنعها الأنبياء، ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾، فصاروا فريقين فى الدين، فذلك قوله سبحانه: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾، يعنى صدق بتوحيد الله عز وجل، ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ بتوحيد الله، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [آية: ٢٥٣]، يعنى أراد ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ من الأموال فى طاعة الله ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ﴾ يقول: لا فداء فيه، ﴿فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ فيه ليعطيه بخلة ما بينهما، ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ للكفار فيه كفعل أهل الدنيا بعضهم فى بعض فليس فى الآخرة شىء من ذلك ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [آية: ٢٥٤].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ الذى لا يموت، ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ القائم على كل نفس، ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾، يعنى ريح من قبل الرأس، فيغشى العينين، وهو وسنان بين النائم واليقظان، ثم قال جل ثناؤه: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾ ﴿وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الخلق عبيده، وفى ملكه الملائكة، وعزيز، وعيسى ابن مريم، وغيره ممن يعبد، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾ من الملائكة ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، يقول: إلا بأمره، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، يقول: ما كان قبل خلق الملائكة، وما كان بعد خلقهم، ثم قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾، يعنى الملائكة، ﴿بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ الرب فيعلمهم، ثم أخبر عن عظمة الرب جل جلاله، فقال سبحانه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ كلها كل قائمة، ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾، يقول: ولا يثقل عليه، ولا يجهده حملها.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾(١) [آية: ٢٥٥] الرفيع فوق كل خلقه العظيم، فلا أعظم منه شيء، يحمل الكرسى أربعة أملاك لكل ملك أربعة وجوه، أقدامهم تحت الصخرة التى تحت الأرض السفلى، مسيرة خمس مائة عام، وما بين كل أرض مسيرة مائة عام، ملك وجهه على صورة الإنسان، وهو سيد الصور، وهو يسأل الرزق للآدميين، وملك وجهه على صورة سيد الأنعام يسأل الرزق للبهائم وهو الثور، لم يزل الملك الذى على صورة الثور على وجهه كالغضاضة منذ عبد العجل من دون الرحمن عز وجل، وملك وجهه على صورة سيد الطير، وهو يسأل الله عز وجل الرزق للطير وهو النسر، وملك على صورة سيد السباع، وهو يسأل الرزق للسباع وهو الأسد.

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ لأحد بعد إسلام العرب إذا أقروا بالجزية، وذلك أن النبى ﷺ

---

(١) انظر: (البحر المحيط لأبى حيان ٢/ ٢٨٠، إعراب القرآن للعكبرى ١/ ٦٣).

كان لا يقبل الجزية إلا من أهل الكتاب، فلما أسلمت العرب طوعًا وكرهًا قبل الخراج، من غير أهل الكتاب، فكتب النبى ﷺ إلى المنذر بن ساوى، وأهل هجر، يدعوهم إلى الإسلام، فكتب: «من محمد رسول الله ﷺ إلى أهل هجر، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: إن من شهد شهادتنا، وأكل من ذبيحتنا، واستقبل قبلتنا، ودان بديننا، فذلك المسلم الذى له ذمة الله عز وجل، وذمة رسول الله ﷺ، فإن أسلمتم فلكم ما أسلمتم عليه، ولكم عشر التمر، ولكم نصف عشر الحب، فمن أبى الإسلام، فعليه الجزية».

فكتب المنذر إلى النبى ﷺ: إنى قرأت كتابك إلى أهل هجر، فمنهم من أسلم، ومنهم من أبى، فأما اليهود والمجوس، فأقروا بالجزية، وكرهوا الإسلام، فقبل النبى ﷺ منهم بالجزية. فقال منافقوا أهل المدينة: زعم محمد أنه لم يؤمر أن يأخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، فما باله قبل من مجوس أهل هجر، وقد أبى ذلك على آبائنا وإخواننا حتى قاتلهم عليه، فشق على المسلمين قولهم، فذكروه للنبى ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ آخر الآية [المائدة: ١٠٥]، وأنزل الله عز وجل: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ بعد إسلام العرب.

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾، يقول: قد تبين الضلالة من الهدى، ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾، يعنى الشيطان، ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾، بأنه واحد لا شريك له، ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾، يقول: أخذ الثقة، يعنى الإسلام، التى ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾، يقول: لا انقطاع له دون الجنة، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لقولهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [آية: ٢٦٥] به.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، يعنى ولى المؤمنين بالله عز وجل، ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾، يعنى من الشرك إلى الإيمان، نظيرها فى إبراهيم: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥]؛ لأنه سبق لهم السعادة من الله تعالى فى علمه، فلما بعث النبى ﷺ، أخرجهم الله سبحانه من الشرك إلى الإيمان، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، يعنى اليهود، ﴿أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ (١)، يعنى كعب بن

---

(١) انظر: (البحر المحيط لأبى حيان ٢/٢٨٣، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٣/٢٨٣، إعراب القرآن للعكبرى ١/٦٣).

الأشرف، ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾، يعني يدعونهم ﴿مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، نظيرها في إبراهيم قوله سبحانه: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥]، ثم قال: يدعونهم من النور الذي كانوا فيه من إيمان بمحمد ﷺ قبل أن يبعث إلى كفر به بعد أن بعث، وهي الظلمة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آية: ٢٥٧]، يعني لا يموتون.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾، وهو نمروذ بن كنعان بن ريب بن نمروذ ابن كوشى بن نوح، وهو أول من ملك الأرض كلها، وهو الذي بنى الصرح ببابل، ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، يقول: أن أعطاه الله ﴿ٱلْمُلْكَ﴾، وذلك أن إبراهيم ﷺ حين كسر الأصنام سجنه نمروذ، ثم أخرجه ليحرقه بالنار، فقال لإبراهيم، عليه السلام: من ربك ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، وإياه أعبد ومنه أسأل الخير، ﴿قَالَ﴾ نمروذ ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، قال له إبراهيم: أرني بيان الذي تقول، فجاء برجلين فقتل أحدهما، واستحيا الآخر، وقال: كان هذا حيًا فأمته وأحييت هذا ولو شئت قتلته، ﴿قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ﴾ الجبار ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ﴾(١) بتوحيد الله عز وجل، يقول: بهت نمروذ الجبار، فلم يدر ما يرد على إبراهيم.

ثم إن الله عز وجل سلط على نمروذ بعوضة، بعدما أنجا الله عز وجل إبراهيم من النار، فعضت شفته، فأهوى إليها، فطارت في منخره، فذهب ليأخذها فدخلت خياشيمه، فذهب يستخرجها، فدخلت دماغه، فعذبه الله عز وجل بها أربعين يومًا، ثم مات منها، وكان يضرب رأسه بالمطرقة، فإذا ضرب رأسه سكنت البعوضة، وإذا رفع عنها تحركت، فقال الله سبحانه: وعزتي وجلالي لا تقوم الساعة حتى آتي بها، يعني الشمس من قبل المغرب، فيعلم من يرى ذلك أني أنا الله قادر على أن أفعل ما شئت، ثم

---

(١) انظر: (البحر المحيط لأبي حيان ٢/٢٨٩، الكشاف للزمخشري ١/١٥٦، إعراب القرآن للعكبري ١/٦٣، الجامع لأحكام القرآن ٣/٢٨٨، لسان العرب مادة «بهت» ٢/١٣).

قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آية: ٢٥٨] إلى الحجة، يعني نمروذ، مثلها في براءة: ﴿وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩] إلى الحجة.

﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾

﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، يعني ساقطة على سقوفها، وذلك أن بخت نصر سبا أهل بابل، وفيهم عزير بن شرحيا، وكان من علماء بنى إسرائيل، وأنه ارتحل ذات يوم على حمار أقمر، فمر على قرية تدعى سابور على شاطئ دجلة بين واسط والمدائن، وكان هذا بعد ما رفع عيسى ابن مريم، فربط حماره فى ظل شجرة، ثم طاف فى القرية، فلم ير فيها ساكنًا، وعامة شجرها حامل، فأصاب من الفاكهة والعنب والتين.

ثم رجع إلى حماره، فجلس يأكل من الفاكهة، وعصر من العنب، فشرب منه، فجعل فضل الفاكهة فى سلة، وفضل العصير فى الزق، فلما رأى خراب القرية وهلاك أهلها، ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ﴾، يعنى أهل هذه القرية، ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ﴾ بعد هلاكها، لم يشك فى البعث، ولكنه أحب أن يريه الله عز وجل كيف يبعث الموتى كما سأل إبراهيم، عليه السلام، ربه عز وجل: ﴿أرِنِى كَيْفَ تُحْيِـى الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فلما تكلم بذلك عزير، أراد الله عز وجل أن يعلمه كيف يحييها بعد موتها، ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ﴾ عز وجل وأمات حماره ﴿مِاْئَةَ عَامٖ﴾، فحيى والفاكهة والعصير موضوع عنده، ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ﴾ الله عز وجل فى آخر النهار بعد مائة عام، لم يتغير طعامه وشرابه، فنودى فى السماء ﴿قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ﴾ يا عزير ميتًا، ﴿قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا﴾، فالتفت فرأى الشمس، فقال: ﴿أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ﴾ له ﴿بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ﴾ ميتًا، ثم أخبره ليعتبر، فقال سبحانه: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾، يعنى الفاكهة فى السلة،

﴿وَشَرَابِكَ﴾، يعنى العصير، ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، يقول لم يتغير طعمه بعد مائة عام، نظيرها فى سورة محمد ﷺ: ﴿مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ [محمد: ١٥]، فقال: سبحان الله، كيف لم يتغير طعمه؟.

ونظر إلى حماره، وقد ابيضت عظامه، وبليت وتفرقت أوصاله، فنودى من السماء: أيتها العظام البالية اجتمعى، فإن الله عز وجل منزل عليك روحًا، فسعت العظام بعضها إلى بعض، الذراع إلى العضد، والعضد إلى المنكبين والكتف، وسعت الساق إلى الركبتين، والركبتان إلى الفخذين، والفخذان إلى الوركين، والتصق الوركان بالظهر، ثم وقع الرأس على الجسد، وعزير ينظر، ثم ألقى على العظام العروق والعصب، ثم رد عليه الشعر، ثم نفخ فى منخره الروح، فقام الحمار ينهق عند رأسه، فاعلم كيف يبعث أهل هذه القبور بعد هلاكهم وبعث حماره بعد مائة عام كما لم يتغير طعامه وشرابه، وبعث بعد طوال الدهر ليعتبر بذلك، فذلك قوله سبحانه: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، يعنى لم يتغير طعمه، كقوله فى سورة محمد ﷺ: ﴿مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ﴾.

﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾، يعنى عبرة؛ لأنه بعثه شابًا بعد مائة سنة، ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾، يعنى عظام الحمار، ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾، يعنى نحييها، نظيرها: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١]، يعنى يبعثون الموتى، ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾، يعنى لعزير كيف يحيى الله الموتى، خر لله ساجدًا، ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آية: ٢٥٩]، يعنى من البعث وغيره، فرجع عزير إلى أهله، وقد هلكوا، وبيعت داره وبنيت فردت عليه، وانتسب عزير إلى أولاده، فعرفوه وعرفهم، وأعطى عزير العلم من بعد ما بعث بعد مائة عام.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾، وذلك أنه رأى جيفة حمار على شاطئ البحر تتوزعه دواب البر والبحر والطير، فنظر إليها ساعة، ثم قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ يا إبراهيم، يعنى قال: أو لم تصدق بأنى

أحيي الموتى يا إبراهيم ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ صدقت ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ ليسكن قلبى بأنك أريتنى الذى أردت ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ قال: خذ ديكًا وبطة وغرابًا وحمامة فاذبحهن يقول: قطعهن، ثم خالف بين مفاصلهن وأجنحتهن ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾(١) بلغة النبط صرهن قطعهن، واخلط ريشهن ودماءهن، ثم خالف بين الأعضاء والأجنحة واجعل مقدم الطير مؤخر طير آخر، ثم فرقهن على أربعة أجبال ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ فيها تقدم فدعاهن فتواصلت الأعضاء والأجنحة، فأجابته جميعًا ليس معهن رءوسهن، ثم وضع على أجسادهن، ففقت البطة، وصوت الديك، ونعق الغراب، وقرقر الحمام يقول: خذهن فصرهن وادعهن يسعين على أرجلهن عند غروب الشمس.

﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [آية: ٢٦٠]، فقال: عند ذلك أعلم أن الله عزيز فى ملكه حكيم، يعنى حكم البعث يقول: كما بعث هذه الأطيار الأربعة من هذه الجبال الأربعة، فكذلك يبعث الله عز وجل الناس من أرباع الأرض كلها ونواحيها، وكان هذا بالشام، وكان أمر الطير قبل أن يكون له ولد، وقبل أن تنزل عليه الصحف، وهو ابن خمس وسبعين سنة.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعنى فى طاعة الله عز وجل،

---

(١) انظر: (معانى القرآن للفراء ١/١٧٤. وإعراب القرآن للعكبرى ١/٦٥، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٣/٣١١، جامع البيان للطبرى ٥/٤٩٧، البحر المحيط لأبى حيان ٢/٣٠٠، التبيان للطوسى ٢/٣٢٦ السبعة فى القراءات لابن مجاهد ١٩٠، غيث النفع للصفاقسى ١٦٩، التيسير للدانى ٨٢، الحجة المنسوب لابن خالويه ١٠١، الحجة لأبى زرعة ١٤٥، الكشف للقيسى ١/٣١٣، الكشاف ١/١٥٨، مجمع البيان للطبرسى ٢/٣٧١، تفسير الفخر الرازى ٢/٣٢٣، النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ٢/٢٣١، جمهرة اللغة لابن دريد مادة «رصو»، لسان العرب مادة «صور»، «صير»، «صرى»، تهذيب اللغة مادة «صرو» العنوان مخطوط ورقة ٥٤).

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ﴾، يقول: أخرجت ﴿سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ لتلك الأضعاف ﴿عَلِيمٌ﴾[1] [آية: ٢٦١] بما تنفقون.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [آية: ٢٦٢] عند الموت نزلت فى عثمان بن عفان، رضى الله عنه، فى نفقته فى غزاة تبوك وفى شرائه رومة ركية بالمدينة، وتصدقه بها على المسلمين، وفى عبد الرحمن بن عوف الزهرى، رضى الله عنه، حين تصدق بأربعة آلاف درهم كل درهم مثقال وكان نصف ماله.

﴿۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣﴾

﴿۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ﴾، يعنى قول حسن، يعنى دعاء الرجل لأخيه المسلم إذا جاء وهو فقير يسأله فلا يعطيه شيئًا يدعو بالخير له، ﴿وَمَغۡفِرَةٌ﴾، يعنى وتجاوز عنه، ﴿خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ﴾ يعطيه إياها ﴿يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ﴾، يعنى المن، ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عما عندكم من الصدقة، ﴿حَلِيمٞ﴾ [آية: ٢٦٣] حين لا يعجل بالعقوبة على من يمن بالصدقة ويؤذى فيها المعطى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ يقول: يمن بها فإن ذلك أذى لصاحبها وكل صدقة يمن بها صاحبها على المعطى، فإن المن يبطلها، فضرب الله عز وجل، مثل لذلك: ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ يقول: ولا يصدق بأنه واحد لا شريك له.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ يقول: ولا يصدق بالبعث الذى فيه جزاء الأعمال أنه كائن، فمثله، يعنى مثل الذى يمن بصدقته، كمثل مشرك أنفق ماله فى غير إيمان، فأبطل شركه

(١) انظر: (مجمع البيان للطبرسى ٢/٣٧١، البحر المحيط لأبى حيان ٢/٣٠٠، إعراب القرآن للعكبرى ١/٦٥، الكشاف للزمخشرى ١/١٥٩).

الصدقة كما أبطل المن والأذى صدقة المؤمن، ثم أخبر عمن مَنَّ بها على صاحبه، فلم يعط عليها أجرًا ولا ثوابًا، ثم ضرب الله عز وجل لهما مثلاً فقال: فى مثله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ [(١)]، يعنى الصفا، ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾، يعنى المطر الشديد، ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾، يقول: ترك المطر الصفا صلدًا نقيًا أجرد، ليس عليه تراب، فكذلك المشرك الذى ينفق فى غير إيمان، وينفق رئاء الناس، وكذلك صدقة المؤمن إذا من بها.

وذلك قوله سبحانه: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾، يقول: لا يقدرون على ثواب شىء مما أنفقوا يوم القيامة وذلك قوله عز وجل: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ﴾ ثواب ﴿شَىْءٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] يوم القيامة، كما لم يبق على الصفا شىء من التراب حين أصابه المطر الشديد، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [آية: ٢٦٤].

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾

ثم ذكر نفقة المؤمن الذى يريد بنفقته وجه الله عز وجل، ولا يمن بها، فقال سبحانه: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، يعنى وتصديقًا من قلوبهم، فهذا مثل نفقة المؤمن التى يريد بها وجه الله عز وجل، ولا يمن بها ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾، يعنى بستان فى مكان مرتفع مستو، تجرى من تحتها الأنهار ﴿أَصَابَهَا﴾، يعنى أصاب الجنة ﴿وَابِلٌ﴾، يعنى المطر الكثير الشديد، ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا﴾، يقول: أضعفت ثمرتها فى الحمل ﴿ضِعْفَيْنِ﴾، فكذلك الذى ينفق ماله لله عز وجل من غير أن يضاعف له نفقته إن كثرت أو قلت، كما أن المطر إذا اشتد، أو قل أضعف ثمرة الجنة حين أصابها وابل، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾، أى أصابها عطش من المطر، وهو الرذاذ مثل الندى، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، يعنى بما تنفقون ﴿بَصِيرٌ﴾ [آية: ٢٦٥].

---

(١) انظر: (الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٣/٣١٣، الكشاف للزمخشرى ١/١٦٠، إعراب القرآن للنحاس ١/٢٨٧، إعراب القرآن للعكبرى ١/٦٦، البحر المحيط لأبى حيان ٢/٣٠٩).

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾، هذا مثل ضربه عز وجل لعمل الكافر، جنة ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾، يعنى عجزة لا حيلة لهم، ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾، يعنى ريح فيها نار، يعنى فيها سموم حارة، ﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾، يقول: مثل الكافر كمثل شيخ كبير له بستان فيه من كل الثمرات، وله ذرية أولاد صغار، يعنى عجزة لا حيلة لهم، فمعيشته ومعيشة ذريته من بستانه، فأرسل الله عز وجل على بستانه السموم الحارة، فأحرقت بستانه، فلم يكن له قوة من كبره أن يدفع عن جنته، ولم تستطع ذريته الصغار أن يدفعوا عن جنتهم التى كانت معيشتهم منها حين احترقت، ولم يكن للشيخ قوة أن يغرس مثل جنته، ولم يكن عند ذريته خير، فيعودون به على أبيهم عندما كان أحوج إلى خير يصيبه، ولا يجد خيرًا، ولا يدفع عن نفسه عذابًا، كما لم يدفع الشيخ الكبير، ولا ذريته عن جنتهم شيئًا حين احترقت، ولا يرد الكافر إلى الدنيا فيعتب، كما لا يرجع الشيخ الكبير شابًا، فيغرس جنة مثل جنته، ولم يقدم لنفسه خيرًا، فيعود عليه فى الآخرة، وهو أحوج ما يكون إليه كما لم يكن عند ولده شيئًا فيعودون به على أبيهم، ويحرم الخير فى الآخرة عند شدة حاجته إليه، كما حرم جنته عندما كان أحوج ما يكون إليها عند كبر سنه وضعف ذريته، ﴿كَذَٰلِكَ﴾، يعنى هكذا ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾، يعنى يبين الله أمره، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾، يقول: لكى ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ [آية: ٢٦٦] فى أمثال الله عز وجل فتعتبروا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، يقول: أنفقوا من الحلال مما رزقناكم من الأموال الفضة والذهب وغيره، ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، وأنفقوا من طيبات الثمار والنبات، وذلك أن النبى ﷺ أمر الناس بالصدقة قبل أن تنزل آية

الصدقات، فجاء رجل بعزق من تمر عامته حشف، فوضعه فى المسجد مع التمر، فقال النبى ﷺ: «من جاء بهذا؟»، فقالوا: لا ندرى، فأمر النبى ﷺ أن يعلق العزق، فمن نظر إليه قال: بئس ما صنع صاحب هذا، فقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾[(١)]، يقول: ولا تعمدوا إلى الحشف من التمر الردىء من طعامكم للصدقات، ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾، يعنى الردىء بسعر الطيب لأنفسكم، يقول: لو كان لبعضكم على بعض حق لم يأخذ دون حقه، ثم استثنى، فقال: ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾[(٢)]، يقول: إلا أن يهضم بعضكم على بعض حقه، فيأخذ دون حقه، وهو يعلم أنه ردىء، فيأخذه على علم، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ عما عندكم من الأموال، ﴿حَمِيدٌ﴾ [آية: ٢٦٧] عند خلقه فى ملكه وسلطانه.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾

ثم قال سبحانه: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾، عند الصدقة، ويأمركم أن تمسكوا صدقتكم، فلا تنفقوا فلعلكم تفتقرون، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، يعنى المعاصى، يعنى بالإمساك عن الصدقة، ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم﴾ عند الصدقة ﴿مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ لذنوبكم ويعدكم ﴿وَفَضْلًا﴾، يعنى الخلف من صدقتكم، فيجعل لكم الخلف بالصدقة فى الدنيا، ويغفر لكم الذنوب فى الآخرة، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ لذلك الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ [آية: ٢٦٨] بما تنفقون، وذلك قوله سبحانه فى التغابن: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [التغابن: ١٧]، يعنى به الصدقة محتسبًا طيبة بها نفسه، يضاعفه لكم فى الدنيا، ويغفر لكم بالصدقة فى الآخرة.

﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾

---

(١) انظر: (الكشاف للزمخشرى ١/١٦٢، إعراب القرآن للعكبرى ١/٦٧، إعراب القرآن للنحاس ١/٢٨٩، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٣/٣٢٦).

(٢) انظر: (الكشاف للزمخشرى ١/١٦٢، وإعراب القرآن للنحاس ١/٢٨٩، البحر المحيط ٢/٣١٩، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٣/٣٢٧).

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ (١)، يقول: ومن يعط الحكمة، وهى علم القرآن والفقه فيه، ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، يقول: فقد أعطى خيرًا كثيرًا، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ فيما يسمع، ﴿إِلَّآ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آية: ٢٦٩]، يعنى أهل اللب والعقل، ثم قال: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ من خير من أموالكم فى الصدقة، ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ فى حق، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾، يقول: فإن الله يحصيه، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آية: ٢٧٠]، يعنى للمشركين من مانع من النار.

﴿إِن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿إِن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، يقول: إن تعلنوها، ﴿فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا﴾، يعنى تسروها، ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من العلانية، وأعظم أجرًا يضاعف سبعين ضعفًا، ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم﴾ بصدقات السر والعلانية، ﴿مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ من ذنوبكم، يعنى ذنوبكم أجمع، ومن هاهنا صلة، وكل مقبول السر والعلانية، ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آية: ٢٧١].

﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾

﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾، نزلت فى المشركين؛ لأنه يأمر بالصدقة عليهم من غير زكاة، نزلت فى أسماء بنت أبى بكر، رضى الله عنه، سألت النبى ﷺ عن صلة جدها أبى قحافة، وعن صلة امرأته، وهما كافران، فكأنه شق عليه صلتهما، فنزلت: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾، يعنى أبا قحافة، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ إلى دينه الإسلام، ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾، يعنى المال، ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾، يعنى

---

(١) انظر: (البحر المحيط ٢/٣٢٠، التبيان ٢/٣٤٨، مجمع البيان ٢/٣٨٢، النشر ٢/٢٣٥، تفسير الفخر الرازى ٢/٣٤٨، الكشاف ١/١٦٣، الجامع لأحكام القرآن ٣/٣٣١، إتحاف فضلاء البشر ٦/١٤٦).

المال، ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، يعنى توفر لكم أعمالكم، ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [آية: ٢٧٢] فيها.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾

ثم بين على من ينفق، فقال: النفقة ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يقول: حبسوا، نظيرها: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]، يعنى حبستم، وأيضًا: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨]، يعنى محبسًا، ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟﴾ حبسوا أنفسهم بالمدينة فى طاعة الله عز وجل، فهم أصحاب الصفة.

قال: حدثنا عبيد الله، عن أبيه، عن هذيل بن حبيب، عن مقاتل بن سليمان، منهم ابن مسعود، وأبو هريرة، والموالى أربعمائة، رجل لا أموال لهم بالمدينة، فإذا كان الليل آووا إلى صفة المسجد، فأمر الله عز وجل بالنفقة عليهم، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، يعنى سيرًا، كقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٠١]، يعنى إذا سرتم فى الأرض، يعنى التجارة، ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ بأمرهم وشأنهم ﴿أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾، يعنى بسيما الفقر عليهم لتركهم المسألة، ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ فيلحفون فى المسألة، ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾، يعنى من مال، كقوله عز وجل: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، يعنى مالاً للفقراء أصحاب الصفة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آية: ٢٧٣]، يعنى بما أنفقتم عليم.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم﴾ فى الصدقة ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، نزلت فى على بن أبى طالب، رضى الله عنه، لم يملك غير أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهارًا، وبدرهم سرًا، وبدرهم علانية، فقال له النبى ﷺ: «ما حملك على ذلك؟»، قال: حملنى أن أستوجب من الله الذى وعدنى، فقال النبى ﷺ: «الأن لك ذلك»، قال: فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا

وَعلانِيَةً﴾ ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آية: ٢٧٤] عند الموت.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ استحلالاً، ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ فى الدنيا، وذلك علامة أكل الربا، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى نزل بهم يوم القيامة، ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، فأكذبهم الله عز وجل، فقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، فكان الرجل إذا حل ماله فطلبه، فيقول المطلوب: زدنى فى الأجل، وأزيدك على مالك، فيفعلان ذلك، فإذا قيل لهم: إن هذا ربا، قالوا: سواء زدت فى أول بيع أو فى آخره عند محل المال، فهما سواء، فذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾.

فقال الله عز وجل: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، يعنى البيان فى القراءة، ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ عن الربا، ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾، يقول: ما أكل من الربا قبل التحريم، ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بعد التحريم وبعد تركه، إن شاء عصمه من الربا، وإن شاء لم يعصمه، قال: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ فأكله استحلالاً لقولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، يخوف أكلة الربا فى الدنيا أن يستحلوا أكله، فقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آية: ٢٧٥] لا يموتون.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾

ثم قال سبحانه: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، فيضمحل وينقص، ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، يعنى ويضاعف الصدقات، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [آية: ٢٧٦] بربه عز وجل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المكتوبة فى مواقيتها،

﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، يعنى وأعطوا الزكاة من أموالهم، ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آية: ٢٧٧].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ولا تعصوه، ﴿وَذَرُواْ﴾، يعنى واتقوا ﴿مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آية: ٢٧٨] نزلت فى أربعة إخوة من ثقيف: مسعود، وحبيب، وربيعة، وعبد ياليل، وهم بنو عمرو بن عمير بن عوف الثقفى، كانوا يداينون بنى المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكانوا يربون لثقيف، فلما أظهر الله عز وجل النبى ﷺ على الطائف، اشترطت ثقيف أن كل ربا لهم على الناس فهو لهم، وكل ربا للناس عليهم فهو موضوع عنهم، فطلبوا رباهم إلى بنى المغيرة، فاختصموا إلى عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية، كان النبى ﷺ استعمله على مكة، وقال له: «أستعملك على أهل الله».

وقالت بنو المغيرة: أجعلنا أشقى الناس بالربا وقد وضعه عن الناس؟ فقالت ثقيف: إنا صالحنا النبى ﷺ أن لنا ربانا، فكتب عتاب إلى النبى ﷺ فى المدينة بقصة الفريقين، فأنزل الله تبارك وتعالى بالمدينة، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، يعنى ثقيفًا، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ الاية؛ لأنه لم يبق غير رباهم، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فأقروا بتحريمه، ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ وتقروا بتحريمه ﴿فَأْذَنُواْ﴾، يعنى فاستيقنوا ﴿بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، يعنى الكفر، ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من استحلال الربا وأقررتم بتحريمه، ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ التى أسلفتم لا تزدادوا، ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ أحدًا إذا لم تزدادوا على أموالكم، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [آية: ٢٧٩] فتنقصون من رءوس أموالكم.

فبعث النبى ﷺ بهذه الآية إلى عتاب بن أسيد بمكة، فأرسل عتاب إلى بنى عمرو بن عمير، فقرأ عليهم الآية، فقالوا: بل نتوب إلى الله عز وجل، ونذر ما بقى من الربا، فإنه لا يدان لنا بحرب الله ورسوله، فطلبوا رءوس أموالهم إلى بنى المغيرة، فاشتكوا العسرة،

فقال الله عز وجل: ﴿وَإِن كَانَ﴾ المطلوب ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ من القوم، يعنى بنى المغيرة، ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ (١)، يقول: فأجله إلى غناه، كقوله سبحانه: ﴿أَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤]، يقول: أجلنى، ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ﴾ به كله على بنى المغيرة وهم معسرون، فلا تأخذونه، فهو ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أخذه، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٢٨٠]، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾ يخوفهم ﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾، يعنى توفى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بر وفاجر ثواب ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آية: ٢٨١] فى أعمالهم، وهذه آخر آية نزلت من القرآن، ثم توفى النبى ﷺ بعدها بتسع ليال.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾، يعنى اكتبوا الدين والأجل، ﴿وَلْيَكْتُب﴾ الكاتب بين البائع والمشترى، ﴿بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ يعدل بينهما فى كتابه، فلا يزداد على المطلوب، ولا ينقص من حق الطالب، ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ الكتابة، وذلك أن الكُتاب كانوا قليلاً على عهد رسول الله ﷺ، يقول: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ الكاتب، ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾ على الكاتب ﴿ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾، يعنى المطلوب، ثم خوف المطلوب، فقال عز وجل: ﴿وَلْيَتَّقِ

---

(١) انظر: إتحاف فضلاء البشر ١٦٥، إعراب القرآن للعكبرى ٦٩/١، إعراب القرآن للنحاس ٢٦٥/١، الجامع لأحكام القرآن ٣٧٣/٣، معانى القرآن للأخفش ١٨٨/١، البحر المحيط ٢٤٠/٢، تفسير الفخر الرازى ٣٦٦/٢).

﴿ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾، يعنى ولا ينقص المطلوب من الحق شيئًا، كقوله عز وجل: ﴿وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا﴾، يعنى جاهلاً بالإملاء، ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾، يعنى أو عاجزًا، أو به حمق، ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾، لا يعقل الإملاء لعيه، أو لخرسه، أو لسفهه، ثم رجع إلى الذى له الحق، فقال سبحانه: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾، يعنى ولى الحق، فليملل هو ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾، يعنى بالحق، ولا يزداد شيئًا ولا ينقص، كما قال للمطلوب قبل ذلك، وأمر كليهما بالعدل، ثم قال سبحانه: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ﴾ على حقكم ﴿شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾، يقول: ولا يشهد الرجل على حقه إلا مرضيًا إن كان الشاهد رجلاً أو امرأة.

ثم قال: ﴿أَن تَضِلَّ﴾ المرأة، يعنى أن تنسى ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾ الشهادة، ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا﴾ الشهادة ﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾، يقول: تذكرها المرأة الأخرى التى حفظت شهادتهما، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾، يقول: إذا ما دعى الرجل ليستشهد على أخيه، فلا يأب إن كان فارغًا، ثم قال: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾، يقول: ولا تملوا، وكل شىء فى القرآن تسأموا، يعنى تملوا، ﴿أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾، يعنى قليل الحق وكثيره، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾؛ لأن الكتاب أحصى للأجل وأحفظ للمال، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾، يعنى الكتاب، ﴿أَقْسَطُ﴾، يعنى أعدل ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ﴾، يعنى أصوب ﴿لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾، يعنى وأجدر ألا تشكوا، نظيرها: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُواْ بِالشَّهَادَةِ﴾ [المائدة: ١٠٨]، أى أجدر، ونظيرها فى الأحزاب: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى﴾، يعنى أجدر ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١]، فى الحق والأجل والشهادة إذا كان مكتوبًا.

ثم رخص فى الاستثناء، فقال: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾، وليس فيها أجل، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، يعنى حرج، ﴿أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾، يعنى التجارة الحاضرة، إذا كانت يدًا بيد على كل حال، ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ﴾ على حقكم ﴿إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾، يقول: لا يعمد أحدكم إلى الكاتب والشاهد فيدعوهما إلى الكتابة والشهادة ولهما حاجة، فيقول: اكتب لى، فإن الله أمرك أن تكتب

لى، فيضاره بذلك، وهو يجد غيره، ويقول للشاهد وهو يجد غيره: اشهد لى على حقى، فإن الله قد أمرك أن تشهد على حقى، وهو يجد غيره من يشهد له على حقه، فيضاره بذلك، فأمر الله عز وجل أن يتركا لحاجتهما ويلتمس غيرهما، ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْۗ﴾، يقول: وإن تضاروا الكاتب والشاهد وما نهيتم عنه، فإنه إثم بكم، ثم خوفهم، فقال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ ولا تعصوه فيهما، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [آية: ٢٨٢] من أعمالكم عليم.

﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

ثم قال: ﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌۖ﴾، يقول: إذا لم يكن الكاتب والصحيفة حاضرين، فليرتهن الذى عليه الحق من المطلوب، ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ فى السفر، فإن كان الذى عليه الحق أمينًا عند صاحب الحق، فلم يرتهن منه لثقته به وحسن ظنه، ﴿فَلْيُؤَدِّ﴾ ذلك ﴿ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾، يقول: ليرد على صاحب الحق حقه حين ائتمنه ولم يرتهن منه، ثم خوفه الله عز وجل، فقال: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ﴾، يعنى الذى عليه الحق.

ثم رجع إلى الشهود، فقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ﴾ عند الحاكم، يقول: من أشهد على حق، فليشهد بها على وجهها كما كانت عند الحاكم، فلا تكتموا الشهادة، قال: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا﴾ ولا يشهد بها عند الحاكم، ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من كتمان الشهادة وإقامتها ﴿عَلِيمٌ﴾ [آية: ٢٨٣].

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ من الخلق عبيده وفى ملكه، يقضى فيهم ما يريد، ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾، يقول: إن تلنوا بألسنتكم ما فى قلوبكم من ولاية الكفار والنصيحة أو تسروه، ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾(١) من العذاب والمغفرة ﴿قَدِيرٌ﴾ [آية: ٢٨٤].

فلما نزلت هذه الآية، قال المسلمون: يا رسول الله، إنا نحدث أنفسنا بالشرك والمعصية، أفيحاسبنا الله بها ولا نعملها؟ فأنزل الله عز وجل فى قولهم فى التقديم: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾، يقول: لا يكلفها من العمل إلا ما أطاقت، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾ من الخير وما عملته وتكلمت به، ﴿وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ من الإثم، فنسخت هذه الآية قوله سبحانه: ﴿وإن تُبْدُواْ مَا فِى أنفُسِكُمْ أوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِـهِ اللّـهُ﴾، قال النبى ﷺ عند ذلك: «إن الله عز وجل تجاوز عن أمتى ما حدثوا به أنفسهم ما لم يعملوه أو يتكلموا به».

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾

قوله سبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾، يقول: صدق محمد بما أنزل إليه من ربه من القرآن، ثم قال: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾، يقول: كل صدق بالله بأنه واحد لا شريك له، ﴿وَ﴾ صدق بـ ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، يقول: لا يكفر بأحد من رسله، فكل هذه الرسل صدق بهم المؤمنون، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ كفعل أهل الكتاب، آمنوا ببعض الكتب وببعض الرسل، فذلك التفريق، فأما اليهود، فآمنوا بموسى وبالتوراة، وكفروا بالإنجيل والقرآن، وأما النصارى، فآمنوا بالتوراة والإنجيل وبعيسى ﷺ، وكفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن، ﴿وَقَالُواْ﴾، فقال المؤمنون بعد ذلك: ﴿سَمِعۡنَا﴾ قول ربنا فى القر آن، ﴿وَأَطَعۡنَاۖ﴾ أمره، ثم قال لهم بعدما أقروا بالنبى ﷺ والكتب: أن ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾، يقول: قولوا: وأعطنا مغفرة منك يا ربنا، ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آية: ٢٨٥]، يقول: المرجع إليك فى الآخرة.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى

---

(١) انظر: (البحر المحيط ٢/٣٦١، الكشاف ١/١٧١، إعراب القرآن للعكبرى ١/٧١، إعراب القرآن للنحاس ١/٣٠٤).

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

ثم قال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾، يقول: لا يكلفها من العمل إلا ما أطاقت، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾ من الخير وما عملت أو تظلمت به، ﴿وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ من الإثم، ثم علم جبريل النبي ﷺ أن يقول: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾، يقول: إن جهلنا عن شيء أو أخطأنا، فتركنا أمرك، قال الله عز وجل: ذلك لك، ثم قال: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرًا﴾، يعني عهدًا، ﴿كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ ما كان حرم عليهم من لحوم الإبل، وشحوم الغنم، ولحوم كل ذى ظفر، يقول: لا تفعل ذلك بأمتى بذنوبها كما فعلته ببنى إسرائيل، فجعلتهم قردة وخنازير، قال الله تعالى: ذلك لك.

ثم قال: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا﴾، يقول: واعف عنا من ذلك، ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾، يقول: وتجاوز عنا، عن ذنوبنا من ذلك كله واغفر، ﴿وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾، يقول: أنت ولينا، ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آية: ٢٨٦]، يعنى كفار مكة وغيرها إلى يوم القيامة، قال الله تعالى: ذلك لك، فاستجاب الله عز وجل له، ذلك فيما سأل وشفعه فى أمته، وتجاوز لها عن الخطايا والنسيان وما استكرهوا عليه، فلما نزلت قرأهن النبى ﷺ على أمته، وأعطاه الله عز وجل هذه الخصال كلها فى الآخرة، ولم يعطها أحدًا من الأمم الخالية.

قال: حدثنا عبيد الله بن ثابت، قال: حدثنى الهذيل، عن مقاتل، قال: بلغنى أن الله عز وجل كتب كتابًا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام، فهو عنده على العرش، فأنزل منه لآيتين ختم بهما سورة البقرة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ...﴾ إلى آخرها، فمن قرأها فى بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام ولياليهن.

قال: حدثنا عبيد الله، قال: حدثنى أبى، عن الهذيل أبى صالح، عن مقاتل بن سليمان فى قوله: ﴿مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قال: فقال أبو الدحداح: يا رسول الله، إن تصدقت بصدقة، أفلى مثلها فى الجنة؟ قال: «نعم»، قال: والصبية معى؟ قال: «نعم»، قال: وأم الدحداح معى؟ قال: «نعم»، قال: وكان له حديقتان، إحداهما تسمى الجنة، والأخرى الجنينة، وكانت الجنينة أفضل من

الجنة، قال: يا رسول الله، أشهد بأنى قد تصدقت بها على الفقراء، أو بعتها من الله ورسوله، فمن يقبضها؟ قال: وجاء إلى باب الحديقة، فتحرج أن يدخلها، إذ جعلها لله ورسوله، فصاح:

يا أم الدحداح هداك الهادى — إلى سبيل القصد والرشاد
بينى من الحائط الذى بالوادى — فقد مضى قرضًا إلى التناد
أقرضته الله على اعتماد — طوعًا بلا من ولا ارتداد
إلا رجاء الضعف فى الميعاد — فودعى الحائط وداع العاد
واستيقنى وفقت للرشاد — فارتحلى بالفضل والأولاد
إن التقى والبر خير زاد — قدمه المرء إلى المعاد

فأجابته: ربح بيعك، والله لولا شرطك ما كان لك منه إلا مالك، وأنشأت تقول:

مثلك أحيا ما لديه ونصح — وأشهر الحق إذا الحق وضح
قد منح الله عيالى ما صلح — بالعجوة السوداء والزهر البلح
والله أولى بالذى كان منح — مع واجب الحق ومع ما قد سرح
والعبد يسعى وله ما قد كدح — طول الليالى وعليه ما اجترح

قال: ثم خرجت وجعلت تنفض ما فى أكمام الصبيان، وتخرج ما فى أفواههم، ثم خرجوا وسلموا الحديقة إلى النبى ﷺ، فقال النبى ﷺ: «كم من نخلة لأبى الدحداح مدلا عذوقها فى الجنة، لو اجتمع على عذق منها أهل منى أن يقلوه ما أقلوه».

* * *

سورة آل عمران

مدنية كلها، وهى مائتا آية باتفاق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾﴾

قال: حدثنا عبيد الله، حدثنى أبى، عن الهذيل، عن مقاتل، أنه اجتمعت نصارى نجران، فمنهم السيد والعاقب، فقالوا: نشهد أن عيسى هو الله، فأنزل الله عز وجل تكذيبًا لقولهم: ﴿الٓمٓ﴾ [آية: ١]، يخبره أنه ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [1] [آية: ٢]، يعنى الحى الذى لا يموت، ﴿الْقَيُّومُ﴾، يعنى القائم على كل نفس بما كسبت، ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ﴾ يا محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾، لم ينزله باطلاً، يعنى القرآن، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتاب، يقول: محمد، عليه السلام، مصدق للكتب التى كانت قبله، ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ﴾ على موسى، ﴿وَالْإِنجِيلَ﴾ [2] [آية: ٣] على عيسى.

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾

﴿مِن قَبْلُ﴾ هذا القرآن، ثم قال: ﴿التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ هما ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، يعنى لبنى إسرائيل من الضلالة.

---

(١) قراءة عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان رضى الله عنهما، وابن مسعود وإبراهيم النخعى، والأعمش، وأصحاب عبدالله وزيد بن على، وجعفر بن محمد وأبى رجاء بخلاف، ورُويت عن النبى ﷺ: «الحىُّ القيَّام» انظر: (الطبرى ٦/١٥٥، الجامع لأحكام القرآن ٤/١، معانى القرآن للفراء ١/١٩٠، مجمع البيان ٢/٤٠٥، التبيان ٢/٣٨٨، البحر المحيط ٢/٣٧٧، إعراب القرآن للنحاس ١/٣٨، شرح المفصل ٦/١٢٧).

وقرأ علقمة: «الحىُّ القيِّم» . وخارجة، وعبدالله بن مسعود. انظر: (الطبرى ٦/١٥٥ والقرطبى ٤/١ والبحر المحيط ٢٣٧٧، النحاس ١/٣٠٨).

(٢) قراءة الحسن: «الأنجيل»(٢)، بفتح الهمزة، انظر: (الكشاف ١/١٧٣، القرطبى ٤،٦، البحر المحيط ٢/٣٧٨، مجمع البيان ٢/٤٠٥، إتحاف فضلاء البشر ١٧٠، اللسان «نجل»).

قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ ، يعنى القرآن بعد التوراة والإنجيل، والفرقان يعنى به المخرج فى الدين من الشبهة والضلالة، فيه بيان كل شيء يكون إلى يوم القيامة، نظيرها فى الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، يعنى المخرج من الشبهات، وفى البقرة: ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ، يعنى القرآن، وهم اليهود كفروا بالقرآن، منهم: حيى، وجدى، وأبو ياسر بنو أخطب، وكعب بن الأشرف، وكعب بن أسيد، وزيد بن التابوه وغيرهم، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ فى الآخرة ﴿شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آية: ٤]، يعنى عزيز فى ملكه، منيع شديد الانتقام من أهل مكة، هذا وعيد لمن خالف أمره.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آية: ٥]، يعنى شيء من أهل السماء، ولا من أهل الأرض، كل ذلك عنده، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ، نزلت فى عيسى ابن مريم ﷺ، خلقه من غير أب، ذكرًا وأنثى، سويًا وغير سوى، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فى ملكه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [آية: ٦] فى أمره، نزلت هذه الآية فى قولهم، وما قالوا من البهتان والزور لعيسى ﷺ.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾

ثم قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ ، يعمل بهن، وهن الآيات التى فى الأنعام قوله سبحانه: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إلى ثلاث آيات آخرهن: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣]، يقول: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ، يعنى أصل الكتاب؛ لأنهن فى اللوح المحفوظ مكتوبات، وهن محرمات على الأمم كلها فى كتابهم، وإنما تسمين أم الكتاب؛ لأنهن مكتوبات فى جميع الكتب التى أنزلها الله تبارك وتعالى على جميع الأنبياء، وليس من أهل دين إلا وهو يوصى بهن.

ثم قال عز وجل: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ ، ﴿الٓمٓ﴾ ﴿الٓمٓصٓ﴾ ﴿الٓمٓر﴾ ﴿الٓر﴾ ، شبه على اليهود كم تملك هذه الأمة من السنين، والمتشابهات هؤلاء الكلمات الأربع، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ﴾ ، يعنى ميل عن الهدى، وهو الشك، فهم اليهود، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ ، يعنى ابتغاء الكفر، ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾ ، يعنى منتهى ما يكون وكم يكون، يريد بذلك الملك، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ ، كم يملكون من السنين، يعنى أمة محمد، يملكون إلى يوم القيامة، إلا أيامًا يبتليهم الله عز وجل بالدجال.

ثم استأنف، فقال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ ، يعنى المتدارسون علم التوراة، فهم عبد الله بن سلام وأصحابه من مؤمنى أهل التوراة، ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ ، يعنى قليله وكثيره من عند ربنا، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آية: ٧]، فما يسمع إلا أولو الألباب، يعنى من كان له لب وعقل، يعنى ابن سلام وأصحابه، فيعلمون أن كل شيء من هذا وغيره من عند الله.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾

قال ابن سلام وأصحابه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾(١)، لا تمل قلوبنا، يعنى لا تحول قلوبنا عن الهدى بعدما هديتنا كما أزغت اليهود عن الهدى، ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ﴾ ، يعنى من عندك رحمة، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آية: ٨] للرحمة، ثم قال ابن سلام وأصحابه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ ، يعنى ليوم القيامة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آية: ٩] فى البعث بأنك تجمع الناس فى الآخرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ، يعنى اليهود خاصة، نزلت فى كعب بن الأشرف. ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ﴾ ، يعنى لا ﴿أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آية: ١٠]، يعنى اليهود.

---

(١) قراءة أبى واقد الجرّاح: «ربَّنا لا تَزِغْ قلوبُنا» انظر: (الكشاف ١/١٧٦، القرطبى ٤/٢٠، إعراب القرآن للنحاس ١/٣١٢، العكبرى ١/٧٢).

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، يعنى كأشباه آل فرعون فى التكذيب، ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الخالية قبل آل فرعون والأمم الخالية قبل آل فرعون: قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وقوم شعيب، ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، يعنى بأنهم كذبوا أيضًا بالعذاب فى الدنيا بأنه غير نازل بهم، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، يعنى فى الدنيا، فعاقبهم الله، ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [آية: ١١]، يعنى إذا عاقب.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾﴾

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة يوم بدر، ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ فى الآخرة، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آية: ١٢]، يقول: بئسما مهدوا لأنفسهم، فقال النبى ﷺ للكفار يوم بدر: «إن الله غالبكم، وسوف يحشركم إلى جهنم»، فقال أبو جهل: يا ابن أبى كبشة، هل هذا إلا مثل ما كنت تحدثنا به، وقوله سبحانه: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ﴾، وذلك أن بنى قينقاع من اليهود أتوا النبى ﷺ بعد قتال بدر يوعدونه القتال كما قتل كفار مكة يوم بدر، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ معشر اليهود، يعنى عبرة ﴿فِى فِئَتَيْنِ﴾ ﴿ٱلْتَقَتَا﴾ فئة المشركين وفئة المؤمنين يوم بدر، التقتا ﴿فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وهو النبى ﷺ وأصحابه يوم بدر، ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾، أبو جهل والمشركين، ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾، رأت اليهود أن الكفار مثل المؤمنين فى الكثرة، ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾[1]، وكان الكفار يومئذ سبعمائة رجل، عليهم أبو جهل، وذلك أن النبى ﷺ وأصحابه كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، بين كل أربعة بعير، ومعهم فرسان، أحدهما مع أبى مرثد الغنوى، والآخر مع المقداد بن الأسود الكندى، ومعهم ستة أدراع، والمشركون ألف رجل، سبعمائة دراع، عليهم أبو جهل، وثلاثمائة حاسر، ثم حبس الأخنس بن شريق ثلاثمائة رجل من بنى زهرة عن قتال

(١) قراءة ابن عباس وطلحة: «يُرونهم مِثليهم»، بياءٍ مضمومة، وقراءة السلمى. انظر: (البحر المحيط ٢/٣٩٤، القرطبى ٤/٢٧، الكشاف ١/١٧٧، مجمع البيان ٢/٤١٤).

النبي ﷺ، فبقي المشركون في سبعمائة رجل.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ﴾، يعنى بنصره ﴿مَن يَشَآءُ﴾، فينصره الله عز وجل القليل على الكثير، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، يعنى يقوى فى نصرهم، نصر المؤمنين وهم قليل، وهزيمة الكفار وهم كثير، ﴿لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [آية: ١٣]، يعنى الناظرين فى أمر الله عز وجل وطاعته لعبرة وتفكرًا لأولى الأبصار، حين أظهر الله عز وجل القليل على الكثير.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾(١)، يعنى الكفار، ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾، يعنى المال الكثير ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾، فأما الذهب، فهو ألف دينار ومائتا دينار، والفضة ألف ومائتا مثقال، ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾، يعنى السائمة، وهى الراعية، ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾، وهى الإبل والبقر والغنم، ﴿وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ﴾ الذى ذكر فى هذه الآية، ﴿مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آية: ١٤]، يعنى حسن المرجع، وهى الجنة.

﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

﴿۞ قُلْ﴾ للكفار: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾، يعنى ما ذكره فى هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾، وذلك أن العيون تجرى من تحت البساتين، ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون، ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ من الحيض والغائط

---

(١) قراءة مجاهد: «زَيَّن للناس حُبَّ الشهوات»، بفتح الزاى والياء. وقراءة ابن محيصن، والضحاك. قال ابن جنى: فاعل هذا الفعل إبليس، ودل عليه ما يتردد فى القرآن من ذكره. فهذا نحو قول الله تعالى: ﴿يَعِدُهم ويُمَنِّيهم﴾، وما جرى هذا المجرى.

انظر: (الكشاف ١/ ١٧٨، القرطبى ٤/ ٢٨، البحر المحيط ٢/ ٣٩٦، إتحاف فضلاء البشر ١٧١، إعراب القرآن للعكبرى ١/ ٧٤، تفسير الفخر الرازى ٢/ ٤١٦).

والبول والبزاق والمخاط ومن القذر كله، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أكبر، يعني رضى الله عنهم، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آية: ١٥]، يعني بأعمالهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

ثم أخبر سبحانه عن فعلهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آية: ١٦]، ثم نعت أعمالهم، فقال: الجنة هي لـ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على أمر الله وفرائضه، ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بكتاب الله ورسله، ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾، يعني المطيعين لله، ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ أموالهم في حق الله، ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آية: ١٧]، يقول: المصلين لله بالأسحار، يعني المصلين من آخر الليل.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾، وذلك أن عبد الله بن سلام وأصحابه مؤمني أهل التوراة، قالوا لرءوس اليهود: إن محمدًا رسول الله ﷺ، ودينه الحق، فاتبعوه، فقالت اليهود: ديننا أفضل من دينكم، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يشهدون بها، ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ بالتوراة ابن سلام وأصحابه يشهدون أنه لا إله إلا هو، ويشهدون أن الله عز وجل ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾، يعني قائم على كل شيء بالعدل، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آية: ١٨] في أمره.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

شهدوا ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ﴾، يعني التوحيد ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، ثم قال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني اليهود والنصارى في هذا الدين، ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، يعني بيان أمر محمد ﷺ؛ لأنهم كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ من قبل أن يبعث رسولاً، فلما بعث محمد ﷺ من ولد إسماعيل، تفرقوا ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، يعني القرآن، يعني اليهود، ثم خوفهم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آية: ١٩]، كأنه قد جاء.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾، يعنى اليهود خاصموك يا محمد فى الدين، ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾، يقول: أخلصت دينى لله، ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ على دينى فقد أخلص، ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾، يعنى أهل التوراة والإنجيل، اليهود والنصارى، ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾، والإسلام اسم مشتق من اسم الله عز وجل، أمر الله تعالى النبى ﷺ أن يدعوهم إلى الإسلام، فقال: أسلمت، يعنى أخلصت، يقول: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟﴾، يعنى فإن أخلصوا له، يعنى لله عز وجل بالتوحيد، ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ من الضلالة، ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾، يقول: فإن أبوا أن يسلموا، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ﴾، يعنى بلاغ الرسالة، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آية: ٢٠] بأعمال العباد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾، يعنى بالقرآن، وهم ملوك بنى إسرائيل من اليهود ممن لا يقرأ الكتاب، ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، يعنى بالعدل بين الناس من مؤمنى بنى إسرائيل من بعد موسى، ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ يا محمد ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آية: ٢١]، يعنى وجيع، يعنى اليهود؛ لأن هؤلاء على دين أوائلهم الذين قتلوا الأنبياء والآمرين بالقسط.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ فعلوا ذلك ﴿حَبِطَتْ﴾، يعنى بطلت ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ﴾، فلا ثواب لهم، ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَ﴾ لا فى ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ لأن أعمالهم كانت فى غير طاعة الله عز وجل، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [آية: ٢٢]، يعنى من مانعين يمنعونهم من النار، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾، يعنى أعطوا حظًا من التوراة، يعنى اليهود: كعب بن الأشرف، وكعب بن أسيد، ومالك بن

الضيف، ويحيى بن عمرو، ونعمان بن أوفى، وأبو ياسر بن أخطب، وأبو نافع بن قيس، وذلك أن النبى ﷺ قال لهم: «أسلموا تهتدوا، ولا تكفروا»، فقالوا للنبى ﷺ: نحن أهدى وأحق بالهدى منكم، ما أرسل الله نبيًا بعد موسى، فقال النبى ﷺ: «لم تكذبون وأنتم تعلمون أن الذى أقول حق، فأخرجوا التوراة نتبع نحن وأنتم ما فيها، وهى بينكم، فإنى مكتوب فيها أنى نبى ورسول»، فأبوا ذلك، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ﴾، يعنى التوراة، ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾، يعنى ليقضى بينهم، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى﴾، يعنى يأبى ﴿فَرِيقٌ﴾، يعنى طائفة ﴿مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آية: ٢٣].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)﴾

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ بأن العذاب واجب عليهم، فيها تقديم لقولهم: ﴿إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾، يعنى الأربعين يومًا التى عبد آباؤهم فيها العجل؛ لأنهم قالوا: إنهم أبناء الله وأحباؤه، يقول: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم﴾ عفو الله ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آية: ٢٤]، يعنى الذين كذبوا لقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، خوفهم الله، فقال: ﴿فَكَيْفَ﴾ بهم ﴿إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾، يعنى يوم القيامة لا شك فيه بأنه كائن، ﴿وَوُفِّيَتْ﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بر وفاجر ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آية: ٢٥] فى أعمالهم.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ﴾، وذلك أن النبى ﷺ سأل ربه عز وجل أن يجعل له ملك فارس والروم فى أمته، فنزلت: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ﴾ ﴿مَن تَشَاءُ﴾، يعنى محمدًا ﷺ وأمته، ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾، يعنى الروم وفارس، ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾ محمدًا وأمته، ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾، يعنى الروم وفارس،

﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من الملك والعز والذل ﴿قَدِيرٞ﴾ [آيـة: ٢٦]، ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾، يعنى ما تنقص فى الليل داخـل فـى النـهار، حتـى يصير الليل تسع ساعات والنهار خمس عشرة ساعة، فذلك قوله سبحانه: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهار وَيُكَوِّرُ﴾، يعنى يسلط ﴿النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، وهما هكذا إلى أن تقوم الساعة.

قوله سبحانه: ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾، فهو الناس والـدواب والطير، خلقـهم من نطفة وهى ميتة، وخلق الطير من البيضة وهى ميتة، ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾، يعنى يخرج الله عز وجل هذه النطفة من الحى، وهم الناس والدواب والطير، ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آية: ٢٧]، يقول سبحانه: ليس فوقى ملك يحاسبنى، أنـا الملـك أعطـى من شئت بغير حساب، لا أخاف من أحد يحاسبنى.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨﴾

قولـه سـبحانه: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾، نزلـت فـى حاطب بن أبى بلتعة وغيره، كانوا يظهرون المودة لكفار مكة، فنهاهم الله عز وجل عـن ذلـك، ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾، فيتخذونـهم أولياء مـن غـير قـهر، ﴿فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾، ثم استثنى تعـالى، فقـال: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾، فيكـون بـين أظـهرهم فيرضيهم بلسانه من المخافة، وفى قلبه غير ذلك، ثم خوفـهم، فقـال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾، يعنى عقوبته فى ولاية الكفار، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آية: ٢٨] فى الآخـرة، فيجزيكم بأعمالكم.

﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾

﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾، يعنى إن تسروا ما فى قلوبكـم

من الولاية للكفار، ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾، يعنى أو تظهروا ولايتهم، يعنى حاطب وأصحابه، ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾، من المغفرة والعذاب ﴿قَدِيرٌ﴾ [آية: ٢٩]، نظيرها فى آخر البقرة، ثم خوفهم ورغبهم، فقال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾، يعجل لها كل خير عملته، ولا يغادر منه شىء، ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾، يعنى أجلاً بعيدًا بين المشرق والمغرب، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، يعنى عقوبته فى عمل السوء، ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آية: ٣٠]، يعنى بربهم، حين لا يعجل عليهم بالعقوبة، لما دعا النبى ﷺ كعبًا وأصحابه إلى الإسلام، قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، ولنحن أشد حبًا لله مما تدعونا إليه، فقال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ على دينى، ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ما كان فى الشرك، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آية: ٣١] ذو تجاوز لما كان فى الشرك، رحيم بهم فى الإسلام.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾

﴿قُلْ﴾ لليهود ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، يعنى أعرضوا عن طاعتهما، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آية: ٣٢]، يعنى اليهود.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا﴾، يعنى اختار من الناس لرسالته آدم ونوحًا، ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾، يعنى إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، ثم قال: ﴿وَآلَ عِمْرَانَ﴾، يعنى موسى، وهارون، ذرية آل عمران اختارهم للنبوة والرسالة ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آية: ٣٣]، يعنى عالمى ذلك الزمان.

وهى ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ (١)، وكل هؤلاء من ذرية آدم، ثم من ذرية نوح، ثم من ذرية إبراهيم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آية: ٣٤]، لقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن أشد حبًا لله، عليهم بما قالوا، يعنى اليهود.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ

---

(١) وقرأ زيد بن ثابت: «ذِرِّيَّة»(١) بكسر الذال، «وذَرِّيَّة» بفتح الذال. وقراءة المطوعى، والضحاك. انظر: (البحر المحيط ٢/٤٣٥، إعراب القرآن للنحاس ١/٣٢٣، إتحاف فضلاء البشر ١٧٣).

ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ بن ماثانا، اسمها حنة بنت فاقوز، وهى أم مريم، وهى حبلى، لئن نجانى الله عز وجل ووضعت ما فى بطنى، لأجعلنه محررًا، وبنو ماثان من ملوك بنى إسرائيل من نسل داود، عليه السلام، والمحرر الذى لا يعمل للدنيا ولا يتزوج، ويعمل للآخرة، ويلزم المحراب، فيعبد الله عز وجل فيه، ولم يكن يحرر فى ذلك الزمان إلا الغلمان، فقال زوجها: أرأيت إن كان الذى فى بطنك أنثى؟ والأنثى عورة، كيف تصنعين؟ فاهتمت لذلك، فقالت حنة: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آية: ٣٥] لدعائهما، العليم بنذرهما، يعنى بالتقبل والاستجابة لدعائهما.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾، والأنثى عورة، فيها تقديم، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، ثم قالت حنة: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، وكذلك كان اسمها عند الله عز وجل، ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾، يعنى عيسى ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آية: ٣٦]، يعنى الملعون، فاستجاب الله لها، فلم يقربها ولا ذريتها شيطان، وخشيت حنة ألا تقبل الأنثى محررة، فلفتها فى خرق ووضعتها فى بيت المقدس عند المحراب، حيث يدرس القراء، فتساهم القوم عليها؛ لأنها بنت إمامهم وسيدهم، وهم الأحبار من ولد هارون أيهم يأخذها.

قال زكريا، وهو رئيس الأحبار: أنا آخذها، أنا أحقكم بها؛ لأن أختها أم يحيى عندى، فقال القراء: وإن كان فى القوم من هو أقرب إليها منك؟ فلو تركت لأحق الناس بها لتركت لأمها، ولكنها محررة، ولكن هلم نتساهم عليها، من خرج سهمه فهو أحق بها، فاقترعوا، فقال الله عز وجل لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾، يعنى عندهم فتشهدهم، ﴿إِذْ يُلْقُون أَقْلَامَهُمْ﴾، حين اقترعوا ثلاث مرات بأقلامهم التى كانوا يكتبون بها الوحى أيهم يكفلها؟ أيهم يضمها؟ فقرعهم زكريا فقبضها، ثم قال الله عز وجل لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤] فى مريم، فذلك قوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، يقول: رباها تربية حسنة فى عبادة وطاعة لربها، فبنى لها زكريا محرابًا فى بيت المقدس، وجعل بابه وسطه، لا يصعد إليه أحد إلا بسلم، واستأجر لها ظئرًا ترضعها حتى تحركت، فكان يغلق عليها الباب ومعه المفتاح، لا يأمن عليها أحدًا، يأتيها بطعامها ومصالحها، وكانت إذا حاضت أخرجها إلى منزله، فتكون مع أختها أيليشفع بنت عمران، وهى مريم بنت عمران، أم يحيى، فإذا طهرت ردها إلى محراب بيت المقدس، وكان زكريا يرى عندها العنب فى الشتاء الشديد البرد، فيأتيها به جبريل، عليه السلام من السماء، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ﴾ لها زكريا: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾، يعنى من أين هذا فى غير حينه؟ ﴿قَالَتْ﴾ هذا الرزق ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آية: ٣٧].

فطمع عند ذلك زكريا فى الولد، فقال: إن الذى يأتى مريم بهذه الفاكهة فى غير حينها لقادر أن يصلح لى زوجتى ويهب لى منها ولدًا، فذلك قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾، يعنى عند ذلك ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾، يعنى من عندك، ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾، تقيًا زكيًا، كقوله: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦]، ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آية: ٣٨]، فاستجاب الله عز وجل، وكانا قد دخلا فى السن.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾، فبينما هو يصلى فى المحراب، حيث يذبح القربان، إذا برجل عليه بياض حياله، وهو جبريل، عليه السلام، فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾(١)، اشتق يحيى من أسماء الله عز وجل، ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، يعنى

---

(١) قراءة مجاهد وحميد الأعرج: «أن الله يُبْشِرُكَ»(١)، بضم الياء، وسكون الباء، وكسر الشين خفيفة. وقراءة عبدالله بن مسعود. انظر: (البحر المحيط ٢/٤٤٧، الطبرى ٦/٣٦٩، القرطبى=

من الله عز وجل، وكان يحيى أول من صدق بعيسى، عليهما السلام، وهو ابن ثلاث سنين، قوله الأول وهو ابن ستة أشهر، فلما شهد يحيى أن عيسى من الله عز وجل، عجبت بنو إسرائيل لصغره، فلما سمع زكريا شهادته، قام إلى عيسى فضمه إليه، وهو في خرقة، وكان يحيى أكبر من عيسى بثلاث سنين، يحيى وعيسى ابنا خالة، ثم قال الله سبحانه: ﴿وَسَيِّدًا﴾، يعني حليمًا، ﴿وَحَصُورًا﴾ لا ماء له، ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آية: ٣٩]، والحصور الذي لا حاجة له في النساء.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾

فلما بشر زكريا بالولد، قال لجبريل، عليه السلام في المخاطبة: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ﴾، يعني من أين ﴿يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾، يقول ذلك تعجبًا؛ لأنه كان قد يبس جلده على عظمه من الكبر، ﴿قَالَ﴾ جبريل، عليه السلام، ﴿كَذَٰلِكَ﴾، يعني هكذا قال ربك، إنه يكون لك ولد، ﴿ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آية: ٤٠]، أن يجعل ولدًا من الكبير والعاقر؛ لقوله: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾، يعني علمًا للحبل، ﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾ إذا جامعتها على طهر فحبلت، فإنك تصبح لا تستنكر من نفسك خرسًا ولا سقمًا، ولكن تصبح لا تطيق الكلام، ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ (١)، يعني إلا إشارة يومىء بيده، أو برأسه من غير مرض، ولم يحبس لسانه عن ذكر الله عز وجل، ولا عن الصلاة، فكذلك قوله سبحانه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آية: ٤١]، يقول: صل بالغداة والعشي، فأتى امرأته على طهرها فحملت، وكان آية الحبل أنه وضع يده على صدرها، فحملت فاستقر الحمل في رحمها، فحبلت بيحيى، فأصبح لا

=٤/٧٥، الكشاف ١/١٨٨، معاني القرآن للفراء ١/ ٢١٢، التبيان ٢/٤٥١، إعراب القرآن للنحاس ١/٣٢٨، إعراب القرآن للعكبري ١/٧٨، تفسير الفخر الرازي ٤/٤٢٧).

(١) قراءة الأعمش: «إلا رُمُزًا»، بضمتين. وقراءة يحيى بن وثاب، وعلقمة بن قيس. انظر: (إعراب القرآن للنحاس ١/٣٣٠، البحر المحيط ٢/٤٥٣، الجامع لأحكام القرآن ٤/٨١، الكشاف ١/١٨٩، تفسير الفخر الرازي ٢/٤٥١).

يستطيع الكلام، فعرف أن امرأته قد حبلت، فولدت يحيى، عليه السلام، فلم يعص الله قط.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾، وهو جبريل، عليه السلام، وحده: ﴿يَـٰمَرْيَمُ﴾، وهى فى المحراب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾، يعنى اختارك، ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من الفاحشة والألم، ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ﴾، يعنى واختارك، ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آية: ٤٢] بالولد من غير بشر، ﴿يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾، يعنى لربك، ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آية: ٤٣]، يعنى مع المصلين فى بيت المقدس.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أن الذى ذكر فى هؤلاء الآيات، ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾، يعنى حديثًا من الغيب لم تشهده يا محمد، فذلك قوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ﴾ فى القرعة، ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾، يعنى يضم مريم إلى نفسه، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ يا محمد، ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آية: ٤٤] فى مريم، يعنى القراء أيهم يكفلها.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ﴾، وهو جبريل وحده، عليه السلام، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا﴾، يعنى مكينًا عند الله عز وجل، ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فيها تقديم، ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آية: ٤٥] عند الله فى الآخرة، ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾، يعنى حجر أمه فى الخرق طفلاً، ﴿وَ﴾ يكلمهم ﴿وَكَهْلًا﴾، يعنى إذا اجتمع قبل أن يرفع إلى السماء، ﴿وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [آية: ٤٦].

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ﴾، يعنى من أين ﴿يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، يعنى الزوج، ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، ويخلق من يشاء، فشاء أن يخلق ولدًا من غير بشر، لقولها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ كان فى علمه أن يكون عيسى فى بطن مريم من غير بشر، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آية: ٤٧] لا يثنى، ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾، يعنى خط الكتاب بيده بعدما بلغ أشده، وهو ابن ثمانى عشرة سنة، والمرأة بعدما تبلغ الحيض، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾، يعنى الحلال والحرام والسُّنة، ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [آية: ٤٨].

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

ويجعله ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يعنى بعلامة، ثم بين الآية، ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم﴾، يعنى أجعل لكم ﴿مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا﴾، فخلق الخفاش ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ لأنه أشد الخلق، إنما هو لحم وشىء يطير بغير ريش فطار بإذن الله، ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ الذى ولدته أمه أعمى، الذى لم ير النور قط، فيرد الله بصره، ﴿وَ﴾ أبرئ ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾، فيبرأ بإذن الله، ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، فتعيش، ففعل ذلك وهم ينظرون، وكان صنيعه هذا آية من الله عز وجل بأنه نبى ورسول إلى بنى إسرائيل، فأحيا سام بن نوح بن لمك من الموت بإذن الله، فقالوا له: إن هذا سحر، فأرنا آية نعلم أنك صادق.

وقال عيسى ﷺ: أرأيتم إن أنا أخبرتكم ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ فى بيوتكم من الطعام، فيها تقديم ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾، يعنى وما ترفعون فى غد، تعلمون أنى صادق؟ قالوا: نعم، قال عيسى ﷺ: فلان أكلت كذا وكذا. وشربت كذا وكذا، وأنت يا فلان أكلت كذل وكذا، وأنت يا فلان، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، يقول

الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾، يعنى لعلامة، ﴿لَّكُمْ﴾ فيما أخبرتكم به ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آية: ٤٩]، يعنى مصدقين بعيسى بأنه رسول.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ من اللحوم، والشحوم، وكل ذى ظفر، والسمك، فهذا البعض الذى أحل لهم غير السبت، فإنهم يقومون عليه فوضع عنهم فى الإنجيل ذلك، ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بعلامة من ربكم، يعنى العجائب التى كان يصنعها الله، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، يعنى فوحدوا الله، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [آية: ٥٠] فيما آمركم به من النصيحة، فإنه لا شريك له.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾

وقال لهم عيسى ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾، يعنى فوحدوه، ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آية: ٥١]، يعنى هذا التوحيد دين مستقيم، وهو الإسلام، فكفروا، ﴿۞ فَلَمَّا أَحَسَّ﴾، يعنى فلما رأى ﴿عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾، يعنى من بنى إسرائيل، كقوله عز وجل: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريم: ٩٨]، يعنى هل ترى منهم من؟ فمر عيسى ﷺ على الحواريين، يعنى على القصارين غسالى الثياب، ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، يعنى من يتبعنى مع الله، كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ [الشعراء: ١٣]، يعنى معى هارون، وكقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢]، يعنى مع أموالكم، ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، يعنى بتوحيد الله، ﴿وَاشْهَدْ﴾ يا عيسى ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آية: ٥٢]، يعنى مخلصين بتوحيد الله عز وجل.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ﴾، يعنى صدقنا بالإنجيل الذى أنزلت على عيسى، ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾، يعنى عيسى على دينه، ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آية: ٥٣]، يقول: فاجعلنا مع الصادقين، نظيرها فى المائدة، هذا قول الحواريين.

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾، وذلك أن كفار بنى إسرائيل عمدوا إلى رجل، فجعلوه رقيبًا على عيسى ليقتلوه، فجعل الله شبه عيسى على الرقيب، فأخذوا الرقيب فقتلوه وصلبوه، وظنوا أنه عيسى، ورفع الله عز وجل عيسى إلى سماء الدنيا من بيت المقدس ليلة القدر فى رمضان، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَكَرُواْ﴾ بعيسى ليقتلوه، يعنى اليهود، ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ بهم حين قتل رقيبهم وصاحبهم، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آية: ٥٤]، يعنى أفضل مكرًا منهم.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾، فيها تقديم، يقول: رافعك إلىّ من الدنيا، ومتوفيك حين تنزل من السماء على عهد الدجال، يقول: إنى رافعك إلىّ الآن ومتوفيك بعد قتل الدجال، يقول: رافعك إلى فى السماء، ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، يعنى اليهود وغيرهم، ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ على دينك يا عيسى، وهو الإسلام، ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، يعنى اليهود وغيرهم، وأهل دين عيسى هم المسلمون فوق الأديان كلها ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ فى ألآخرة ﴿فَأَحْكُمُ﴾، يعنى فأقضى ﴿بَيْنَكُمْ﴾، يعنى بين المسلمين وأهل الأديان ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ﴾ من الدين ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾ [آية: ٥٥]، وهو الإسلام، فأسلمت طائفة وكفرت طائفة.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

ثم أخبر الله عز وجل عن منزلة الفريقين فى الآخرة، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، يعنى كفار أهل الكتاب، ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾، يعنى القتل أو الجزية، ﴿وَ﴾ فى ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ عذاب النار، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آية: ٥٦]، يعنى من مانعين يمنعونهم من النار، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، يعنى أمة محمد ﷺ، ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾، يعنى فيوفوا أجورهم فى الآخرة، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آية: ٥٧].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى ذكره الله عز وجل فى هذه الآيات ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ الآيَاتِ﴾، يعنى من البيان ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آية: ٥٨]، يعنى المحكم من الباطل.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ﴾، وذلك أن وفد نصارى نجران قدموا على النبى ﷺ بالمدينة، منهم السيد، والعاقب، والأسقف، والرأس، والحارث، وقيس، وابنيه، وخالد، وخليد، وعمرو، فقال السيد والعاقب، وهما سيدا أهل نجران: يا محمد، لم تشتم صاحبنا وتعيبه؟ فقال النبى ﷺ: «ما صاحبكم؟»، قالوا: عيسى ابن مريم العذراء البتول، قال أبو محمد بن ثابت، قال: العذراء البتول، المنقطعة إلى الله عز وجل، لقوله عز وجل: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل: ٨].

قالوا: فأرنا فيما خلق الله عبدًا مثله يحيى الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويخلق من الطين طيرًا، ولم يقولوا: بإذن الله، وكل آدمى له أب، وعيسى لا أب له، فتابعنا فى أن عيسى ابن الله ونتابعك، فإما أن تجعل عيسى ولدًا وإما إلهًا، فقال النبى ﷺ: «معاذ الله أن يكون له ولد، أو يكون معه إله»، فقالا للنبى ﷺ: أنت أحمد؟ فقال النبى ﷺ: «أنا أحمد، وأنا محمد»، فقالا: فيم أحمد؟ قال: «أحمد الناس عن الشرك»، قالا: فإنا نسألك عن أشياء، قال النبى ﷺ: «لا أخبركم حتى تسلموا فتتبعونى»، قالا: أسلمنا قبلك، قال النبى ﷺ: «إنكما لم تسلما، حجزكما عن الإسلام ثلاثة: أكلكما الخنزير، وشربكما الخمر، وقولكما: إن لله عز وجل ولدًا».

فغضبا عند ذلك، فقالا: من أبو عيسى؟ ائتنا له بمثل، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ﴾ ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آية: ٥٩]، هذا الذى قال الله فى عيسى هو ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آية: ٦٠] يا محمد، يعنى من الشاكين فى عيسى أنه مثله كمثل آدم، فقالوا للنبى ﷺ: ليس كما تقول، ما هذا له بمثل.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى

ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

فأنزل الله عز وجل: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾، يعنى فمن خاصمك فى عيسى ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، يعنى من البيان من أمر عيسى، يعنى ما ذكر فى هذه الآيات، ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾، يعنى نخلص الدعاء إلى الله عز وجل، ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [آية: ٦١]، ﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾ الذى ذكرته فى عيسى، ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾، والذى تقولون هو الباطل، ﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فى ملكه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [آية: ٦٢] فى أمره، حكم عيسى فى بطن أمه. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾، يعنى فإن أبوا إلا أن يلاعنوا، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آية: ٦٣] فى الأرض بالمعاصى.

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾، يعنى كلمة العدل، وهى الإخلاص، ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ من خلقه، ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنهم اتخذوا عيسى ربًا، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾، يعنى فإن أبوا التوحيد، ﴿فَقُولُوا۟﴾ لهم أنتم: ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آية: ٦٤]، يعنى مخلصين بالتوحيد، فقال العاقب: ما نصنع بملاعنته شيئًا، فوالله لئن كان كاذبًا ما ملاعنته بشىء، ولئن كان صادقًا لا يأتى علينا الحول حتى يهلك الله الكاذبين.

قالوا: يا محمد، نصالحك على ألا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا، على أن نؤدى إليك ألف حلة فى صفر، وألف حلة فى رجب، وعلى ثلاثين درعًا من حديد عادية، فصالحهم النبى ﷺ على ذلك، فقال: «والذى نفس محمد بيده، لولا عنونى ما حال الحول، ويحضرنى منهم أحد، ولأهلك الله الكاذبين»، قال عمر، رضى الله عنه: لو لاعنتهم بيد من كنت تأخذ، قال: «آخذ بيد على، وفاطمة، والحسن، والحسين، عليهم السلام، وحفصة، وعائشة، رحمهما الله.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ﴾، يعنى تخاصمون ﴿فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، وذلك أن رؤساء اليهود: كعب بن الأشرف، وأبا ياسر، وأبا الحقيق، وزيد بن التابوه، ونصارى نجران، يقولون: إبراهيم أولى بنا، والأنبياء منا كانوا على ديننا، وما تريد إلا أن نتخذك ربًا كما اتخذت النصارى عيسى ربًا، وقالت النصارى: ما تريد بأمرك إلا أن نتخذك ربًا كما اتخذت اليهود عزيرًا ربًا، قال النبى ﷺ: «معاذ الله من ذلك، ولكنى أدعوكم إلى أن تعبدوا الله جميعًا، ولا تشركوا به شيئًا»، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ﴾، يعنى تخاصمون ﴿فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، فتزعمون أنه كان على دينكم، ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾، أى بعد موت إبراهيم، ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [آية: ٦٥].

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ﴾، يعنى خاصمتم ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ مما جاء فى التوراة والإنجيل، ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾ بما ليس فى التوراة والإنجيل، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ أن إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا، ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [آية: ٦٦] أنه ما كان يهوديًا ولا نصرانيًا، ثم أخبر الله عز وجل، فقال: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا﴾، يعنى حاجًا ﴿مُّسۡلِمٗا﴾، يعنى مخلصًا، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آية: ٦٧]، يعنى من اليهود ولا من النصارى.

﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

ثم قال: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ﴾ لقولهم: إنه كان على دينهم، ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ على دينه واقتدوا به، ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ﴾، يقول: من اتبع محمدًا ﷺ على دينه، ثم قال الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آية: ٦٨] الذين يتبعونهما على دينهما، ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ﴾، يعنى يستنزلونكم عن دينكم

الإسلام، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾، يعنى وما يستنزلون ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آية: ٦٩]، إنما يضلون أنفسهم، فنزلت فى عمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، وذلك أن اليهود جادلوهما ودعوهما إلى دينهم، وقالوا: إن ديننا أفضل من دينكم، ونحن أهدى منكم سبيلاً، فنزلت: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ إلى آخر الآية.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

ونزلت: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، يعنى القرآن ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آية: ٧٠] أن محمدًا رسول الله، ونعته معكم فى التوراة، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ﴾، يعنى لم تخلطون الحق ﴿بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾، وذلك أن اليهود أقروا ببعض أمر محمد ﷺ وكتموا بعضًا ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٧١] أن محمدًا نبى ورسول ﷺ.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، كعب بن الأشرف، ومالك بن الضيف اليهوديان لسلفة اليهود ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، يعنى صدقوا بالقرآن، ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ أول النهار، يعنى صلاة الغداة، وإذا كان العشى قولوا لهم: نظرنا فى التوراة، فإذا النعت الذى فى التوراة ليس بنعت محمد ﷺ، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾، يعنى صلاة العصر، فلبسوا عليهم دينهم لعلهم يشكون فى دينهم، فذلك قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آية: ٧٢]، يعنى لكى يرجعوا عن دينهم إلى دينكم.

وقالا لسفلة اليهود: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، فإنه لن يؤتى أحد من الناس مثل ما أوتيتم من الفضل والتوراة والمن والسلوى والغمام والحجر، اثبتوا على دينكم، وقالوا لهم: لا تخبروهم بأمر محمد ﷺ فيحاجوكم، يعنى فيخاصموكم عند ربكم، قالوا ذلك حسدًا لمحمد ﷺ؛ لأن تكون النبوة فى غيرهم، فأمزل الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ

﴿ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ﴾، يعنى الإسلام والنبوة ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ لذلك ﴿عَلِيمٌ﴾ [آية: ٧٣] بمن يؤتيه الفضل، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾، يعنى بتوبته، ﴿مَن يَشَآءُ﴾، فاختص الله عز وجل به المؤمنين، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ﴾، يعنى الإسلام ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ [آية: ٧٤] على المؤمنين.

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعنى أهل التوراة، ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾، يعنى عبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾، يعنى كفار اليهود، يعنى كعب بن الأشرف وأصحابه، يقول: منهم من يؤدى الأمانة ولو كثرت، ومنهم من لا يؤديها ولو ائتمنته على دينار لا يؤده إليك، ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ عند رأسه مواظبًا عليه تطالبه بحقك، ﴿ذَٰلِكَ﴾ استحلالاً للأمانة، ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾، يعنى فى العرب ﴿سَبِيلٌ﴾، وذلك أن المسلمين باعوا اليهود فى الجاهلية، فلما تقاصهم المسلمون فى الإسلام، قالوا: لا حرج علينا فى حبس أموالهم؛ لأنهم ليسوا على ديننا يزعمون أن ذلك حلال لهم فى التوراة، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٧٥] أنهم كذبة، وأن فى التوراة تحريم الدماء والأموال إلا بحقها، ولكن أمرهم بالإسلام وأداء الأمانة وأخذ على ذلك ميثاقهم، فذلك قوله سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ الذى أخذه الله عليه فى التوراة وأدى الأمانة، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ محارمه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آية: ٧٦]، يقول: الذين يتقون استحلال المحارم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾، يعنى عرضًا من الدنيا يسيرًا، يعنى رءوس اليهود، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، يعنى لا نصيب لهم فى الآخرة، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ بعد العرض والحساب، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [آية: ٧٧]، يعنى وجيع.

﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ﴾، يعنى من اليهود ﴿لَفَرِيقٗا﴾، يعنى طائفة، منهم: كعب بن الأشرف، ومالك بن الضيف، وأبو ياسر، وجدى بن أخطب، وشعبة بن عمرو، ﴿يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ﴾، يعنى باللى التحريف بالألسن فى أمر محمد ﷺ، ﴿لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، يعنى التوراة، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ كتبوا يعنى فى من التوراة غير نعت محمد ﷺ ومحوا نعته، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ﴾ هذا النعت ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾، ولكنهم كتبوه، ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آية: ٧٨] أنهم كذبة، وليس ذلك نعت محمد ﷺ.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾، يعنى عيسى ابن مريم ﷺ، ﴿أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ﴾، يعنى أن يعطيه الله ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، يعنى التوراة والإنجيل، ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾، يعنى الفهم، ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾، يعنى بنى إسرائيل، ﴿كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن﴾، يقول لهم: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾، يعنى متعبدين لله عز وجل، ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، يعنى التوراة والإنجيل، ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾(١) [آية: ٧٩]، يعنى تقرءون.

﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ﴾، يعنى عيسى، وعزير، ولو أمركم بذلك لكان كفرًا، فذلك قوله: ﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ﴾، يعنى بعبادة الملائكة والنبيين، ﴿بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آية: ٨٠]، يعنى مخلصين له بالتوحيد، فقال: الإصبغ بن زيد،

---

(١) انظر: (الجامع لأحكام القرآن ٤/١٢٣، تفسير الفخر الرازى ٢/٤٨٨، البحر المحيط ٢/٥٠٦).

وكردم بن قيس، أيامرنا بالكفر بعد الإيمان، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، على أن يعبدوا الله، ويبلغوا الرسالة إلى قومهم، ويدعوا الناس إلى دين الله عز وجل، فبعث الله موسى ومعه التوراة إلى بنى إسرائيل، فكان موسى أول رسول بعث إلى بنى إسرائيل، وفى التوراة بيان أمر محمد ﷺ، فأقروا به، ﴿لَمَآ﴾، يعنى للذى ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾[1]، يعنى بنى إسرائيل ﴿مِّن كِتَٰبٍ﴾، يعنى التوراة، ﴿وَحِكْمَةٍ﴾، يعنى ما فيها من الحلال والحرام، ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾، يعنى بنى إسرائيل، ﴿رَسُولٌ﴾، يعنى محمدًا ﷺ، ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾، يعنى تصديق محمد ﷺ لما معكم فى التوراة، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾، يعنى لتصدقن به إن بعث، ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾، إذا خرج، يقول عز وجل لهم: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ بمحمد فى التوراة بتصديقه ونصره، ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾، يقول: وقبلتم على الإيمان بمحمد عهدى وميثاقى فى التوراة، ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا﴾، يقول الله: ﴿قَالَ فَٱشْهَدُواْ﴾ على أنفسكم بالإقرار، يقول الله عز وجل: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم﴾، أى إقراركم بمحمد ﷺ ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آية: ٨١].

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

ثم قال: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، يعنى فمن أعرض عن الإيمان بمحمد ﷺ بعد إقراره فى التوراة، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آية: ٨٢]، يعنى العاصين، ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، يعنى الملائكة، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾، يعنى المؤمنين، ﴿طَوْعًا﴾، ثم قال سبحانه: ﴿وَكَرْهًا﴾، يعنى أهل الأديان، يقولون: الله هو ربهم، وهو خلقهم، فذلك إسلامهم، وهم فى ذلك مشركون، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آية: ٨٣].

---

(١) قراءة الأعرج فيما يُروى عنه: «لَمَّا آتيناكم»، بفتح اللام وتشديد الميم، آتيناكم بألف قبل الكاف. وقراءة نافع، وأبى جعفر. انظر: (إتحاف فضلاء البشر ١٧٧، البحر المحيط ٥١٣/٢، التبيان ٥١٣/٢، تفسير الطبرى ٥٥٠/٦، الجامع لأحكام القرآن ١٢٦/٤، مجمع البيان ٤٦٧/٢، تفسير الفخر الرازى ٤٩١/٢، النشر ٢٤١/٢، الكشف ٣٥١/١، ٣٥٢، غيث النفع ١٧٩، السبعة ٢١٤، الحجة المنسوب لابن خالويه ١١١، الحجة لأبى زرعة ١٦٩، التيسير ٨٩، إعراب القرآن للعكبرى ٨٣/١، مغنى اللبيب ١٧٦/١، ١٧/٢، همع الهوامع ٢٠٢/٤، العنوان ٦١).

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

ثم أنزل الله عز وجل فى آل عمران: إن لم يؤمن أهل الكتاب بهذه الآية التى فى البقرة، وأمر المؤمنين أن يقرءوها، فنزل: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، يعنى صدقنا بتوحيد الله، ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، يعنى الإقرار بمحمد ﷺ، ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾، يعنى وما أعطى موسى، ﴿وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾، يقول: لا نكفر ببعض ونؤمن ببعض، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آية: ٨٤]، يعنى مخلصين، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آية: ٨٥]، نزلت فى طعمة بن أبيرق الأنصارى من الأوس من بنى صقر، ارتد عن الإسلام ولحق بكفار مكة.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، يعنى البيان، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾ إلى دينه ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آية: ٨٦]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَ﴾ لعنة ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [آية: ٨٧]، يعنى والعالمين كلهم، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ فى اللعنة، مقيمين فيها، ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آية: ٨٨]، يعنى لا يناظر بهم العذاب، نزلت فى اثنى عشر رجلاً ارتدوا عن الإسلام، وخرجوا من المدينة كهيئة البداة، ثم انصرفوا إلى طريق مكة، فلحقوا بكفار مكة، منهم: طعمة بن أبيرق الأنصارى، ومقيس بن ضبابة الليثى، وعبد الله بن أنس بن خطل من بنى تيم بن مرة القرشى، ووجوج بن الأسلت الأنصارى، وأبو عامر بن النعمان الراهب، والحارث بن سويد بن الصامت الأنصارى من بنى عمرو بن عوف أخو الجلاس بن سويد بن الصامت.

ثم إن الحارث ندم فرجع تائبًا من ضرار، ثم أرسل إلى أخيه الجلاس: إنى قد رجعت تائبًا، فسل النبى ﷺ هلى لى من توبة وإلا لحقت بالشام؟ فانطلق الجلاس إلى النبى ﷺ، فأخبره فلم يرد عليه شيئًا، فأنزل الله عز وجل فى الحارث، فاستثنى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾، فلا يعذبون ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، يعنى من بعد الكفر، ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ فى العمل فيما بقى، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لكفره، ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آية: ٨٩] به فيما بقى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾﴾

فبلغ أمر الحارث الأحد عشر الذين بمكة، فقالوا: نقيم بمكة ما أقمنا ونتربص بمحمد الموت، فإذا أردنا المدينة فسينزل فينا ما نزل فى الحارث ويقبل منا ما يقبل منه، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾، قالوا: نقيم بمكة كفارًا، فإذا أردنا المدينة، فسينزل فينا كما نزل فى الحارث، ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ [آية: ٩٠].

ثم أخبرهم عنهم وعن الكفار وما هم فى الآخرة، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾، فيود أحدهم أن يكون له ملء الأرض ذهبًا، يقدر على أن يفتدى به نفسه من العذاب لافتدى به، ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾ ما قبل منه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، وله عذاب، وجميع نظيرها فى المائدة، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آية: ٩١]، يعنى من مانعين يمنعونهم من العذاب. قوله سبحانه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾، يقول: لن تستكملوا التقوى حتى تنفقوا فى الصدقة ﴿مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ من الأموال، ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ﴾، يعنى من صدقة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [آية: ٩٢]، يعنى عالم به، يعنى بنياتكم.

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾، وذلك أن يعقوب بن إسحاق خرج ذات ليلة ليرسل الماء فى أرضه، فاستقبله ملك، فظن أنه لص يريد أن يقطع عليه الطريق، فعالجه فى المكان الذى كان يقرب فيه القربان يدعى شانير، فكان أول قربان قربه بأرض المقدس، فلما أراد الملك أن يفارقه، غمز فخذ يعقوب برجليه ليريه أنه لو شاء لصرعه، فهاج به عرق النساء، وصعد الملك إلى السماء، ويعقوب ينظر إليه، فلقى منها البلاء، حتى لم ينم الليل من وجعه، ولا يؤذيه بالنهار، فجعل يعقوب لله عز وجل تحريم لحم الإبل وألبانها، وكان من أحب الطعام والشراب إليه، لئن شفاه الله.

قالت اليهود: جاء هذا التحريم من الله عز وجل فى التوراة، قالوا: حرم الله على يعقوب وذريته لحوم الإبل وألبانها، قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لليهود ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ فاقرءوها ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آية: ٩٣] بأن تحريم لحوم الإبل في التوراة، فلم يفعلوا، يقول الله عز وجل يعيبهم: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بأن الله حرمه فى التوراة، ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ البيان، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [آية: ٩٤].

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾، وذلك حين قال الله سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا...﴾ [آل عمران: ٦٧] إلى آخر الآية، وقالت اليهود والنصارى: كان إبراهيم والأنبياء على ديننا، فقال النبى ﷺ: «فقد كان إبراهيم يحج البيت وأنتم تعلمون ذلك، فلم تكفرون بآيات الله»، يعنى بالحج، فذلك قوله سبحانه: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، يعنى حاجًا، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آية: ٩٥]، يقول: لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾، يعنى أول مسجد، ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾، يعنى للمؤمنين، ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾، وإنما سمى بكة؛ لأنه يبك الناس بعضهم بعضًا فى الطواف، ومباركًا فيه، البركة مغفرة للذنوب، ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آية: ٩٦]، يعنى المؤمنين من الضلالة لمن صلى فيه، وضلالة لمن صلى قبل بيت المقدس، وذلك أن المسلمين واليهود اختصموا فى

أمر القبلة، فقال المسلمون: القبلة الكعبة، وقالت اليهود: القبلة بيت المقدس، فأنزل الله عز وجل أن الكعبة أول مسجد كان فى الأرض، والبيت قبلة لأهل المسجد الحرام، والحرم كله قبلة الأرض.

ثم قال عز وجل: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾، يعنى علامة واضحة أثر مقام إبراهيم ﷺ، ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ﴾ فى الجاهلية ﴿كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ حتى يخرج منه، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، يعنى المؤمنين ﴿حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾، يعنى بالاستطاعة الزاد والراحلة، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ من أهل الأديان بالبيت ولم يحج واجبًا فقد كفر، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آية: ٩٧].

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، يعنى بالقرآن، ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ [آية: ٩٨]، ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، يعنى اليهود، ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أهل الإيمان، نزلت فى حذيفة، وعمار بن ياسر حين دعوهما إلى دينهم، فقالوا لهما: ديننا أفضل من دينكم، ونحن أهدى منكم سبيلاً، فقال عز وجل: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، عن دين الإسلام، ﴿مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾، يعنى بملة الإسلام زيغًا، ﴿وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ﴾ أن الدين هو الإسلام، وأن محمدًا رسول الله ونبى، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [آية: ٩٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٠١﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، يعنى طائفة من الذين أوتوا الكتاب، يعنى أعطوا التوراة، ﴿يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [آية: ١٠٠]، ﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾، يعنى القرآن، ﴿وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ﴾، يعنى محمدًا ﷺ بين أظهرهم، ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ﴾، يعنى يحترز بالله فيجعله ثقته، ﴿فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [آية: ١٠١]، يعنى إلى دين الإسلام.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، يعنى الأنصار، ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، وهو أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، نسختها: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن: ١٦]، وذلك أنه كان بين الأوس والخزرج عداوة فى الجاهلية فى دم شمير وحاطب، فقتل بعضهم بعضًا حينًا، فلما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة أصلح بينهم، فلما كان بعد ذلك، فاتخر منهم رجلان أحدهما ثعلبة بن غنيمة من الأوس، والآخر سعد بن زرارة من بنى الخزرج من بنى سلمة بن جشم، فجرى الحديث بينهما فغضبا، فقال الخزرجى: أما والله لو تأخر الإسلام عنا وقدوم رسول الله ﷺ علينا لقتلنا سادتكم، واستعبدنا أبناءكم، ونكحنا نساءكم بغير مهر، فقال الأوسى: قد كان الإسلام متأخرًا زمانًا طويلاً، فهلا فعلتم، فقد ضربناكم بالمرهفات حتى أدخلناكم الديار، وذكرا الأشعار والموتى، وافتخرا وانتسبا، حتى كان بينهما دفع وضرب بالأيدى والسعف والنعال، فغضبا فناديا، فجاءت الأوس إلى الأوس، والخزرج إلى الخزرج بالسلاح، وأسرع بعضهم إلى بعض بالرماح، فبلغ ذلك النبى ﷺ، فركب حمارًا وأتاهم، فلما أن عاينهم ناداهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آية: ١٠٢]، يعنى معتصمين بالتوحيد.

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾، يعنى بدين الله، ﴿جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ﴾، يعنى ولا تختلفوا فى الدين كما اختلف أهل الكتاب، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الإسلام، ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ فى الجاهلية يقتل بعضكم بعضًا، ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾، يعنى برحمته إخوانًا فى الإسلام، ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ﴾، يقول للمشركين: الميت منكم فى النار، والحى منكم على حرف النار، إن مات دخل النار، ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ﴾، يعنى من الشرك إلى الإيمان، ﴿كَذَٰلِكَ﴾، يعنى هكذا، ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾، يعنى علاماته فى هذه النعمة، أعداء فى الجاهلية، إخوانًا فى الإسلام، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾، لكى ﴿تَهْتَدُونَ﴾ [آية: ١٠٣]، فتعرفوا علاماته فى هذه النعمة.

فلما سمع القوم القرآن من النبى ﷺ تحاجزوا، ثم عانق بعضهم بعضًا، وتناول بخدود بعض بالتقبيل والالتزام، يقول جابر بن عبد الله، وهو فى القوم: لقد اطلع إلينا رسول الله ﷺ وما أحد هو أكره طلعة إلينا منه لما كنا هممنا به، فلما انتهى إليهم النبى ﷺ، قال: «اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم»، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾، يعنى عصبة، ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آية: ١٠٤].

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

فوعظ الله المؤمنين لكى يتفرقوا ولا يختلفوا كفعل أهل الكتاب، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ فى الدين بعد موسى، فصاروا أديانًا ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، يعنى البيان، ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آية: ١٠٥]، ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ بمحمد ﷺ قبل أن يبعث، ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آية: ١٠٦]، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ﴾، يعنى فى جنة ﴿اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آية: ١٠٧]، يعنى لا يموتون، ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آية: ١٠٨]، فيعذب على غير ذنب.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [آية: ١٠٩]، يعنى تصير

أمور العباد إليه فى الآخرة، وافتخرت الأنصار، فقالت الأوس: منا خزيمة بن ثابت صاحب الشهادتين، ومنا حنظلة غسيل الملائكة، ومنا عاصم بن ثابت بن الأفلح الذى حمت رأسه الدبر، يعنى الزنابير، ومنا سعد بن معاذ الذى اهتز العرش لموته، ورضى الله عز وجل بحكمه، والملائكة فى أهل قريظة، وقالت الخزرج: منا أربعة أحكموا القرآن، أُبى بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ومنا سعد بن عبادة صاحب راية الأنصار وخطيبهم الذى ناحت الجن عليه، فقالوا:

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة ... فرميناه بسهمين فلم تخط فؤاده

قوله سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، يعنى خير الناس للناس، وذلك أن مالك بن الضيف، ووهب بن يهوذا قالا لعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبى حذيفة: إن ديننا خير مما تدعونا إليه، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ فى زمانكم كما فضل بنى إسرائيل فى زمانهم، ﴿تَأْمُرُونَ﴾ الناس ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾، يعنى بالإيمان، ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ﴾ بتوحيد ﴿بِاللَّهِ﴾ وتنهوهم عن الظلم وأنتم خير الناس للناس، وغيركم من أهل الأديان لا يأمرون أنفسهم ولا غيرهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر، ثم قال: ﴿وَلَوْ آمَنَ﴾، يعنى ولو صدق ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾، يعنى اليهود بمحمد ﷺ وما جاء به من الحق، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ من الكفر، ثم قال: ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾، يعنى عبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آية: ١١٠]، يعنى العاصين، يعنى اليهود.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾، وذلك أن رؤساء اليهود: كعب بن مالك، وشعبة، وبحرى، ونعمان، وأبا ياسر، وأبا نافع، وكنانة بن أبى الحقيق، وابن صوريا، عمدوا إلى مؤمنيهم فآذوهم لإسلامهم، وهم عبد الله بن سلام وأصحابه، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾ اليهود ﴿إِلَّا أَذًى﴾ باللسان، ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آية: ١١١].

ثم أخبر عن اليهود، فقال سبحانه: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾، يعنى المذلة، ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾، يعنى وجدوا، ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾، يقول: لا يأمنوا حيث ما توجهوا إلا بعهد من الله، وعهد من الناس، يعنى النبى ﷺ وحده، ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ

ٱللَّهِ ﴾، يعنى استوجبوا الغضب من الله، ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ﴾ الذلة و ﴿ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾، يعنى الذل والفقر، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى نزل بهم ﴿بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ﴾ الذى أصابهم ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [آية: ١١٢] فى دينهم بما خبر عنهم.

﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

فقال سبحانه: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وذلك أن اليهود قالوا لابن سلام وأصحابه: لقد خسرتم حين استبدلتم بدينكم دينًا غيره، وقد عاهدتم الله بعهد ألا تدينوا إلا بدينكم، فقال الله عز وجل: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾، يقول: ليس كفار اليهود والذين فى الضلالة بمنزلة ابن سلام وأصحابه الذين هم على دين الله، منهم ﴿أُمَّةٞ﴾ عصابة ﴿قَآئِمَةٞ﴾ بالحق على دين الله عادلة، ﴿يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، يعنى يقرءون كلام الله ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾، يعنى ساعات الليل، ﴿وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ [آية: ١١٣]، يعنى يصلون بالليل.

﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، يعنى يصدقون بتوحيد الله والبعث الذى فيه جزاء الأعمال، ﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، يعنى إيمانًا بمحمد ﷺ، ﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، يعنى عن تكذيب بمحمد ﷺ، ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾، يعنى شرائع الإسلام، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آية: ١١٤]، ﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ﴾، فلن يضل عنهم، بل يشكر ذلك لهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [آية: ١١٥]، يعنى ابن سلام وأصحابه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ

﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آية: ١١٦]، ثم ذكر نفقة سفلة اليهود من الطعام والثمار على رءوس اليهود كعب بن الأشرف وأصحابه، يريدون بها الآخرة، فضرب الله عز وجل مثلاً لنفقاتهم، فقال: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وهم كفار، يعنى سفلة اليهود، ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾، يعنى بردًا شديدًا، ﴿أَصَابَتْ﴾ الريح الباردة، ﴿حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ﴾، فلم يبق منه شيئًا، كما أهلكت الريح الباردة حرث الظلمة، فلم ينفعهم حرثهم، فكذلك أهلك الله نفقات سفلة اليهود، ومنهم كفار مكة التى أرادوا بها الآخرة، فلم تنفعهم نفقاتهم، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ حين أهلك نفقاتهم، فلم تتقبل منهم، ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آية: ١١٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، يعنى المنافقين عبد الله بن أبى، ومالك بن دخشم الأنصارى وأصحابه، دعاهم اليهود إلى دينهم، منهم: إصبغ ورافع ابنى حرملة، وهما رءوس اليهود، فزينوا لهما ترك الإسلام، حتى أرادوا أن يظهروا الكفر، فأنزل الله عز وجل يحذرهما ولاية اليهود، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾، يعنى اليهود، ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾، يعنى من دون المؤمنين، ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾، يعنى غيًا، ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾، يعنى ما أثمتم لدينكم فى دينكم، ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ﴾، يعنى ظهرت البغضاء، ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، يعنى قد ظهرت العداوة بألسنتهم، ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ﴾، ينى ما تسر قلوبهم من الغش، ﴿أَكْبَرُۚ﴾ مما بدت بألسنتهم، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِۖ﴾، يقول: ففى هذا بيان لكم منهم، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آية: ١١٨].

ثم قال سبحانه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ معشر المؤمنين﴿أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾ تحبون هؤلاء اليهود فى التقديم لما أظهروا من الإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به، ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾؛ لأنهم ليسوا على دينكم، ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾، كتاب محمد ﷺ والكتب كلها التى

كانت قبله، ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، يعنى صدقنا بمحمد ﷺ وبما جاء به، وهم كذبة، يعنى اليهود، مثلها فى المائدة: ﴿وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوٓاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ...﴾ [المائدة: ٦١] إلى آخر الآية، ثم قال: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ﴾، يعنى أطراف الأصابع، ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ الذى فى قلوبهم، ودوا لو وجدوا ريحًا يركبونكم بالعداوة، ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾، يعنى اليهود، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آية: ١١٩]، يعنى يعلم ما فى قلوبهم من العداوة والغش للمؤمنين.

ثم أخبر عن اليهود، فقال سبحانه: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾، يعنى الفتح والغنيمة يوم بدر، ﴿تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾، القتل والهزيمة يوم أُحُد، ﴿يَفْرَحُواْ بِهَا﴾، ثم قال للمؤمنين: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ على أمر الله، ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ معاصيه ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾، يعنى قولهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آية: ١٢٠]، أحاط علمه بأعمالهم.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ
هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ
نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن
يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُواْ
وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ على راحلتك يا محمد يوم الأحزاب، ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، يعنى توطن هم، ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ فى الخندق قبل أن يستبقوا إليه ويستعدوا للقتال، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آية: ١٢١]، ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾، يعنى ترك المركز، منهم بنو حارثة بن الحارث، ومنهم أوس بن قيظى، وأبو عربة بن أوس بن يامين، وبنو سلمة بن جشم، وهما حيان من الأنصار، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ حين عصمها فلم يتركا المركز، وقالوا: ما يسرنا أنا لم نهم بالذى هممنا إذا كان الله ولينا، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آية: ١٢٢]، يعنى فليثق المؤمنون به.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾، وأنتم قليل، يذكرهم النعم، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ولا تعصوه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آية: ١٢٣] ربكم فى النعم، ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ يا محمد

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يوم أحد: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آية: ١٢٤] عليكم من السماء، وذلك حين سألوا المدد، فقال سبحانه: ﴿بَلَىٰٓ﴾ يمددكم ربكم بالملائكة، ﴿إِن تَصْبِرُوا﴾ لعدوكم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ معاصيه، ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾، يعني من وجههم هذا، ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، فزادهم ألفين ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ [آية: ١٢٥]، يعني معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الخيل، وأذنابها عليها البياض، معتمين بالبياض، وقد أرخوا أطراف العمائم بين أكتافهم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾، يقول: وما جعل المدد من الملائكة ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ﴾، يعني ولكي تسكن ﴿قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، يقول: النصر ليس بقلة العدد ولا بكثرته، ولكن النصر من عند الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾، يعني المنيع في ملكه، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ [آية: ١٢٦] في أمره حكم النصر للمؤمنين، نظيرها في الأنفال، ﴿لِيَقْطَعَ﴾ لكي يقطع ﴿طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا﴾ من أهل مكة، ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾، يعني يخزيهم، ﴿فَيَنقَلِبُوا﴾ إلى مكة ﴿خَآئِبِينَ﴾ [آية: ١٢٧]، لم يصيبوا ظفرًا ولا خيرًا، فلم يصبر المؤمنون وتركوا المركز وعصوا، فرفع عنهم المدد، وأصابتهم الهزيمة بمعصيتهم، فيها تقديم.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿لَيْسَ لَكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾، وذلك أن سبعين رجلاً من أصحاب الصفة فقراء، كانوا إذا أصابوا طعامًا فشبعوا منه تصدقوا بفضله، ثم إنهم خرجوا إلى الغزو محتسبين إلى قتال قبيلتين من بني سليم: عصبة وذكوان، فقاتلوهم فقتل السبعون جميعًا، فشق على النبي ﷺ وأصحابه قتلهم، فدعا عليهم النبي ﷺ أربعين يومًا في صلاة الغداة، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، فيهديهم لدينه، ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ على كفرهم، ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آية: ١٢٨].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

ثم عظم نفسه تعالى، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الخلق عبيده وفى ملكه، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آية: ١٢٩] فى تأخير العذاب عن هذين الحيين من بنى سليم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾، وذلك أن الرجل كان إذا حل ماله طلبه من صاحبه، فيقول المطلوب: أخر عنى وأزيدك على مالك، فيفعلون ذلك، فوعظهم الله تعالى، وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فى الربا ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آية: ١٣٠]، ثم خوفهم، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آية: ١٣١]، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آية: ١٣٢]، يعنى لكى ترحموا فلا تعذبوا.

﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾

ثم رغبهم، فقال سبحانه: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟﴾ بالأعمال الصالحة ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ لذنوبكم ﴿مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، يقول: عرض الجنة كعرض سبع سماوات وسبع أرضين جميعًا لو ألصق بعضها إلى بعض، ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آية: ١٣٣]، ثم نعتهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، يعنى فى اليسر والعسر، وفى الرخاء والشدة، ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾، وهو الرجل يغضب فى أمر، فإذا فعله وقع فى معصية، فيكظم الغيظ ويغفر، فذلك قوله: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾، ومن يفعل هذا فقد أحسن، فذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آية: ١٣٤]، فقال النبى ﷺ: «إنى أرى هؤلاء فى أمتى قليلاً، وكانوا أكثر فى الأمم الخالية».

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ (١٣٦)﴾

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ ، وذلك أن رجلاً خرج غازيًا وخلف رجلاً فى أهله وولده، فعرض له الشيطان فى أهله، فهوى المرأة، فكان منه ما ندم، فأتى أبا بكر الصديق، رضى الله عنه، فقال: هلكت، قال: وما هلاكك، قال: ما من شىء يناله الرجل من المرأة، إلا وقد نلته غير الجماع، فقال أبو بكر، رضى الله عنه: ويحك، أما علمت أن الله عز وجل يغار للغازى ما لا يغار للقاعد، ثم لقى عمر، رضى الله عنه، فأخبره، فقال له مثل مقالة أبى بكر، رضى الله عنه، ثم أتى النبى ﷺ، فقال له مثل مقالتهما، فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ ، يعنى الزنا ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ ما كان نال منها دون الزنا، ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ يقيموا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آية: ١٣٥] أنها معصية.

فمن استغفر فـ ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ، يعنى مقيمين فى الجنان لا يموتون، ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آية: ١٣٦]، يعنى التائبين من الذنوب، فقال النبى ﷺ: «ظلمت نفسك، فاستغفر الله وتب إليه»، فاستغفر الرجل، واستغفر له النبى ﷺ، نزلت هذه الآية فى عمر بن قيس، ويكنى أبا مقبل، وذلك حين أقبل إلى النبى ﷺ وقد صدمه حائط، وإذا الدم يسيل على وجهه عقوبة لما فعل، فانتهى إلى النبى ﷺ، فأذن بلال بالصلاة، صلاة الأولى، فسأل أبو مقبل النبى ﷺ ما توبته، فلم يجبه، ودخل المسجد وصلى الأولى، ودخل أبو مقبل وصلى معه، فنزل جبريل، عليه السلام، بتوبته، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ﴾ ، يعنى الصلوات الخمس ﴿يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، يعنى الذنوب التى لم تختم بالنار، وليس عليه حد فى الزنا وما بين الحدين فهو اللمم، والصلوات الخمس تكفر هذه الذنوب، وكان ذنب أبى مقبل من هذه الذنوب، فلما صلى النبى ﷺ، قال لأبى مقبل: «أما توضأت قبل أن تأتينا؟»، قال: بلى، قال: «أما شهدت معنا الصلاة؟»، قال: بلى، قال: «فإن الصلاة قد كفرت ذنبك»، وقرأ النبى ﷺ هذه الآية.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾، يعنى عذاب الأمم الخالية، فخوف هذه الأمم بعذاب الأمم ليعتبروا فيوحدوه، قوله سبحانه: ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آية: ١٣٧] للرسل بالعذاب، كان عاقبتهم الهلاك، ثم وعظهم، فقال سبحانه: ﴿هَـٰذَا﴾ القرآن ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ من العمى ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ من الجهل ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آية: ١٣٨]، ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ ولا تضعفوا عن عدوكم ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على ما أصابكم من القتل والهزيمة يوم أُحُد ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾، يعنى العالين ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آية: ١٣٩]، يعنى إن كنتم مصدقين.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

ثم عزاهم، فقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾[(١)]، يعنى إن تصبكم جراحات يوم أُحُد فقد مس القوم، يعنى كفار قريش، قرح مثله، يقول: قد أصاب المشركين جراحات مثله يوم بدر، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ يوم لكم ببدر، ويوم عليكم بأُحُد، مرة للمؤمنين ومرة للكافرين، بديل للكافرين من المؤمنين، ويبتلى المؤمنين بالكافرين، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾، يعنى وليرى إيمان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ منكم عند البلاء فيتبين إيمانهم أيشكوا فى دينهم أم لا، ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [آية: ١٤٠]، يعنى المنافقين.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالبلاء ليرى صبرهم، ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آية:

---

(١) قراءة محمد بن السَّمَيْفَع: «قَرَحٌ»، بفتح القاف والراء، وقراءة أبى السمال. انظر: (إعراب القرآن للعكبرى ٨٨/١، البحر المحيط ٦٢/٣، الجامع لأحكام القرآن ٢١٧/٤، إعراب القرآن للنحاس ٣٦٦/١).

١٤١]، يعنى ويذهب دعوة الكافرين الشرك، يعنى المنافقين، فيبين نفاقهم وكفرهم، ثم بين للمؤمنين أنه نازل بهم الشدة والبلاء فى ذات الله عز وجل، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، يعنى أحسبتم، وذلك أن المنافقين قالوا للمؤمنين يوم أُحُد بعد الهزيمة: لم تقتلون أنفسكم، وتهلكون أموالكم، فإن محمدًا لو كان نبيًا لم يسلط عليه القتل؟ قال المؤمنون: بلى، من قُتل منا دخل الجنة، فقال المنافقون: لم تمنون أنفسكم الباطل؟ فأنزل الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ معشر المؤمنين ﴿أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾، يعنى ولما يرى الله ﴿ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ فى سبيل الله ﴿وَ﴾ لما ﴿وَيَعْلَمَ﴾، يعنى يرى ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آية: ١٤٢] عند البلاء، وليمحص، أى يقول: إذا جاهدوا وصبروا رأى ذلك منهم، وإذا لم يفعلوا لم ير ذلك منهم.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾، وذلك حين أخبر الله عز وجل عن قتلى بدر، وما هم فيه من الخير، قالوا: يا نبى الله، أرنا يومًا كيوم بدر، فأراهم الله عز وجل يوم أُحُد، فانهزموا فعاتبهم الله عز وجل، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ (١)، يعنى القتال من قبل أن تلقوه، ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آية: ١٤٣]، وقالوا يومئذ: إن محمدًا ﷺ قد قتل، فقال بشر بن النضر الأنصارى، وهو عم أنس بن مالك: إن كان محمدًا ﷺ قد قتل، فإن رب محمد حى، أفلا تقاتلون على ما قاتل عليه رسول الله ﷺ حتى تلقوا الله عز وجل.

ثم قال النضر: اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد عليهم بسيفه فقتل منهم من قتل، وقال المنافقون يومئذ: ارجعوا إلى إخوانكم فاستأمنوهم، فارجعوا إلى دينكم الأول، فقال النضر عند قول المنافقين تلك المقالة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ (٢)، يقول: وهل محمد، عليه السلام، لو قتل إلا كمن قتل قبله من الأنبياء، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ محمد ﴿أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾، يعنى رجعتم إلى دينكم الأول الشرك، ثم قال: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، يقول: ومن يرجع إلى الشرك بعد الإيمان، ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بارتداده من الإيمان إلى الشرك، إنما يضر بذلك نفسه، ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾

---

(١) انظر: (البحر المحيط ٣/٦٧، إعراب القرآن للعكبرى ١/٧٨، الجامع لأحكام القرآن ٤/٢٢٠).

(٢) انظر: (البحر المحيط ٣/٦٨، الجامع لأحكام القرآن ٤/٢٢٠، إعراب القرآن للعكبرى ١/٨٨، إعراب القرآن للنحاس ١/٣٦٨).

[آية: ١٤٤]، يعنى الموحدين لله فى الآخرة.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ﴾، يعنى أن تقتل، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ حتى يأذن الله فى موته، ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ فى اللوح المحفوظ، ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، يعنى الذين تركوا المركز يوم أُحُد وطلبوا الغنيمة، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، الذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جبير الأنصارى من بنى عمرو حتى قتلوا، ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آية: ١٤٥]، يعنى الموحدين فى الآخرة.

ثم أخبر بما لقيت الأنبياء والمؤمنون قبلهم يعزيهم ليصبروا، فقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ﴾، وكم من نبى ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ﴾ قبل محمد ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾(١)، يعنى الجمع الكثير، ﴿فَمَا وَهَنُوا۟﴾، يعنى فما عجزوا لما نزل بهم من قبل أنبيائهم وأنفسهم، ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟﴾، يعنى خضعوا لعدوهم، ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾، يعنى وما استسلموا، يعنى الخضوع لعدوهم بعد قتل نبيهم، فصبروا ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آية: ١٤٦].

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ عند قتل أنبيائهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾، يعنى الخطايا الكبار فى أعمالنا، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ عند اللقاء حتى لا تزل، ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آية: ١٤٧]، أفلا تقولون كما قالوا، وتقاتلون كما قاتلوا، فتدركون من الثواب فى الدنيا والآخرة مثل ما أدركوا، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾، يقول: أعطاهم النصر والغنيمة فى الدنيا، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ

(١) انظر: (إتحاف فضلاء البشر ١٨٠، إعراب القرآن للعكبرى ١/٨٩، إعراب القرآن للنحاس ١/٣٦٩، الكتاب ١/٢٢١، مغنى اللبيب ٢/١٣٣).

﴿ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ جنة الله ورضوانه، فمن فعل ذلك فقد أحسن، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آية: ١٤٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

وأنزل الله عز وجل في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم فادخلوا في دينهم، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، يعني المنافقين في الرجوع إلى أبي سفيان، ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ كفارًا بعد الإيمان، ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [آية: ١٤٩] إلى دينكم الأول، ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾، يعني يقول: فأطيعوا الله مولاكم، يعني وليكم، ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آية: ١٥٠] من أبي سفيان وأصحابه ومن معه من كفار العرب يوم أُحُد.

﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾، فانهزموا إلى مكة من غير شيء، ﴿بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ﴾، يعني ما لم ينزل به كتابًا فيه حجة لهم بالشرك، ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آية: ١٥١]، يعني مأوى المشركين النار، ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ﴾، يعني تقتلونهم بإذنه يوم أُحُد، ولكم النصر عليهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ﴾، يعني ضعفتم عن ترك المركز، ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم﴾ كان تنازعهم أنه قال بعضهم: ننطلق فنصيب الغنائم، وقال بعضهم: لا نبرح المركز كما أمرنا رسول الله ﷺ، ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ من النصر على عدوكم، فقتل أصحاب الألوية من المشركين، ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ الذين طلبوا الغنيمة، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ

﴿ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ الذين ثبتوا فى المركز حتى قتلوا، ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ من بعد أن أظفركم عليهم، ﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾ بالقتل والهزيمة، ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ حيث لم تقتلوا جميعًا عقوبة بمعصيتكم، ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ﴾ فى عقوبته ﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آية: ١٥٢]، حيث لم يقتلوا جميعًا.

﴿۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾

﴿۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾ من الوادى إلى أُحُد، ﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾، يعنى بأحد النبى ﷺ، ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾، يعنى يناديكم من ورائكم: يا معشر المؤمنين، أنا رسول الله، ثم قال: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾، وذلك أنهم كانوا يذكرون فيما بينهم بعد الهزيمة ما فاتهم من الفتح والغنيمة، وما أصابهم بعد ذلك من المشركين، وقتل إخوانهم، فهذا الغم الأول، والغم الآخر إشراف خالد بن الوليد عليهم من الشعب فى الخيل، فلما أن عاينوه ذعرهم ذلك وأنساهم ما كانوا فيه من الغم الأول والحزن، فذلك قوله سبحانه: ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ من الفتح والغنيمة، ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ من القتل والهزيمة، ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [آية: ١٥٣].

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا﴾، يعنى من بعد غم الهزيمة أمنة نعاسًا، وذلك أن الله عز وجل ألقى على بعضهم النعاس فذهب غمهم، فذلك قوله عز وجل: ﴿يَغۡشَىٰ﴾ النعاس ﴿طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ نزلت فى سبعة نفر، فى: أبى بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب، والحارث بن الصمة، وسهل بن ضيف،

ورجلين من الأنصار، رضى الله عنهم، ثم قال سبحانه: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾، يعنى الذين لم يلق عليهم النعاس، ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ كذبًا يقول المؤمنون: إن محمدًا ﷺ قد قتل، ﴿ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾، يقول: كظن جهال المشركين أبو سفيان وأصحابه، وذلك أنهم قالوا: إن محمدًا قد قتل، ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾، هذا قول معتب بن قشير، يعنى بالأمر النصر، يقول الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ﴾، يعنى النصر ﴿كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾.

ثم قال سبحانه: ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾، يقول: يسرون فى قلوبهم ما لا يظهرون لك بألسنتهم، والذى أخفوا فى أنفسهم أنهم قالوا: لو كنا فى بيوتنا ما قتلنا هاهنا، قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ﴾ كما تقولون لخرج من البيوت ﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾، فمن كتب عليه القتل لا يموت أبدًا، ومن كتب عليه الموت لا يقتل أبدًا، ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آية: ١٥٤]، يقول: الله عليم بما فى القلوب من الإيمان والنفاق، والذين أخفوا فى أنفسهم قولهم: إن محمدًا قد قتل، وقولهم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا، يعنى هذا المكان، فهذا الذى قال الله سبحانه لهم: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ كما تقولون ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥﴾

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ﴾، يعنى انهزموا عن عدوهم مدبرين منهزمين ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾، جمع المؤمنين وجمع المشركين يوم أُحُد، ﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، يعنى استفزهم الشيطان ﴿بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾ من الذنوب، يعنى بمعصيتهم النبى ﷺ وتركهم المركز، منهم: عثمان بن عفان، ورافع بن المعلى، وخارجة بن زيد، وحذيفة بن عبيد بن ربيعة، وعثمان بن عقبة، ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ﴾ حين لم يقتلوا جميعًا عقوبة بمعصيتهم النبى ﷺ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿حَلِيمٞ﴾ [آية: ١٥٥] عنهم فى هزيمتهم فلم يعاقبهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (١٥٦)﴾

ثم وعظ الله المؤمنين ألا يشكوا كشك المنافقين، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ﴾ في القول ﴿كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، يعني المنافقين، ﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾، يعني عبد الله بن أبي، وذلك أنه قال يوم أُحُد لعبد الله بن رباب الأنصاري وأصحابه: ﴿إِذَا ضَرَبُواْ﴾، يعني ساروا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تجارًا ﴿أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى﴾[1] جمع غاز، ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ﴾، يعني التجار، ﴿وَمَا قُتِلُواْ﴾، يعني الغزاة، قال عبد الله بن أبي ذلك حين انهزم المؤمنون وقتلوا، يقول الله عز وجل: ﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ القتل ﴿حَسۡرَةٗ﴾، يعني حزنًا ﴿فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ﴾ الموتى ﴿وَيُمِيتُۗ﴾ الأحياء لا يملكهما غيره، وليس ذلك بأيديهم، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [آية: ١٥٦].

﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ (١٥٨) فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾

﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ﴾ في غير قتل ﴿لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لذنوبكم ﴿وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [آية: ١٥٧] من الأموال، ثم حذرهم القيامة، فقال: ﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ﴾ في غير قتل ﴿أَوۡ قُتِلۡتُمۡ﴾ في سبيله ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [آية: ١٥٨] فيجزيكم بأعمالكم، ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾، فبرحمة الله كان إذ لنت لهم في القول، ولم تسرع إليهم بما كان منهم يوم أُحُد، يعني المنافقين، ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا﴾ باللسان ﴿غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ لتفرقوا عنك، يعني المنافقين، ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾، يقول: اتركهم ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ لما كان منهم يوم أُحُد، ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾[2]، وذلك أن العرب في الجاهلية كان إذا أراد سيدهم أن يقطع أمرًا دونهم ولم

---

(١) قراءة الحسن والزُهري: «أو كانوا غُزًا»، خفيفة الزاى. انظر: (إعراب القرآن للعكبرى ١/٩٠، إعراب القرآن للنحاس ١/٣٧٣، الجامع لأحكام القرآن ٤/٢٤٦، الكشاف ١/٢٢٥، البحر المحيط ٣/٩٣، إتحاف فضلاء البشر ١٨١).

(٢) قراءة ابن عباس فيما رواه عنه عمرو: «وشاورْهُمْ فى بَعْض الأمر» . انظر: (الجامع لأحكام القرآن ٤/٢٥٠، الكشاف ١/٢٢٦، البحر المحيط ٣/٩٩، إعراب القرآن للعكبرى ١/٩١).

يشاورهم شق ذلك عليهم، فأمر الله عز وجل النبى ﷺ أن يشاورهم فى الأمر إذا أراد، فإن ذلك أعطف لقلوبهم عليه، وأذهب لضغائنهم، ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ [(١)]، يقول: فإذا فرق الله لك الأمر بعد المشاورة فامض لأمرك، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، يقول: فثق بالله، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آية: ١٥٩] عليه، يعنى الذين يثقون به.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١)﴾

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ﴾، يعنى يمنعكم، ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، يعنى لا يهزمكم أحد، ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾، يعنى يمنعكم من بعد الله، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آية: ١٦٠]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾، يعنى أن يخون فى الغنيمة يوم أُحُد ولا يجور فى قسمته فى الغنيمة، نزلت فى الذين طلبوا الغنيمة يوم أُحُد، وتركوا المركز، وقالوا: إنا نخشى أن يقول النبى ﷺ: من أخذ شيئًا فهو له، ونحن هاهنا وقوف، فلما رآهم النبى ﷺ قال: «ألم أعهد إليكم ألا تبرحوا من المركز حتى يأتيكم أمرى؟»، قالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفًا، فقال النبى ﷺ: «ظننتم أنا نغل»، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾، ثم خوف الله عز وجل من يغل، فقال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾ بر وفاجر ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آية: ١٦١] فى أعمالهم.

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)﴾

ثم قال سبحانه: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾، يعنى رضى ربه عز وجل ولم يغلل، ﴿كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، يعنى استوجب السخط من الله عز وجل فى الغلول،ليسوا سواء، ثم بين مستقرهما، فقال: ﴿وَمَأْوَاهُ﴾، يعنى ومأوى من غل ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [آية: ١٦٢]، يعنى أهل الغلول.

---

(١) انظر: (الكشاف ١/٢٢٦، الجامع لأحكام القرآن ٢/٢٥٢ البحر المحيط ٣/٩٩، إعراب القرآن للنحاس ١/٣٧٥).

ثم ذكر سبحانه من لا يغل، فقال: ﴿هُمْ﴾، يعنى لهم ﴿دَرَجَٰتٌ﴾، يعنى لهم فضائل ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آية: ١٦٣] من غل منكم ومن لم يغل فهو بصير بعمله، ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، يعنى القرآن، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، يعنى ويصلحهم، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعنى القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾، يعنى المواعظ التى فى القرآن من الحلال والحرام والسُّنة، ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أن يبعث محمدًا ﷺ ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آية: ١٦٤]، يعنى بين مثلها فى الجمعة.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾، وذلك أن سبعين رجلاً من المسلمين قتلوا يوم أُحُد يوم السبت فى شوال لإحدى عشرة ليلة خلت منه، وقتل من المشركين قبل ذلك بسنة فى سبع عشرة ليلة خلت من رمضان ببدر سبعين رجلاً، وأسروا سبعين رجلاً من المشركين، فذلك قوله سبحانه: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ من المشركين يوم بدر بمعصيتكم النبى ﷺ وترككم المركز، ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آية: ١٦٥] من النصرة والهزيمة قدير.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ من القتل والهزيمة بأُحد ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع المؤمنين وجمع المشركين، ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أصابكم ذلك، ثم قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾، يقول: وليرى إيمانكم، يعنى ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آية: ١٦٦] صبرهم، ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾، يعنى وليرى ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ فى إيمان أهل الشك عند البلاء والشدة، يعنى عبد الله بن أبى بن ملك الأنصارى وأصحابه المنافقين، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ المشركين عن دياركم وأولادكم، وذلك أن عبد الله بن رباب الأنصارى يوم أُحُد دعا عبد الله بن أبى ملك يوم أُحُد للقتال، فقال عبد الله بن أبى: ﴿قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾، يقول: لو نعلم أن

يكون اليوم قتالاً ﴿لَّاتَّبَعْنَٰكُمْ﴾، يقول الله عز وجل: لو استيقنوا بالقتال ما تبعوكم، ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آية: ١٦٧]، يعنى من الكذب.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

فرجع يومئذ عبد الله بن أبى فى ثلاثمائة و لم يشهدوا القتال، فقال عبد الله بن رباب وأصحابه: أبعدكم الله، سيغنى الله عز وجل نبيه ﷺ والمؤمنين عن نصركم، فلما انهزم المؤمنون وقتلوا يومئذ، قال عبد الله بن أبى: لو أطاعونا ما قتلوا، يعنى عبد الله بن رباب وأصحابه، فأنزل الله عز وجل فى قول عبد الله بن أبى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ فى النسب والقرابة، وليسوا بإخوانهم فى الدين، ولا الولاية، كقوله سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [هود: ٦١]، ليس بأخيهم فى الدين ولا فى الولاية، ولكن أخاهم فى النسب والقرابة، ﴿وَقَعَدُوا۟﴾ عن القتال، ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾، فأوجب الله لهم الموت صفرة قمأة والإيجاب لمن كرهوا قتله من أقربائهم، فقال سبحانه: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آية: ١٦٨].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعنى قتلى بدر من قتل من المسلمين يومئذ، وهم أربعة عشر رجلاً، ستة من المهاجرين: مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فقال النبى ﷺ يوم بدر: «سيد شهداء أمتى مهجع»، وهو أول قتيل قتل يوم بدر، رضى الله عنه، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشى، وعمير بن أبى وقاص بن وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وذو الشماليل عبد عمرو بن نضلة بن عمرو بن نضلة بن عبد عمرو القيسانى، وعقيل بن بكير، وصفوان ابن بيضاء، رضى الله عنهم، وثمانية من الأنصار: حارثة بن سراقة، ويزيد بن الحارث بن جشم، ومعوذ بن الحارث، وعوف بن الحارث بن رفاعة ابنا عفراء، الاسم اسم أمهما

عفراء، ورافع بن المعلى، وسعد بن حنتمة، وعمرو بن الحمام بن الجموح، ومبشر بن عبد المنذر.

فقال رجل: يا ليتنا نعلم ما لقى إخواننا الذين قتلوا ببدر، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعنى قتلى بدر، ﴿أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آية: ١٦٩] الثمار فى الجنة، وذلك أن الله تعالى جعل أرواح الشهداء طيرًا خضرًا ترعى فى الجنة، لها قناديل معلقة بالعرش تأوى إلى قناديلها، فاطلع الله عز وجل عليهم، فقال سبحانه: هل تستزيدونى شيئًا فأزيدكم؟ قالوا: أولسنا نسرح فى الجنة حيث نشاء؟ ثم اطلع عليهم أخرى، فقال سبحانه: هل تستزيدونى شيئًا فأزيدكم؟ ثم اطلع الثالثة، فقال سبحانه: هل تستزيدونى شيئًا فأزيدكم؟ قالوا: ربنا، نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا فنقاتل فى سبيلك مرة أخرى لما نرى من كرامتك إيانا، ثم قالوا فيما بينهم: ليت إخواننا الذين فى دار الدنيا يعلمون ما نحن فيه من الكرامة والخير والرزق، فإن شهدوا قتالاً سارعوا بأنفسهم إلى الشهادة، فسمع الله عز وجل كلامهم، فأوحى إليهم: أنى منزل على نبيكم ومخبر إخوانكم بما أنتم فيه، فاستبشروا بذلك، فأنزل الله عز وجل يحبب الشهادة إلى المؤمنين: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ من الثمار.

ثم قال سبحانه: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾، يعنى راضين بما أعطاهم الله ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾، يعنى الرزق، ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾، يعنى من بعدهم من إخوانهم فى الدنيا أنهم لو رأوا قتالاً لاستشهدوا ليلحقوا بهم، ثم قال سبحانه: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العذاب، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آية: ١٧٠] عند الموت، ﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، يعنى رحمة من الله ﴿وَفَضْلٍ﴾ ورزق، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آية: ١٧١]، يعنى أجر المصدقين بتوحيد الله عز وجل.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، وذلك أن المشركين انصرفوا يوم أُحد ولهم الظفر، فقال النبى ﷺ: «إنى سائر فى أثر القوم»، وكان النبى ﷺ يوم أُحد على بغلة شهباء، فدب المنافقون إلى المؤمنين، فقالوا: أتوكم فى دياركم فوطئوكم قتلاً، وكان لكم النصر

يوم بدر، فكيف تطلبونهم وهم اليوم عليكم أجرأ وأنت اليوم أرعب؟ فوقع فى أنفس المؤمنين قول المنافقين، فاشتكوا ما بهم من الجراحات، فأنزل الله عز وجل: ﴿إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ...﴾ [آل عمران: ١٤٠] إلى آخر الآية.

وأنزل الله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ...﴾ [النساء: ١٠٤]، يعنى تتوجعون من الجراحات، إلى آخر الآية، فقال النبى ﷺ: «لأطلبنهم ولو بنفسى»، فانتدب مع النبى ﷺ سبعون رجلاً من المهاجرين والأنصار، حتى بلغوا سفراء بدر الصغرى، فبلغ أبا سفيان أن النبى ﷺ يطلبه، فأمعن عائدًا إلى مكة مرعوبًا، ولقى أبو سفيان نعيم بن مسعود الأشجعى وهو يريد المدينة، فقال: يا نعيم، بلغنا أن محمدًا فى الأثر، فأخبره أن أهل مكة قد جمعوا جمعًا كثيرًا من قبائل العرب لقتالكم، وأنهم لقوا أبا سفيان، فلاموه بكفه عنكم بعد الهزيمة حتى هموا به فردوه، فإن رددت عنا محمدًا فلك عشر ذود من الإبل إذا رجعت إلى مكة، فسار نعيم فلقى النبى ﷺ فى الصفراء، فقال: «ما وراءك يا نعيم؟»، فأخبره بقول أبى سفيان، ثم قال: أتاكم الناس، فقال النبى ﷺ: «﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، نعم الملتجأ ونعم الحرز»، [آل عمران: ١٧٣].

فأنزل الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾، يعنى الجراحات، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ﴾ الفعل ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ معاصيه ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آية: ١٧٢]، وهو الجنة.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾، يعنى نعيم بن مسعود وحده، ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ الجموع لقتالكم، ﴿فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾، يعنى تصديقًا، ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آية: ١٧٣]، يعنى النبى ﷺ وأصحابه، رضى الله عنهم، فأصابوا.

﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾، يعنى فرجعوا إلى المدينة ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾، يعنى الرزق، وذلك

أنهم أصابوا سرية في الصفراء، وذلك في ذي القعدة، ﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ من عدوهم في وجوههم، ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾، يعني رضى الله في الاستجابة لله عز وجل، وللرسول ﷺ في طلب المشركين، يقول الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آية: ١٧٤] على أهل طاعته.

قال: حدثنا عبيد الله بن ثابت، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا هذيل، قال مقاتل: فنزلت هذه الآيات في ذي القعدة بذي الحليفة حين انصرفوا عن طلب أبي سفيان وأصحابه بعد قتال أُحُد، ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾، وذلك أن النبي ﷺ ندب الناس يوم أُحُد في طلب المشركين، فقال المنافقون للمسلمين: قد رأيتم ما لقيتم لم ينقلب إلا شريد، وأنتم في دياركم تصحرون وأنتم أكلة رأس، والله لا ينقلب منكم أحد، فأوقع الشيطان قول المنافقين في قلوب المؤمنين، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾، يعني يخوفهم بكثرة أوليائه من المشركين، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ في ترك أمري ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آية: ١٧٥]، يعني إذ كنتم، يقول: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فلا تخافوهم.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

ثم قال: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾، يعني المشركين يوم أُحُد، ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾، يقول: لن ينقصوا الله شيئًا من ملكه وسلطانه لمسارعتهم في الكفر، وإنما يضرون أنفسهم بذلك، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾، يعني نصيبًا في الجنة، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آية: ١٧٦]، ثم قال سبحانه يعنيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾، يعني باعوا الإيمان بالكفر، ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ﴾، يعني لن ينقصوا الله من ملكه وسلطانه ﴿شَيْئًا﴾ حين باعوا الإيمان بالكفر، إنما ضروا أنفسهم بذلك، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آية: ١٧٧]، يعني وجيع.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩﴾

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أبا سفيان وأصحابه يوم أُحد، ﴿أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ﴾ حين ظفروا ﴿خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ﴾ فى الكفر، ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [آية: ١٧٨]، يعنى الهوان، ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يا معشر الكفار ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ من الكفر، ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ فى علمه حتى يميز أهل الكفر من أهل الإيمان، نظيرها فى الأنفال، ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾، وذلك أن الكفار قالوا: إن كان محمد صادقًا، فليخبرنا بمن يؤمن منا ومن يكفر، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾، يعنى ليطلعكم على غيب ذلك، إنما الوحى إلى الأنبياء بذلك، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي﴾ يستخلص ﴿مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾، فيجعله رسولاً فيوحى إليه ذلك، ليس الوحى إلا إلى الأنبياء، ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾، يعنى صدقوا بتوحيد الله تعالى وبرسالة محمد ﷺ، ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ﴾، يعنى تصدقوا بتوحيد الله تعالى، ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الشرك، ﴿فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [آية: ١٧٩].

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠﴾

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾، يعنى بما أعطاهم الله من فضله، يعنى من الرزق، وبخلوا بالزكاة، إن ذلك ﴿هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ﴾ البخل ﴿هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾، وذلك أن كنز أحدهم يتحول شجاعًا أقرع ذكر، ولفيه زبيبتان كأنهما جبلان، فيطوق به فى عنقه فينهشه، فيتقيه بذراعيه فيلتقمهما حتى يقضى بين الناس، فلا يزال معه حتى يساق إلى النار ويغل، وذلك قوله سبحانه: ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ثم قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾، يقول: إن بخلوا بالزكاة فالله يرثهم ويرث أهل السموات وأهل الأرضين، فيهلكون ويبقى، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [آية: ١٨٠]، يعنى فى ترك الصدقة، يعنى اليهود.

﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ

﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾، وذلك أن النبى ﷺ كتب مع أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، إلى يهود قينقاع يدعوهم إلى إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرضًا حسنًا، قال فنحاص اليهودى: إن الله فقير حين يسألنا القروض ونحن أغنياء، ويقول الله عز وجل: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾، فأمر الحفظة أن تكتب كل ما قالوا، ﴿وَ﴾ نكتب ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، أى تقول لهم خزنة جهنم فى الآخرة: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آية: ١٨١]، ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من الكفر والتكذيب، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آية: ١٨٢] فيعذب على غير ذنب.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

ثم أخبر عن اليهود حين دعوا إلى الإيمان، فقال تباركْ وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾، فقال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، يعنى التبيين بالآيات، ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ من أمر القربان، ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾، فلم قتلتم أنبياء الله من قبل محمد ﷺ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آية: ١٨٣] بما تقولون. ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يا محمد، يعزى نبيه ﷺ ليصبر على تكذيبهم، فلست بأول رسول كُذب، فذلك قوله سبحانه: ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، يعنى بالآيات، ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾، يعنى بحديث ما كان قبلهم والمواعظ، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آية: ١٨٤]، يعنى المضىء البين الذى فيه أمره ونهيه.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن

قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

ثم خوفهم، فقال: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ ﴾، يعنى جزاء أعمالكم، ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ﴾، يعنى صرف ﴿عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾، يعنى فقد نجى، ثم وعظهم، فقال: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آية: ١٨٥]، يعنى الفانى الذى ليس بشىء، ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾، نزلت فى النبى ﷺ، وأبى بكر الصديق، رضى الله عنه، يعنى بالبلاء والمصيبات، ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ حين قالوا: إن الله فقير، ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾، يعنى مشركى العرب، ﴿أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾ باللسان والفعل، ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ﴾ على ذلك الأذى، ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ معصيته، ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آية: ١٨٦]، يعنى ذلك الصبر والتقوى من خير الأمور التى أمر الله عز وجل بها.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، يعنى أعطوا التوراة، يعنى اليهود، ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾، يعنى أمر محمد ﷺ فى التوراة، ﴿وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾، أى أمره وأن تتبعوه، ﴿فَنَبَذُوهُ﴾، يعنى فجعلوه ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ﴾ بكتمان أمر محمد ﷺ ﴿ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾، وذلك أن سفلة اليهود كانوا يعطون رءوس اليهود من ثمارهم وطعامهم عند الحصاد، ولو تابعوا محمدًا ﷺ لذهب عنهم ذلك المأكل، يقول الله عز وجل: ﴿فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ [آية: ١٨٧].

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨٨﴾﴾

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾، وذلك أن اليهود قالوا للنبى ﷺ حين دخلوا عليه: نعرفك نصدقك وليس ذلك فى قلوبهم، فلما خرجوا من عند النبى ﷺ قال لهم المسلمون: ما صنعتم؟ قالوا: عرفناه وصدقناه، فقال المسلمون: أحسنتم، بارك الله فيكم، وحمدهم المسلمون على ما أظهروا من الإيمان بالنبى ﷺ، فذلك قوله سبحانه:

﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ يا محمد، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آية: ١٨٨]، يعنى وجيع.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾

ثم عظم الله نفسه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما بينهما من الخلق عبيده وفى ملكه، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آية: ١٨٩]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقين عظيمين، ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آية: ١٩٠]، يعنى أهل اللب والعقل، ثم نعتهم، فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾، يقول: عبثًا لغير شىء، لقد خلقتهما لأمر قد كان، ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آية: ١٩١].

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾، يعنى من خلدته فى النار فقد أهنته، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آية: ١٩٢]، يعنى وما للمشركين من مانع يمنعهم من النار، قالوا: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾، فهو محمد ﷺ داعيًا يدعو إلى التصديق، ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾، يعنى صدقوا بتوحيد ربكم، ﴿فَآمَنَّا﴾، أى فأجابه المؤمنون، فقالوا: ربنا آمنا، يعنى صدقنا، ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾، يعنى امسح عنا خطايانا، ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آية: ١٩٣]، يعنى

المطيعين، قالوا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا﴾، يعنى وأعطنا ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾، يقول: أعطنا من الجنة ما وعدتنا على ألسنة رسلك، ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾، يعنى ولا تعذبنا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آية: ١٩٤].

فأخبر الله عز وجل بفعلهم وبما أجابهم، وأنجز الله عز وجل لهم موعوده، فذلك قوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾، فقال: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ فى الخير، ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ إلى المدينة، ﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾، وذلك أن كفار مكة أخرجوا مؤمنيهم من مكة، ثم قال سبحانه: ﴿وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾، يعنى فى سبيل دين الإسلام، ﴿وَقَٰتَلُوا۟﴾ المشركين، ﴿وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ﴾، يعنى لأمحون عنهم ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، يعنى خطاياهم، ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، يعنى بجنات البساتين، ذلك الذى ذكر كان ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آية: ١٩٥]، يعنى الجنة، نزلت فى أم سلمة أم المؤمنين، رضى الله عنها، ابنة أبى أمية المخزومى حين قالت: ما لنا معشر النساء عند الله خير، وما يذكرنا بشىء، ففيها نزلت: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] فى الأحزاب إلى آخر الآية، فأشرك الله عز وجل الرجال مع النساء فى الثواب كما شاركن الرجال فى الأعمال الصالحة فى الدنيا.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ يا محمد ﷺ ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [آية: ١٩٦]، نزلت فى مشركى العرب، وذلك أن كفار مكة كانوا فى رخاء ولين عيش حسن، فقال بعض المؤمنين: أعداء الله فيما ترون من الخير وقد أهلكنا الجهد، فأخبر الله عز وجل بمنزلة الكفار فى الآخرة، وبمنزلة المؤمنين فى الآخرة، فقال سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ يا محمد ﷺ ما فيه الكفار من الخير والسعة، فإنما هو ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ يمتعون بها إلى آجالهم، ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آية: ١٩٧]، فبين الله تعالى مصيرهم.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾

ثم بين منازل المؤمنين فى الآخرة، فقال سبحانه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ وحدوا ربهم، ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون، كان ذلك ﴿نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ [آية: ١٩٨]، يعنى المطيعين، ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، يعنى ابن سلام، ﴿لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾، يعنى يصدق بالله، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾، يعنى أمة محمد ﷺ من القرآن، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ من التوراة، ثم نعتهم، فقال: ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾، يعنى متواضعين لله، ﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، يعنى بالقرآن ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾، يعنى عرضًا يسيرًا من الدنيا كفعل اليهود بما أصابوا من سفلتهم من المأكل من الطعام والثمار عند الحصاد، ثم قال يعنى مؤمنى أهل التوراة ابن سلام وأصحابه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾، يعنى جزاؤهم فى الآخرة ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾، وهى الجنة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [آية: ١٩٩]، يقول: كأنه قد جاء.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ﴾ على أمر الله عز وجل وفرائضه، ﴿وَصَابِرُواْ﴾ مع النبى ﷺ فى المواطن، ﴿وَرَابِطُواْ﴾ العدو فى سبيل الله حتى يدعوا دينهم لدينكم، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ولا تعصوا، ومن يفعل ذلك فقد أفلح، فذلك قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آية: ٢٠٠].

قال: حدثنا عبد الله بن ثابت، قال: حدثنى أبى، قال: حدثنى الهذيل، قال: سمعت أبا يوسف يحدث عن الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس، رضى الله عنه، قال: كتب رسول الله ﷺ لأهل نجران: «هذا ما كتب محمد لأهل نجران فى كل ثمرة، وكل صفراء وبيضاء وسوداء ورقيق، فأفضل عليهم وترك ذلك كله على ألفى حلة من حلل الألوان، فى كل صفر ألف حلة، كل حلة أوقية، وفى كل رجب ألف حلة، كل حلة أوقية، فما زاد من حلل الخراج على الأواق فبحسابه، وما قصر من درع، أو حلة، أو خيل، أو ركاب، أو عرض، أخذ منهم بحسابه، وعلى نجران مثوبة رسل رسول الله ﷺ عشرين ليلة، ولا تحبس رسولى فوق شهر، وعليهم عارية ثلاثين درعًا، وثلاثين فرسًا، وثلاثين بعيرًا إذا كان كيد باليمن ذو معذرة، ولنجران وحاشيتها جوار الله عز وجل، وذمة

محمد رسول الله ﷺ على أنفسهم، ومالهم ، وأرضهم، وأموالهم، وغائبهم، وشاهدهم، وتابعهم، ولا يغير ما كانوا عليه، ولا يغير حق من حقوقهم، ولا ملة من مللهم، ولا يغير أسقف عن أسقفيته، ولا راهب عن رهبانيته، وعلى ما تحت أيديهم من قليل وكثير، وليس عليهم ربا ولا دم جاهلية، ولا يحسرون، ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم حاشر، ومن سأل فيهم حقًا أنصف، غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أكل ربا من ذى قبل، فذمتى منه بريئة، ولا يؤخذ رجل منهم بطلب آخر، وكل ما كان فى هذه الصحيفة جوار الله عز وجل، وذمة محمد ﷺ حتى يأتى الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما لهم وعليهم غير متغلبين بظلم».

شهد أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف النضرى، والأقرع ابن حابس، والمغيرة، وكتب على بن أبى طالب، وزعم أن أبا بكر، رضى الله عنه، كتب لهم كتابًا من كتاب رسول الله ﷺ.

قال: حدثنا عبد الله، قال: حدثنى أبى، قال: حدثنا الهذيل: سمعت المسيب والضرير يحدثان عن الأعمش، عن سالم بن أبى الجعد، قال: لو كان عليًّا طاعنًا على عمر بن الخطاب، رضى الله عنهما، لطعن عليه حين جاء أهل نجران ومعهم قطعة أيدم فيه كتاب عليه خاتم النبى ﷺ، فقالوا لعلى، عليه السلام: ننشدك الله كتابك بيدك، وشفاعتك بلسانك، ألا ما رددتنا إلى نجران، فقال على، رضى الله عنه: دعونى، فإن عمر، رضى الله عنه، كان رشيد الأمر.

قال الأعمش: فسألت سالمًا: كيف كان إخراج عمر، رضى الله عنه، إياهم؟ قال: كثروا حتى صاروا أربعين ألف مقاتل، فخاف المسلمون أن يميلوا عليهم، فوقع بينهم شر، فجاءوا إلى عمر، رضى الله عنه، فقالوا: قد فسد الذى بيننا، فذهبوا، فاغتنمها عمر، رضى الله عنه، ثم جاءوا إليه، فقالوا: قد اصطلحنا فأقلنا، فقال: لا والله لا أقيلكم أبدًا، فأخرج فرقة إلى الشام، وفرقة إلى العراق، وفرقة إلى أرض أخرى.

قال: حدثنا عبيد الله بن ثابت، قال: حدثنى أبى، قال: حدثنا الهذيل فى قوله عز وجل: ﴿**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾ [آل عمران: ١٨٦]، فيها تقديم، ولم أسمع مقاتل.

* * *

سورة النساء

مدنية

وهى مائة وستة وسبعون آية كوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ يخوفهم، يقول: اخشوا ربكم ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، يعنى آدم، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، يعنى من نفس آدم من ضلعه حواء، وإنما سميت حواء لأنها خلقت من حى آدم، قال سبحانه: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾، يقول: وخلق من آدم وحواء رجالاً كثيرًا ونساء، هم ألف أمة، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ (١)، يقول: تسألون بالله بعضكم ببعض الحقوق والحوائج، واتقوا الأرحام أن تقطعوها وصلوها، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [آية: ١]، يعنى حفيظًا لأعمالكم.

﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢)﴾

﴿وَآتُوا الْيَتَامَى﴾، يعنى الأوصياء، يعنى أعطوا اليتامى ﴿أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾، يقول: ولا تتبدلوا الحرام من أموال اليتامى بالحلال من أموالكم، ولا تذرو الحلال وتأكلوا الحرام، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾، يعنى مع أموالكم، كقوله سبحانه: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ [الشعراء: ١٣]، يعنى معى هارون، ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [آية: ٢]، يعنى إثمًا كبيرًا بلغة الحبش، وقد كان أهل الجاهلية يسمون الحوب الإثم، نزلت فى رجل من غطفان، يقال له: المنذر بن رفاعة، كان معه مال كبير ليتيم، وهو ابن أخيه، فلما بلغ طلب ماله فمنعه، فخاصمه إلى النبى ﷺ، فأمر أن يرد عليه ماله، وقرأ عليه الآية، فلما سمعها قال: أطعنا الله وأطعنا الرسول، ونعوذ بالله من الحوب

---

(١) انظر: (البحر المحيط ١٥٧/٣، الجامع لأحكام القرآن ٥/٥، الكشاف ٢٤١/١، مجمع البيان ١/٢، إعراب القرآن للعكبرى ٩٦/١).

الكبير، فدفع إليه ماله، فقال النبى ﷺ: «هكذا من يطع ربه عز وجل، ويوق شح نفسه، فإنه يحل داره»، يعنى جنته، فلما قبض الفتى ماله، أنفقه فى سبيل الله، قال النبى ﷺ: «ثبت الأجر وبقى الوزر»، فقالوا للنبى ﷺ: قد عرفنا ثبت الأجر، فكيف بقى الوزر وهو ينفق فى سبيل الله؟ فقال الأجر للغلام، والوزر على والده.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣)﴾

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾(١)، نزلت فى خميصة بن الشمردل، وذلك أن الله عز وجل أنزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾، يعنى بغير حق، ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، فخاف المؤمنون الحرج، فعزلوا كل شىء لليتيم من طعام، أو لبن، أو خادم، أو ركوب، فلم يخالطوهم فى شىء منه، فشق ذلك عليهم وعلى اليتامى، فرخص الله عز وجل من أموالهم فى الخلطة، فقال: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، فنسخ من ذلك الخلطة، فسألوا النبى ﷺ عما ليس به بأس، وتركوا أن يسألوه عما هو أعظم منه، وذلك أنه كان يكون عند الرجل سبع نسوة، أو ثمان، أو عشر حرائر، لا يعدل بينهن، فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى﴾، يقول: ألا تعدلوا فى أمر اليتامى، فخافوا الإثم فى أمر النساء، واعدلوا بينهن، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم﴾، يعنى ما يحل لكم ﴿مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾(٢)، ولم يطب فوق الأربع، ثم قال سبحانه: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ الإثم ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ فى الاثنين والثلاث والأربع فى القسمة والنفقة، ﴿فَوَاحِدَةً﴾، يقول: فتزوج واحدة ولا تأثم، فإن خفت أن لا تحسن إلى تلك الواحدة، ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من الولائد، فاتخذ منهن ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [آية: ٣]، يقول: ذلك أجدر ألا تميلوا عن الحق فى الواحدة وفى إتيان الولائد بعضهم على بعض، ولما نزلت: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾، كان يومئذ تحت قيس بن الحارث ثمان نسوة، فقال النبى ﷺ: «خل سبيل أربعة منهن وأمسك أربعة»، فقال للتى يريد إمساكها: أقبلى،

---

(١) انظر: (البحر المحيط ١٦٢/٣، الجامع لأحكام القرآن ١٢/٥، الكشاف ٢٤٤/١، إعراب القرآن للعكبرى ٩٧/١).

(٢) انظر: (البحر المحيط ١٦٣/٣، الكشاف ٢٤٥/١، إعراب القرآن للعكبرى ٩٧/١، لسان العرب «ربع»).

وللتى لا يريد إمساكها: أدبرى، فأمسك أربعة وطلق أربعة.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةًۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةًۚ﴾، وذلك أن الرجل كان يتزوج بغير مهر، فيقول: أرثك وترثينى، وتقول المرأة: نعم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ﴾، يعنى أعطوا الأزواج النساء ﴿صَدُقَـٰتِهِنَّ﴾، يعنى مهورهن ﴿نِحْلَةًۚ﴾، يعنى فريضة، ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ﴾، يعنى أحللن لكم، يعنى الأزواج ﴿عَن شَىْءٍ مِّنْهُ﴾، يعنى المهر، ﴿نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [آية: ٤]، يعنى حلالاً، مريئًا يعنى طيبًا.

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ﴾، يعنى الجهال بموضع الحق فى الأموال، يعنى لا تعطوا نساءكم وأولادكم ﴿أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾(١)، يعنى قوامًا لمعاشكم، فإنهن سفهاء، يعنى جهالاً بالحق، نظيرها فى البقرة: ﴿سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ولا يدرى الصغير ما عليه من الحق فى ماله، ولكن ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾، يقول: أعطوهم منها ﴿وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [آية: ٥]، يعنى العدة الحسنة أنى سأفعل، وكنت أنت القائم على مالك.

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾، يقول: اختبروا عقولهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾، يعنى الحلم، ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ معشر الأولياء والأوصياء صلاحًا فى دينهم وحفظًا لأموالهم، ﴿فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْۖ﴾ التى معكم ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا﴾، يعنى بغير حق، ﴿وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ۚ﴾، يقول: يبادر أكلها خشية أن يبلغ اليتيم الحلم فيأخذ منه ماله، ثم رخص

---

(١) قراءة نافع، وابن عامر، وابن عباس. انظر: (البحر المحيط ٣/١٧، الطبرى ٧/٥٦٩، القرطبى ٥/٣١، معانى القرآن للفراء ١/٢٥٦، النشر ٢/٢٤٧، الكشف ١/٣٧٦،٣٧٧، الإتحاف ١٨٦، العكبرى ١/٩٧ التيسير ٩٤، الغيث ١٨٨، النحاس ١/٣٩٦، العنوان ٦٥، تهذيب اللغة «ق م و»، لسان العرب «قوم» الحجة المنسوب لابن خالويه ١٩ شرح التصريح ٢/٣٧٨).

للذى معه مال اليتيم، فقال سبحانه: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ عن أموالهم، ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾، يعنى بالقرض، فإن أيسر رد عليه، وإلا فلا إثم عليه، ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ﴾، يعنى الأولياء والأوصياء، ﴿إِلَيْهِمْ﴾، يعنى إلى اليتامى ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ إذا احتلموا، ﴿فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ بالدفع إليهم، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [آية: ٦]، يعنى شهيدًا، فلا شاهد أفضل من الله بينكم وبينهم، نزلت فى ثابت بن رفاعة وعمه، وذلك أن رفاعة توفى وترك ابنه ثابت، فولى ميراثه، فنزلت فيه: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ﴾، يقول: واختبروا، يعنى به عم ثابت بن رفاعة ﴿الْيَتَامَىٰ﴾، يعنى ثابت بن رفاعة، الآية كلها، حتى قال سبحانه: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾

وقوله سبحانه: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾، نزلت فى أوس بن مالك الأنصارى، وذلك أن أوس بن مالك الأنصارى توفى وترك امرأته أم كحة الأنصارية، وترك ابنتين إحداهن صفية، وترك ابنى عمه عرفطة وسويد ابنى الحارث، فلم يعطياها ولا ولداها شيئًا من الميراث، وكان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الولدان الصغار شيئًا، ويجعلون الميراث لذوى الأسنان منهم، فانطلقت أم كحة وبناتها إلى النبى ﷺ، فقالت: إن أباهن توفى، وإن سويد بن الحارث وعرفطة منعاهن حقهن من الميراث، فأنزل الله عز وجل فى أم كحة وبناتها: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾، يعنى حظًا، ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾، يعنى حظًا ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾، يعنى من الميراث، ﴿أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [آية: ٧]، يعنى حظًا مفروضًا، يعنى معلومًا، فأخذت أم كحة الثمن وبناتها الثلثين، وبقيته لسويد وعرفطة.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨﴾

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾، يعنى قسمة المواريث، فيها تقديم، وإذا حضر ﴿أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾، يعنى قرابة الميت، ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ﴾ قسمة المواريث، ﴿فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾، يعنى فأعطوهم من الميراث، وإن قل، وليس بموقت هذه قبل قسمة المواريث، ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [آية: ٨]، يقول سبحانه: إن كانت الورثة صغارًا فليقل

أولياء الورثة لأهل هذه القسمة: إن بلغوا أمرناهم أن يدفعوا حقكم ويتبعوا وصية ربهم عز وجل، وإن ماتوا وورثناهم وأعطيناكم حقكم، فهذا القول المعروف، يعنى العدة الحسنة.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾، فهو الرجل يحضر الميت، فيقول له: قدم لنفسك، أوص لفلان وفلان، حتى يوصى بعامة ماله، فيزيد على الثلث، فنهى الله عز وجل عن ذلك، فقال: وليخش الذين يأمرون الميت بالوصية بأكثر من الثلث، فليخش على ورثة الميت الفاقة والضيعة، كما يخشى على ذريته الضعيفة من بعده، فكذلك لا يأمر الميت بما يؤثمه، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾، يعنى عجزة، لا حيلة لهم، نظيرها فى البقرة، ﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ الضيعة، ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا﴾ إذا جلسوا إلى الميت ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [آية: ٩]، يعنى عدلاً، فليأمره بالعدل فى الوصية، فلا يحرفها، ولا يجُر فيها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ بغير حق، ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [آية: ١٠]، وذلك أن خازن النار يأخذ شفتيه، وهما أطول من مشفرى البعير، وطول شفتيه أربعون ذراعًا، أحداهما بالغة على منخره، والأخرى على بطنه، فيلقمه جمر جهنم، ثم يقول: كل بأكلك أموال اليتامى ظلمًا، فنسخت هذه الآية: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، فرخص فى المخالطة ولم يرخص فى أكل أموال اليتامى ظلمًا.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ۚ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ

﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾

ثم بين قسمة المواريث بين الورثة، فقال عز وجل: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾، يعنى بنات أم كحة، ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ﴾ ابنة ﴿وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ الميت ﴿إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾، وبقية المال للأب، ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾، وما بقى فللأب ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾، يعنى إلى الثلث أو دين عليه، فإنه يبدأ بالدين من ميراث الميت بعد الكفن، ثم الوصية بعد ذلك، ثم الميراث.

﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾، يعنى فى الآخرة، فيكون معه فى درجته، وذلك أن الرجل يكون عمله دون عمل ولده، أو يكون عمله دون عمل والده، فيرفعه الله عز وجل فى درجته لتقر أعينهم، ثم قال فى التقديم لهذه القسمة: ﴿فَرِيضَةً﴾ ثابتة ﴿مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [آية: ١١] فى الميراث، ﴿حَكِيمًا﴾ حكم قسمته.

﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ إذا متن، ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ عليهم، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ بعد الموت من الميراث، ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ من المال، ﴿مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ (١) فيها تقديم، ﴿يُورَثُ كَلَالَةً﴾، والكلالة الميت يموت وليس له ولد ولا والد ولا جد، ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾، فهم الإخوة لأم، والذكر والأنثى فى الثلث سواء، ولا يوصى لوارث، ولا يقر بحق ليس عليه مضارة للورثة، فذلك قوله سبحانه: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، يعنى هذه القسمة فريضة من الله، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالضرار، يعنى من يضار فى أمر الميراث، ﴿حَلِيمٌ﴾ [آية: ١٢] حين لا يعجل عليهم بالعقوبة.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، يعنى هذه القسمة فريضة من الله، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فى قسمة المواريث، ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الثواب ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [آية: ١٣]، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فى قسمة المواريث، فلم يقسمها، ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾، يعنى يخالف أمره وقسمته إلى غيرها، ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آية: ١٤]، يعنى الهوان.

فلما فرض الله عز وجل لأم كحة وبناتها انطلق سويد وعرفطة وعيينة بن حصن إلى النبى ﷺ، فقالوا: إن المرأة لا تركب فرسًا ولا تجاهد، وليس عند الصبيان الصغار منفعة فى شيء، فأنزل الله عز وجل فى ذلك: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ﴾، يعنى ما بين فى قسمة المواريث فى أول السورة، ويفتيكم فى بنات أم كحة ﴿فِى يَتَامَى النِّسَاء اللاَّتِى لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ...﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧].

---

(١) وقراءة أيوب. انظر: (إعراب القرآن للعكبرى ١/٩٩، البحر المحيط ٣/١٨٩، الطبرى ٨/٥٣، تفسير الفخر الرازى ٣/١٦٢، معانى القرآن للأخفش ١/٢٣٢، مجمع البيان ٢/١٦، البحر المحيط ٣/١٨٩، الجامع لأحكام القرآن ٥/٧٧، الكشاف ١/٢٥٤).

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾، يعنى المعصية، وهى الزنا، وهى المرأة الثيب تزنى ولها زوج، ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ عدولاً، ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ عليهن بالزنا ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾، وإن كان لها زوج وقد زنت أخذ الزوج المهر منها من غير طلاق ولا حد ولا جماع، وتحبس فى السجن حتى تموت، ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ [آية: ١٥]، يعنى مخرجًا من الحبس، وهو الرجم، يعنى الحد، فنسخ الحد فى سورة النور الحبس فى البيوت.

ثم ذكر البكرين اللذين لم يحصنا، فقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾، يعنى الفاحشة، وهو الزنا، منكم ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ باللسان، يعنى بالتعيير والكلام القبيح بما عملا، ولا حبس عليهما؛ لأنهما بكران، فيعيران ليندما ويتوبا، يقول الله عز وجل: ﴿فَإِن تَابَا﴾ من الفاحشة ﴿وَأَصۡلَحَا﴾ العمل فيما بقى، ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ﴾، يعنى فلا تسمعوهما الأذى بعد التوبة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾ [آية: ١٦].

ثم أنزل الله عز وجل فى البكرين: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، فنسخت هذه الآية التى فى النور: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾، فلما أمر الله عز وجل بالجلد، قال النبى ﷺ: «الله أكبر، جاء الله بالسبيل، البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة، والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة»، فأخرجوا من البيوت، فجلدوا مائة وحدوا، فلم يحبسوا، فذلك قوله عز وجل ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾، يعنى مخرجًا من الحبس بجلد البكر ورجم المحصن.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾﴾

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، يعنى التجاوز على الله، ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ

بِجَهَٰلَةٖ﴾ ، فكل ذنب يعمله المؤمن فهو جهل منه، ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ ، يعنى قبل الموت، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ ، يعنى يتجاوز عنهم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [آية: ١٧]، ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ، يعنى الشرك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ ، فلا توبة له عند الموت، ﴿وَلَا﴾ توبة ﴿ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [آية: ١٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ﴾ ، نزلت فى محصن بن أبى قيس بن الأسلت الأنصارى، من بنى الحارث بن الخزرج، وفى امرأته هند بنت صبرة، وفى الأسود بن خلف الخزاعى، وفى امرأته حبيبة بنت أبى طلحة، وفى منظور بن يسار الفزارى، وفى امرأته ملكة بنت خارجة بن يسار المرى، تزوجوا نساء آبائهم بعد الموت، وكان الرجل من الأنصار إذا مات له حميم، عمد الذى يرث الميت، وألقى على امرأة الميت ثوبًا، فيرث تزويجها، رضيت أو كرهت، على مثل مهر الميت، فإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل أن يلقى عليها ثوبًا، فهى أحق بنفسها، فأتين النبى ﷺ، فقلن: يا رسول الله، ما يدخل بنا ولا ينفق علينا لا نترك أن نتزوج، فأنزل الله عز وجل فى هؤلاء النفر: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ﴾ ، يعن وهن كارهات، ولكن تزوجوهن برضى منهن، وكان أحدهم يقول: أنا أرثك لأنى ولى زوجك، فأنا أحق بك، ثم انقطع الكلام.

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ ، كان الرجل يفر بامرأته لتفتدى منه، ولا حاجة له فيها، يقول: لا تحبسوهن ﴿لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ ، يقول: ببعض ما أعطيتموهن من المهر، ثم رخص واستثنى، ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ ، يعنى العصيان البين، وهو النشوز، فقد حلت الفدية إذا جاء العصيان من قبل المرأة، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ ، يقول: صاحبوهن بإحسان، ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ﴾ وأردتم فراقهن، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا

كَثِيرًا﴾ [آية: ١٩]، يعنى فى الكره خيرًا كثيرًا، يقول: عسى الرجل يكره المرأة، فيمسكها على كراهية، فلعل الله عز وجل يرزقه منها ولدًا، ويعطفه عليها، وعسى أن يكرهها، فيطلقها فيتزوجها غيره، فيجعل الله للذى يتزوجها فيها خيرًا كثيرًا، فيرزقه منها لطفًا وولدًا.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٢١)﴾

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾، يقول: وإن أراد الرجل طلاق امرأته ويتزوج أخرى غيرها، ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾، يقول: وآتيتم إحداهن من المهر قنطارًا من ذهب، والقنطار ألف ومائتا دينار، ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ إذا أردتم طلاقها، يقول: فليس له أن يضر بها حتى تفتدى منه، يقول: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [آية: ٢٠]، يعنى بينًا، ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾ تعظيمًا له، يعنى المهر، ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، يعنى به الجماع، ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [آية: ٢١]، يعنى بالميثاق الغليظ ما أمروا به من قوله تبارك وتعالى فيهن: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١]، والغلظ يعنى الشديد، وكل غليظ فى القرآن يعنى به الشديد.

﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢)﴾

﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾، نزلت فى محصن بن أبى قيس بن الأسلت بن الأفلح الأنصارى، وفى امرأته كبشة بنت معن بن معبد بن عدى بن عاصم الأنصارى من الأوس من بنى خطمة بن الأوس، ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾؛ لأن العرب كانت تفعل ذلك قبل التحريم، وذلك أن محصن مات أبوه، فشد على امرأته فتزوجها، وهو محصن بن أبى قيس بن الأسلت الأنصارى، من بنى الحارث بن الخزرج، وكبشة بنت معن بن معبد، وفى شريك وفى امرأته كحة، ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾، يعنى معصية، ﴿وَمَقْتًا﴾، يعنى وبغضًا، ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [آية: ٢٢]، يعنى وبئس المسلك، وقال سبحانه: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾؛ لأن العرب كانوا ينكحون نساء الآباء،

ثم حرم النسب والصهر، ولم يقل: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾؛ لأن العرب كانت لا تنكح النسب والصهر، وقال عز وجل فى الأختين: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾؛ لأنهم كانوا يجمعون بينهما.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

ثم بين ما حرم، فقال تعالى ذكره: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾، فهذا النسب، ثم قال سبحانه: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾، يعنى جامعتم أمهاتهن، ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾، يقول: إن لم تكونوا جامعتم أمهاتهن، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، يقول: فلا حرج عليكم فى تزوج البنات، ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾، يقول: وحرم ما تزوج الابن الذى خرج من صلب الرجل ولم يتبناه، فهذا الصهر، ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾، فحرم جمعهما، إلا أن يكون إحداهما بملك، فزوجها غيره، فلا بأس، ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ قبل التحريم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [آية: ٢٣] لما كان من جماع الأختين قبل التحريم.

﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، يعنى وكل امرأة أيضًا فنكاحها حرام مع ما حرم من النسب والصهر، ثم استثنى من المحصنات، فقال سبحانه: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ

﴿أَيْمَٰنُكُمْ﴾ من الحرائر مثنى وثلاث ورباع، ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[(١)]، يعني فريضة الله لكم بتحليل أربع، ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، يعني ما وراء الأربع، ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ﴾ لفروجهن ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ بالزنا علانية، ثم ذكر المتعة، فقال: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ إلى أجل مسمى، ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، يعني أعطوهن مهورهن، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾، يقول: لا حرج عليكم فيما زدتم من المهر وازددتم فى الأجل بعد الأمر الأول، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخلقه ﴿حَكِيمًا﴾ [آية: ٢٤] فى أمره، نسختها آية الطلاق وآية المواريث.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

ثم إن رسول الله ﷺ نهى عن المتعة بعد نزول هذه الآية مرارًا، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ثم قال سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾، يقول: من لم يجد منكم سعة من المال، ﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، يعنى الحرائر، فليتزوج من الإماء، ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، يعنى الولائد، فتزوجوا ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، يعنى الولائد، ثم قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمْ﴾ من غيره، فيكره للعبد المسلم أن يتزوج وليدة من أهل الكتاب؛ لأن ولده يصير عبدًا، فإن تزوجها وولدت له، فإنه يشترى من سيده رضى أو كره، ويسعى فى ثمنه، ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ يتزوج هذا وليدة هذا، وهذا وليدة هذا.

ثم قال سبحانه: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾، يقول: تزوجوا الولائد بإذن أربابهن، ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، يقول: وأعطوهن مهورهن ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ﴾ عفائف لفروجهن، ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ غير معلنات بالزنا، ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾، يعنى

(١) انظر: (الجامع لأحكام القرآن ٥/١٢٤، الكشاف ١/٢٦٢، البحر المحيط ٣/٣١٤).

أخلاء فى السر، فيزنى بها سرًا، ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ﴾، يعنى أسلمن، ﴿فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ﴾، يقول: فإن جئن بالزنا، ﴿فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾، يعنى خمسين جلدة، نصف ما على الحرة إذا زنت، ﴿ذَٰلِكَ﴾ التزويج للولائد، ﴿لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ﴾، يعنى الإثم فى دينه، وهو الزنا، ﴿وَأَن﴾، يعنى ولئن ﴿تَصۡبِرُواْ﴾ عن تزويج الأمة، ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ﴾ من تزويجهن، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ لتزويجه الأمة، ﴿رَّحِيمٞ﴾ [آية: ٢٥] به حين رخص له فى تزويجها إذا لم يجد طولاً، يعنى سعة فى تزويج الحرة.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾﴾

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾، يعنى أن يبين لكم، ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، يعنى شرائع هدى من كان قبلكم من المؤمنين من تحريم النسب والصهر، ﴿وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ﴾، يعنى ويتجاوز عنكم من نكاحكم، يعنى تزويجكم إياهن من قبل التحريم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [آية: ٢٦].

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، يعنى به الزنا، وذلك أن اليهود زعموا أن نكاح ابنة الأخت من الأب حلال، فذلك قوله سبحانه: ﴿أَن تَمِيلُواْ﴾ عن الحق ﴿مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾ [آية: ٢٧] فى استحلال نكاح ابنة الأخت من الأب، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾ إذ رخص فى تزويج الأمة لمن لم يجد طولاً لحرة، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [آية: ٢٨]، لا يصبر عن النكاح، ويضعف عن تركه، فلذلك أحل لهم تزويج الولائد لئلا يزنوا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، يقول: لا تأكلوها

إلا بحقها، وهو الرجل يجحد حق أخيه المسلم، أو يقتطعه بيمينه، ثم استثنى ما استفضل الرجل من مال أخيه من التجارة، فلا بأس، فقال سبحانه: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾، يقول: لا يقتل بعضكم بعضًا؛ لأنكم أهل دين واحد، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [آية: ٢٩]، إذ نهى عن ذلك، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾، يعني الدماء والأموال جميعًا، ﴿عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾، يعني اعتداء بغير حق وظلمًا لأخيه، ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [آية: ٣٠]، يقول: كان عذابه على الله هينًا.

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾

ثم قال سبحانه: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ من أول هذه السورة إلى هذه الآية، ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، يعني ذنوب ما بين الحدين، ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [آية: ٣١]، يعني حسنًا، وهي الجنة لما نزلت: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، قالت النساء: لم هذا؟ نحن أحق أن يكون لنا سهمان ولهم سهم؛ لأنّا ضعاف الكسب والرجال أقوى على التجارة والطلب والمعيشة منا، فإذا لم يفعل الله ذلك بنا، فإنَّا نرجو أن يكون الوزر على نحو ذلك علينا وعليهم، فأنزل الله في قولهم: كنا نحن أحوج إلى سهمين، قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾، يقول: فضل الرجال على النساء في الميراث، ونزل في قولهن: نرجو أن يكون الوزر على نحو ذلك: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾، يعني حظًا ﴿مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ﴾ من الإثم، ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾، يعني حظًا ﴿مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ من الإثم، ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، يعني الرجال والنساء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من قسمة الميراث ﴿عَلِيمًا﴾ [آية: ٣٢] به.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ﴾، يعني العصبة بني العم والقربى، ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ

﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾، كان الرجل يرغب فى الرجل، فيحالفه ويعاقده على أن يكون معه وله من ميراثه كبعض ولده، فلما نزلت هذه الآية آية المواريث ولم يذكر أهل العقد، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾، يقول: أعطوهم الذى سميتم لهم من الميراث، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من أعمالكم ﴿شَهِيدًا﴾ [آية: ٣٣] إن أعطيتم نصيبهم أو لم تعطوهم، فلم يأخذ هذا الرجل شيئًا حتى نزلت: ﴿وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦]، فنسخت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾

قوله عز وجل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، نزلت فى سعد بن الربيع بن عمرو، من النقباء، وفى امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير، وهما من الأنصار من بنى الحارث بن الخزرج، وذلك أنه لطم امرأته، فأتت أهلها، فانطلق أبوها معها إلى النبى ﷺ، فقال: أنكحته وأفرشته كريمتى فلطمها، فقال النبى ﷺ: «لتقتص من زوجها»، فأتت مع زوجها لتقتص منه، ثم قال النبى ﷺ: «ارجعوا، هذا جبريل، عليه السلام، قد أتانى، وقد أنزل الله عز وجل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾»، يقول: مسلطون على النساء، ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، وذلك أن الرجل له الفضل على امرأته فى الحق، ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾، يعنى وفضلوا بما ساق إليها من المهر، فهم مسلطون فى الأدب والأخذ على أيديهن، فليس بين الرجل وبين امرأته قصاص إلا فى النفس والجراحة، فقال النبى ﷺ عند ذلك: «أردنا أمرًا وأراد الله أمرًا، والذى أراد الله خيرًا».

ثم نعتهم، فقال سبحانه: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ فى الدين، ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾، يعنى مطيعات له ولأزواجهن، ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾(١) لغيبة أزواجهن فى فروجهن

---

(١) قراءة طلحة: «فالصَّوالِحُ قوانِتُ حوافِظُ للغيب» وقراءة عبدالله بن مسعود، وطلحة بن مصرف. انظر: (الكشاف ١/٢٦٦، مجمع البيان ٢/٤٢، معانى القرآن للفراء ١/٢٦٥، تفسير الفخر الرازى ٣/٢١٤).

وأموالهم، ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ (١)، يعني بحفظ الله لهن، ثم قال: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾، يعني تعلمون عصيانهن من نسائكم، يعني سعدًا، يقول: تعلمون معصيتهن لأزواجهن، ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ بالله، فإن لم يقبلن العظة، ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾، يقول: لا تقربها للجماع، فإن رجعت إلى طاعة زوجها بالعظة والهجران، وإلا ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ ضربًا غير مبرح، يعني غير شائن، ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾، يعني عللا، يقول: لا تكلفها في الحب لك ما لا تطيق، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا﴾، يعني رفيعًا فوق خلقه، ﴿كَبِيرًا﴾ [آية: ٣٤].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾، يعني علمتم ﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾، يعني خلاف بينهما، بين سعد وامرأته، ولم يتفقا، ولم يدر من قبل من منهما النشوز من قبل الرجل أو من قبل المرأة؟ ﴿فَٱبْعَثُوا﴾، يعني الحاكم، يقول للحاكم: فابعثوا ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾، فينظرون في أمرهما في النصيحة لهما، إن كان من قبل النفقة أو إضرار وعظا الرجل، وإن كان من قبلها، وعظاها لعل الله أن يصلح على أيديهما، فذلك قوله عز وجل: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾، يعني الحكمين، ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ للصلح، فإن لم يتفقا وظنا أن الفرقة خير لهما في دينهما، فرق الحكمان بينهما برضاهما، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بحكمهما ﴿خَبِيرًا﴾ [آية: ٣٥] بنصيحتهما في دينهما.

﴿۞ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾

---

(١) انظر: (معاني القرآن للفراء ١/٢٦٥، إعراب القرآن للنحاس ١/٤١٣، إعراب القرآن للعكبري ١/١٠٤، البحر المحيط ٣/٢٤٠، التبيان ٣/١٨٩، الطبري ٨/٢٩٦، مجمع البيان ٢/٤٢).

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، يعنى وحدوا الله، ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾؛ لأن أهل الكتاب يعبدون الله فى غير إخلاص، فلذلك قال الله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ من خلقه، ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، يعنى برًا بهما، ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ والإحسان إلى ذى القربى، يعنى صلته، ﴿وَ﴾ الإحسان إلى ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أن تتصدقوا عليهم، والإحسان إلى ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، يعنى جارًا بينك وبينه قرابة، ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾، يعنى من قوم آخرين، ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾، يقول: الرفيق فى السفر والحضر، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، يعنى الضيف ينزل عليك أن تحسن إليه، ﴿وَ﴾ إلى ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ من الخدم وغيره، وعن على وعبد الله، قالا: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ المرأة، فأمر الله عز وجل بالإحسان إلى هؤلاء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾، يعنى بطرًا مرحًا ﴿فَخُورًا﴾ [آية: ٣٦] فى نعم الله، لا يأخذ ما أعطاه الله عز وجل فيشكر.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾، يعنى رءوس اليهود، ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾، وذلك أن رءوس اليهود كعب بن الأشرف وغيره، كانوا يأمرون سفلة اليهود بكتمان أمر محمد ﷺ خشية أن يظهروه ويبينوه، ومحوه من التوراة، ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ عز وجل، يعنى ما أعطاهم ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ فى التوراة من أمر محمد ﷺ ونعته، ثم أخبر عما لهم فى الآخرة، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ يا محمد ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾، يعنى لليهود، ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [آية: ٣٧]، يعنى الهوان.

ثم أخبر عنهم، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، يعنى اليهود، ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، يقول: لا يصدقون بالله أنه واحد لا شريك له، ولا يصدقون بالبعث الذى فيه جزاء الأعمال بأنه كائن، ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا﴾، يعنى صاحبًا، ﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [آية: ٣٨]، يعنى فبئس الصاحب، ثم قال عز وجل: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾، يعنى وما كان عليهم ﴿لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، يعنى بالبعث، ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ من الأموال فى الإيمان ومعرفته، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [آية: ٣٩] أنهم لن يؤمنوا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، يعنى لا ينقص وزن أصغر من الذرة من أموالهم، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾ واحدة ﴿يُضَاعِفْهَا﴾ حسنات كثيرة، فلا أحد أشكر من الله عز وجل، ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [آية: ٤٠]، يقول: ويعطى من عنده فى الآخرة جزاء كثيرًا، وهى الجنة، ثم خوفهم، فقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ﴾ بهم ﴿إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾، يعنى نبيهم، وهو شاهد عليهم بتبليغ الرسالة إليهم من ربهم، ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [آية: ٤١]، يعنى كفار أمة محمد ﷺ بتبليغ الرسالة.

ثم أخبر عن كفار أمة محمد ﷺ، فقال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾، وذلك بأنهم قالوا فى الآخرة: والله ربنا ما كنا مشركين، فشهدت عليهم الجوارح بما كتمت ألسنتهم من الشرك، فودوا عند ذلك أن الأرض انشقت فدخلوا فيها فاستوت عليهم، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [آية: ٤٢]، يعنى الجوارح حين شهدت عليهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾، لما نزلت هذه الآية قال النبى ﷺ: «قد قدم الله عز وجل تحريم الخمر إلينا»، وذلك أن عبد الرحمن بن عوف الزهرى صنع طعامًا، فدعا أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وسعد بن أبى وقاص، رحمهم الله جميعًا، فأكلوا وسقاهم خمرًا، فحضرت صلاة المغرب، فأمهم على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، فقال فى قراءته: نحن عابدون ما عبدتم، فأنزل الله عز وجل فى على بن أبى طالب، رضى الله عنه، وأصحابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ فى صلاتكم، فتركوا شربها إلا من بعد صلاة الفجر إلى الضحى الأكبر،

فيصلون الأولى وهم أصحياء.

ثم إن رجلاً من الأنصار يسمى عتبان بن مالك دعا سعد بن أبى وقاص إلى رأس بعير مشوى، فأكلا ثم شربا فسكرا، فغضب الأنصارى، فرفع لحى البعير فكسر أنف سعد، فأنزل الله عز وجل تحريم الخمر فى المائدة بعد غزوة الأحزاب، ثم قال سبحانه: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾، ثم استثنى المسافر الذى لا يجد الماء، فقال سبحانه: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾، ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، نزلت فى عبد الرحمن بن عوف، أصابته جنابة وهو جريح، فشق عليه الغسل، وخاف منه شرًا، أو يكون به قرح أو جدرى، فهو بهذه المنزلة، فذاك قوله سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾، يعنى به جرحًا فوجدتم الماء، فعليكم التيمم.

وإن كنتم على سفر وأنتم أصحاء، نزلت فى عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها، ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾، يعنى الخلاء، ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، يعنى جامعتم، ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾، يقول: الصحيح الذى لا يجد الماء، والمريض الذى يجد الماء يتيمموا ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، يعنى حلالاً طيبًا، ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ إلى الكرسوع، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ عنكم ﴿غَفُورًا﴾ [آية: ٤٣] لما كان منكم قبل النهى عن السكر والصلاة والتيمم بغير وضوء، وقد نزلت آية التيمم فى أمر عائشة، رضى الله عنها، بين الصلاتين.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا﴾، يعن حظًا، ألم تر إلى فعل الذين أعطوا نصيبًا، يعنى حظًا ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعنى التوراة، ﴿يَشْتَرُونَ﴾، يعنى يختارون، وهم اليهود، منهم إصبغ ورافع ابنا حريملة، وهما من أحبار اليهود ﴿يَشْتَرُونَ﴾ ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾، يعنى باعوا إيمانًا بمحمد ﷺ قبل أن يبعث، بتكذيب بمحمد ﷺ بعد بعثته، ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [آية: ٤٤]، يعنى أن تخطئوا قصد طريق الهدى كما أخطأوا الهدى، نزلت فى عبد الله بن أبى، ومالك بن دخشم، حين دعوهما إلى دين اليهودية وعيروهما بالإسلام وزهدوهما فيه، وفيهما نزلت: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾، يعنى بعداوتهم إياكم، يعنى

اليهود، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾، فلا ولى أفضل من الله عز وجل، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [آية: ٤٥]، فلا ناصر أفضل من الله جل ذكره.

وفيهما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ...﴾ [آل عمران: ١١٨]، نزلت فى عبد الله بن أبى، ومالك بن دخشم، وفى بنى حريملة.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، يعنى اليهود، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، يعنى بالتحريف نعت محمد ﷺ، عن مواضعه، عن بيانه فى التوراة، ليًا بألسنتهم، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ للنبى ﷺ ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك، فلا نطيعك، ﴿وَٱسْمَعْ﴾ منا يا محمد نحدثك ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ منك قولك يا محمد، غير مقبول ما تقول، ﴿وَرَٰعِنَا﴾، يعنى ارعنا سمعك، ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾، يعنى دين الإسلام، يقولون: إن دين محمد ليس بشىء، ولكن الذى نحن عليه هو الدين.

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرك ﴿وَٱسْمَعْ﴾ منا ﴿وَٱنظُرْنَا﴾ حتى نحدثك يا محمد، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من التحريف والطعن فى الدين ومن راعنا، ﴿وَأَقْوَمَ﴾، يعنى وأصوب من قولهم الذى قالوا، ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [آية: ٤٦]، والقليل الذى آمنوا به، إذ يعلمون أن الله ربهم، وهو خالقهم ورازقهم، ويكفرون بمحمد ﷺ وبما جاء به، نزلت فى رفاعة بن زيد بن السائب، ومالك بن الضيف، وكعب بن أسيد، كلهم يهود، مثلها فى آخر السورة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾

ثم خوفهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعنى كعب بن الأشرف، يعنى الذين أعطوا التوراة، ﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا﴾، يعنى بما أنزل الله من القرآن على محمد، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾، يقول: تصديق محمد معكم فى التوراة أنه نبى رسول، ﴿مِّن

﴿قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾، يقول: نحول الملة عن الهدى والبصيرة التى كانوا عليها من إيمان بمحمد ﷺ قبل أن يبعث، ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ بعد الهدى الذى كانوا عليه كفارًا ضلالاً، ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾، يعنى نعذبهم ﴿كَمَا لَعَنَّآ﴾، يعنى كما عذبنا ﴿أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾، يقول: فنمسخهم قردة كما فعلنا بأوائلهم، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [آية: ٤٧]، يقول: أمره كائن لابد، هذا وعيد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، فيموت عليه، يعنى اليهود، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ الشرك ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ لمن مات موحدًا، فمشيئته تبارك وتعالى لأهل التوحيد. قال: حدثنا عبيد الله بن ثابت، قال: حدثنى أبى، عن الهذيل، عن مقاتل بن سليمان، عن رجل، عن مجاهد، أن الاستثناء لأهل التوحيد، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ معه غيره، ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [آية: ٤٨]، يقول: فقد قال ذنبًا عظيمًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾، يعنى ألم تنظر ﴿إِلَى﴾، يعنى فعل ﴿ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾، يعنى اليهود، منهم بحرى بن عمرو، ومرحب بن زيد، دخلوا بأولادهم إلى النبى ﷺ، فقالوا: أهل هؤلاء ذنوب؟ فقال النبى ﷺ: «لا»، فقالوا: والذى تحلف به ما نحن إلا كهيئتهم، نحن أبناء الله وأحباؤه، وما من ذنب نعمله بالنهار إلا غفر لنا بالليل، وما من ذنب نعمله بالليل إلا غفر لنا بالنهار، فزكوا أنفسهم، يقول الله عز وجل: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾، يعنى يصلح من يشاء من عباده، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾، يعنى ولا ينقصون من أعمالهم ﴿فَتِيلًا﴾ [آية: ٤٩]، يعنى الأبيض الذى يكون فى شق النواة من الفتيل.

يقول الله عز وجل: يا محمد، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾، لقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾، يعنى بما قالوا، ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [آية: ٥٠]، يعنى بينًا، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وذلك أن كعب بن الأشرف

اليهودى، وكان عربيًا من طيئ، وحيى بن أخطب، انطلقا فى ثلاثين من اليهود إلى مكة بعد قتال أُحُد، فقال أبو سفيان بن حرب: إن أحب الناس إلينا من يعيننا على قتال هذا الرجل، حتى نفنى أو يفنوا، فنزل كعب على أبى سفيان، فأحسن مثواه، ونزلت اليهود فى دور قريش، فقال كعب لأبى سفيان: ليجيء منكم ثلاثون رجلاً، ومنا ثلاثون رجلاً، فنلصق أكبادنا بالكعبة، فنعاهد رب هذا البيت، لنجتهدن على قتال محمد، ففعلوا ذلك.

قال أبو سفيان لكعب بن الأشرف: أنت امرؤ من أهل الكتاب تقرأ الكتاب، فنحن أهدى أم ما عليه محمد؟ فقال: إلى ما يدعوكم محمد؟ قال: إلى أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا، قال: فأخبرونى ما أمركم؟ وهو يعلم ما أمرهم، قالوا: ننحر الكوماء، ونقرى الضيف، ونفك العانى، يعنى الأسير، ونسقى الحجيج الماء، ونعمر بيت ربنا، ونصل أرحامنا، ونعبد إلهنا ونحن أهل الحرم، فقال كعب: أنت والله أهدى مما عليه محمد، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يقول: أعطوا حظًا من التوراة، ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ﴾، يعنى حيى بن أخطب القرظى، ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾، وكعب بن الأشرف، ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [آية: ٥١]، يعنى طريقًا.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

يقول الله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾، يعنى كعبًا وأصحابه، ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [آية: ٥٢]، فلما رجع كعب إلى المدينة، بعث النبى ﷺ إلى نفر من أصحابه بقتله، فقتله محمد بن مسلمة الأنصارى، من بنى حارثة بن الحارث تلك الليلة، فلما أصبح النبى ﷺ سار فى المسلمين، فحاصر أهل النضير حتى أجلاهم من المدينة إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام، ﴿أَمْ لَهُمْ﴾، تقول: ألهم، والميم هاهنا صلة، فلو كان لهم، يعنى اليهود، ﴿نَصِيبٌ﴾، يعنى حظًا ﴿مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [آية: ٥٣]، يعنى لا يعطون الناس من بخلهم وحسدهم وقلة خيرهم، نقيرًا يعنى بالنقير النقرة التى فى ظهر النواة التى ينبت منها النخلة.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾، يعنى النبى ﷺ وحده، ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، يعنى ما أعطاهم من فضله، وذلك أن اليهود قالوا: انظروا إلى هذا الذى لا يشبع من الطعام، ما له هم إلا النساء، يعنون النبى ﷺ، فحسدوه على النبوة وعلى كثرة النساء، ولو كان نبيًا ما رغب فى النساء، يقول الله عز وجل: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، يعنى النبوة، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [آية: ٥٤]، وكان يوسف منهم على مصر، وداود وسليمان منهم، وكان لداود تسعة وتسعون امرأة، وكان لسليمان ثلاثمائة امرأة حرة، وسبعمائة سرية، فكيف تذكرون محمدًا فى تسع نسوة، ولا تذكرون داود وسليمان، عليهما السلام، فكان هؤلاء أكثر نساء، وأكثر ملكًا من محمد ﷺ.

ومحمد أيضًا من آل إبراهيم، وكان إبراهيم، ولوطًا، وإسحاق، وإسماعيل، ويعقوب، عليهم السلام، يعملون بما فى صحف إبراهيم، ﴿فَمِنْهُم﴾، يعنى من آل إبراهيم ﴿مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾، يقول: صدق بالكتاب الذى جاء به، ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾، يعنى أعرض عن الإيمان بالكتاب ولم يصدق به، ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [آية: ٥٥]، يقول: وكفى بوقودها وعذابها وقودًا لمن كفر بكتاب إبراهيم، فلا وقود أحر من جهنم لأهل الكفر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

ثم أخبر بمستقر الكفار، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، يعنى اليهود، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، يعنى القرآن، ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ﴾، يعنى احترقت ﴿جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾، جددنا لهم جلودًا غيرها، وذلك أن النار إذا أكلت جلودهم بدلت كل يوم سبع مرات على مقدار كل يوم من أيام الدنيا، ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ عذاب النار جديدًا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ فى نقمته، ﴿حَكِيمًا﴾ [آية: ٥٦]، حكم لهم النار.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

ثم أخبر بمستقر المؤمنين، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾، يعنى البساتين، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، لا يموتون، ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ﴾، يعنى النساء، ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾، يعنى المطهرات من الحيض والغائط والبول

والقذر كله، ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا﴾، يعنى أكنان القصور، ﴿ظَلِيلًا﴾ [آية: ٥٧]، يعنى لا خلل فيها.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾﴾

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾، نزلت فى عثمان بن طلحة بن عبد الله القرشى، صاحب الكعبة فى أمر مفاتيح الكعبة، وذلك أن العباس بن عبد المطلب، رضى الله عنه، قال للنبى ﷺ: اجعل فينا السقاية والحجابة لنسود بها الناس، وقد كان أخذ المفتاح من عثمان حين افتتح مكة، فقال عثمان بن طلحة للنبى ﷺ: إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فادفع إلىَّ المفتاح، فدفع النبى ﷺ المفتاح، ثم أخذه ثلاث مرات، ثم إن النبى ﷺ طاف بالبيت، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾، فقال النبى ﷺ لعثمان: «خذه بأمانة الله»، حين دفع إليه المفتاح، فقال العباس، رضى الله عنه، للنبى ﷺ: جعلت السقاية فينا والحجابة لغيرنا، فقال النبى ﷺ: «أما ترضون أنى جعلت لكم ما تدرون، ونحيت عنكم ما لا تدرون، ولكم أجر ذلك؟»، قال العباس: بلى، قال: «بشرفهم بذلك، أى تفضلون على الناس، ولا يفضل الناس عليكم».

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [آية: ٥٨]، فلا أحد أسمع منه، ﴿بَصِيرٗا﴾، فلا أحد أبصر منه، فكان من العدل أن دفع السقاية إلى العباس بن عبد المطلب، والحجابة إلى عثمان بن طلحة؛ لأنهما كانا أهلها فى الجاهلية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾، وذلك أن النبى ﷺ بعث خالد بن الوليد على سرية فيهم عمار بن ياسر، فساروا حتى دنوا من الماء، فعرسوا قريبًا، وبلغ العدو أمرهم فهربوا، وبقى منهم رجل، فجمع متاعه، وجاء ليلاً فلقى عمارًا، فقال: يا أبا اليقظان، إن القوم سمعوا بكم، فهربوا و لم يبق غيرى، وقد

أسلمت، وشهدت ألا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، فهل الإسلام نافعي؟ فقال عمار: ينفعك، فأقم، فلما أصبح خالد غار بخيله، فلم يجد إلا هذا الرجل وماله، فقال عمار: خل عن هذا الرجل وماله، فقد أسلم وهو فى أمانى، قال خالد: فبم أنت تجير دونى وأنا أمير عليك، فاستبا، فلما رجعا إلى المدينة أجاز النبى ﷺ أمان عمار، ونهاه أن يجير الثانية على أمير، فقال خالد: يا نبى الله، يسبنى هذا العبد الأجدع، وشتم خالد عمارًا.

فقال النبى ﷺ لخالد: «لا تسب عمارًا، فمن سب عمارًا سب الله، ومن أبغض عمارًا أبغضه الله، ومن لعن عمارًا لعنه الله»، فغضب عمار، فقام فذهب، فقال النبى ﷺ لخالد: «قم فاعتذر إليه»، فأتاه خالد فأخذ بثوبه، فاعتذر إليه، فأعرض عنه، فأنزل الله عز وجل فى عمار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، يعنى خالد بن الوليد؛ لأن النبى ﷺ كان ولاه أمرهم، فأمر الله عز وجل بطاعة أمراء سرايا رسول الله ﷺ.

﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ من الحلال والحرام، يعنى خالدًا وعمارًا، ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾، يعنى إلى القرآن، ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾، يعنى سُنة النبى ﷺ، نظيرها فى النور، ثم قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، يعني تصدقون بالله بأنه واحد لا شريك له، ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، يعنى باليوم الذى فيه جزاء الأعمال، فليفعل ما أمر الله، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الرد إليهما ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [آية: ٥٩]، يعنى وأحسن عاقبة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾، يعنى صدقوا ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿وَ﴾ صدقوا بـ ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الكتب على الأنبياء، وذلك أن بشر المنافق خاصم يهوديًا، فدعاه اليهودى إلى النبى ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب، ثم إنهما اختصما إلى النبى ﷺ، فقضى لليهودى على المنافق، فقال المنافق لليهودى: انطلق أخاصمك إلى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فقال اليهودى لعمر، رضى الله عنه: إنى خاصمته إلى محمد ﷺ، فقضى لى، فلم يرض بقضائه، فزعم أنه مخاصمنى إليك، فقال عمر، رضى الله عنه، للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم، أحببت أن أفترق عن حكمك، فقال عمر، رضى الله عنه: مكانك حتى أخرج إليكما، فدخل عمر، رضى الله عنه، فأخذ السيف، واشتمل عليه، ثم خرج إلى المنافق فضربه حتى برد، فقال عمر، رضى الله عنه: هكذا أقضى على من لم يرض بقضاء الله عز وجل وقضاء رسوله ﷺ.

وأتى جبريل، عليه السلام، إلى النبى ﷺ، فقال: يا محمد، قد قتل عمر الرجل، وفرق الله بين الحق والباطل، فسمى عمر، رضى الله عنه، الفاروق، فأنزل الله عز وجل فى بشر المنافق: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾، يعنى كعب بن الأشرف، وكان يتكهن، ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾، يعنى أن يتبرأوا من الكهنة، ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾ عند الهدى ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [آية: ٦٠]، يعنى طويلاً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ فى كتابه، ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾، يعنى بشرًا، ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [آية: ٦١]، يعنى يعرضون عنك يا محمد إعراضًا إلى غيرك، مخافة أن تحيف عليهم، ﴿فَكَيْفَ﴾ بهم، يعنى المنافقين، ﴿إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ فى أنفسهم بالقتل، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المعاصى فى التقديم، ثم انقطع الكلام، ثم ذكر الكلام، فقال عز ذكره: ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ نظيرها فى سورة براءة، ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ ببناء مسجد القرار، ﴿إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [آية: ٦٢]، يعنى إلا الخير والصواب، وفيهم نزلت: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى﴾، يعنى إلا الخير، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧] فى قولهم الذى حلفوا به.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ

﴿وَعِظْهُمْ﴾ بلسانك، ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [آية: ٦٣]، نسختها آية السيف، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾، يعنى إلا لكى يطاع، ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، يقول: لا يطيعه أحد حتى يأذن الله عز وجل له فى طاعة رسوله ﷺ، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ بالذنوب، يعنى حين لم يرضوا بقضائك جاءوك، ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ من ذنوبهم، ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [آية: ٦٤].

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وذلك أن الزبير بن العوام، رضى الله عنه، وهو من بنى أسد بن عبد العزى، وحاطب بن أبى بلتعة العنسى من مذحج، وهو حليف لبنى أسد بن عبد العزى، اختصما إلى النبى ﷺ فى الماء، وكانت أرض الزبير فوق أرض حاطب، وجاء السيل، فقال النبى ﷺ للزبير: «اسق، ثم أرسل الماء إلى جارك»، فغضب حاطب وقال للنبى ﷺ: أما إنه ابن عمتك، فتغير وجه النبى ﷺ، ومر حاطب على المقداد بن الأسود الكندى، فقال: يا أبا لتعة، لمن كان القضاء، فقال: قضى لابن عمته، ولوى شدقه، فأنزل الله عز وجل، فأقسم: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، يعنى اختلفوا بينهم، يقول: لا يستحقون الإيمان حتى يرضوا بحكمك فيما اختلفوا فيه من شىء، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾، يقول: لا يجدون فى قلوبهم شكًا مما قضيت أنه الحق، ﴿وَيُسَلِّمُواْ﴾ لقضائك لهم وعليهم ﴿تَسْلِيمًا﴾ [آية: ٦٥].

فقالت اليهود: قاتل الله هؤلاء، ما أسفههم، يشهدون أن محمدًا رسول الله ويبذلون له دماءهم وأموالهم، ووطئوا عقبه، ثم يتهمونه فى القضاء، فوالله لقد أمرنا موسى، عليه السلام، فى ذنب واحد، أتيناه فقتل بعضنا بعضًا، فبلغت القتلى سبعين ألفًا حتى رضى الله عنا، وما كان يفعل ذلك غيرنا، فقال عند ذلك ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى:

فوالله، إن الله عز وجل ليعلم أنه لو أمرنا أن نقتل أنفسنا لقتلناها، فأنزل الله عز وجل فى قول ثابت: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾، يقول: لو أنا فرضنا ﴿عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾، فكان من ذلك القليل عمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، وثابت بن قيس، فقال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: والله لو فعل ربنا لفعلنا، فالحمد لله الذى لم يفعل بنا ذلك، فقال النبى ﷺ: «والذى نفسى بيده، للإيمان أثبت فى قلوب المؤمنين من الجبال الرواسى».

ثم قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ من القرآن، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فى دينهم، ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [آية: ٦٦]، يعنى تصديقًا فى أمر الله عز وجل، ﴿وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ﴾، يعنى من عندنا، ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [آية: ٦٧]، يعنى الجنة، ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [آية: ٦٨]، فلما نزلت: ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾، قال النبى ﷺ: «لعمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، وثابت بن الشماس من أولئك القليل».

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّۦنَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، نزلت فى رجل من الأنصار يسمى: عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصارى، قال للنبى ﷺ، وهو الذى رأى الأذان فى المنام مع عمر بن الخطاب، رضى الله عنهما: إذا خرجنا من عندك إلى أهالينا اشتقنا إليك، فلم ينفعنا شىء حتى نرجع إليك، فذكرت درجاتك فى الجنة، فكيف لنا برؤيتك إن دخلنا الجنة؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّۦنَ﴾ بالنبوة، ﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾ بالتصديق، وهم أول من صدق بالأنبياء، عليهم السلام، حين عاينوهم، ﴿وَالشُّهَدَآءِ﴾، يعنى القتلى فى سبيل الله بالشهادة، ﴿وَالصَّٰلِحِينَ﴾، يعنى المؤمنين أهل الجنة، ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [آية: ٦٩]، ﴿ذَٰلِكَ﴾، يعنى هذا الثواب هو ﴿الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [آية: ٧٠]، فلما توفى النبى ﷺ أتاه ابنه وهو فى حديقة له، فأخبره بموت النبى ﷺ، فقال عند ذلك: اللهم اعمنى، فلا أرى شيئًا بعد حبيبى أبدًا، فعمى مكانه، وكان يحب النبى ﷺ حبًا شديدًا، فجعله الله عز وجل مع النبى ﷺ فى الجنة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ
مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا
﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى
كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ
ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا
مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾، يعنى عدتكم من السلاح، ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾، عصبًا سرايا جماعة إلى عدوكم، ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ﴾ إليهم ﴿جَمِيعًا﴾ [آية: ٧١] مع النبى ﷺ، إذا نفر، ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾، يعنى ليتخلفن النفر، نزلت فى عبد الله بن أبى بن ملك بن أبى عوف بن الخزرج رأس المنافقين، ﴿فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾، يعنى بلاء من العدو أو شدة من العيش، ﴿قَالَ﴾ المنافق، ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [آية: ٧٢]، يعنى شاهدًا فيصيبنى من البلاء ما أصابهم.

﴿وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ﴾، يعنى رزق، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عز وجل، يعنى الغنيمة، ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ندامة فى التخلف، ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ فى الدين والولاية، ﴿يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [آية: ٧٣]، فألحق من الغنيمة نصيبًا وافرًا، ﴿۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾، فيقتل فى سبيله أو يغلب عدوه، ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [آية: ٧٤] فى الجنة، لقولهم للنبى ﷺ: إن نقاتل فنقتل ولا نقتل؟ فنزلت هذه الآية، فأشركهم جميعًا فى الأجر، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وتقاتلون عن، ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾، يعنى المقهورين ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ المقهورين بمكة حتى يتسع الأمر، ويأتى إلى الإسلام من أراد منهم.

ثم أخبر عنهم، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾، يعنى مكة، ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾، يعنى من عندك وليًا، ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [آية: ٧٥] على أهل مكة والمستضعفين من الرجال، يعنى المؤمنين، قال

ابن عباس، رحمه الله: كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾

ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعنى طاعة الله، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾، يعنى فى طاعة الشيطان، ثم حرض الله عز وجل المؤمنين، فقال: ﴿فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾، يعنى المشركين بمكة، ﴿إِنَّ كَيْدَ﴾، يعنى إن مكر ﴿ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [آية: ٧٦]، يعنى واهنًا، كقوله سبحانه: ﴿مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨]، يعنى مضعف كيد الكافرين، فسار النبى ﷺ إلى مكة ففتحها، وجعل الله عز وجل للمستضعفين مخرجًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ عن القتال، نزلت فى عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، رضى الله عنهما، وهما من بنى زهرة، وقدامة بن مظعون الجمحى، والمقداد بن الأسود الكندى، رضى الله عنهم، وذلك أنهم استأذنوا فى قتال كفار مكة سرًا، مما كانوا يلقون منهم من الأذى، فقال النبى ﷺ: «مهلاً، كفوا أيديكم عن قتالهم، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، فإنى لم أومر بقتالهم»، فلما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة، أمر الله عز وجل بالقتال، فكره بعضهم، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾، يعنى فرض القتال بالمدينة، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾، نزلت فى طلحة بن عبيد الله، رضى الله عنه، ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾، يعنى كفار مكة، ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، فلا يقاتلونهم، ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟﴾، وهو الذى قال: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾، يعنى لم فرضت علينا القتال، ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ هلا تركتنا حتى نموت موتًا وعافيتنا من القتل، ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾، تتمتعون فيها يسيرًا، ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من الدنيا، يعنى الجنة أفضل من الدنيا، ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ من أعمالكم الحسنة ﴿فَتِيلًا﴾ [آية: ٧٧]، يعنى الأبيض الذى يكون فى وسط النواة حتى يجازوا بها.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾

ثم أخبر عن كراهيتهم للقتال ذاكرًا لهم أن الموت في أعناقكم، فقال سبحانه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا﴾ من الأرض ﴿يُدْرِككُّمُ﴾، يعني يأتيكم ﴿الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾، يعني القصور الطوال المشيدة إلى السماء في الحصانة حين لا يخلص إليه ابن آدم يخلص إليه الموت حين يفر منه، وقال عبد الله بن أبي، لما قتلت الأنصار يوم أُحُد، قال: لو أطاعونا ما قتلوا، فنزلت: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾، يعني القصور.

ثم أخبر سبحانه عن المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه، فقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ببدر، يعني نعمة، وهي الفتح والغنيمة، يقول: هذه الحسنة من عند الله، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، يعني بلية، وهي القتل والهزيمة يوم أُحُد، ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ يا محمد، أنت حملتنا على هذا، وفي سببك كان هذا، فقال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾، يعني الرخاء والشدة ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ﴾، يعني المنافقين ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [آية: ٧٨]، أن الشدة والرخاء والسيئة والحسنة من الله، ألا يسمعون ما يحذرهم ربهم في القرآن؟ يعني عبد الله بن أبي.

﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾

فقال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾، يعني الفتح والغنيمة يوم بدر، ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾ كان، ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾، يعني البلاء من العدو، والشدة من العيش يوم أُحُد، ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾، يعني فبذنبك، يعني ترك المركز، وفي مصحف عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب: «فبذنبك، وأنا كتبتها عليك»، ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [آية: ٧٩]، يعني فلا شاهد أفضل من الله بأنك رسوله.

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾، وذلك أن النبى ﷺ قال فى المدينة: «من أحبنى فقد أحب الله، ومن أطاعنى فقد أطاع الله»، فقال المنافقون: ألا تسمعون إلى هذا الرجل وما يقول؟ لقد قارب الشرك، وهو ينهى ألا يعبد إلا الله، فما حمله على الذى قال إلا أن نتخذه حنانًا، يعنون ربًا، كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم حنانًا، فأنزل الله عز وجل تصديقًا لقول نبيه ﷺ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عرض عن طاعتهما، ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [آية: ٨٠]، يعنى رقيبًا.

ثم أخبر عن المنافقين، فقال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾ للنبى ﷺ حين أمرهم بالجهاد، وذلك أنهم دخلوا على النبى ﷺ، فقالوا: مرنا بما شئت، فأمرك طاعة، فإذا خرجوا من عنده خالفوا، وقالوا غير الذى قال لهم النبى ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾ للنبى ﷺ، ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾، يعنى خرجوا من عندك يا محمد، ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ﴾، يقول: ألفت طائفة، ﴿مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾، يعنى الحفظة، فيكتبون ما يقولون من الكذب، ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾، يعنى الجلاس بن سويد، وعمرو بن زيد، فلا تعاتبهم، ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، يعنى وثق بالله عز وجل، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [آية: ٨١]، يعنى وكفى به منيعًا، فلا أحد أمنع من الله عز وجل، ويقال: وكيلاً، يعنى شهيدًا لما يكتمون.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا
(٨٢) وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ
وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ
لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا (٨٣) فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ
تَنكِيلٗا (٨٤)﴾

ثم وعظهم، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾، يعنى أفلا يسمعون ﴿ٱلۡقُرۡءَانَۚ﴾ فيعلمون أنه، ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [آية: ٨٢]، يعنى كذبًا كبيرًا؛ لأن الاختلاف فى قول الناس، وقول الله عز وجل لا اختلاف فيه، ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ﴾، يعنى المنافقين، ﴿أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ﴾، يعنى شيئًا من الأمر يسر المؤمنين من الفتح والخير، قصروا عما جاءهم من الخير.

ثم قال سبحانه: ﴿أَوِ ٱلۡخَوۡفِ﴾، يعني فإن جاءهم بلاء أو شدة نزلت بالمؤمنين، ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦۖ﴾، يعني أفشوه، فإذا سمع ذلك المسلمون كاد أن يدخلهم الشك، ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ حتى يخبر الرسول ﷺ بما كان من الأمر أو ردوه، ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ﴾، يقول: أمراء السرايا، فيكونون هم الذين يخبرون ويكتبون به، ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾، يعني الذين يتبينونه منهم، يعني الخير على وجهه، ويحبوا أن يعلموا ذلك فيعلمونه، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾، يعني ونعمته فعصمكم من قول المنافقين، ﴿لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [آية: ٨٣]، نزلت في أناس كانوا يحدثون أنفسهم بالشرك.

ثم قال عز وجل: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فأمره أن يقاتل بنفسه، ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾، يعني ليس عليك ذنب غيرك، ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾، يعني وحرض على القتال، يعني على قتال العدو، ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ﴾، يعني قتال ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا﴾، يعني أخذًا، ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ [آية: ٨٤]، يعني نكالاً، يعني عقوبة من الكفار، ولو لم يطع النبي ﷺ أحدًا من الكفار، لكفاه الله عز وجل.

﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ ۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ﴾ لأخيه المسلم بخير، ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ﴾، يعني حظًا من الأجر من أجل شفاعته، ﴿وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ﴾، وهو الرجل يذكر أخاه بسوء عند رجل فيصيبه عنت منه، فيأثم المبلغ، فذلك قوله سبحانه: ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ﴾، يعني إثمًا من شفاعته، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾ [آية: ٨٥] من الحيوان، عليه قوت كل دابة لمدة رزقها.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾، نزلت في نفر بخلوا بالسلام، فحيوا بأحسن منها، ﴿أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾، يقول: فردوا عليه أحسن مما قال، قال: فيقول: وعليك

ورحمة الله وبركاته، أو يرد عليه مثل ما سلم عليه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمر التحية، إن رددت عليها أحسنَ منها أو مثلها، ﴿حَسِيبًا﴾ [آية: ٨٦]، يعنى شهيدًا، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، نزلت فى قوم شكوا فى البعث، فأقسم الله عز وجل بنفسه ليبعثهم إلى يوم القيامة، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، يعنى لا شك فى البعث، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [آية: ٨٧]، يقول: فلا أحد أصدق من الله حديثًا إذا حدث، يعنى فى أمر البعث.

﴿فَمَا لَكُمْ﴾ صرتم ﴿فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ نزلت فى تسعة نفر، منهم: مخرمة بن زيد القرشى، هاجروا من مكة إلى المدينة، فقدموا وأرادوا الرجعة، فقال بعضهم: نخرج كهيئة البداة، فإذا غفل عنا مضينا إلى مكة، فجعلوا يتحولون منقلة منقلة، حتى تباعدوا من المدينة، ثم إنهم أدلجوا حتى أصبحوا قد قطعوا أرضًا بعيدة، فلحقوا بمكة، فكتبوا إلى النبى ﷺ: إنَّا على ما فرقناك عليه، ولكنا اشتقنا إلى بلادنا وإخوتنا بمكة، ثم إنهم خرجوا تجارًا إلى الشام، واستبضعهم أهل مكة بضائعهم، فقالوا لهم: أنتم على دين محمد ﷺ وأصحابه، فلا بأس عليكم، فساروا وبلغ المسلمين أمرهم، فقال بعضهم لبعض: اخرجوا إلى هؤلاء فنقاتلهم، ونأخذ ما معهم، فإنهم تركوا دار الهجرة وظاهروا عدونا.

وقال آخرون: ما حلت دماؤهم ولا أموالهم ولكنهم فتنوا، ولعلهم يرجعوا للتوبة، والنبى ﷺ ساكت، فأنزل الله عز وجل يخبر عن التسعة رهط ويعظ المؤمنين ليكون أمرهم جميعًا عليهم، فقال الله عز وجل: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ صرتم ﴿فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ ﴿فِئَتَيْنِ﴾ تختصمون، ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾، يعنى أضلهم فردهم إلى الكفر، ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ عن الهدى، ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [آية: ٨٨].

﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا

﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾

ثم أخبر عن التسعة، فقال سبحانه: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ أنتم وهم على الكفر، ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعنى حتى يهاجروا إلى دار الهجرة بالمدينة، ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، فإن أبوا الهجرة، ﴿فَخُذُوهُمْ﴾، يعنى فأسروهم، ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ﴾، يعنى أين ﴿وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ من الأرض فى الحل والحرم، ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [آية: ٨٩]، يعنى ولا ناصرًا.

ثم استثنى، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾، يعنى التسعة المرتدين، ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾، يعنى عهد خزاعة وبنى خزيمة، وفيهم نزلت: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٤]، إن وصل هؤلاء التسعة إلى أهل عهدكم وهم خزاعة، منهم: هلال بن عويمر الأسلمى، وسراقة بن مالك بن جشم، وبنو مدلج، وبنو جذيمة، وهما حيان من كنانة، فلا تقتلوا التسعة؛ لأن النبى ﷺ صالح هؤلاء على أن من يأتيهم من المسلمين فهو آمن، يقول: إن وصل هؤلاء وغيرهم إلى أهل عهدكم، فإن لهم مثل الذى لحلفائهم.

ثم قال عز وجل: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾، يعنى بنى جذيمة، ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾، يعنى ضيقة قلوبهم، ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾، يعنى ضاقت قلوبهم أن يقاتلوكم، ﴿أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾ من التسعة، ثم قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾، يخوف المؤمنين، ثم قال: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾، يعنى الصلح، يعنى هلالاً وقومه خزاعة، ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [آية: ٩٠] فى قتالهم.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ منهم أسد غطفان، أتوا النبى ﷺ، فقال لهم النبى ﷺ: «أجئتم مهاجرين؟»، قالوا: بل جئنا مسلمين، فإذا رجعوا إلى قومهم، قالوا: آمنا بالعقرب والخنفساء إذ تعود، فقال: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾، يعنى يأمنوا فيكم معشر المؤمنين بأنهم مقرون بالتوحيد، ﴿وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ المشركين؛ لأنهم على دينهم، ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾، يعنى كلما دعوا إلى الشرك، ﴿أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾، يقول: عادوا فى الشرك، ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ فى القتال، ﴿وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾، يعنى الصلح، ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن قتالكم، ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾، يعنى أأسروهم

واقتلوهم، ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾، يعنى أدركتموهم من الأرض فى الحل والحرم، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [آية: ٩١]، يعنى حجة بينة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

ثم صارت منسوخة، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾، يعنى عياش بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومى، يقول: ما كان ينبغى لمؤمن ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾، يعنى الحارث بن يزيد بن أبى أنيسة من بنى عامر بن لؤى، ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾، وذلك أن الحارث أسلم فى موادعة أهل مكة، فقتله عياش خطأ، وكان عياش قد حلف على الحارث بن يزيد ليقتلنه، وكان الحارث يومئذ مشرك، فأسلم الحارث ولم يعلم به عياش فقتله بالمدينة، ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾، أى التى قد صلت لله ووحدت الله، ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾، أى المقتول، ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾، يقول: إلا أن يصدق أولياء المقتول بالدية على القاتل، فهو خير لهم، ﴿فَإِن كَانَ﴾ هذا المقتول ﴿مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ من أهل الحرب، ﴿وَهُوَ﴾، يعنى المقتول ﴿مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ نزلت فى مرداس بن عمر القيسى، ولا دية له، ﴿وَإِن كَانَ﴾ هذا المقتول وكان ورثته ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾، يعنى عهد ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾، أى إلى أهل المقتول، يعنى إلى ورثته بمكة، وكان بين النبى ﷺ وبين أهل مكة يومئذ عهد، ﴿وَ﴾ عليه ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الدية ﴿فَـ﴾ عليه ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، تلك الكفارة تجاوز من الله فى قتل الخطأ لهذه الأمة؛ لأن المؤمن كان يقتل بالخطأ فى التوراة على عهد موسى، عليه السلام، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [آية: ٩٢]، حكم الكفارة والرقبة.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾، نزلت فى مقيس بن ضبابة الكنانى، ثم الليثى،

قتل رجلاً من قريش، يقال له: عمرو مكان أخيه هشام بن ضبابة، وذلك أن مقيس بن ضبابة وجد أخاه قتيلاً فى الأنصار فى بنى النجار، فانطلق إلى النبى ﷺ، فأخبره بذلك، فأرسل النبى ﷺ إلى الأنصار رجلاً من بنى فهر مع مقيس، فقال: ادفعوا إلى مقيس قاتل أخيه، إن علمتم ذلك، وإلا فادفعوا إليه ديته، فلما جاءهم الرسول، قالوا: السمع والطاعة لله ولرسوله، والله ما نعلم له قاتلاً، ولكنا نؤدى ديته، ودفعوا إلى مقيس مائة من الإبل دية أخيه، فلما انصرف مقيس عمد إلى رسول رسول الله ﷺ، فقتله وفر وارتد عن الإسلام، ورحل من المدينة، وساق معه الدية، ورجع إلى مكة كافرًا، وهو يقول فى شعره:

قتلت به فهرًا وحملت عقله ... سراة بنى النجار أرباب فارع
وأدركت ثأرى واضطجعت موسدا ... وكنت إلى الأوثان أول راجع

فنزلت فيه بعدما قتل النفس وارتد عن الإسلام، وساق معه الدية إلى مكة، نزلت فيه الآية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا﴾، يعنى الفهرى ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ لقتله ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [آية: ٩٣] وافر الانقطاع له بقتله النفس وبأخذه الدية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وذلك أن النبى ﷺ بعث سرية، وبعث عليها غالب بن عبد الله الليثى أخا ثميلة بن عبد الله، فلما أصبحوا رأوا رجلاً يسمى مرداس بن عمرو بن نهيك العنسى من بنى تيم بن مرة من أهل فدك، معه غنيمة له، فلما رأى الخيل ساق غنيمته حتى أحرزها فى الجبل، وكان قد أسلم من الليل وأخبر أهله بذلك، فلما دنوا منه كبروا، فسمع التكبير، فعرفهم، فنزل إليهم، فقال: سلام عليكم، إنى مؤمن، فحمل عليه أسامة بن زيد بن حارثة الكلبى من بنى عبد ود، فقال مرداس: إنى منكم أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.

فطعنه أسامة برمحه فقتله وسلبه وساق غنمه، فلما قدم المدينة أخبر أسامة النبى ﷺ، فلامه النبى ملامة شديدة، فقال النبى ﷺ: «قتلته وهو يقول: لا إله إلا الله؟»، قال: إنما قال ذلك أراد أن يحرز نفسه وغنمه، فقال النبى ﷺ: «أفلا شققت عن قلبه، فتنظر صدق أم لا؟»، قال: يا رسول الله، كيف يتبين لى؟ وإنما قلبه بضعة من جسده، فقال: «فلا صدقته بلسانه، ولا أنت شققت عن قلبه فيبين لك»، فقال: استغفر لى يا رسول الله، قال: «فكيف لك بلا إله إلا الله»، يقول ذلك ثلاث مرات، فاستغفر له النبى ﷺ الرابعة.

قال أسامة فى نفسه: وددت أنى لم أسلم حتى كان يومئذ، فأمره النبى ﷺ أن يعتق رقبة. قال مقاتل، رحمه الله: فعاش أسامة زمن أبى بكر، وعمر، وعثمان، رضى الله عنهم، حتى أدرك على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فدعاه على، رحمه الله، إلى القتال، فقال أسامة: ما أحد أعز علىَّ منك، ولكن لا أقاتل مسلمًا بعد قول النبى ﷺ: «كيف لك بلا إله إلا الله؟».

فإن أتيت بسيف إذا ضربت به مسلمًا، قال السيف: هذا مسلم، وإن ضربت به كافرًا، قال لى: هذا كافر، قاتلت معك، فقال له على: اذهب حيث شئت، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعنى سرتم غزاة فى سبيل الله، ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ من تقتلوا، ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾، يعنى مرداس، وذلك أنه قال لهم: السلام عليكم إنى مؤمن، ﴿لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، يعنى غنم مرداس، ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ﴾ فى الآخرة والجنة، ﴿كَذَٰلِكَ﴾، يعنى هكذا، ﴿كُنتُم مِّن قَبۡلُ﴾ الهجرة بمنزلة مرداس تأمنون فى قومكم بالتوحيد من أصحاب النبى ﷺ إذا لقوكم، فلا تخيفون أحدًا بأمر كان فيكم تأمنون بمثله قبل هجرتكم، ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ بالهجرة فهاجرتم، ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْۚ﴾ إذا خرجتم فلا تقتلوا مسلمًا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [آية: ٩٤]، فقال أسامة: والله لا أقتل رجلاً بعد هذا يقول: لا إله إلا الله.

﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ عن الغزو ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، يعنى عبد الله بن جحش الأسدى، وابن أم مكتوم من أهل العذر.

قال أبو محمد: هم ثلاثة منهم عبد الله بن جحش، عقد له النبى ﷺ وعبيد الله مات نصرانيًا، وعبد الله بن جحش هو الضرير الذى نزل فيه قوله عز وجل: ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾.

يقول عز وجل: لا يستوى فى الفضل القاعد الذى لا عذر له، والمجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله، وهى غزوة تبوك، قال عز وجل: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ من أهل العذر، ﴿دَرَجَةً﴾، يعنى فضيلة على القاعدين، ﴿وَكُلًّا﴾، يعنى المجاهد والقاعد المعذور، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، يعنى الجنة، ثم قال سبحانه: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ الذين لا عذر لهم ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [آية: ٩٥].

﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾، يعنى فضائل من الله فى الجنة سبعين درجة بين كل درجتين مسيرة سبعين سنة، ﴿وَمَغْفِرَةً﴾ لذنوبهم، ﴿وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [آية: ٩٦]، يعنى أبا لبابة، وأوس بن حزام، ووداعة بن ثعلب، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن ربيعة من بنى عمرو بن عوف، كلهم من الأنصار، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، يعنى ملك الموت وحده، ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وذلك أنه كان نفر أسلموا بمكة مع النبى ﷺ، منهم الوليد بن الوليد بن المغيرة، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاطه بن المغيرة، والوليد بن عقبة بن ربيعة بن عبد شمس، وعمرو بن أمية بن سفيان بن أمية بن عبد شمس، والعلاء بن أمية بن خلف الجمحى.

ثم إنهم أقاموا عن الهجرة، وخرجوا مع المشركين إلى قتال بدر، فلما رأوا قلة المؤمنين شكوا فى النبى ﷺ، وقالوا: غر هؤلاء دينهم، وكان بعضهم نافق بمكة، فلما قتل هؤلاء ببدر، ﴿قَالُوا﴾، أى قالت الملائكة لهم، وهو ملك الموت وحده: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾؟ يقول: فى أى شىء كنتم، ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، يعنى كنا مقهورين بأرض مكة لا نطيق أن نظهر الإيمان، ﴿قَالُوا﴾، أى قالت الملائكة لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾ من الضيق، يعنى أرض الله المدينة، ﴿فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾، يعنى إليها، ثم انقطع الكلام، فقال عز وجل: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [آية: ٩٧]، يعنى وبئس المصير صاروا.

ثم استثنى أهل العذر، فقال سبحانه: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾، فليس مأواهم جهنم، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾، يقول: ليس لهم سعة للخروج إلى المدينة، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [آية: ٩٨]، يعنى ولا يعرفون طريقًا إلى المدينة، ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾، والعسى من الله واجب، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا﴾ عنهم ﴿غَفُورًا﴾ [آية: ٩٩]، فلا يعاقبهم لإقامتهم عن الهجرة فى عذر.

فقال ابن عباس، رضى الله عنه: أنا يومئذ من الولدان، وأمى من النساء، فبعث النبى ﷺ بهذه الآية إلى مسلمى مكة، فقال جندب بن حمزة الليثى، ثم الجندعى لبنيه: احملونى فإنى لست من المستضعفين، وإنى لهاد بالطريق ولو مت لنزلت فى الآية، وكان شيخًا كبيرًا، فحمله بنوه على سريره متوجهًا إلى المدينة، فمات بالتنعيم، فبلغ أصحاب النبى ﷺ موته، فقالوا: لو لحق بنا لأتم الله أجره، فأراد الله عز وجل أن يعلمهم أنه لا يخيب من التمس رضاه، فأنزل الله عز وجل: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يعنى فى طاعة الله إلى المدينة، ﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا﴾، يعنى متحولاً عن الكفر، ﴿وَسَعَةً﴾ فى الرزق ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [آية: ١٠٠].

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١)﴾

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ﴾، يعنى سرتم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، يعنى غزوة بنى أنمار ببطن مكة، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾،

يعنى أن يقتلكم، كقوله: ﴿عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣]، يعنى أن يقتلكم الذين كفروا من أهل مكة، فيصيبوا منكم طائفة، ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [آية: ١٠١].

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾، يعنى النبى ﷺ، ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾، وليأخذوا حذرهم من عدوهم، ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ﴾، يعنى تذرون ﴿عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ﴾، يعنى فيحملون ﴿عَلَيْكُم﴾ جميعًا ﴿مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾، يعنى حملة واحدة، يعنى كرجل واحد عند غفلتكم، ثم رخص لهم فى وضع السلاح عند المطر أو المرض، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ﴾، يعنى لا حرج ﴿عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ من عدوكم عند وضع السلاح، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [آية: ١٠٢]، يعنى الهوان.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

وكان تقصير الصلاة بعسفان، بين مكة والمدينة، والنبى ﷺ بإزاء الذين خافوه وهم غطفان، ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، يعنى صلاة الخوف، ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ باللسان، ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، إذا أقمتم فى بلادكم فأقيموا الصلاة، يعنى فأتموا الصلاة كاملة ولا تقصروا، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَىٰ

﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [آية: ١٠٣]، يعنى فريضة معلومة، كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦]، يعنى فرض عليكم القتال.

﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾، يقول: ولا تعجزوا، كقوله: ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، يعنى فما عجزوا فى طلب أبى سفيان وأصحابه يوم أُحُد بعد القتل بأيام، فاشتكوا إلى النبى ﷺ الجراحات، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ﴾، يعنى تتوجعون، ﴿فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ﴾، يعنى يتوجعون كما تتوجعون، ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب والأجر، ﴿مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾، يعنى أبا سفيان وأصحابه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بخلقه ﴿حَكِيمًا﴾ [آية: ١٠٤] فى أمره.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾﴾

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾، وذلك أن يهوديًا يسمى زيد بن السمين، كان استودع طعمة بن أبيرق الأنصارى من الأوس من بنى ظفر بن الحارث درعًا من حديد، ثم إن زيدًا اليهودى طلب درعه فجحده طعمة، فقال زيد لقومه: قد ذكر لى أن الدرع عنده، فانطلقوا حتى نلتمس داره، فاجتمعوا ليلاً فأتوا داره، فلما سمع جلبة القوم أحس قلبه أن القوم إنما جاءوا من أجل الدرع، فرمى به فى دار أبى مليك، فدخل القوم داره، فلم يجدوا الدرع، فاجتمع الناس.

ثم إن طعمة اطلع فى دار أبى مليك، فقال: هذا درع فى دار أبى مليك، فلا أدرى هى لكم أم لا؟ فأخذوا الدرع، ثم إن قوم طعمة، قتادة بن النعمان وأصحابه، قالوا: انطلقوا بنا إلى النبى ﷺ فلنبرئ صاحبنا، ونقول: إنهم أتونا ليلاً ففضحونا، ولم يكن معهم رسول من قبلك ونأمرهم أن يبرءوا صاحبنا لتنقطع ألسنة الناس عنا بما قذفونا به، ونخبره أنها وجدت فى دار أبى مليك، فأتوا النبى ﷺ، فأخبروه فصدق النبى ﷺ طعمة وأبرأه من ذلك، وهو يرى أنهم قد صدقوا، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعنى القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لم ننزله باطلاً عبثًا لغير شىء، ﴿لِتَحْكُمَ﴾، يعنى لكى تحكم ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾، يعنى بما علمك الله فى كتابه، كقوله سبحانه: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [سبأ: ٦]، ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [آية: ١٠٥]، يعنى طعمة.

ثم قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ يا محمد عن جدالك عن طعمة حين كذبت عنه، فأبرأته من السرقة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [آية: ١٠٦]، فاستغفر النبى ﷺ عند ذلك، ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾، يعنى طعمة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [آية: ١٠٧] فى دينه أثيما بربه، ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾، يعنى يستترون بالخيانة ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، يعنى طعمة، ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾، ولا يشترون بالخيانة من الله، ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾، يعنى إذ يؤلفون ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، لقولهم: إنا نأتى النبى ﷺ فنقول له كذا وكذا، فألقوا قولهم بينهم، يعنى قتادة وأصحابه ليدفعوا عن صاحبهم ما لا يرضى الله من القول، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [آية: ١٠٨]، يعنى أحاط علمه بأعمالهم، يعنى قوم الخائن قتادة بن النعمان وأصحابه.

ثم قال يعينهم: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قوم الخائن ﴿جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ نبيكم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ عن طعمة، ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [آية: ١٠٩]، يعنى به قومه، يقول: أم من يكون لطعمة مانعًا فى الآخرة، ثم عرض على طعمة التوبة، فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾، يعنى إثمًا، ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾، يعنى قذف البرىء أبا مليك، ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [آية: ١١٠].

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا﴾، يعنى طعمة، ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا

﴿حَكِيمًا﴾ [آية: ١١١] فى أمره، ﴿وَمَن يَكْسِبْ﴾ لنفسه ﴿خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾، يعنى قذف البرىء، ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾، يعنى أنه رمى به فى دار أبى مليك الأنصارى، ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا﴾، يعنى قذفه البرىء بما لم يكن، ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [آية: ١١٢]، يعنى بينًا.

ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾، يعنى ونعمته بالقرآن حين بين لك أمر طعمة، فحولك عن تصديق الخائنين بالقرآن، ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾، يقول: لكادت طائفة من قوم الخائنين أن يستنزلوك عن الحق، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾، يعنى وما يستنزلون ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾، يعنى وما ينقصونك من شىء ليس ذلك بأيديهم، إنما ينقصون أنفسهم، ثم قال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، يعنى الحلال والحرام، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ من أمر الكتاب وأمر الدين، ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [آية: ١١٣]، يعنى النبوة والكتاب.

﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾

ثم قال سبحانه: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾، يعنى قوم طعمة قيس بن زيد، وكنانة بن أبى الحقيق، وأبو رافع، وكلهم يهود، حين تناجوا فى أمر طعمة، ثم استثنى، فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾، يعنى القرض، ﴿أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ

ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ [آية: ١١٤]، يعنى جزاء عظيمًا، فأنزل الله عز وجل فى قولهم: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ﴾ ، يعنى يخالف ﴿ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ﴾ ، يعنى غير دين ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ من الآلهة، ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [آية: ١١٥]، يعنى وبئس المصير.

فلما قدم طعمة مكة، نزل على الحجاج بن علاط السلمى، فأحسن نزله، فبلغه أن فى بيته ذهبًا، فلما كان من الليل خرج فنقب حائط البيت، وأراد أن يأخذ الذهب وفى البيت مسوك يابسة مسوك الشاء قد أصابها حر الشمس و لم تدبغ، فلما دخل البيت من النقب وطىء المسوك، فسمعوا قعقعة المسوك فى صدره عند النقب، وأحاطوا بالبيت، ونادوه: اخرج فإنا قد أحطنا بالبيت، فلما خرج إذا هم بضيفهم طعمة، فأراد أهل مكة أن يرجموه فاستحيا الحجاج لضيفه، وكانوا يكرمون الضيف فأهزوه وشتموه، فخرج من مكة، فلحق بحرة بنى سليم يعبد صنمهم، ويصنع ما يصنعون حتى مات على الشرك، فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ ، يعنى يعدل به، فيموت عليه، ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ ، يعنى ما دون الشرك لمن يشاء، فمشيئته لأهل التوحيد، ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ﴾ عن الهدى، ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [آية: ١١٦].

ثم إن أبا مليك عاش حتى استخلف عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فحلف بالله لعمر، رضى الله عنه، لا يولى راجعًا، فلما كان يوم القادسية انهزم المشركون إلى الفرات وجاءت أساورة كسرى، فهزموا المسلمين إلى قريب من الجيش، فثبت أبو مليك حتى قتل، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فقال أبو مليك: صدق الله وعده: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا ﴾ ، يعنى أوثانًا، يعنى أمواتًا اللات والعزى، وهى الأوثان لا تحرك ولا تضر ولا تنفع، فهى ميتة، ﴿وَإِن يَدۡعُونَ ﴾ ، يعنى وما يعبدون من دونه، ﴿إِلَّا شَيۡطَٰنٗا ﴾ ، يعنى إبليس، زين لهم إبليس طاعته فى عبادة الأوثان ﴿مَّرِيدٗا ﴾ [آية: ١١٧]، يعنى عاتيًا تمرد على ربه عز وجل فى المعصية، ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ ﴾ حين كره السجود لآدم ﷺ، ﴿وَقَالَ ﴾ إبليس لربه جل جلاله: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴾ [آية: ١١٨]، يعنى حظًا معلومًا من كل ألف إنسان واحد فى الجنة وسائرهم فى النار، فهذا النصيب المفروض.

﴿وَ﴾ قال إبليس: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عن الهدى، ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ بالباطل، ولأخبرنهم ألا بعث ولا جنة ولا نار، ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾، يعني ليقطعن، ﴿ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وهي البحيرة للأوثان، ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾، يعني ليبدلن دين الله، ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾، يعني إبليس ﴿وَلِيًّا﴾، يعني ربًا ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عز وجل، ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [آية: ١١٩]، يقول: فقد ضل ضلالاً بينًا.

﴿يَعِدُهُمْ﴾ إبليس الغرور ألا بعث، ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ إبليس الباطل، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [آية: ١٢٠]، يعني إلا باطلاً، الذي ليس بشيء، وقال: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [آية: ١٢١]، يعني مقرًا يلجئون إليه، يعني القرار.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾

ثم أخبر بمستقر من لا يتولى الشيطان، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾، يعني صدقًا أنه منجز لهم ما وعدهم، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [آية: ١٢٢]، فليس أحد أصدق قولاً منه عز وجل فى أمر الجنة والنار والبعث وغيره، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، نزلت فى المؤمنين واليهود والنصارى، قالت اليهود: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، فنحن أهدى وأولى بالله منكم، وقالت النصارى: نبينا كلمة الله وروح الله وكلمته، وكان يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، وفى كتابنا العفو، وليس فيه قصاص، فنحن أولى بالله منكم معشر اليهود ومعشر المسلمين.

فقال المسلمون: كذبتم، كتابنا نسخ كل كتاب، ونبينا ﷺ خاتم الأنبياء، وآمنا بنبيكم وكتابكم، وكذبتم نبينا وكتابنا، وأمرتم وأمرنا أن نؤمن بكتابكم، ونعمل بكتابنا،

فنحن أهدى منكم وأولى بالله منكم، فأنزل عز وجل: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ معشر المؤمنين ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [آية: ١٢٣].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [آية: ١٢٤]، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، نزلت في المؤمنين مجازات الدنيا تصيبهم في النكبة بحجر، والضربة واختلاج عرق أو خدش عود، أو عثرة قدم فيدميه أو غيره، فبذنب قدم وما يعفو الله عنه أكبر، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، ثم قال: ﴿وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾، يعني قريبًا ينفعه، ﴿وَلاَ نَصِيرًا﴾ يعني ولا مانعًا يمنعه من الله عز وجل.

فلما افتخرت اليهود على المؤمنين بالمدينة بين الله عز وجل، أمر المؤمنين، فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بتوحيد الله عز وجل، ﴿فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾، يعني ولا ينقصون من أعمالهم الحسنة نقيرًا حتى يجازوا بها، يعني النقير الذي في ظهر النواة التي تنبت منه النخلة.

ثم اختار من الأديان دين الإسلام، فقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾، يعني أخلص دينه لله، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله، ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، يعني مخلصًا، ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [آية: ١٢٥]، يعني محبًا، وأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾، يعني كفار أهل الكتاب، ﴿اخْتَصَمُوا﴾، يعني ثلاثتهم: المسلمين واليهود والنصارى، ﴿فِي رَبِّهِمْ﴾ أنهم أولياء الله، ثم أخبر بمستقر الكافر، فقال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ١٩]، يعني جعلت لهم ثياب من نار، إلى آخر الآية، ثم أخبر سبحانه بمستقر المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ...﴾ إلى آخر الآية.

قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، والخليل الحبيب؛ لأن الله أحبه في كسره الأصنام، وجداله قومه، واتخذ الله إبراهيم خليلاً قبل ذبح ابنه، فلما رأته الملائكة حين أمر بذبح ابنه، أراد المضي على ذلك، قالت الملائكة: لو أن الله عز وجل اتخذ عبدًا خليلاً

لاتخذ هذا خليلاً محبًا، ولا يعلمون أن الله عز وجل اتخذه خليلاً، وذلك أن النبى ﷺ قال لأصحابه، رضى الله عنهم: «إن صاحبكم خليل الرحمن»، يعنى نفسه، فقال المنافقون لليهود: ألا تنظرون إلى محمد يزعم أنه خليل الله، لقد اجترأ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، وإنما إبراهيم عبد من عباده مثل محمد، واتخذ إبراهيم خليلاً حين ألقى فى النار، فذهب حر النيران يومئذ من الأرض كلها.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ من الخلق عبيده، وفى ملكه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ [آية: ١٢٦]، يعنى أحاط علمه، ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ﴾ نزلت فى سويد وعرفطة ابنى الحارث، وعيينة بن حصن الفزارى، ذلك أنه لما فرض الله عز وجل لأم كحة وبناتها الميراث انطلق سويد وعرفطة وعيينة بن حصن الفزارى إلى النبى ﷺ، فقالوا للنبى ﷺ: إن المرأة لا تركب فرسًا ولا تجاهد، وليس عند الولدان الصغار منفعة فى شىء، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾، يعنى يسألونك عن النساء، يعنى سويدًا وصاحبيه، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعنى ما بين من القسمة فى أول هذه السورة، قال: ويفتيكم ﴿فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾، يعنى بنات أم كحة ﴿ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾، يعنى ما فرض لهن من أنصبائهن من الميراث فى أول السورة.

ثم قال عز وجل: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، يعنى بنات أم كحة، وكان الرجل

يكون فى حجره اليتيمة ولها مال، ويكون فيها موق، فيرغب عن تزويجها، ويمنعها من الأزواج من أجل ما لها رجاء أن تموت فيرثها، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ لدمامتهن، ﴿وَ﴾ يفتيكم فى ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ أن تعطوهم حقوقهم، وكانوا لا يورثونهم ﴿وَ﴾ يفتيكم ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ﴾ فى الميراث ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾، يعنى بالعدل، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ مما أمرتم به من قسمة المواريث، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ [آية: ١٢٧] فيجزيكم به.

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ﴾، واسمها خويلة بنت محمد بن مسلمة ﴿خَافَتْ﴾، يعنى علمت ﴿مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾، يعنى زوجها، ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ عنها لما بها من العلة إلى الأخرى، نزلت فى رافع بن خديج الأنصارى وفى امرأته خويلة بنت محمد بن مسلمة الأنصارى، وذلك أن رافعًا طلقها ثم راجعها وتزوج عليها أشب منها، وكان يأتى الشابة ما لا يأتى الكبيرة، يقول: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ الزوج والمرأة الكبيرة ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أن ترضى المرأة الكبيرة بما له، على أن يأتى الشابة ما لا يأتى الكبيرة، يقول: فلا بأس بذلك فى القسمة، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من المفارقة، ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾، يعنى الحرص على المال، يعنى الكبيرة يرضيها الزوج من بعض ماله، فتحرص على المال وتدع نصيبها من زوجها، ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟﴾ الفعل فلا تفارقها، ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الميل والجور، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [آية: ١٢٨] فى أمرهن من الإحسان والجور.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ فى الحب أن يستوى حبهن فى قلوبكم، ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، فلا تقدرون على ذلك، ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ إلى التى تحب، وهى الشابة، ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾، أى فتأتيها وتذر الأخرى، يعنى الكبيرة كالمعلقة، لا أيم ولا ذات بعل، ولكن اعدلوا فى القسمة، ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟﴾ أمرهن ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الميل والجور، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ حين ملت إلى الشابة برضى الكبيرة، ﴿رَّحِيمًا﴾ [آية: ١٢٩] بك حين رخص لك فى الصلح، فإن أبت الكبيرة الصلح إلا أن تسوى بينها وبين الشابة أو تطلقها كان ذلك لها.

ثم إنه طلقها، فنزلت: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾، يعنى رافع وخويلة المرأة الكبيرة، ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾، يعنى الزوج والكبيرة، ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾، يعنى من فضله الواسع، ﴿وَكَانَ

﴿ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾ لهما فى الرزق جميعًا، ﴿حَكِيمًا﴾ [آية: ١٣٠] حين حكم فرقتهما.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ من الخلق عبيده وفى ملكه، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن عباده وخلقه ﴿حَمِيدًا﴾ [آية: ١٣١] عند خلقه فى سلطانه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [آية: ١٣٢]، يعنى شهيدًا، فلا شاهد أفضل من الله عز وجل أن من فيهما عباده وفى ملكه.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ بالموت ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ﴾، يعنى بخلق غيركم أطوع منكم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [آية: ١٣٣] أن يذهبكم ويأت بغيركم إذا عصيتموه.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ بعمله فليعمل لآخرته، ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا﴾، يعنى الرزق فى الدنيا وثواب ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾، يعنى الجنة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [آية: ١٣٤] بأعمالكم.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ﴾، يعنى قوالين ﴿بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، يقول سبحانه: أقيموا الشهادة لله بالعدل، ﴿وَلَوْ﴾ كانت الشهادة ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ﴾ على

﴿ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ﴾ أحدهما ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ بالغنى والفقير من غيره، ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ﴾ فى الشهادة والقرابة، واتقوا ﴿أَن تَعْدِلُوا﴾ عن الحق إلى الهوى، ثم قال: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا﴾، يعنى التحريف بالشهادة، يلجلج بها لسانه فلا يقيمها ليبطل بها شهادته، ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ عنها فلا تشهدوا بها، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من كتمان الشهادة وإقامتها ﴿خَبِيرًا﴾ [آية: ١٣٥]، نزلت فى رجل كانت عنده شهادة على أبيه، فأمره الله عز وجل أن يقيمها لله عز وجل، ولا يقول: إنى إن شهدت عليه أجحفت بماله، وإن كان فقيرًا هلك وازداد فقره، ويقال: إنه أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، الشاهد على أبيه أبى قحافة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾، نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب، كان بينهم وبين اليهود كلام لما أسلموا، قالوا: نؤمن بكتاب محمد ﷺ ونكفر بما سواه، فقال تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِٱللَّهِ﴾ وصدقوا بتوحيد الله عز وجل، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾، أى وصدقوا برسوله محمدًا ﷺ، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، يعنى محمدًا ﷺ، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ نزول كتاب محمد ﷺ، ثم ذكر كفار أهل الكتاب، فحذرهم الآخرة، يعنى البعث، فقال الله تعالى ذكره: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ﴾، يعنى بتوحيد الله، ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، يعنى البعث الذى فيه جزاء الأعمال، ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ عن الهدى، ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [آية: ١٣٦]، وبما أعد الله عز وجل من الثواب والعقاب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾

ثم ذكر أهل الكتاب، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالتوراة وبموسى، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ من بعد موسى، ﴿ثُمَّ ءَامَنُوا﴾ بعيسى ﷺ وبالإنجيل، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ من بعده، ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ وبالقرآن، ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ على ذلك، ﴿وَلَا

﴿لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [آية: ١٣٧] إلى الهدى، منهم: عمرو بن زيد، وأوس بن قيس، وقيس ابن زيد.

ولما نزلت المغفرة للنبى ﷺ وللمؤمنين فى سورة الفتح، قال عبد الله بن أبى ونفر معه: فما لنا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾، يعنى عبد الله بن أبى، ومالك بن دخشم، وجد بن قيس، ﴿بِأَنَّ لَهُمْ﴾ فى الآخرة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [آية: ١٣٨]، يعنى وجيعًا، ثم نعتهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ﴾ من اليهود ﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وذلك أن المنافقين قالوا: لا يتم أمر محمد، فتابعوا اليهود وتولوهم، فذلك قوله سبحانه: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾، يعنى المنعة، وذلك أن اليهود أعانوا مشركى العرب على قتال النبى ﷺ ليتعززوا بذلك، فقال سبحانه: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾، يقول: أيبتغى المنافقون عند اليهود المنعة، ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [آية: ١٣٩]، يقول: جميع من يتعزز، فإنما هو بإذن الله.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾

وكان المنافقون يستهزءون بالقرآن، فأنزل الله عز وجل بالمدينة: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾، يعنى فى سورة الأنعام بمكة، ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾، يقول: حتى يكون حديثهم، يعنى المنافقين فى غير ذكر الله عز وجل، فنهى الله عز وجل عن مجالسة كفار مكة ومنافقى المدينة عند الاستهزاء بالقرآن، ثم خوفهم: إن جالستموهم ورضيتم باستهزائهم، ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ فى الكفر ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ﴾، يعنى عبد الله بن أبى، ومالك بن دخشم، وجد بن قيس من أهل المدينة، ﴿وَالْكَافِرِينَ﴾ من أهل مكة ﴿فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [آية: ١٤٠].

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)﴾

ثم أخبر سبحانه عن المنافقين، فقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ الدوائر،

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ﴾ معشر المؤمنين ﴿فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، يعنى النصر على العدو يوم بدر، ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ على عدوكم، فاعطونا من الغنيمة، فلستم أحق بها، فذلك قوله سبحانه فى العنكبوت: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٠] على عدوكم.

﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾، يعنى دولة على المؤمنين يوم أُحُد، ﴿قَالُوٓاْ﴾ أى المنافقون للكفار: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾، يعنى ألم نحط بكم من ورائكم، ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ونجادل المؤمنين عنكم فنحبسهم عنكم ونخبرهم أنا معكم، قالوا ذلك جبنًا وفرقًا منهم، قال الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [آية: ١٤١]، يعنى حجة أبدًا، نزلت فى عبد الله بن أبى وأصحابه .

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ حين أظهروا الإيمان وأسروا التكذيب، ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ على الصراط فى الآخرة حين يقال لهم: ﴿ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١١٣]، فبقوا فى الظلمة، فهذه خدعة الله عز وجل لهم فى الآخرة، ثم أخبر عن المنافقين، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾، يعنى المنافقين متثاقلين لا يروا أنها حق عليهم، نظيرها فى براءة.

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ بالقيام بالنهار، ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾، يعنى فى الصلاة، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [آية: ١٤٢]، يعنى بالقليل، الرياء ولا يصلون فى السر، ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، يقول: إن المنافقين ليسوا مع اليهود فيظهرون ولايتهم، ولا مع المؤمنين فى الولاية، ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ عن الهدى، ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [آية: ١٤٣] إليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يرغبهم، نزلت فى المنافقين، منهم: عبد الله بن أبى، ومالك

بن دخشم، وذلك أن مواليهما من اليهود أصبغ ورافع عيروهما بالإسلام، وزينوا لهما ترك دينهما وتوليهما اليهود فصانعا اليهود، فقال الله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ من اليهود ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [آية: ١٤٤]، يعنى حجة بينة يحتج بها عليكم حين توليتم اليهود ونصحتموهم.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، يعنى الهاوية، ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [آية: ١٤٥]، يعنى مانعًا من العذاب، ولما أخبر بمستقر المنافقين، قال ناس للنبى ﷺ: فقد كان فلان وفلان منافقين فتابوا منه، فكيف يفعل الله بهم؟ فأنزل الله جل ذكره: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ من المنافقين، ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ العمل ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟﴾، يعنى احترزوا ﴿بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ﴾ الإسلام ﴿لِلَّهِ﴾ عز وجل ولم يخلطوا بشرك، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ فى الولاية، ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [آية: ١٤٦]، يعنى جزاء وافرًا.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾ نعمته، ﴿وَءَامَنتُمْ ۚ﴾، يعنى صدقتم، فإنه لا يعذب شاكرًا ولا مؤمنًا، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [آية: ١٤٧] بهم.

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ لأحد من الناس، ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ﴾(١)،

---

(١) قراءة ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم وزيد بن أسلم، وعبد الأعلى بن عبدالله بن مسلم بن يسار وعطاء بن السائب وابن يسار: «إلاَّ مَنْ ظَلَمَ» بفتح الظاء واللام. وقراءة=

يعني اعتدى عليه، فينتصر من القول مثل ما ظلم، ولا حرج عليه أن ينتصر بمثل مقالته، نزلت في أبي بكر، رضي الله عنه، شتمه رجل والنبي ﷺ جالس، فسكت عنه مرارًا، ثم رد عليه أبو بكر، رضي الله عنه، فقام النبي ﷺ عند ذلك، فقال أبو بكر، رضي الله عنه: يا رسول الله، شتمني وأنا ساكت، فلم تقل له شيئًا، حتى إذا رددت عليه قمت، قال: «إن ملكًا كان يجيب عنك، فلما أن رددت عليه، ذهب الملك وجاء الشيطان، فلم أكن لأجلس عند مجيء الشيطان»، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ بجهر السوء، ﴿عَلِيمًا﴾ [آية: ١٤٨] به.

ثم أخبر أن العفو والتجاوز خير عند الله من الانتصار، فقال سبحانه: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا﴾، يعني تعلنوه، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾، يعني تسروه، ﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾ فعل بك، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [آية: ١٤٩]، يقول: فإن الله أقدر على عفو ذنوبك منك على العفو عن صاحبك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، يعني اليهود، منهم: عامر بن مخلد، ويزيد بن زيد، كفروا بعيسى وبمحمد ﷺ، ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ الرسل، يعني موسى، ﴿وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ الرسل، يعني عيسى ومحمدًا ﷺ، ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [آية: ١٥٠]، يعني دينًا، يعني إيمانًا ببعض الرسل، وكفرًا ببعض الرسل، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ﴾ حين كفروا ببعض الرسل، لا ينفعهم إيمان ببعض، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ في الآخرة، ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [آية: ١٥١]، يعني الهوان.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾

ثم ذكر المؤمنين، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾، يعني بين الرسل، وصدقوا بالرسل جميعًا، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾، يعني جزاء أعمالهم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [آية: ١٥٢].

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ

=الحسن، وسعيد بن المسيب، وقتادة، وأبي رجاء، وابن عمر. انظر: (إتحاف فضلاء البشر ١٩٥، الطبري ٩/٣٤٣، القرطبي ٦/٣، البحر المحيط ٣/٣٨٢).

مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ
مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ
ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم
مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ
وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ
وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ
ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ
مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ
شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾، نزلت فى اليهود، وذلك أن كعب بن الأشرف، وفنحاص اليهودى، قالوا للنبى ﷺ: إن كنت صادقًا بأنك رسول، فائتنا بكتاب غير هذا، مكتوب فى السماء جملة واحدة كما جاء به موسى، فذلك قوله: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ... ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾، يعنى معاينة، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾، يعنى الموت، ﴿ بِظُلْمِهِمْ ۚ ﴾ لقولهم: أرنا الله جهرة معاينة، ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾، يعنى الآيات التسع، ﴿ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ ﴾، فلم نستأصلهم جميعًا عقوبة باتخاذهم العجل، ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ [آية: ١٥٣]، يعنى حجة بينة، يعنى اليد والعصى.

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ ﴾، يعنى الجبل فوق رءوسهم، رفعه جبريل، عليه السلام، وكانوا فى أصل الجبل، فرفع الطور فوق رءوسهم، ﴿ بِمِيثَٰقِهِمْ ﴾؛ لأن يقروا بما فى التوراة، ﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾، يعنى باب حطة، ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾، أى لا تعدوا فى أخذ الحيتان يوم السبت، ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [آية: ١٥٤]، يعنى شديدًا، والميثاق إقرارهم بما عهد الله عز وجل فى التوراة.

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ﴾، يعنى فبنقضهم إقرارهم بما فى التوراة، ﴿ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾، يعنى الإنجيل والقرآن، وهم اليهود، ﴿ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا

غُلْفٌ﴾، وذلك حين سمعوا من النبى ﷺ: ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ عرفوا أن الذى قال لهم النبى ﷺ حق، وقالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، يعنى فى أكنة عليها الغطاء، فلا تفقه ولا تفهم ما تقول يا محمد، كراهية ما سمعوا من النبى ﷺ من كفرهم بالإنجيل والفرقان، يقول الله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، يعنى ختم على قلوبهم، ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [آية: ١٥٥]، يقول: ما أقل ما يؤمنون، فإنهم لا يؤمنون البتة.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [آية: ١٥٦]، وذلك أن اليهود قذفوا مريم، عليها السلام، بيوسف بن ماثان بالزنا، وكان ابن عمها، وكان قد خطبها، ومريم ابنة عمران بن ماثان، ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، ولم يقولوا: رسول الله، ولكن الله عز وجل قال: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ بصاحبهم الذى قتلوه، وكان الله عز وجل قد جعله على صورة عيسى فقتلوه، وكان المقتول لطم عيسى، وقال لعيسى حين لطمه: أتكذب على الله حين تزعم أنك رسوله، فلما أخذه اليهود ليقتلوه، قال لليهود: لست بعيسى، أنا فلان، واسمه يهوذا، فكذبوه وقالوا له: أنت عيسى، وكانت اليهود جعلت المقتول رقيبًا على عيسى ﷺ، فألقى الله تعالى ذكره شبهه على الرقيب فقتلوه.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾، يعنى فى عيسى، وهم النصارى، فقال بعضهم: قتله اليهود، وقال بعضهم: لم يقتل، ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ فى شك من قتله، ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [آية: ١٥٧]، يقول: وما قتلوا ظنهم يقينًا، يقول: لم يستيقنوا قتله، كقول الرجل: قتلته علمًا، فأكذب الله عز وجل اليهود فى قتل عيسى ﷺ، فقال عز وجل: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ إلى السماء حيًا فى شهر رمضان فى ليلة القدر، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، رفع إلى السماء من جبل بيت المقدس، فذلك قوله سبحانه: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [آية: ١٥٨]، يعنى عزيزًا منيعًا حين منع عيسى من القتل، حكيمًا حين حكم رفعه، قال: وترك عيسى ﷺ بعد رفعه خفين، ومدرعة، وحذافة يحذف بها الطير، وقالت عائشة، رضى الله عنها: وترك رسول الله ﷺ بعد موته إزارًا غليظًا، وكساء، ووسادة أدم حشوها ليف.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ﴾، يعنى وما من أهل الكتاب، يعنى اليهود، إلا

ليؤمن ﴿بِهِۦ﴾ ، يعنى بعيسى ﷺ، ﴿قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾ أنه نبى رسول قبل موت اليهودى، يعنى عند موته؛ لأن الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم، وتقول: يا عدو الله، إن المسيح الذى كذبتم به، هو عبد الله ورسوله حقًا، فيؤمن به ولا ينفعه، ويؤمن به من كان منهم حيًا إذا نزل عيسى ﷺ، فينزل عيسى ﷺ على ثنية يقال لها: أفيق، دهين الرأس، عليه ممصرتان، ومعه حربة يقتل بها الدجال، فقيل لابن عباس، رحمه الله: فمن غرق من اليهود، أو أحرق بالنار، أو أكله السبع، قال: لا تخرج روحه حتى يؤمن بعيسى ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ [آية: ١٥٩] أنه قد بلغهم الرسالة.

﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ١٦٠ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦١ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾

قوله سبحانه: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ ، يعنى اليهود، ﴿حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ ، يعنى فى الأنعام، يعنى اللحوم والشحوم وكل ذى ظفر لهم حلال، فحرمها الله عز وجل عليهم بعد موسى، ﴿وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ [آية: ١٦٠]، فيها إضمار، يقول: ﴿وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ ، يعنى دين الإسلام، وعن محمد ﷺ، ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ﴾ ، وهو محرم بغير حق، ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ﴾ ، يعنى اليهود ﴿عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [آية: ١٦١]، يعنى وجيعًا، فهذا الظلم الذى ذكره فى هذه الآية.

ثم ذكر مؤمنى أهل التوراة، فقال سبحانه: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ﴾ ، وذلك أن عبد الله بن سلام وأصحابه، قالوا للنبى ﷺ: إن اليهود لتعلم أن الذى جئت به حق، وأنك لمكتوب عندهم فى التوراة، فقالت اليهود: ليس كما تقولون، وإنهم لا يعلمون شيئًا، وإنهم ليغرونك ويحدثونك بالباطل، فقال الله عز وجل: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ﴾ ، يعنى المتدارسين علم التوراة، يعنى ابن سلام وأصحابه، ﴿مِنۡهُمۡ﴾ ، يعنى من اليهود، ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ، يعنى أصحاب محمد ﷺ من غير أهل الكتاب، ﴿يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ

﴿إِلَيْكَ﴾ من القرآن، ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الكتب على الأنبياء: التوراة والإنجيل.

ثم نعتهم، فقال سبحانه: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾(١)، يعنى المعطون الزكاة، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أنه واحد لا شريك له، والبعث الذى فيه جزاء الأعمال، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا﴾، يعنى جزاء ﴿عَظِيمًا﴾ [آية: ١٦٢].

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، وذلك أن عدى بن زيد وصاحبيه اليهود، قالوا للنبى ﷺ: والله ما أوحى الله إليك ولا إلى أحد من بعد موسى، فكذبهم الله عز وجل، فقال: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، يعنى من بعد نوح: هود وصالح، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾، يعنى بنى يعقوب: يوسف وإخواته، وأوحينا إليهم فى صحف إبراهيم، ثم قال: ﴿وَ﴾ أوحينا إلى ﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [آية: ١٦٣]، ليس فيه حد، ولا حكم، ولا فريضة، ولا حلال، ولا حرام، خمسين ومائة سورة، فأخبره الله بهن ليعلموا أنه نبى.

فقالت اليهود: ذكر محمد النبيين ولم يبين لنا أمر موسى أكلمه الله أم لم يكلمه؟ فأنزل الله عز وجل فى قول اليهود: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾، هؤلاء بمكة فى الأنعام وفى غيرها؛ لأن هذه مدنية، ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [آية: ١٦٤]، يعنى مشافهة، وهو ابن أربعين سنة ليلة النار، ومرة أخرى حين أعطى التوراة، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ﴾ بالجنة، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من النار ﴿لِئَلَّا

(١) قراءة مالك بن دينار وعيسى الثقفى وعاصم الجحدرى: «والمقيمون»، بواو. وقراءة ابن مسعود، وأبى، وقراءة أبى عمرو (رواية هارون)، وعمرو بن عبيد، وسعيد بن جبير، والحسن، ويونس، والأعمش. انظر: (البحر المحيط ٣/٣٩٥، الطبرى ٩/٣٩٦، القرطبى ٦/١٢، الكشاف ١/٣١٣).

﴿يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، فيقولوا يوم القيامة: لم يأتنا لك رسول، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [آية: ١٦٥]، حكم إرسال الأنبياء إلى الناس.

فقال لهم النبي ﷺ: «إنكم لتعلمون حق ما أقول، وإنه لفي التوراة، فإن تتوبوا وترجعوا يغفر لكم ذنوبكم»، قالوا: لو كان ما تقول في التوراة لاتبعناك، فقال النبي ﷺ: «والله إنكم لتشهدون بما أقول»، قالوا: ما عندنا بذلك شهادة، قال الله عز وجل: فإن لم يشهد لك أحد منهم، فإن الله وملائكته يشهدون بذلك، فذلك قوله عز وجل: ﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن، ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ بذلك، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [آية: ١٦٦]، يقول: فلا شاهد أفضل من الله بأنه أنزل عليك القرآن.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾

ثم قال يعنيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني اليهود كفروا بمحمد والقرآن، ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يعني عن دين الإسلام، ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ عن الهدى، ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [آية: ١٦٧]، يعني طويلاً، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني اليهود كفروا بمحمد والقرآن، ﴿وَظَلَمُوا﴾، يعني وأشركوا بالله، ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [آية: ١٦٨] إلى الهدى، ثم استثنى: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، يعني طريق الكفر، فهو يقود إلى جهنم خالدين فيها ﴿أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [آية: ١٦٩]، يعني عذابهم على الله هينًا.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ﴾، يعني محمدًا ﴿بِالْحَقِّ﴾، يعني بالقرآن، ﴿مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾، يعني صدقوا بالقرآن، فهو خير لكم من الكفر، ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الخلق، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [آية: ١٧٠].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا

ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعنى النصارى، ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾، يعنى الإسلام، فالغلو فى الدين أن تقولوا على الله غير الحق فى أمر عيسى ابن مريم ﷺ، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، وليس لله تبارك وتعالى ولدًا، ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾، يعنى بالكلمة، قال: كن فكان، ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، يعنى بالروح أنه كان من غير بشر، نزلت فى نصارى نجران فى السيد والعاقب ومن معهما.

ثم قال سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾، يعنى صدقوا ﴿بِٱللَّهِ﴾ عز وجل بأنه واحد لا شريك له، ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾، يعنى محمدًا ﷺ بأنه نبى ورسول، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾، يعنى لا تقولوا: إن الله عز وجل ثالث ثلاثة، ﴿ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، يعنى عيسى ﷺ، ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الخلق عبيده، وفى ملكه عيسى وغيره، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [آية: ١٧١]، يعنى شهيدًا بذلك.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾، يعنى لن يأنف، ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا﴾ يستنكف ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أن يكونوا عبيدًا لله؛ ليعتبروا بكون الملائكة أقرب إلى الله عز وجل منزلة من عيسى ابن مريم وغيره، فإن عيسى عبد من عباده، ثم أوعد النصارى، فقال: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ﴾، يعنى ومن يأنف، ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾، يعنى ومن يأنف عن عبادة الله، يعنى التوحيد ويستكبر، يعنى ويتكبر عن العبادة، ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [آية: ١٧٢]، فلم يستنكف ويستكبر غير إبليس.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾

وأخبر المؤمنين بمنزلتهم فى الآخرة ومنزلة المستنكفين، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ ، يعنى فيوفى لهم جزاءهم، ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ على أعمالهم ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ الجنة، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟﴾ ، يعنى أنفوا ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن عبادة الله بالتوحيد، ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ، يعنى وجيعًا، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ ، يعنى قريبًا ينفعهم، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ [آية: ١٧٣]، يعنى مانعًا يمنعهم من الله عز وجل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ، يعنى بيان، وهو القرآن، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [آية: ١٧٤]، يعنى ضياء بينًا من العمى، وهو القرآن، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ ، يعنى صدقوا بالله عز وجل بأنه واحد لا شريك له، ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾ ، يعنى احترزوا به، يعنى بالله عز وجل، ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ ، يعنى الجنة، ﴿وَفَضْلٍ﴾ ، يعنى الرزق فى الجنة، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [آية: ١٧٥].

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ ، نزلت فى جابر بن عبد الله الأنصارى من بنى سلمة بن جشم بن سعد بن على بن شاردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج وفى أخواته، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ ، يعنى به الميت الذى يموت وليس له ولد ولا والد، فهو الكلالة، وذلك أن جابر بن عبد الله الأنصارى، رحمه الله، مرض بالمدينة، فعاده رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنى كلالة لا أب لى ولا ولد، فكيف أصنع فى مالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ ، يعنى مات، ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ الميت من الميراث، ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ إذا ماتت قبله، ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ ، يعنى أختين، ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً

﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾، يقول: لئلا تخطئوا قسمة المواريث، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من قسمة المواريث، ﴿عَلِيمٌۢ﴾ [آية: ١٧٦]، نظيرها في الأنفال.

* * *

سورة المائدة

سورة المائدة مدنية، نهارية كلها، عشرون ومائة آية كوفية

إلا قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ الآية، فإنها نزلت بعرفة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾

قال مقاتل: قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾، يعنى بالعهود التى بينكم وبين المشركين، ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، يعنى أحل لكم أكل لحوم الأنعام، الإبل، والبقر، والغنم، والصيد كله، ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، يعنى غير ما نهى الله عز وجل عن أكله مما حرم الله عز وجل، من الميتة، والدم، ولحم الخنزير، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، ثم قال: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾، يقول: من غير أن تستحلوا الصيد، ﴿وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾(١)، يقول: إذا كنت محرمًا بحج أو عمرة، فالصيد عليك حرام كله، غير صيد البحر، فإنه حلال لك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [آية: ١]، فحكم أن يجعل ما شاء من الحلال حرامًا، وجعل ما شاء مما حرم فى الإحرام من الصيد حلالاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾

قال تعالى ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، يعنى مناسك الحج والعمرة، وذلك أن الحمس، قريشًا، وخزاعة، وكنانة، وعامر بن صعصعة، كانوا يستحلون أن يغير بعضهم على بعض فى الأشهر الحرم وغيرها، وكانوا لا يسعون بين الصفا والمروة، وكانوا لا يرون الوقوف بعرفات من شعائر الله، فلما أسلموا أخبرهم الله

---

(١) انظر: (القرطبى ٣٦/٦، مجمع البيان ١٥٠/٢، الإتحاف ١٩٧).

عز وجل بأنها من شعائر الله، فقال عز وجل: ﴿الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

وأمر سبحانه أن يسعى بينهما، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾، يقول: لا تستحلوا القتل فى الشهر الحرام، وذلك أن أبا ثمامة جنادة بن عوف بن أمية من بنى كنانة كان يقوم كل سنة فى سوق عكاظ، فيقول: ألا إنى قد أحللت المحرم، وحرمت صفرًا، وأحللت كذا، وحرمت كذا، ما شاء، وكانت العرب تأخذ به، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، يعنى جنادة بن عوف، ﴿يُحِلِّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ﴾، يعنى خلافًا على الله جل اسمه وعلى ما حرم، ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ﴾ [التوبة: ٣٧] من الأشهر الحرم.

ثم رجع إلى الآية الأولى فى التقديم، فقال تعالى: ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾، كفعل أهل الجاهلية، وذلك أنهم كانوا يصيبون من الطريق، قال: وكان فى الجاهلية من أراد الحج من غير أهل الحرم، يقلد نفسه من الشعر والوبر، فيأمن به إلى مكة، وإن كان من أهل الحرم، قلد نفسه وبعيره من لحيا شجر الحرم، فيأمن به حيث يذهب، فهذا فى غير أشهر الحرم، فإذا كان أشهر الحرم، لم يقلدوا أنفسهم ولا أباعرهم وهم يأمنون حيث ما ذهبوا.

قال عز وجل: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾، يعنى متوجهين نحو البيت، نزلت فى الخطيم، يقول: لا تتعرضوا الحجاج بيت الله، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾، يعنى الرزق فى التجارة فى مواسم الحج، ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾، يعنى رضوان الله بحجهم، فلا يرضى الله عنهم حتى يسلموا، فنسخت آية السيف هذه الآية كلها.

قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ من الإحرام، ﴿فَٱصْطَادُوا۟﴾(١)، يقول: إذا حللتم من إحرامكم فاصطادوا، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾(٢)، يقول: ولا يحملنكم عداوة المشركين من أهل مكة، ﴿أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، يعنى منعوكم من

---

(١) انظر: (الكشاف ١/٣٢١، البحر المحيط ٣/٤٢١، تفسير الفخر الرازى ٣/٣٥٢).

(٢) قراءة ابن مسعود: «وَلا يُجْرِمَنَّكُم» - بضم الياء - «شَنَآنُ قَوْمٍ إنْ يَصُدوكُمْ» - بكسر الألف. وقراءة الأعمش، ويحيى بن وثاب. انظر: (معانى القرآن للفراء ١/٢٢٩، القرطبى ٦/٤٥، الكشاف ١/٣٢١، الطبرى ٥/٤٨٥، الإتحاف ١٩٧.

دخول البيت الحرام أن تطوفوا به عام الحديبية، ﴿أَن تَعْتَدُواْ﴾، يعنى أن ترتكبوا معاصيه، فتستحلوا أخذ الهدى والقلائد والقتل فى الشهر الحرام من حجاج بكر بن وائل من أهل اليمامة، نزلت فى الخطيم، واسمه شريح بن ضبيعة بن شرحبيل بن عمر بن جرثوم البكرى، من بنى قيس بن ثعلبة، وفى حجاج المشركين، وذلك أن شريح بن ضبيعة جاء إلى النبى ﷺ، فقال: يا محمد، اعرض علىَّ دينك، فعرض عليه وأخبره بما له وبما عليه، فقال له شريح: إن فى دينك هذا غلظًا، فأرجع إلى قومى فأعرض عليهم ما قلت، فإن قبلوه كنت معهم، وإن لم يقبلوه كنت معهم.

فخرج من عند النبى ﷺ، فقال النبى ﷺ: «لقد دخل بقلب كافر، وخرج بوجه غادر، وما أرى الرجل بمسلم»، ثم مر على مسرح المدينة فاستاقها، فطلبوه فسبقهم إلى المدينة، وأنشأ يقول:

قد لفها الليل بسواق حطم ... ليس براعى إبل ولا غنم
ولا بجزار على ظهر وضم ... خدلج الساق ولا رعش القدم

قال أبو محمد عبد الله بن ثابت: سمعت أبى يقول: قال أبو صالح: قتله رجل من قومه على الكفر، وقدم الرجل الذى قتله مسلمًا، فلما سار رسول الله ﷺ معتمرًا عام الحديبية فى العام الذى صده المشركون، جاء شريح إلى مكة معتمرًا، معه تجارة عظيمة فى حجاج بكر بن وائل، فلما سمع أصحاب رسول الله ﷺ بقدوم شريح وأصحابه، وعرفوا بنبئهم، فأراد أهل السرح أن يغيروا عليه كما أغار عليهم من قبل شريح وأصحابه، فقالوا: نستأمر النبى ﷺ، فاستأمروه، فنزلت الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللَّهِ﴾، يعنى أمر المناسك.

ولا تستحلوا فى الشهر الحرام أخذ الهدى ولا القلائد، يقول: ولا تخيفوا من قلد بعيره، ولا تستحلوا القتل آمين البيت الحرام، يعنى متوجهين قبل البيت الحرام من حجاج المشركين، يعنى شريح بن ضبيعة وأصحابه يبتغون بتجاراتهم فضلاً من الله، يعنى الرزق والتجارة ورضوانه بحجهم، فنهى الله عز وجل نبيه ﷺ عن قتالهم، ثم لم يرض منهم حتى يسلموا، فنسخت هذه الآية آية السيف، فقال عز وجل: ﴿فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، ثم قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آية: ٢].

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾، يعنى أكل الميتة، ﴿وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾، يعنى الذى ذبح لأصنام المشركين ولغيرهم، هذا حرام البتة إن أدركت ذكاته أو لم تدرك ذكاته، فإنه حرام البتة؛ لأنهم جعلوه لغير الله عز وجل، ثم قال عز وجل: ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾، يعنى وحرم المنخنقة، الشاة، والإبل، والبقر التى تنخنق أو غيره حتى تموت، ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾، يعنى التى تضرب بالخشب حتى تموت، ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾، يعنى التى تردى من الجبل، فتقع منه أو تقع فى بئر فتموت، ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾، يعنى الشاة تنطح صاحبتها فتموت، ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾(١) من الأنعام والصيد، يعنى فريسة السبع.

ثم استثنى، فقال سبحانه: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾، يعنى إلا ما أدركتم ذكاته من المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع، فما أدركتم ذكاته من المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع مما أدركتم ذكاته، يعنى بطرف، أو بعرق يضرب، أو بذنب بتحرك، ويذكى فهو حلال، ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾، يعنى وحرم ما ذبح على النصب، وهى الحجارة التى كانوا ينصبونها فى الجاهلية فيعبدونها، فهو حرام البتة، وكان خزان الكعبة يذبحون لها، وإن شاءوا بدلوا تلك الحجارة بحجارة أخرى، وألقوا الأولى.

---

(١) قراءة ابن عباس: «وأكيلُ السَّبع» ذهب بالتذكير إلى الجنس والعموم، حتى كأنه قال: وما أكل السبع، ولو قال ذلك ما كان لفظ «ما» إلا إلى التذكير، والأكيل هنا إذًا يصلح للمذكر والمؤنث، وأما الأكيلة فكالنطيحة والذبيحة، اسم للمأكول والمنطوح، كالضحية والبليّة فى قوله:

مثل البليّة قالصا أهدامُها

فتقول على هذا: مررت بشاة أكيل، أى قد أكلها السبع ونحوه، وتقول: ما لنا طعام إلا الأكيلة، أى الشاة أو الجزور المعدة لأن تؤكل، فإن كانت قد أُكلت فهى أكيل بلا هاءٍ، وكذلك أكيل السبع هنا ما قد أكل السبع بعضه. انظر: (البحر المحيط ٣/٤٢٣، الكشاف ١/٣٢٢، مجمع البيان ٢/١٥٦، القرطبى ٦/٥٠).

ثم قال تعالى ذكره: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾، يعنى وأن تستقسموا الأمور بالأزلام، والأزلام قدحان فى بيت أصنامهم، فإذا أرادوا أن يركبوا أمرًا أتوا بيت أصنامهم، فضربوا بالقدحين، فما خرج من شىء عملوا به، وكان كتب على أحدهما: أمرنى ربى، وعلى الآخر: نهانى ربى، فإذا أرادوا سفرًا أتوا ذلك البيت، فغطوا عليه ثوبًا، ثم يضربون بالقدحين، فإن خرج السهم الذى فيه: أمرنى ربى، خرج فى سفره، وإن خرج السهم الذى فيه: نهانى ربى، لم يسافر، فهذه الأزلام.

﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾، يعنى معصية حرامًا، ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾، يعنى لا تخشوا الكفار، ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ فى ترك أمرى، ثم قال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، يعنى يوم عرفة، لم ينزل بعدها حلال ولا حرام، ولا حكم، ولا حد، ولا فريضة، غير آيتين من آخر سورة النساء: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ...﴾ [النساء: ١٧٦]، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، يعنى شرائع دينكم أمر الحلال والحرام، وذلك أن الله جل ذكره كان فرض على المؤمنين شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، والإيمان بالبعث، والجنة، والنار، والصلاة ركعتين غدوة وركعتين بالعشى شيئًا غير مؤقت، والكف عن القتال قبل أن يهاجر النبى ﷺ، وفرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج، وهو بعد بمكة، والزكاة المفروضة بالمدينة، ورمضان، والغسل من الجنابة، وحج البيت، وكل فريضة.

فلما حج حجة الوداع، نزلت هذه الآية يوم عرفة، فبركت ناقة النبى ﷺ لنزول الوحى بجمع، وعاش النبى ﷺ بعدها إحدى وثمانين ليلة، ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، وهى آخر آية نزلت فى الحلال والحرام، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، يعنى شرائع دينكم أمر حلالكم وحرامكم، ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾، يعنى الإسلام إذ حججتم وليس معكم مشرك، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، يعنى واخترت لكم الإسلام دينًا، فليس دين أرضى عند الله عز وجل من الإسلام.

قال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ثم قال عز وجل: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ﴾، يعنى مجاعة وجهد شديد أصابه من الجوع، ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ غير متعمد لمعصية، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آية: ٣]، إذا رخص له فى أكل الميتة، ولحم الخنزير، حين

أصابه الجوع الشديد والجهد، وهو على غير المضطر حرام.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ﴾ من الصيد، وذلك أن زيد الخير، وهو من بنى المهلهل، وعدى بن حاتم الطائيان، سألا النبى ﷺ، فقالا: يا رسول الله، كلاب آل درع وآل حورية يصدن الظباء والبقر والحمر، فمنها ما تدرك ذكاته فيموت، وقد حرم الله عز وجل الميتة، فماذا يحل لنا؟ فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ﴾ من الصيد ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ﴾، يعنى الحلال، وذبح ما أحل الله لهم من الصيد مما أدركت ذكاته.

ثم قال: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾(١)، يعنى الكلاب معلمين للصيد، ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ﴾، يقول: تؤدبوهن كما أدبكم الله، فيعرفون الخير والشر، وكذا الكاتم أيضًا، فأدبوا كلابكم فى أمر الصيد، ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾، يقول: فكلوا مما أمسكن، يعنى حبسن عليكم الكلاب المعلمة، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ﴾ إذا أرسلتم بعد أن أمسك عليكم، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾، فلا تستحلوا أكل الصيد من الميتة، إلا ما ذكى من صيد الكلب المعلم، ثم خوفهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آية: ٤] لمن يستحل أكل الميتة من الصيد إلا من اضطر.

قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ﴾، يعنى الحلال، أى الذبائح من الصيد، ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾، يعنى بالطعام ذبائح الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى، ذبائحهم ونساؤهم حلال للمسلمين، ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ﴾، يعنى ذبائح المسلمين وذبائح نسائهم حلال لليهود والنصارى، ثم قال عز وجل: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، يعنى وأحل لكم تزويج العفائف من المؤمنات، ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

---

(١) قراءة أبى رزين: «مُكْلِبين»، ساكنة الكاف. وقراءة الحسن، وابن مسعود. انظر: (الإتحاف ١٩٨، القرطبى ٦/٦٨، الكشاف ١/٣٢٣، مجمع البيان ٢/١٦٣).

﴿ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، يعنى وأحل تزويج العفائف من حرائر نساء اليهود والنصارى، نكاحهن حلال للمسلمين، ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، يعنى إذا أعطيتموهن مهورهن، ﴿مُحْصِنِينَ﴾ لفروجهن من الزنا، ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، يعنى غير معلنات بالزنا علانية، ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾، يعنى لا تتخذ الخليل فى السر فيأيتها، فلما أحل الله عز وجل نساء أهل الكتاب، قال المسلمون: كيف تتزوجوهن وهن على غير ديننا، وقالت نساء أهل الكتاب: ما أحل الله تزويجنا للمسلمين إلا وقد رضى أعمالنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، يعنى من نساء أهل الكتاب بتوحيد الله، ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آية: ٥]، يعنى من الكافرين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا﴾[(١)]، يعنى إن أصابتكم جنابة، ﴿فَٱطَّهَّرُوا۟﴾، يعنى فاغتسلوا، ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾، نزلت فى عبد الرحمن بن عوف، رضى الله عنه، أو أصابكم جراحة، أو جدرى، أو كان بكم قروح وأنتم مقيمون فى الأهل، فخشيتم الضرر والهلاك، فتيمموا الصعيد ضربة للوجه وضربة للكفين، ﴿أَوْ﴾ إن كنتم ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، نزلت فى عائشة، رضى الله عنها، حين أسقطت قلادتها وهو مع النبى ﷺ فى غزاة بنى أنمار، وهم حى من قيس عيلان.

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ فى السفر ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، يعنى جامعتم النساء فى السفر، ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾، يعنى من الصعيد ضربتين، ضربة للوجه وضربة لليدين إلى الكرسوع، ولم

---

(١) انظر: (الإتحاف ١٩٨، القرطبى ٦/٩١، الكشاف ١/٣٢٦، البحر المحيط ٣/٤٣٨، تهذيب اللغة «ع ك ب»).

يؤمروا بمسح الرأس فى التيمم، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾، يعنى ضيق فى أمر دينكم، إذ رخص لكم فى التيمم، ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ فى أمر دينكم من الأحداث والجنابة، ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، يعنى إذ رخص لكم فى التيمم فى السفر، والجراح فى الحضر، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آية: ٦] رب هذه النعم فتوحدونه، فلما نزلت الرخصة، قال أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، لعائشة، رضوان الله عليها: والله ما علمتك إلا مباركة.

قوله سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾، يعنى بالإسلام يوم أخذ ميثاقكم على المعرفة بالله عز وجل والربوبية، ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ذلك أن الله عز وجل أخذ الميثاق الأول على العباد حين خلقهم من صلب آدم، عليه السلام، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢] على أنفسنا، فمن بلغ منهم العمل، وأقر لله عز وجل بالإيمان به، وبآياته، وكتبه، ورسله، والكتاب، والملائكة، والجنة، والنار، والحلال، والحرام، والأمر، والنهى أن يعمل بما أمر، وينتهى عما نهى، فإذا أوفى لله تعالى بهذا، أوفى الله له بالجنة..

فهذان ميثاقان، ميثاق بالإيمان بالله، وميثاق بالعمل، فذلك قوله سبحانه فى البقرة: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥]، سمعنا بالقرآن الذى جاء من عند الله، وأطعنا الله عز وجل فيه، وذلك قوله سبحانه فى التغابن: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦]، يقول: اسمعوا القرآن الذى جاء به محمد ﷺ من عند الله عز وجل، وأطيعوا الله فيما أمركم، فمن بلغ الحلم والعمل ولم يؤمن بالله عز وجل ولا بالرسول والكتاب، فقد نقض الميثاق الأول بالإيمان بالله عز وجل، وبما أخذ الله تعالى عليه حين خلقه وصار من الكافرين، ومن أخذ الله عز وجل عليه الميثاق الأول، ولم يبلغ الحلم، فإن الله عز وجل أعلم به.

قال: وسُئل عبد الله بن عباس عن أطفال المشركين، فقال: لقد أخذ الله عز وجل الميثاق الأول عليهم، فلم يدركوا أجلاً، ولم يأخذوا رزقًا، ولم يعملوا سيئة، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥]، وماتوا على الميثاق الأول، فالله أعلم بهم. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، ولا تنقضوا ذلك الميثاق، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آية: ٧]،

يعنى بما فى قلوبهم من الإيمان والشك.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾، يعنى قوالين بالعدل، شهداء لله، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾، يقول: لا تحملنكم عداوة المشركين، يعنى كفار مكة، ﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾ على حجاج ربيعة، وتستحلوا منهم محرمًا، ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فاعدلوا، فإن العدل أقرب للتقوى، يعنى لخوف الله عز وجل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آية: ٨]، يعظهم ويحذرهم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، يعنى وأدوا الفرائض، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آية: ٩]، يعنى جزاء حسنًا، وهو الجنة، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكة، ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾، يعنى القرآن، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [آية: ١٠]، يعنى ما عظم من النار.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ...﴾ الآية، نزلت هذه الآية؛ لأن رسول الله ﷺ كان قد بعث المنذر بن عمرو الأنصارى فى أناس من أصحابه إلى بئر معونة، وهو ماء بنى عامر، فساروا حتى أشرفوا على الأرض، فأدركهم الماء فنزلوا، فلما كان المساء، أضل أربعة منهم بعيرًا لهم، فاستأذنوا أن يقيموا، فأذن لهم المنذر، ثم سار المنذر بمن معه، وأصبح القوم وقد جمعوا لهم على الماء، وكانت بنو سليم هم الذين آذنوا بنى عامر بهم، فالتقوا فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقتل المنذر بن عمرو ومن معه،

وأصاب الأربعة بعيرهم من الغد، فأقبلوا فى طلب أصحابهم، فلقيتهم وليدة لبنى عامر فى غنيمة ترعاها، فقالت لهم: أمن أصحاب محمد أنتم؟ قالوا: نعم، رجاء أن تسلم، فقالت: النجاء، فإن إخوانكم قد قتلوا حول الماء، قتلهم عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر.

فقال أحد الأربعة: ما ترون؟ قالوا: نرى أن نرحل إلى رسول الله ﷺ، فنخبره بالذى كان، قال: لكنى والله لا أرجع حتى أنتقم من أعداء أصحابى اليوم، فامضوا راشدين واقرأوا على رسول الله ﷺ منى السلام كثيرًا، فأشرف على الخيل، فنظر إلى أصحابه مقتلين عند الماء، فأخذ سيفه، فضرب به حتى قُتل، رحمه الله، ورجع الثلاثة إلى المدينة، فأتوها حين أمسوا، فلقوا رجلين من بنى سليم وهما خارجان من المدينة، فقالوا لهما: من أنتما؟ قالا: نحن من بنى عامر، فقالوا: أنتما ممن قتل إخواننا، فأقبلوا عليهما فقتلوهما.

ثم دخلوا إلى النبى ﷺ، فأخبروه الخبر، فوجدوا الخبر قد سبق إليه، فقالوا: يا رسول الله، غشينا المدينة ممسين، فوجدنا رجلين من بنى عامر، فقتلناهما وهذا سلبهما، فقال رسول الله ﷺ: «بئس ما صنعتما، فإنهما كانا من بنى سليم»، قال: وكان بين بنى سليم وبين النبى ﷺ موادعة وعهد، فنزلت: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾، يقول: لا تعجلوا بأمر ولا بفعل حتى يأمركم رسول الله ﷺ، ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ ولا تخالفوا على نبيكم، ﴿**إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ**﴾ لما تقولون، ﴿**عَلِيمٌ**﴾ [الحجرات: ١] بما تفعلون.

وجاء أهل السليميين، فقالوا: يا محمد، إن صاحبينا أتياك فقتلا عندك، فقال رسول الله ﷺ: «إن صاحبيكما اعتزيا إلى عدونا حتى قتلا، ولكنا سنعقل صاحبيكم»، فانطلق رسول الله ﷺ فى أهل عهده، فبدأ ببنى النضير، فقال: «أنتم جيراننا وحلفاؤنا، والأيام دول، وقد رأيتم الذى أصابنا، فاتخذوا عندنا يدًا نجزكم بها غدًا إن شاء الله»، فقالوا: مرحبًا بك وأهلاً، إخواننا بنو قريظة لا نحب أن نسبقهم بأمر، ولكن ائتنا يوم كذا وكذا، وقد جمعنا لك الذى تريد أن نعطيك.

فرجع رسول الله ﷺ من عندهم، فأرسلوا إلى بنى قريظة: أن محمدًا مغرور، يأتينا فى الرجل والرجلين، فاجتمعوا له فاقتلوه، فأتاهم رسول الله ﷺ لميعادهم، ومعه ثلاثة نفر:

أبو بكر، وعمر، وعلى، رضى الله عنهم، وهو ﷺ رابعهم، فأجلسوه فى صفة لهم، ثم خرجوا يجمعون السلاح له، وكان كعب بن الأشرف عند ذلك بالمدينة، فهم ينتظرونه حتى يأتيهم، فأوحى الله عز وجل إلى نبيه، فأتاه جبريل، عليه السلام، فأخبره بما يراد به وبأصحابه، فقام نبى الله ﷺ، ولم يؤذن أصحابه مخافة أن يثوروا بهم، فأتى باب الدار، فقام به.

فلما أبطأ على أصحابه، خرج على لينظر ما فعل رسول الله ﷺ، فإذا هو على الباب، فقال: يا رسول الله، احتبست علينا، حتى خفنا عليك أن يكون قد اغتالك أحد، قال: «فإن أعداء الله قد أرادوا ذلك، فقم مكانك بالباب حتى يخرج إليه بعض أصحابك، فأقمه مكانك وأخبره بالذى أخبرتك، ثم الحقنى»، ومضى رسول الله ﷺ، وقام الآخر بالباب، حتى خرج إليه صاحبه، فقال: احتبست أنت ورسول الله، حتى خفنا عليكما، فأخبره الخبر، فمكث مكانه ولحق الآخر برسول الله ﷺ، فلما أبطأوا على صاحبهم خرج، فاتبعوا رسول الله ﷺ، فذلك قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ﴾، وهم اليهود، ﴿أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ بالسوء، ﴿فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آية: ١١].

﴿۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٣)﴾

قوله سبحانه: ﴿۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾، يعنى شاهدًا على قومهم، من كل سبط رجلا ليأخذ هذا الرجل على سبطه الميثاق، وشهداء على قومهم، وكانوا اثنى عشر سبطًا، على كل سبط منهم رجلاً، فأطاع الله عز وجل منهم خمسة، فكان منهم طالوت، ممن أطاع الله عز وجل، وعصى

منهم سبعة، فنقبوا على أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ عز وجل للنقباء الاثنى عشر، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾، يعنى الذين بعثتهم إليكم، وفيهم عيسى، ومحمد ﷺ، فكفروا بعيسى ومحمد، صلى الله عليهما وسلم.

قال الله تعالى: ولقد أخذ الله ميثاقكم على أن تعملوا بما فى التوراة، فكان الإيمان بالنبيين من عمل التوراة، ثم قال سبحانه: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾(١)، يعنى وأعنتموهم حتى يبلغوا الرسالة، ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، يعنى طيبة بها أنفسكم، وهو التطوع، ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، يقول: أغفر لكم خطاياكم الذى كان منكم فيما بينكم وبينى، ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، يعنى البساتين، ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [آية: ١٢]، يعنى فقد أخطأ قصد الطريق، طريق الهدى، فنقضوا العهد والميثاق.

فذلك قوله سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾، فبنقضهم ميثاقهم لعناهم بالمسخ، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾، يعنى قست قلوبهم عن الإيمان بمحمد ﷺ، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، والكلم صفة محمد ﷺ، ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾، وذلك أن الله عز وجل أخذ ميثاق بنى إسرائيل فى التوراة أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، ويصدقوا به، وهو مكتوب عندهم فى التوراة، فلما بعثه الله عز وجل كفروا به وحسدوه، وقالوا: إن هذا ليس من ولد إسحاق، وهو من ولد إسماعيل، فقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، وهو الغش للنبى ﷺ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، والقليل مؤمنيهم عبد الله بن سلام وأصحابه.

يقول الله عز وجل: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾، حتى يأتى الله بأمره فى أمر بنى قريظة والنضير، فكان أمر الله فيهم القتل والسبى والجلاء، يقول: فاعف عنهم حتى يأتى، يعنى يجيء ذلك الأمر، فبلغوه فسبوا وأجلوا، فصارت آية العفو والصفح منسوخة، نسختها آية السيف فى براءة، فلما جاء ذلك الأمر قتلهم الله تعالى وسباهم وأجلاهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آية: ١٣].

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا

---

(١) انظر: (البحر المحيط ٣/٤، إعراب القرآن للعكبرى ١/١٢٢).

ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

ثم ذكر أهل الإنجيل، فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾، إنما سموا نصارى؛ لأنهم كانوا من قرية يقال لها: ناصرة، كان نزلها عيسى ابن مريم ﷺ، ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾، وذلك أن الله كان أخذ عليهم الميثاق فى الإنجيل بالإيمان بمحمد ﷺ، كما أخذ على أهل التوراة أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، ويتبعوه ويصدقوه، وهو مكتوب عندهم فى الإنجيل، يقول الله تعالى: ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾، يعنى فتركوا حظًا مما أمروا به من إيمان بمحمد ﷺ، والتصديق به، ولو آمنوا لكان خيرًا لهم، وكان لهم حظًا.

يقول الله عز وجل: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾، يعنى بين النصارى، ﴿ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ النسطورية والماريعقوبية، وعبادة الملك، فهم أعداء بعضهم لبعض إلى يوم القيامة، ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فى الآخرة، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [آية: ١٤]، يعنى بما يقولون من الجحود والتكذيب، وذلك أن النسطورية، قالوا: إن عيسى ابن الله، وقالت الماريعقوبية: إن الله هو المسيح ابن مريم، وقالت عبادة الملك: إن الله عز وجل ثالث ثلاثة، هو إله، وعيسى إله، ومريم إله، افتراء على الله تبارك وتعالى، وإنما الله إله واحد، وعيسى عبد الله ونبيه ﷺ، كما وصف الله سبحانه نفسه: أحد، صمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ، ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعنى التوراة، أخفوا أمر الرجم، وأمر محمد ﷺ، ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾، يعنى ويتجاوز عن كثير مما كتمتم، فلا يخبركم بكتمانه، ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾، يعنى ضياء من الظلمة، ﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [آية: ١٥]، يعنى بين.

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ﴾، يعنى بكتاب محمد ﷺ، ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾، يعنى من اتبع دين محمد ﷺ ودين الإسلام، يهديه الله إلى طريق الجنة، ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، يعنى من الشرك إلى الإيمان، ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، يعنى بعلمه، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آية: ١٦].

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، نزلت فى نصارى نجران الماريعقوبيين، منهم السيد والعاقب وغيرهما، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾، فمن يقدر أن يمتنع، ﴿مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ من شىء من عذابه، ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بعذاب أو بموت، فمن الذى يحول بينه وبين ذلك؟! ثم عظم الرب جل جلاله نفسه عن قولهم حين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يقول: إليه سلطان السموات والأرض، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، يعنى عيسى، شاء أن يخلقه من غير بشر، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آية: ١٧] من خلق عيسى من غير بشر وغيره من الخلق قدير، مثلها فى آخر السورة.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ يهود المدينة، منهم: كعب بن الأشرف، ومالك بن الضيف، وكعب بن أسيد، وبحرى بن عمرو، وشماس بن عمرو، وغيرهم، ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ من نصارى نجران السيد والعاقب ومن معهما، قالوا جميعًا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وافتخروا على المسلمين، وقالوا: ما أحد من الناس أعظم عند الله منزلة منا، فقال الله عز وجل لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ للمسلمين يردوا عليهم، ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾، حين زعمتم وقلتم: لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة، يعنى عدة ما عبدوا فيها العجل، إن كنتم

أبناء الله وأحباؤه، أفتطيب نفس رجل أن يعذب ولده بالنار؟ والله أرحم من جميع خلقه.

فقال الله عز وجل لنبيه ﷺ قل لهم: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ من العباد، ولستم بأبناء الله وأحبائه، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾، يعنى يتجاوز عمن يشاء فيهديه لدينه، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ فيميته على الكفر، ثم عظم الرب نفسه عز وجل عن قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق يحكم فيهما ما يشاء هم عبيده وفى ملكه، ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [آية: ١٨] فى الآخرة فيجزيكم بأعمالكم.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا
مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا
وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي
كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا
قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ
(٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا
دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ
إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ
(٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
(٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى
الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، يعنى اليهود، منهم: رافع بن أبى حريملة، ووهب بن يهوذا، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ، ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ الدين، ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ فيها تقديم، وكان بين محمد وعيسى، صلى الله عليهما وسلم، ستمائة سنة، ﴿أَن تَقُولُوا﴾، يعنى لئلا تقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ﴾ بالجنة، ﴿وَلَا نَذِيرٍ﴾ من النار، يقول: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾، يعنى النبى ﷺ، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آية: ١٩]، إذ بعث محمدًا رسولاً.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾، وهم بنو إسرائيل، ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾،

يعنى بالنعمة، ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ﴾ السبعين الذى جعلهم الله ﴿أَنْبِيَآءَ﴾ بعد موسى وهارون، وبعدما أتاهم الله بالصاعقة، ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ ، يعنى أغنياء، بعضكم عن بعض، فلا يدخل عليه أحد إلا بإذنه بمنزلة الملوك فى الدنيا، ثم قال: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ ، يعنى وأعطاكم، ﴿مَّا لَمْ يُؤْتِ﴾ ، يعنى ما لم يعط ﴿أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آية: ٢٠]، يعنى الخير والتوراة، وما أعطاكم الله عز وجل فى التيه من المن والسلوى، وما ظلل عليهم من الغمام وأشباه ذلك مما فضلوا به على غيرهم.

فقال موسى: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ بنى إسرائيل، ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ ، يعنى المطهرة ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ، يعنى التى أمركم الله عز وجل أن تدخلوها وهى أريحا أرض الأردن وفلسطين، وهما من الأرض المقدسة، ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ ، يعنى ولا ترجعوا ورائكم بترككم الدخول، ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [آية: ٢١]، يعنى فترجعوا خاسرين.

وذلك أن الله عز وجل قال لإبراهيم، عليه السلام، وهو بالأرض المقدسة: إن هذه الأرض التى أنت بها اليوم هى ميراث لولدك من بعدك، فلما أخرج الله عز وجل موسى، عليه السلام، من مصر مع بنى إسرائيل، وقطعوا البحر، وأعطوا التوراة، أمرهم موسى أن يدخلوا الأرض المقدسة، فساروا حتى نزلوا على نهر الأردن فى جبل أريحا، وكان فى أريحا ألف قرية، فى كل قرية ألف بستان، وجبنوا أن يدخلوها، فبعث موسى، عليه السلام، اثنى عشر رجلاً، من كل سبط رجلاً، يأتونه بخبر الجبارين، وأمرهم أن يأتوه منها بالثمرة.

فلما أتوها خرج إليهم عوج بن عناق بنت آدم، فاحتملهم ومتاعهم بيده حتى وضعهم بين يدى الملك بانوس بن سشرون، فنظر إليهم، فأمر بقتلهم، فقالت امرأته: أيها الملك، أنعم على هؤلاء المساكين، فدعهم فليرجعوا وليأخذوا طريقًا غير الذى جاءوا فيه، فأرسلهم لها، فأخوا عنقودًا من كرومهم، وحملوه على عمودين بين رجلين، وعجزوا عن حمله، وحملوا رمانتين على بعض دوابهم، فعجزت الدابة عن حملهما حتى أتوا به أصحابهم وهم بواد يقال له: جبلان، فسموا ذلك المنزل وادى العنقود.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ وجدناها أرضًا مباركة تفيض لبنًا وعسلاً كما عهد الله عز وجل إليك، ولكن ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ ، يعنى قتالين أشداء يقتل الرجل منهم العصابة منا،

فإن كان الله عز وجل أراد أن يجعلها لنا منزلاً وسكنًا، فليسلطك عليهم فتقتلهم وإلا فليس لنا بهم قوة، وحصنهم منيع، فتتابع على ذلك منهم عشرة، فقالوا لموسى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، طول كل رجل منهم سبعة أذرع ونصف من بقايا قوم عاد، وكان عوج بن عناق بنت آدم فيهم، ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾، وهى أريحا، ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [آية: ٢٢].

قال يوشع بن نون، وهو من سبط بنيامين، وكالب بن يوقنا، وهو من سبط يهوذا، ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾، وهما الرجلان من القوم، ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾[(١)] من العدو وقد ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالإسلام، قالا: ليس كما يقول العشرة، سيروا حتى تحيطوا بالمدينة وبأبوابها، فإن القوم إذا رأوا كثرتكم بالباب وكبرتم رعبوا منكم، فانكسرت قلوبهم وانقطعت ظهورهم، وذهبت قوتهم، فـ ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾، يقول: وبالله فلتتقوا، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آية: ٢٣] بقتلهم بأيديكم، وينفيهم من أرض هى ميراثهم.

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ﴾ أتصدق رجلين وتكذب عشرة يا موسى، ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ ينصرك عليهم، ﴿فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [آية: ٢٤]، يعنى مكاننا، فإننا لا نستطيع قتال الجبابرة، فغضب موسى عليهم، و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ﴾ من الطاعة ﴿إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ﴾ هارون، ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا﴾، يعنى فاقض بيننا ﴿وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [آية: ٢٥]، يعنى العاصين الذين عصوا أن يقاتلوا عدوهم، وهم كلهم مؤمنون.

فأوحى الله عز وجل إلى موسى، عليه السلام: أما إذا سميتهم فاسقين، فالحق أقول: لا يدخلونها أبدًا، وذلك قوله عز وجل: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ﴾ دخولها البتة أبدًا، ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ﴾ فيها تقديم، ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ﴾ فى البرية، فأعمى الله عز وجل عليهم السبيل، فحبسهم بالنهار، وسيرهم بالليل، يسهرون ليلهم، فيصبحون حيث أمسوا، فإذا بلغ أجلهم، وهو أربعون سنة، أرسلت عليهم الموت، فلا يدخلها إلا خلوفهم، إلا يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا، فهما يسوقان بنى إسرائيل إلى تلك الأرض، فتاه القوم فى تسع فراسخ عرض وثلاثين فرسخًا طول، وقالوا أيضًا: ستة

---

(١) انظر: (الطبرى ١٠/١٧٩، القرطبى ٦/١٢٧، الكشاف ١/٣٣١، البحر المحيط ٣/٤٥٥).

فراسخ عرض فى اثنى عشر فرسخًا طول، فقال القوم لموسى، عليه السلام: ما صنعت بنا، دعوت علينا حتى بقينا فى التيه؟ وندم موسى، عليه السلام، على ما دعا عليهم، وشق عليه حين تاهوا، فأوحى الله عز وجل إليه: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [آية: ٢٦]، يعنى لا تحزن على قوم أنت سميتهم فاسقين أن تاهوا.

ثم مات هارون، عليه السلام، فى التيه، ومات موسى من بعده بستة أشهر، فماتا جميعًا فى التيه، ثم إن الله عز وجل أخرج ذرياتهم بعد أربعين سنة وقد هلكت الأمة العصاة كلها، وخرجوا مع يوشع بن نون ابن أخت موسى، وكالب بن يوقنا بعد وفاة موسى، عليه السلام، بشهرين، فأتوا أريحا، فقاتلوا أهلها ففتحوها، وقتلوا مقاتلهم، وسبوا ذراريهم، وقتلوا ثلاثة من الجبارين، وكان قاتلهم يوشع بن نون، فغابت الشمس، فدعا يوشع بن نون، فرد الله عز وجل عليه الشمس، فأطلعت ثانية، وغابت الشمس الثانية، ودار الفلك فاختلط على الحساب حسابهم منذ يومئذ فيما بلغنا، ومات فى التيه كل ابن عشرين سنة فصاعدًا، وموضع التيه بين فلسطين وإيلة ومصر، فتاه القوم بعضيانهم ربهم عز وجل، وخلافهم على نبيهم، مع دعاء بلعام بن باعور بن ماث عليهم فيما بين ستة فراسخ إلى اثنى عشر فرسخًا، لا يستطيعون الخروج منها أربعين سنة، ومات هارون حين أتم ثمانية وثمانين سنة، وتوفى موسى بعده بستة أشهر، وساتخلف عليهم يوشع بن نون، وحين ماتوا كلهم أخرج ذراريهم يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾، يقول: اتل يا محمد على أهل مكة نبأ ابنى آدم، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ليعرفوا نبوتك، يقول: اتل عليهم حديث ابنى آدم هابيل وقابيل، وذلك أن حواء ولدت فى بطن واحد غلامًا وجارية، قابيل وإقليما، ثم ولدت فى البطن الآخر غلامًا وجارية، هابيل وليوذا، وكانت أخت قابيل أحسن من أخت هابيل، فلما أدركا، قال آدم، عليه السلام، ليتزوج كل واحد منهما أخت الآخر، قال قابيل: لكن يتزوج كل واحد منهما أخته التى ولدت معه، قال آدم، عليه السلام: قربا قربانًا، فأيما تقبل قربانه كان أحق بهذه الجارية.

وخرج آدم، عليه السلام، إلى مكة، فعمد قابيل، وكان صاحب زرع، فقرب أخبث زرعه البر المأكول فيه الزوان، وكان هابيل صاحب ماشية، فعمد فقرب خير غنمه مع زبد ولبن، ثم وضعا القربان على الجبل، وقاما يدعوان الله عز وجل، فنزلت نار من السماء، فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، فحسده قابيل، فقال لهابيل: لأقتلنك، قال هابيل: يا أخى، لا تلطخ يدك بدم برىء، فترتكب أمرًا عظيمًا، إنما طلبت رضا والدى ورضاك، فلا تفعل، فإنك إن فعلت أخزاك الله بقتلك إياى بغير ذنب ولا جرم، فتعيش فى الدنيا أيام حياتك فى شقوة ومخافة فى الأرض، حتى تكون من الخوف والحزن أدق من شعر رأسك، ويجعلك إلهى ملعونًا.

فلم يزل يحاوره حتى انتصف النهار، وكان فى آخر مقالة هابيل لقابيل: إن أنت قتلتنى كنت أول من كتب عليه الشقاء، وأول من يساق إلى النار من ذرية والدى، وكنت أنا أول شهيد يدخل الجنة، فغضب قابيل، فقال: لا عشت فى الدنيا، ويقال: قد تقبل قربانه ولم يتقبل قربانى، فقال له هابيل: فتشقى آخر الأبد، فغضب عند ذلك قابيل، فقتله بحجر دق رأسه، وذلك بأرض الهند عشية، وآدم، عليه السلام، بمكة، فذلك قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آية: ٢٧].

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آية: ٢٨]، ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آية: ٢٩]، ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾(١)، يقول: قزينت له

(١) انظر: (الكشاف ١/٢٣٤، إعراب القرآن للنحاس ١/٤٩٣).

نفسه قتل أخيه، ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آية: ٣٠].

قال: وكان هابيل قال لأخيه قابيل: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى..﴾ إلى قوله: ﴿بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾، يعنى أن ترجع بإثمى بقتلك إياى، وإثمك الذى عملته قبل قتلى، ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يعنى جزاء من قتل نفسًا بغير جرم، فلما قتله عشية من آخر النهار، لم يدر ما يصنع، وندم ولم يكن يومئذ على الأرض بناء ولا قبر، فحمله على عاتقه، فإذا أعيى وضعه بين يديه، ثم ينظر إليه ويبكى ساعة، ثم يحمله، ففعل ذلك ثلاثة أيام.

فلما كان فى الليلة الثالثة، بعث الله غرابين يقتتلان، فقتل أحدهما صاحبه وهو ينظر، ثم حفر بمنقاره فى الأرض، فلما فرغ منه، أخذ بمنقاره رجل الغراب الميت، حتى قذفه فى الحفيرة، ثم سوى الحفيرة بالأرض، وقابيل ينظر، فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ﴾ قابيل: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾، يقول: أعجزت أن أعلم من العلم مثل ما علم هذا الغراب، ﴿فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾، يقول: فأغطى عورة أخى كما وارى الغربا صاحبه، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [آية: ٣١] بقتله أخاه.

فعمد عند ذلك قابيل، فحفر فى الأرض بيده، ثم قذف أخاه فى الحفيرة، فسوى عليه تراب الحفيرة كما فعل الغراب بصاحبه، فلما دفنه ألقى الله عز وجل عليه الخوف، يعنى على قابيل؛ لأنه أول من أخاف، فانطلق هاربًا، فنودى من السماء: يا قابيل، أين أخوك هابيل؟ قال: أو رقيبًا كنت عليه؟ ليذهب حيث شاء، قال المنادى: أما تدرى أين هو؟ قال: لا، قال المنادى: إن لسانك وقلبك ويديك ورجليك وجميع جسدك يشهدون عليك أنك قتلته ظلمًا، فلما أنكر شهدت عليه جوارحه، فقال المنادى: أين تنجو من ربك؟ إن إلهى يقول: إنك ملعون بكل أرض، وخائف ممن يستقبلك، ولا خير فيك، ولا فى ذريتك.

فانطلق جائعًا، حتى أتى ساحل البحر، فجعل يأخذ الطير، فيضرب بها الجبل، فيقتلها ويأكلها، فمن أجل ذلك حرم الله الموقوذة، وكانت الدواب، والطير، والسباع، لا يخاف بعضها من بعض، حتى قتل قابيل هابيل، فلحقت الطير بالسماء، والوحش بالبرية والجبال، ولحقت السباع بالغياض، وكانت قبل ذلك تستأنس إلى آدم، عليه

السلام، وتأتيه، وغضبت الأرض على الكفار من يومئذ، فمن ثم يضغط الكافر فى الأرض حتى تختلف أضلاعه، ويتسع على المؤمن قبره حتى ما يرى طرفاه، وتزوج شيث بن آدم ليوذا التى ولدت مع هابيل، وبعث الله عز وجل ملكًا إلى قابيل فعلق رجله، وجعل عليه ثلاث سرادقات من نار، كلما دار دارت السرادقات معه، فمكث بذلك حينًا، ثم حل عنه.

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾[(١)]، يعنى من أجل بنى آدم، تعظيمًا للدم، ﴿كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فى التوراة ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ﴾ عمدًا، ﴿أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أو عمل فيها بالشرك، وجبت له النار، ولا يعفى عنه حتى يقتل، ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾، أى كما يجزى النار لقتله الناس جميعًا لو قتلهم، ثم قال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾، وذلك أنه مكتوب فى التوراة أنه من قتل رجلاً خطأ، فإنه يقاد به، إلا أن يشاء ولى المقتول أن يعفو عنه، فإن عفا عنه، وجبت له الجنة، كما تجب له الجنة لو عفا عن الناس جميعًا، فشدد الله عز وجل عليهم القتل؛ ليحجز بذلك بعضهم عن بعض، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، يعنى بالبيان فى أمره ونهيه، ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ البيان ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾ [آية: ٣٢]، يعنى إسرافا فى سفك الدماء واستحلال المعاصى.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، يعنى بالمحاربة الشرك، نظيرها فى براءة، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله، وذلك أن تسعة نفر من عرينة وهم من بجيلة، أتوا النبى ﷺ بالمدينة فأسلموا، فأصابهم وجع شديد، ووقع الماء الأصفر فى بطونهم، فأمرهم النبى ﷺ أن يخرجوا إلى إبل الصدقة ليشربوا من ألبانها وأبوالها، ففعلوا ذلك، فلما صحوا عمدوا إلى الراعى، فقتلوه وأغاروا على الإبل، فاستاقوها وارتدوا عن

(١) انظر: (الإتحاف ٢٠٠، القرطبى ٦/١٤٥، ١٤٦، الكشاف ١/٣٣٥، البحر المحيط ٣/٤٦٨، النشر ٢/٢٥٤).

الإسلام، فبعث النبى ﷺ على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فى نفر فأخذهم.

فلما أتوا بهم النبى ﷺ، أمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، يعنى الكفر بعد الإسلام، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ القتل وأخذ الأموال، ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾، يعنى اليد اليمنى والرجل اليسرى، فالإمام فى ذلك بالخيار فى القتل والصلب، وقطع الأبدى والأرجل، ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾، يقول: يخرجوا من الأرض، أرض المسلمين، فينفوا بالطرد، ﴿ذَٰلِكَ﴾ جزاءهم الخزى ﴿لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ قطع اليد والرجل والقتل والصلب فى الدنيا، ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آية: ٣٣]، يعنى كثيرًا وافرًا لا انقطاع له.

ثم استثنى، فقال عز وجل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ من الشرك ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾، فتقيموا عليهم الحد، فلا سبيل لكم عليهم، يقول: من جاء منهم مسلمًا قبل أن يؤخذ، فإن الإسلام يهدم ما أصاب فى كفره من قتل أو أخذ مال، فذلك قوله سبحانه: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما كان منه فى كفره ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آية: ٣٤] به حين تاب ورجع إلى الإسلام، فأما من قتل وهو مسلم، فارتد عن الإسلام، ثم رجع مسلمًا، فإنه يؤخذ بالقصاص.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾، يعنى فى طاعته بالعمل الصالح، ﴿وَجَٰهِدُواْ﴾ العدو ﴿فِى سَبِيلِهِۦ﴾، يعنى فى طاعته، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾، يعنى لكى ﴿تُفْلِحُونَ﴾ [آية: ٣٥]، يعنى تسعدون، ويقال: تفوزون.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكة، ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾، أى فقدروا أن يفتدوا به ﴿مِنْ عَذَابِ﴾ جهنم

﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، يقول: لو كان ذلك لهم وفعلوه، ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آية: ٣٦]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ﴾ بالفداء، ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ أبدًا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [آية: ٣٧]، يعني دائم.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾، يعني أيمانهما من الكرسوع، يقول: القطع ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾، يعني سرقا، ﴿نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾، يعني عقوبة من الله قطع اليد، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [آية: ٣٨]، ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾، يقول: من تاب من بعد سرقته، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل فيما بقى، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنبه، ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آية: ٣٩] به، وأما المال، فلابد أن يرده إلى صاحبه.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمد ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يحكم فيهما بما يشاء، ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ من أهل معصيته، ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾، يعني به المؤمنين، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من العذاب والمغفرة ﴿قَدِيرٌ﴾ [آية: ٤٠].

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣)﴾

وقولـه سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾، يعنى صدقنا بألسنتهم، ﴿ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ فى السر، نزلت فى أبى لبابة، اسمه: مروان بن عبد المنذر الأنصارى، من بنى عمرو بن عوزف، وذلك أنه أشار إلى أهل قريظة إلى حلقه أن محمدًا جاء يحكم فيكم بالموت، فلا تنزلوا على حكم سعد بن معاذ، وكان حليفًا لهم، ثم قال سبحانه: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾، أى ولا يحزنك الذين هادوا، يعنى يهود المدينة، ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾، يعنى قوالون للكذب، منهم: كعب بن الأشرف، وكعب بن أسيد، وأبو لبابة، وسعيد بن مالك، وابن صوريا، وكنانة بن أبى الحقيق، وشاس بن قيس، وأبو رافع بن حريملة، ويوسف بن عازر بن أبى عازب، وسلول بن أبى سلول، والبخام بن عمرو، وهم ﴿ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ ﴾، يعنى يهود خيبر، ﴿ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ يا محمد ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ ﴾، يعنى أمر الرجم، ﴿ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ عن بيانه فى التوراة.

وذلك أن رجلاً من اليهود يسمى يهوذا، وامرأة تسمى بسرة من أهل خيبر من أشراف اليهود، زنيا وكانا قد أحصنا، فكرهت اليهود رجمهما من أجل شرفهما وموضعهما، فقالت يهود خيبر: نبعث بهذين إلى محمد ﷺ، فإن فى دينه الضرب، وليس فى دينه الرجم، ونوليه الحكم فيهما، فإن أمركم فيهما بالضرب فخذوه، وإن أمركم فيهما بالرجم فاحذروه، فكتب يهود خيبر إلى يهود المدينة، إلى كعب بن الأشرف، وكعب بن أسيد، ومالك بن الضيف، وأبى لبابة، وبعثوا نفرًا منهم، فقالوا: سلوا لنا محمدًا، عليه السلام، عن الزانيين إذا أحصنا ما عليهما؟ فإن أمركم بالجلد فخذوا به، والجلد الضرب بحبل من ليف مطلى بالقار، وتسود وجوههما ويحملان على حمار، وتجعل وجوههما مما يلى ذنب الحمار، فذلك التجبية.

﴿ يَقُولُونَ ﴾، أى اليهود، ﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾، أى إن أمركم بالرجم فاحذروه على ما فى أيديكم أن يسلبكموه، قال: فجاء كعب بن الأشرف، ومالك بن الضيف، وكعب بن أسيد، وأبو لبابة، إلى النبى ﷺ، فقالوا: أخبرنا عن الزانيين إذا أحصنا ما عليهما، فأتاه جبريل، عليه السلام، فأخبره بالرجم، ثم قال جبريل، عليه السلام: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا، وسلهم عنه، فمشى رسول الله ﷺ حتى أتى أحبارهم فى بيت المدارس، فقال: «يا معشر اليهود، أخرجوا إلىَّ علماءكم»، فأخرجوا إليه عبد الله بن صوريا، وأبا ياسر بن أخطب، ووهب بن يهوذا،

فقالوا: هؤلاء علماؤنا، ثم حصر أمرهم، إلى أن قالوا لعبد الله بن صوريا: هذا أعلم من بقى بالتوراة، فجاء به رسول الله ﷺ.

وكان ابن صوريا غلامًا شابًا، ومع رسول الله ﷺ عبد الله بن سلام، فقال رسول الله ﷺ: «أنشدك بالله الذى لا إله إلا هو إله بنى إسرائيل، الذى أخرجكم من مصر، وفلق لكم البحر، وأنجاكم وأغرق آل فرعون، وأنزل عليكم كتابه يبين لكم حلاله وحرامه، وظلل عليكم المن والسلوى، هل وجدتم فى كتابكم أن الرجم على من أحصن؟»، قال ابن صوريا: اللهم نعم، ولولا أنى خفت أن أحترق بالنار، أو أهلك بالعذاب، لكتمتك حين سألتنى، ولم أعترف لك، قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، فأنا أول من أحيا سُنة من سنن الله عز وجل»، ثم أمر بهما فرجما عند باب مسجده فى بنى غنم بن مالك بن النجار.

فقال عبد الله بن صوريا: والله يا محمد، إن اليهود لتعلم أنك نبى حق، ولكنهم يحسدونك، ثم كفر ابن صوريا بعد ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ**﴾، يعنى مما فى التوراة من أمر الرجم، ونعت محمد ﷺ، ثم قال: ﴿**وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾، فلا يخبر به، فقال النبى ﷺ لليهود: «إن شئتم أخبرتكم بالكثير»، قال ابن صوريا: أنشدك بالله أن تخبرنا بالكثير مما أمرت أن تعفو عنه.

ثم قال ابن صوريا للنبى ﷺ: أخبرنى عن ثلاث خصال لا يعلمهن إلا نبى، فقال رسول الله ﷺ: «هات، سل عما شئت»، قال: أخبرنى عن نومك؟ قال: «تنام عينى وقلبى يقظان»، قال ابن صوريا: صدقت، قال: فأخبرنى عن شبه الولد، من أين يشبه الأب أو الأم؟ قال: «أيهما سبقت الشهوة له كان الشبه له»، قال: صدقت، قال: أخبرنى ما للرجل وما للمرأة من الولد، ومن أيهما يكون ؟ قال النبى ﷺ: «اللحم والدم والظفر والشعر للمرأة، والعظم والعصب والعروق للرجل»، قال: صدقت، قال: فمن وزيرك من الملائكة، ومن يجيئك بالوحى؟ قال: «جبريل، عليه السلام»، قال: صدقت يا محمد، وأسلم عند ذلك.

قوله سبحانه: ﴿**إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ**﴾، يقول ذلك يهود خيبر ليهود المدينة، كعب بن الأشرف، ومالك بن الضيف، وكعب بن أسيد، وأبى لبابة: إن أمركم محمد

بالجلد فاقبلوه، وإن لم تؤتوه، يعنى الجلد، وإن أمركم بالرجم فاحذروا، فإنه نبى، قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾، يعنى اليهود، ﴿لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ من الكفر حين كتموا أمر الرجم ونعت محمد ﷺ، ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ﴾، يعنى به اليهود، وهم أهل قريظة، أما الخزى الذى نزل بهم، فهو القتل والسبى، وأما خزى أهل النضير، فهو الخروج من ديارهم وأموالهم وجناتهم، فأجلوا إلى الشام، إلى أذرعات وأريحا، ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آية: ٤١]، يعنى ما عظم من النار.

ثم قال: ﴿سَمَّـٰعُونَ﴾، يعنى قوالون ﴿لِلْكَذِبِ﴾ للزور، منهم: كعب بن الأشرف، وكعب بن أسيد، ومالك بن الضيف، ووهب بن يهوذا، ﴿أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ﴾، يعنى الرشوة فى الحكم، كانت اليهود قد جعلت لهم جعلاً فى كل سنة، على أن يقضوا لهم بالجور، يقول الله عز وجل: ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ يا محمد فى الرجم، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾، يعنى بالعدل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [آية: ٤٢]، يعنى الذين يعدلون فى الحكم، ثم نسختها الآية التى جاءت بعد، وهى قوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ إليك فى الكتاب أن الرجم على المحصن والمحصنة، ولا ترد الحكم، ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ﴾، يعنى كعب بن الأشرف، وكعب بن أسيد، ومالك بن الضيف.

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾، يعنى الرجم على المحصن والمحصنة، والقصاص فى الدماء سواء، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ﴾، يعنى يعرضون من بعد البيان فى التوراة، ﴿وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آية: ٤٣]، يعنى وما أولئك بمصدقين حين حرفوا ما فى التوراة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن

تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾

ثم أخبر الله عن التوراة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ وضياء من الظلمة، ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ من لدن موسى، عليه السلام، إلى عيسى ابن مريم ﷺ، ألف نبى، ﴿ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾، يعنى أنهم مسلمون، أو أسلموا وجوههم لله، ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾، يعنى اليهود يحكمون بما هم وما عليهم، ﴿وَ﴾ يحكم بها ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾، وهم المتعبدون من أهل التوراة من ولد هارون، يحكمون بالتوراة، ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾، يعنى القراء والعلماء منهم، ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ عز وجل من الرجم، وبعث محمد ﷺ فى كتابهم، ثم قال يهود المدينة، كعب بن الأشرف، وكعب بن أسيد، ومالك بن الضيف، وأصحابهم، ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾، يقول: لا تخشوا يهود خيبر أن تخبروهم بالرجم، ونعت محمد ﷺ، ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ إن كتمتموه، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ﴾ عرضًا يسيرًا مما كانوا يصيبون من سفلة اليهود من الطعام والثمار، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فى التوراة بالرجم ونعت محمد ﷺ، ويشهد به، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [آية: ٤٤].

ولما أرادوا القيام، قالت بنو قريظة، أبو لبابة، وشعبة بن عمرو، ورافع بن حريملة، وشاس بن عمرو، للنبى ﷺ: إخواننا بنى النضير، كعب بن الأشرف، وكعب بن أسيد، ومالك بن الضيف، وغيرهم، أبونا واحد، وديننا واحد، إذا قتل أهل النضير منا قتيلاً، أعطونا سبعين وسقًا من تمر، وإن قتلنا منهم قتيلاً، أخذوا منا مائة وأربعين وسقًا من تمر، وجراحاتنا على أنصاف جراحاتهم، فاقض بيننا وبينهم يا محمد، فقال رسول الله ﷺ: «إن دم القرظى وفاء من دم النضيرى، وليس للنضيرى على القرظى فضل فى الدم ولا فى العقل»، قال كعب بن الأشرف، ومالك بن الضيف، وكعب بن أسيد، وأصحابهم: لا نرضى بقضائك، ولا نطيع أمرك، ولنأخذن بالأمر الأول، فإنك عدونا، وما تأول أن تضعنا وتضرنا.

وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، يعنى حكمهم الأول، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾، يقول: فلا أحد أحسن من الله حكمًا، ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وعد الله عز وجل ووعيده، ثم أخبر عن التوراة، فقال سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾، يعنى وفرضنا عليهم فى التوراة، نظيرها فى المجادلة: ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ [المجادلة: ٢١]، يعنى قضى، ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾، يقول: فمن تصدق بالقتل والجراحات، فهو كفارة لذنبه، يقول: إن عفى المجروح عن الجارح، فهو كفارة للجارح من الجرح، ليس عليه قود ولا دية، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فى التوراة من أمر الرجم والقتل والجراحات، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [آية: ٤٥].

ثم أخبر عن أهل الإنجيل، فقال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾، يعنى وبعثنا من بعدهم، يعنى من بعد أهل التوراة، ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، يقول: عيسى يصدق بالتوراة، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾، يعنى أعطينا عيسى الإنجيل، ﴿فِيهِ هُدًى﴾ من الضلالة، ﴿وَنُورٌ﴾ من الظلمة، ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، يقول: الإنجيل يصدق التوراة، ﴿وَ﴾ الإنجيل ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة، ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ من الجهل، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آية: ٤٦] الشرك.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ﴾ من الأحبار والرهبان، ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾، يعنى فى الإنجيل من العفو عن القاتل أو الجارح والضارب، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فى الإنجيل من العفو واقتص من القاتل والجارح والضارب، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آية: ٤٧]، يعنى العاصين لله عز وجل.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ

لَفَسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يا محمد ﷺ، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، يعنى القرآن بالحق، لم ننزله عبثًا ولا باطلاً لغير شيء، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، يقول: وشاهدًا عليه، وذلك أن قرآن محمد ﷺ شاهد بأن الكتب التى أنزلت قبله أنها من الله عز وجل، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ إليك فى القرآن، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾، يعنى أهواء اليهود، ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، وهو القرآن، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً﴾، يعنى من المسلمين وأهل الكتاب، ﴿شِرْعَةً﴾، يعنى سُنة، ﴿وَمِنْهَاجًا﴾، يعنى طريقًا وسبيلاً، فشريعة أهل التوراة فى قتل العمد القصاص ليس لهم عقل ولا دية، والرجم على المحصن والمحصنة إذا زنيا.

وشريعة الإنجيل فى القتل العمد العفو، ليس لهم قصاص ولا دية، وشريعتهم فى الزنا الجلد بلا رجم، وشريعة أمة محمد ﷺ فى قتل العمد القصاص والدية والعفو، وشريعتهم فى الزنا إذا لم يحصن الجلد، فإذا أحصن فالرجم، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ يا أمة محمد ﷺ وأهل الكتاب، ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على دين الإسلام وحدها، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ﴾، يعنى يبتليكم ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، يعنى فيما أعطاكم من الكتاب والسُنة من يطع الله عز وجل فيما أمر ونهى، ومن يعصه ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، يقول: سارعوا فى الأعمال الصالحة يا أمة محمد، فيما ذكر من السبيل والسُنة، ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ فى الآخرة أنتم وأهل الكتاب، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آية: ٤٨] فى الدين.

قوله سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ إليك فى الكتاب، يعنى بين اليهود، وذلك أن قومًا من رءوس اليهود من أهل النصير اختلفوا، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه ونرده عما هو عليه، فإنما هو بشر إذن فيستمع، فأتوه فقالوا له: هل لك أن تحكم لنا على أصحابنا أهل قريظة فى أمر الدماء كما كنا عليه من قبل، فإن فعلت، فإنا نبايعك ونطيعك، وإنا إذا بايعناك تابعك أهل الكتاب كلهم؛ لأنا سادتهم وأحبارهم، فنحن نفتنهم ونزلهم عما هم عليه حتى يدخلوا فى دينك.

فأنزل الله عز وجل يحذر نبيه ﷺ، فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فى أمر الدماء، ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾، يعنى أن يصدوك، ﴿عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ من أمر

الدماء بالسوية، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾، يقول: فإن أبوا حكمك، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم﴾، يعنى أن يعذبهم فى الدنيا بالقتل والجلاء من المدينة إلى الشام، ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾، يعنى ببعض الدماء التى كانت بينهم من قبل أن يبعث محمد ﷺ، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾، يعنى رءوس اليهود، ﴿لَفَاسِقُونَ﴾ [آية: ٤٩]، يعنى لعاصون حين كرهوا حكم النبى ﷺ فى أمر الدماء بالحق.

فقال كعب بن الأشرف، ومالك بن الضيف، وكعب بن أسيد، للنبى ﷺ: لا نرضى بحكمك، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾(١)، الذى كانوا عليه من الجور من قبل أن يبعث محمد ﷺ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾، يقول: فلا أحد أحسن من الله حكمًا، ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [آية: ٥٠] بالله عز وجل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، نزلت فى رجلين من المسلمين، ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، قال: لما كانت وقعة أُحُد، خاف ناس من المسلمين أن يدال الكفار عليهم، فقال رجل منهم: أنا آتى فلانًا اليهودى فأتهود، فإنى أخشى أن يدال الكفار علينا، قال الآخر: أما أنا، فإنى آتى الشام فأنتصر، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾، يعنى من المؤمنين، ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾، يعنى يلحق بهم ويكون معهم؛ لأن المؤمنين لا يتولون الكفار، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آية: ٥١].

ثم ذكر أنه إنما يتولاهم المنافقون؛ لأنهم وافقوهم على ما يقولون، قال سبحانه: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾(٢)، وهو الشك، فهم المنافقون، ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾،

---

(١) انظر: (القرطبى ٦/٢١٥، الكشاف ١/٣٤٣، البحر المحيط ٣/٥٠٥، الرازى ٣/٤١١ مغنى اللبيب ٢/١٠٦).

(٢) انظر: (إعراب القرآن للعكبرى ١/١٢٧، البحر المحيط ٣/٥٠٨).

يعنى فى ولاية اليهود بالمدينة، ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾، يعنى دولة اليهود على المسلمين، وذلك أن نفرًا من المنافقين، أربعة وثمانين رجلاً، منهم: عبد الله بن أبى، وأبو نافع، وأبو لبابة، قالوا: نتخذ عند اليهود عهدًا ونواليهم فيما بيننا وبينهم، فإنا لا ندرى ما يكون فى غد، ونخشى ألا ينصر محمد ﷺ، فينقطع الذى بيننا وبينهم، ولا نصيب منهم قرضًا ولا ميرة، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾، يعنى بنصر محمد ﷺ الذى يئسوا منه، ﴿أَوْ﴾ يأتى ﴿أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾، قتل قريظة، وجلاء النضير إلى أذرعات، فلما رأى المنافقون ما لقى أهل قريظة والنضير، ندموا على قولهم، قال: ﴿فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [آية: ٥٢].

فلما أخبر الله عز وجل نبيه ﷺ عن المنافقين، أنزل هذه الآية: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بعضهم لبعض: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، يعنى المنافقين، ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، إذ حلفوا بالله عز وجل، فهو جهد اليمين، ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ على دينكم، يعنى المنافقين، ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾، يعنى بطلت أعمالهم؛ لأنها كانت فى غير الله عز وجل، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [آية: ٥٣] فى الدنيا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾، وذلك حين هزموا يوم أُحُد، شك أناس من المسلمين، فقالوا ما قالوا، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، فارتد بعد وفاة رسول الله ﷺ بنو تميم، وبنو حنيفة، وبنو أسد، وغطفان، وأناس من كندة، منهم الأشعث بن قيس، فجاء الله عز وجل بخير من الذين ارتدوا، بوهب بطن من كندة، وبأحمس بجيلة، وحضرموت، وطائفة من حمير وهمذان، أبدلهم مكان الكافرين.

ثم نعتهم، فقال سبحانه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالرحمة واللين، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، يعنى عليهم بالغلظة والشدة، فسدد الله عز وجل بهم الدين، ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ العدو، يعنى فى طاعة الله، ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾، يقول: ولا يبالون غضب من غضب عليهم، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾، يعنى دين الإسلام، ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ لذلك الفضل، ﴿عَلِيمٌ﴾ [آية: ٥٤] لمن يؤتى الإسلام، وفيهم نزلت وفى الإبدال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [آية: ٥٥]، وذلك أن عبد الله بن سلام وأصحابه قالوا للنبى ﷺ عند صلاة الأولى: إن اليهود أظهروا لنا العداوة من أجل الإسلام، ولا يكلموننا، ولا يخالطوننا فى شىء، ومنازلنا فيهم، ولا نجد متحدثًا دون هذا المسجد، فنزلت هذه الآية، فقرأها النبى ﷺ، فقالوا: قد رضينا بالله ورسوله وبالمؤمنين أولياء، وجعل الناس يصلون تطوعًا بعد المكتوبة، وذلك فى صلاة الأولى.

وخرج النبى ﷺ إلى باب المسجد، فإذا هو بمسكين قد خرج من المسجد، وهو يحمد الله عز وجل، فدعاه النبى ﷺ، فقال: «هل أعطاك أحد شيئًا؟»، قال: نعم يا نبى الله، قال: «من أعطاك؟»، قال: الرجل القائم أعطانى خاتمه، يعنى على بن أبى طالب، رضوان الله عليه، فقال النبى ﷺ: «على أى حال أعطاكه؟»، قال: أعطانى وهو راكع، فكبر النبى ﷺ، وقال: «الحمد لله الذى خص عليًا بهذه الكرامة»، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، يعنى على بن أبى طالب، رضى الله عنه، ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [آية: ٥٦]، يعنى شيعة الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون، فبدأ بعلى بن أبى طالب، رضى الله عنه، قبل المسلمين، ثم جعل المسلمين وأهل الكتاب المؤمنين، فيهم عبد الله بن سلام وغيره هم الغالبون لليهود، حين قتلوهم وأجلوهم من المدينة إلى الشام وأذرعات وأريحا.

قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، يعنى المنافقين الذين أقروا باللسان وليس الإيمان فى قلوبهم، ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ﴾ الإسلام ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾، يعنى استهزاء وباطلاً، وذلك أن المنافقين كانوا يوالون اليهود فيتخذونهم أولياء، قال: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعنى اليهود، ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ لأنهم أعطوا التوراة قبل أمة محمد ﷺ،

يقول: لا تتخذوهم أولياء، ﴿وَ﴾ لا تتخذوا ﴿وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾، يعني كفار اليهود ومشركي العرب، ثم حذرهم، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آية: ٥٧]، يعني إن كنتم مصدقين، فلا تتخذوهم أولياء، يعني كفار العرب، حين قال عبد الله بن أبي، وعبد الله بن نتيل، وأبو لبابة، وغيرهم من اليهود: لئن أخرجتم لنخرجن معكم، حين كتبوا إليهم.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

ثم أخبر عن اليهود، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾، يعني استهزاء وباطلاً، وذلك أن اليهود كانوا إذا سمعوا الأذان، ورأوا المسلمين قاموا إلى صلاتهم، يقولون: قد قاموا لا قاموا، وإذا رأوهم ركعوا، قالوا: لا ركعوا، وإذا رأوهم سجدوا ضحكوا، وقالوا: لا سجدوا، واستهزءوا، يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [آية: ٥٨]، يقول: لو عقلوا ما قالوا هذه المقالة.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [آية: ٥٩]، قال: أتى النبي ﷺ أبو ياسر، وحيي بن أخطب، ونافع بن أبي نافع، وعازر بن أبي عازر، وخالد وزيد ابنا عمرو، وأزر بن أبي أزر، وأشيع، فسألوه عن من يؤمن به من الرسل، فقال رسول الله ﷺ: «نؤمن ﴿بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾» [البقرة: ١٣٦]، فلما ذكر عيسى ابن مريم جحدوا نبوته ﷺ، وقالوا: لا نؤمن بعيسى ولا بمن آمن به، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا

﴿إلاَّ أنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، يعنى صدقنا بالله بأنه واحد لا شريك له، ﴿وَ﴾ صدقنا بـ ﴿مَا أُنزلَ إلَيْنَا﴾، يعنى قرآن محمد ﷺ، ﴿وَ﴾ صدقنا بـ ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ قرآن محمد ﷺ، الكتب التى أنزلها الله عز وجل على الأنبياء، عليهم السلام، ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾، يعنى عصاة.

قالت اليهود للمؤمنين: ما نعلم أحدًا من أهل هذه الأديان أقل حظًا فى الدنيا والآخرة منكم، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾، يعنى المؤمنين، ﴿مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾(١)، يعنى ثوابًا من عند الله، قالت اليهود: من هم يا محمد؟ فقال النبى ﷺ: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾، وهم اليهود، ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾، فإن لم يقتل أقر بالخراج وغضب عليه، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾، القردة فى شأن الحيتان، والخنازير فى شأن المائدة، ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، فيها تقديم، ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾(٢)، يعنى ومن عبد الطاغوت، وهو الشيطان، ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ فى الدنيا، يعنى شر منزلة، ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [آية: ٦٠]، يعنى وأخطأ عن قصد الطريق من المؤمنين.

فلما نزلت هذه الآية، عيرت اليهود، فقالوا لهم: يا إخوان القردة والخنازير، فنكسوا رءوسهم وفضحهم الله تعالى، وجاء أبو ياسر بن أخطب، وكعب بن الأشرف، وعزر بن أبى عازر، ونافع بن أبى نافع، ورافع بن أبى حريملة، وهم رؤساء اليهود، حتى دخلوا على رسول الله ﷺ، فقالوا: قد صدقنا بك يا محمد؛ لأنا نعرفك ونصدقك ونؤمن بك.

ثم خرجوا من عنده بالكفر، غير أنهم أظهروا الإيمان، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ﴾ اليهود، ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾، يعنى صدقنا بمحمد ﷺ؛ لأنهم دخلوا عليه وهم يسرون الكفر، وخرجوا من عنده بالكفر، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾، يعنى بالكفر مقيمين عليه، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [آية: ٦١]، يعنى بما يسرون فى قلوبهم من الكفر بمحمد ﷺ، نظيرها فى آل عمران.

ثم أخبر عنهم، فقال سبحانه: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾، يعنى المعصية،

(١) انظر: (الإتحاف ٢٠١، الكشاف ٣٤٨/١، البحر المحيط ٥١٨/٣، مجمع البيان ٢١٤/٢).

(٢) انظر: (الإتحاف ٢٠١، البحر المحيط ٥١٩/٣، القرطبى ٢٣٥/٦، الطبرى ٢٣٩،١٠، السبعة ٢٤٦، غيث النفع ٢٠٤، الكشف ٤١٤، النشر ٢٥٥/٢، الرازى ٤٢٢/٣ التيسير ١٠٠، العنوان ٧١، التهذيب اللغة «ع د ب»، لسان العرب «عبد»).

﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾، يعنى الظلم، وهو الشرك، ﴿وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَ﴾، يعنى كعب بن الأشرف؛ لأنه كان يرشى فى الحكم ويقضى بالجور، ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [آية: ٦٢]، ثم عاتب الله عز وجل الربانيين والأحبار، فقال: ﴿لَوۡلَا﴾، يعنى فهلا ﴿يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾، يعنى بالربانيين المتعبدين والأحبار، يعنى القراء الفقهاء أصحاب القربان من ولد هارون، عليه السلام، وكانوا رءوس اليهود، ﴿عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ﴾، يعنى الشرك، ﴿وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَ﴾، يعنى الرشوة فى الحكم، ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [آية: ٦٣]، حين لم ينهوهم، فعاب من أكل السحت: الرشوة فى الحكم، وعاب الربانيين الذين لم ينهوهم عن أكله.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ﴾، يعنى ابن صوريا، وفنحاص اليهوديين، وعازر بن أبى عازر، ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾، يعنى ممسكة، أمسك الله يده عنا، فلا تبسطها علينا بخير، وليس بجواد، وذلك أن الله عز وجل بسط عليهم فى الرزق، فلما عصوا واستحلوا ما حرم عليهم، أمسك عنهم الرزق، فقالوا عند ذلك: يد الله محبوسة عن البسط، يقول الله عز وجل: ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾، يعنى أمسكت أيديهم عن الخير، ﴿وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ بالخير، ﴿يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾، إن شاء وسع فى الرزق، وإن شاء قتر، هم خلقه وعبيده فى قبضته.

ثم قال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم﴾، يعنى اليهود من بنى النضير، ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾، يعنى أمر الرجم والدماء، ونعت محمد ﷺ، ﴿طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ﴾ بالقرآن، يعنى جحودًا به، ﴿وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ﴾، يعنى اليهود والنصارى، شر ألقاه عز وجل بينهم، ﴿ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾، يعنى يبغض بعضهم بعضًا، ويشتم بعضًا، ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾، فلا يحب اليهودى النصرانى ولا النصرانى اليهودى، ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾، يعنى كلما أجمعوا أمرهم على مكر بمحمد ﷺ فى أمر الحرب، فرقه الله عز وجل، وأطفأ نار مكرهم، فلا يظفرون بشىء أبدًا، ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ﴾،

يعنى يعملون فيها بالمعاصى، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آية: ٦٤]، يعنى العاملين بالمعاصى.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعنى اليهود والنصارى، ﴿ءَامَنُوا۟﴾، يعنى صدقوا بتوحيد الله، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ الشرك، ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، يعنى لمحونا عنهم ذنوبهم، ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [آية: ٦٥]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾، فعملوا بما فيهما من أمر الرجم والزنا وغيره، ولم يحرفوه عن مواضعه فى التوراة التى أنزلها الله عز وجل، فأما فى الإنجيل، فنعت محمد ﷺ، وأما فى التوراة، فنعت محمد ﷺ، والرجم والدماء وغيرها، ولم يحرفوها عن مواضعها، ﴿وَ﴾ أقاموا بـ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فى التوراة والإنجيل من نعت محمد ﷺ، ومن إيمان بمحمد ﷺ، ولم يحرفوا نعته، ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ﴾، يعنى المطر، ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾، يعنى من الأرض: النبات، ثم قال عز وجل: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾، يعنى عصبة عادلة فى قولها من مؤمنى أهل التوراة والإنجيل، فأما أهل التوراة، فعبد الله بن سلام وأصحابه، وأما أهل الإنجيل، فالذين كانوا على دين عيسى ابن مريم ﷺ، وهم اثنان وثلاثون رجلاً، ثم قال سبحانه: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾، يعنى من أهل الكتاب، يعنى كفارهم، ﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [آية: ٦٦]، يعنى بئس ما كانوا يعملون.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ﴾، يعنى محمدًا ﷺ، ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، وذلك أن النبى ﷺ دعا اليهود إلى الإسلام، فأكثر الدعاء، فجعلوا يستهزئون ويقولون: أتريد يا محمد أن نتخذك حنانًا كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم حنانًا؟

فلما رأى النبى ﷺ ذلك، سكت عنهم، فحرض الله، يعنى فحضض الله عز وجل النبى ﷺ على الدعاء إلى الله عز وجل، وألا يمنعه ذلك تكذيبهم إياه واستهزاؤهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، يعنى من اليهود، فلا تقتل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آية: ٦٧]، يعنى اليهود، فلما نزلت هذه الآية، أمن النبى ﷺ من القتل والخوف، فقال: «لا أبالى من خذلنى ومن نصرنى»، وذلك أنه كان يخشى أن تغتاله اليهود فتقتله.

ثم أخبره ماذا يبلغ، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعنى اليهود والنصارى، ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من أمر الدين، ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾، يقول: حتى تتلوهما حق تلاوتهما كما أنزلهما الله عز وجل، ﴿وَ﴾ تقيموا ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ من أمر محمد ﷺ، ولا تحرفوه عن مواضعه، فهذا الذى أمر الله عز وجل أن يبلغ أهل الكتاب، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، يعنى ما فى القرآن من أمر الرجم والدماء، ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾، يعنى وجحودًا بالقرآن، ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ﴾، يعنى فلا تحزن يا محمد ﷺ على القوم ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آية: ٦٨]، يعنى أهل الكتاب إذ كذبوك بما تقول.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا
كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ
كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ
وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ
وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، يعنى الذين صدقوا، ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾، يعنى

اليهود، ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾، هم قوم من النصارى صبأوا إلى دين نوح وفارقوا هذه الفرق الثلاث، وزعموا أنهم على دين نوح، عليه السلام، وأخطأوا؛ لأن دين نوح، عليه السلام، كان على دين الإسلام، ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾، إنما سموا نصارى؛ لأنهم ابتدعوا هذا الدين بقرية تسمى ناصرة، قال الله عز وجل: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ من هؤلاء ﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، وأدى الفرائض من قبل أن يبعث محمد ﷺ، فله الجنة، ومن بقى منهم إلى أن يبعث محمد ﷺ، فلا إيمان له، إلا أن يصدق بمحمد ﷺ، فمن صدق بالله عز وجل أنه واحد لا شريك له، وبما جاء به محمد ﷺ، وبالبعث الذى فيه جزاء الأعمال، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العذاب، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آية: ٦٩] من الموت.

قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فى التوراة على أن يعملوا بما فيها، ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾، يعنى وأرسل الله تعالى إليهم رسلاً، ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾، يعنى اليهود، ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟﴾، يعنى اليهود، فريقا كذبوا عيسى ﷺ ومحمدًا ﷺ، ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [آية: ٧٠]، يعنى اليهود، كذبوا بطائفة من الرسل، وقتلوا طائفة من الرسل، يعنى زكريا، ويحيى فى بنى إسرائيل.

قوله عز وجل: ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، يعنى اليهود، حسبوا ألا يكون شرك ولا يبتلوا ولا يعاقبوا بتكذيبهم الرسل وبقتلهم الأنبياء، أن لا يبتلوا بالبلاء والشدة من قحط المطر، ﴿فَعَمُوا۟﴾ عن الحق، فلم يبصره، ﴿وَصَمُّوا۟﴾ عن الحق، فلم يسمعوه، ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، يقول: تجاوز عنهم، فرفع عنهم البلاء، فلم يتوبوا بعد رفع البلاء، ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (١) [آية: ٧١] من قتلهم الأنبياء وتكذيبهم الرسل.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، نزلت فى نصارى نجران الماريعقوبيين، منهم السيد والعاقب وغيرهما، قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾، يعنى وحدوا الله ربى وربكم، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾، فيقول: إن الله هو المسيح ابن مريم، فيموت على الشرك، ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾، يعنى وما

---

(١) انظر: (الكشاف ٢٥٥/١، الرازى ٤٣٢/٣، البحر المحيط ٥٣٤/٣).

للمشركين ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آية: ٧٢]، يعنى من مانع يمنعهم من النار.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، يعنى الملكانيين، قالوا: الله والمسيح ومريم، يقول الله عز وجل تكذيبًا لقولهم: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الشرك ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾، يعنى ليصيبن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آية: ٧٣]، يعنى وجيع، والقتل بالسيف، والجزية على من بقى منهم عقوبة.

ثم قال سبحانه يعيبهم: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾، يعنى أفهلا يتوبون إلى الله، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ﴾ من الشرك، فإن فعلوا غفر لهم، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آية: ٧٤] بهم.

﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

ثم أخبر عن عيسى ﷺ، فقال سبحانه: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ﴾، يعنى مؤمنة كقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦]، يعنى مؤمنًا نبيًا، وذلك حين قال لها جبريل، عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩]، وفى بطنك المسيح، فآمنت بجبريل، عليه السلام، وصدقت بالمسيح ابن مريم، عليه السلام، ثم سميت الصديقة، وهى يومئذ فى محراب بيت المقدس، ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ﴾، فلو كانا إلهين ما أكلا الطعام،

﴿ٱنظُرۡ﴾ يا محمد ﴿كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، يعنى العلامات فى أمر عيسى ومريم أنهم كانا يأكلان الطعام والآلهة لا تأكل الطعام، ﴿ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [آية: ٧٥]، يعنى من أين يكذبون، فأعلمهم أنى واحد.

﴿قُلۡ﴾ لنصارى نجران، ﴿أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، يعنى عيسى، ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا﴾ فى الدنيا، ﴿وَلَا نَفۡعٗاۚ﴾ فى الآخرة، ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقولهم: إن الله هو المسيح ابن مريم، وثالث ثلاثة، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ [آية: ٧٦] بمقالتهم.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، يعنى نصارى نجران، ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ عن دين الإسلام فتقولوا ﴿غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ فى عيسى ابن مريم، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ عن الهدى، ﴿مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ﴾، عن الهدى ﴿كَثِيرٗا﴾ من الناس، ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [آية: ٧٧]، يعنى وأخطأوا عن قصد سبل الهدى نزلت فى برصيصا.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ اليهود ﴿مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، يعنى من سبط بنى إسرائيل، ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾ ابن أنبشا، وذلك أنهم صادوا الحيتان يوم السبت، وكانوا قد نهوا عن صيد الحيتان يوم السبت، قال داود: اللهم إن عبادك قد خالفوا أمرك وتركوا أمرك، فاجعلهم آية ومثلاً لخلقك، فمسخهم الله عز وجل قردة، فهذه لعنة داود، عليه السلام، ﴿وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾، وأما لعنة عيسى ﷺ، فإنهم أكلوا المائدة، ثم كفروا ورفعوا من المائدة، فقال عيسى: اللهم إنك وعدتنى أن من كفر منهم بعدما يأكل من المائدة أن تعذبه عذابًا لا تعذبه أحدًا من العالمين، اللهم العنهم كما لعنت أصحاب السبت، فكانوا خمسة آلاف، فمسخهم الله عز وجل خنازير، ليس فيهم امرأة ولا صبى، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ فى ترك أمره، ﴿وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [آية: ٧٨] فى دينهم. ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [آية: ٧٩] حين لم ينهوهم عن المنكر.

ثم قال عز وجل: ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾، يعنى من قريش، ﴿لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾؛ لأنهم ليسوا بأصحاب كتاب، ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ [آية: ٨٠]، ﴿وَلَوۡ كَانُواْ﴾، يعنى اليهود، ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، يعنى يصدقون بالله عز وجل بأنه واحد لا شريك له، ﴿وَ﴾

بـ﴿وَالنَّبِيِّ﴾ ﷺ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ من القرآن، ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، يقول: ما تخذوا مشركى العرب أولياء، ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ من اليهود ﴿فَٰسِقُونَ﴾ [آية: ٨١]، يعنى عاصين.

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾، كان اليهود يعاونون مشركى العرب على قتال النبى ﷺ، ويأمرونهم بالمسير إلى النبى ﷺ، ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾، يعنى مشركى العرب أيضًا، كانوا شديدى العداوة للنبى ﷺ وأصحابه، رضى الله عنهم، ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾، وليس يعنى فى الحب، ولكن يعنى فى سرعة الإجابة للإيمان، ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾، وكانوا فى قرية تسمى ناصرة، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾، يعنى متعبدين أصحاب الصوامع، ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [آية: ٨٢]، يعنى لا يتكبرون عن الإيمان.

نزلت فى أربعين رجلاً من مؤمنى أهل الإنجيل، منهم اثنان وثلاثون رجلاً قدموا من أرض الحبشة مع جعفر بن أبى طالب، رضى الله عنه، وثمانية نفر قدموا من الشام معهم بحيرى الراهب، وأبرهة، والأشرف، ودريس، وتمام، وقسيم، ودريد، وأيمن، والقسيسون الذين يحلقون أواسط رءوسهم، وذلك أنهم حين سمعوا القرآن من النبى ﷺ، قالوا: ما أشبه هذا بالذى كنا نتحدث به عن عيسى ابن مريم ﷺ، فبكوا وصدقوا بالله عز وجل ورسله، فنزلت فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ من القرآن، ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾، يعنى صدقنا بالقرآن أنه من الله

عز وجل، ﴿فَاكْتُبْنَا﴾، يعنى فاجعلنا ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آية: ٨٣]، يعنى مع المهاجرين، يعنى من أمة محمد ﷺ، نظيرها فى المجادلة: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، يقول: جعل فى قلوبهم الإيمان، وهو التوحيد.

وقالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾، وذلك أنهم لما أسلموا ورجعوا إلى أرضهم، لامهم كفار قومهم، فقالوا: أتركتم ملة عيسى ﷺ ودين آبائكم، قالوا: نعم، ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ ﴿وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ مع محمد ﷺ، ﴿وَنَطْمَعُ﴾، يعنى ونرجو ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ الجنة ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [آية: ٨٤]، وهم المهاجرين الأول، رضوان الله عليهم.

﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ من التصديق، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون، ﴿وَذَلِكَ﴾ الثواب ﴿جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آية: ٨٥]. ثم قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، يعنى بالقرآن بأنه ليس من الله عز وجل، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [آية: ٨٦]، يعنى ما عظم من النار، يعنى كفار النصارى الذين لاموهم حين أسلموا وتابعوا النبى ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ من اللباس والنساء، نزلت فى عشر نفر، منهم: على بن أبى طالب، رضى الله عنه، وعمر، وابن مسعود، وعمار بن ياسر، وعثمان بن مظعون، والمقداد بن الأسود، وأبو ذر الغفارى، وسلمان الفارسى، وحذيفة بن اليمان، وسالم مولى أبى حذيفة، ورجل آخر، اجتمعوا فى بيت عثمان بن مظعون، رضى الله عنهم، ثم قالوا: تعالوا حتى نحرم على أنفسنا الطعام واللباس والنساء، وأن يقطع بعضهم مذاكيره، ويلبس المسرح، ويبنوا الصوامع، فيترهبوا فيها، فتفرقوا وهذا رأيهم.

فجاء جبريل، عليه السلام، فأخبر النبى ﷺ بذلك، فأتى منزل عثمان بن مظعون، رضى الله عنه، فلم يجدهم، فقال النبى ﷺ لامرأة عثمان: «أحق ما بلغنى عن عثمان وأصحابه؟»، قالت: وما هو يا رسول الله؟ فأخبرها النبى ﷺ الذى بلغه، فكرهت أن

تكذب النبى ﷺ، أو تفشى سر زوجها، فقالت: يا رسول الله، إن كان عثمان أخبرك بشىء، فقد صدقك، أو أخبرك الله عز وجل بشىء، فهو كما أخبرك ربك تعالى ذكره، فقال النبى ﷺ: «قولى لزوجك إذا جاء: إنه ليس منى من لم يستن بسنتى، ويهتد بهدينا، ويأكل من ذبائحنا، فإن من سنتنا اللباس، والطعام، والنساء، فأعلمى زوجك، وقولى له: من رغب عن سنتى فليس منى».

فلما رجع عثمان وأصحابه أخبرته امرأته بقول النبى ﷺ، فما أعجبه، فذروا الذى ذكره النبى ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾، فتحرموا حلاله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [آية: ٨٧] من يحرم حلاله، ويعتدى فى أمره عز وجل، ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾، اللباس، والنساء، والطعام، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، ولا تحرموا ما أحل الله لكم، واتقوا الله، ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [آية: ٨٨]، يقول: الذى أنتم به مصدقون.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾، وهو الرجل يحلف على أمر وهو يرى أنه فيه صادق وهو كاذب، فلا إثم عليه ولا كفارة، ﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾، يقول: بما عقد عليه قلبك، فتحلف وتعلم أنك كاذب، ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾، يعنى كفارة هذا اليمين الذى عقد عليها قلبه وهو كاذب، ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ﴾، لكل مسكين نصف صاع حنطة، ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ﴾[1]، يعنى من أعدل ما تطعمون ﴿أَهْلِيكُمْ﴾ من الشبع، نظيرها فى البقرة: ﴿جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، يعنى عدلاً، قال سبحانه فى ن: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم: ٢٨]، يعنى أعدلهم، يقول: ليس بأدنى ما تأكلون ولا بأفضله.

ثم قال سبحانه: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾، يعنى كسوة عشرة مساكين، لكل مسكين عباءة أو ثوب، ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ما، سواء أكان المحرر يهوديًا، أو نصرانيًا، أو

---

(١) انظر: (القرطبى ٦/٢٧٩، البحر المحيط ٤/١٠، مجمع البيان ٢/٢٣٧).

مجوسيًا، أو صابئيًا، فهو جائز، وهو بالخيار فى الرقبة، أو الطعام، أو الكسوة، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ من هذه الخصال الثلاث شيئًا، ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾، وهى فى قراءة ابن مسعود متتابعات، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى ذكر الله عز وجل ﴿كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾، فلا تتعمدوا اليمين الكاذبة، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آية: ٨٩] ربكم فى هذه النعم، إذ جعل لكم مخرجًا فى أيمانكم فيما ذكر فى الكفارة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾، نزلت فى سعد بن أبى وقاص، رضى الله عنه، وفى رجل من الأنصار، يقال له: عتبان بن مالك الأنصارى، وذلك أن الأنصارى صنع طعامًا، وشوى رأس بعير، ودعا سعد بن أبى وقاص إلى الطعام، وهذا قبل التحريم، فأكلوا وشربوا حتى انتشوا، وقالوا الشعر، فقام الأنصارى إلى سعد، فأخذ إحدى لحيى البعير، فضرب به وجهه فشجه، فانطلق سعد مستعديًا إلى رسول الله ﷺ، فنزل تحريم الخمر.

فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾، يعنى به القمار كله، ﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾، يعنى الحجارة التى كانوا ينصبونها ويذبحون لها، ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾، يعنى القدحين الذين كانوا يعملون بهما، ﴿رِجْسٌ﴾، يعنى إثم، ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾، يعنى من تزيين الشيطان، ومثله فى القصص: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥]، ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾، فهذا النهى للتحريم، كما قال سبحانه: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، فإنه حرام، كذلك فاجتنبوا الخمر، فإنها حرام، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آية: ٩٠] يعنى لكى.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ﴾، يعنى أن يغرى بينكم العداوة،

﴿وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ الذى كان بين سعد وبين الأنصارى حتى كسر أنف سعد، ﴿فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾، ورث ذلك العداوة والبغضاء، ﴿وَ﴾ يريد الشيطان أن ﴿وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، يقول: إذا سكرتم لم تذكروا الله عز وجل، ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ﴾، يقول: إذا سكرتم لم تصلوا، ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [آية: ٩١]، فهذا وعيد بعد النهى والتحريم، قالوا: انتهينا يا ربنا، فقال النبى ﷺ: «يا أيها الذين آمنوا، إن الله حرم عليكم الخمر، فمن كان عنده منها شيء، فلا يشربها، ولا يبيعها، ولا يسقيها غيره».

قال: وقال أنس بن مالك: لقد نزل تحريم الخمر وما بالمدينة يومئذ خمر، إنما كانوا يشربون الفصيح، وأما الميسر، فهو القمار، وذلك أن الرجل فى الجاهلية كان يقول: أين أصحاب الجزور، فيقوم نفر، فيشترون بينهم جزورًا، فيجعلون لكل رجل منهم سهم، ثم يقرعون، فمن خرج سهمه برىء من الثمن، وله نصيب فى اللحم، حتى يبقى آخرهم، فيكون عليه الثمن كله، وليس له نصيب فى اللحم، وتقسم الجزور بين البقية بالسوية.

وأما الأزلام، فهى القداح التى كانوا يقتسمون الأمور بها، قدحين مكتوب على أحدهما: أمرنى ربى، وعلى الآخر: نهانى ربى، فإذا أرادوا أمرًا أتوا بيت الأصنام، فغطوا عليه ثوبًا، ثم ضربوا بالقداح، فإن خرج أمرنى ربى، مضى على وجهه الذى يريد، وإن خرج نهانى ربى، لم يخرج فى سفره، وكذلك كانوا يفعلون إذا شكوا فى نسبة رجل، وأما الأنصاب، فهى الحجارة التى كانو ينصبونها حول الكعبة، وكانوا يذبحون لها.

ثم قال عز وجل: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فى تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، إلى آخر الآية، ﴿وَٱحۡذَرُواْۚ﴾ معاصيهما، ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾، يعنى أعرضتم عن طاعتهما، ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾ محمد ﷺ، ﴿ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [آية: ٩٢] فى تحريم ذلك، فلما نزلت هذه الآية فى تحريم الخمر، قال حيى بن أخطب، وأبو ياسر، وكعب بن الأشرف للمسلمين: فما حال من مات منكم، وهم يشربون الخمر؟ فذكروا ذلك للنبى ﷺ، وقالوا: إن إخواننا ماتوا وقتلوا، وقد كانوا يشربونها، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ﴾، يعنى حرج، ﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾، يعنى شربوا من الخمر قبل التحريم، ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾ المعاصى، ﴿وَّءَامَنُواْ﴾ بالتوحيد،

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، يعنى أقاموا الفرائض قبل التحريم، ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ المعاصى، ﴿وَّءَامَنُواْ﴾ بما يجىء من الناسخ والمنسوخ، ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ المعاصى بعد تحريمها، ﴿وَّءَامَنُواْ﴾، يعنى وصدقوا، ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ الشرك ﴿وَّأَحْسَنُواْ﴾ العمل بعد تحريمها، فمن فعل ذلك، فهو محسن، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آية: ٩٣]، فقال النبى ﷺ للذى سأله: «قيل لى إنك من المحسنين».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾، يعنى ببعض الصيد، فخص صيد البر خاصة، ولم يعم الصيد كله؛ لأن للبحر صيدًا، ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾، يقول: تأخذون صغار الصيد بأيديكم أخذًا بغير سلاح، ثم قال سبحانه: ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾، يعنى وسلاحكم النبل والرماح، بها يصيبون كبار الصيد، وهو عام حبس النبى ﷺ عن مكة عام الحديبية، وأقام بالتنعيم، فصالحهم على أن يرجع عامه ذلك، ولا يدخل مكة، فإذا كان العام المقبل، أخلوا له مكة فدخلها فى أصحابه، رضى الله عنهم، وأقام بها ثلاثًا، ورضى النبى ﷺ بذلك، فنحر البدن مائة بدنة، فجاءت السباع والطير تأكل منها، فنهى الله عز وجل عن قتل الصيد فى الحرم، ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾، لكى يرى الله، ﴿مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، يقول: من يخاف الله عز وجل ولم يره، فلم يتناول الصيد، وهو محرم، ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، يقول: فمن أخذ الصيد عمدًا بعد النهى، فقتل الصيد وهو محرم، ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آية: ٩٤]، يعنى ضربًا وجيعًا، ويسلب ثيابه، ويغرم الجزاء، وحكم ذلك إلى الإمام، فهذا العذاب الأليم.

قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، وذلك أن أبا بشر، واسمه: عمرو بن مالك الأنصارى، كان محرمًا فى عام الحديبية بعمرة، فقتل حمار

وحش، فنزلت فيه: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ لقتله ناسيًا لإحرامه، ﴿فَجَزَآءٌ﴾، يعنى جزاء الصيد، ﴿مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾، يعنى من الأزواج الثمانية إن كان قتل عمدًا أو خطأ، أو أشار إلى الصيد فأصيب، فعليه الجزاء، ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، يعنى يحكم بالكفارة رجلان من المسلمين عدلين فقيهين يحكمان فى قاتل الصيد جزاء مثل ما قتل من النعم، إن قتل حمار وحش، أو نعامة، ففيها بعيرًا بنحره بمكة، يطعم المساكين ولا يأكل هو ولا أحد من أصحابه، وإن كان من ذوات القرون الأيل والوعل ونحوهما، فجزاؤه أن يذبح بقرة للمساكين، وفى الطير ونحوها جزاؤه أن يذبح شاة مسنة، وفى الحمام شاة، وفى بيض الحمام إذا كان فيه فرخ درهم، وإن لم يكن فيه فرخ، فنصف درهم، وفى ولد الحمار الوحش ولد بعير مثله، وفى ولد النعامة ولد بعير مثله، وفى ولد الأيل والوعل ونحو ولد بقرة مثله، وفى فرخ الحمام ونحوه ولد شاة مثله، وفى ولد الظبى ولد شاة مثله.

﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾، يعنى ينحر بمكة، كقوله سبحانه فى الحج: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣]، تذبح بأرض الحرم، فتطعم مساكين مكة، ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾، لكل مسكين نصف صاع حنطة، ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾، يقول: إن لم يقدر على الهدى ولا على ثمنه، ولا على إطعام المساكين، فليصم مكان كل مسكين يومًا، ينظر ثمن الهدى فيجعله دراهم، ثم ينظر كم يبلغ الطعام بتلك الدراهم بسعر مكة، فيصوم مكان كل مسكين يومًا، وبكل مسكين نصف صاع حنطة، ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾، يعنى جزاء ذنبه، يعنى الكفارة عقوبة له بقتله الصيد، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾، يقول: عفا الله عما كان منه قبل التحريم، يقول: تجاوز الله عما صنع فى قتله الصيد متعمدًا قبل نزول هذه الآية، ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد النهى إلى قتل الصيد، ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ بالضرب والفدية وينزع ثيابه، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾، يعنى منيع فى ملكه، ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آية: ٩٥] من أهل معصيته فيمن قتل الصيد، نزلت هذه الآية قبل الآية الأولى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾، يعنى السمك الطرى، وشىء يفرخ فى الماء لا يفرخ فى غيره، فهو للمحرم حلال، ثم قال: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾، يعنى مليح السمك، ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾، يعنى منافع لكم، يعنى للمقيم، ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾، يعنى للمسافر، ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾، يعنى مادمتم محرمين، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، ولا تستحلوا

الصيد فى الإحرام، ثم حذرهم قتل الصيد، فقال سبحانه: ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آية: ٩٦] فى الآخرة، فيجزيكم بأعمالكم.

﴿۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾، أنها سمت الكعبة؛ لأنها منفردة من البنيان، وكل منفرد من البنيان فهو فى كلام العرب الكعبة، قال أبو محمد: قال ثعلب: العرب تسمى كل بيت مربع الكعبة، ﴿قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾، يعنى أرض الحرم أمنًا لهم وحياة لهم فى الجاهلية. قال: كان أحدهم إذا أصاب ذنبًا أو أحدث حدثًا يخاف على نفسه، دخل الحرم فأمن فيه، ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾، قال: كان الرجل إذا أراد سفرًا فى أمره، فإن كان السفر الذى يريده يعلم أنه يذهب ويرجع قبل أن يمضى الشهر الحرام توجه آمنًا، ولم يقلد نفسه ولا راحلته، وإن كان يعلم أنه لا يقدر على الرجوع حتى يمضى الشهر الحرام، قلد نفسه وبعيره من لحا شجر الحرم فيأمن به حيث ما توجه من البلاد، فمن ثم قال سبحانه: ﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ كل ذلك كان قوامًا لهم وأمنًا فى الجاهلية، نظيرها فى أول السورة، ﴿ذَٰلِكَ﴾، يقول: هذا ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، قبل أن يكونا، ويعلم أنه سيكون من أمركم الذى كان، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أعمال العباد، ﴿عَلِيمٌ﴾ [آية: ٩٧].

ثم خوفهم ألا يستحلوا الغارة فى حجاج اليمامة، يعنى شريحًا وأصحابه، فقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آية: ٩٨] لمن أطاعه بعد النهى، ثم قال عز وجل: ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ، ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ فى أمر حجاج اليمامة، شريح بن ضبيعة وأصحابه، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾، يعنى ما تعلنون بألسنتكم، ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [آية: ٩٩] من أمر حجاج اليمامة والغارة عليهم.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﷺ، ﴿لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾، يعنى بالخبيث الحرام،

والطيب الحلال، نزلت في حجاج اليمامة حين أراد المؤمنون الغارة عليهم، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾، يعني الحرام، ثم حذرهم، فقال سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولا تستحلوا منهم محرمًا، ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، يعني يا أهل اللب والعقل، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آية: ١٠٠].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، نزلت في عبد الله بن جحش بن رباب الأسدي، من بني غنم ابن دودان، وفي عبد الله بن حذافة القرشي، ثم السهمي، وذلك أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس، إن الله كتب عليكم الحج»، فقال عبد الله بن جحش: أفي كل عام؟ فسكت عنه ﷺ، ثم أعاد قوله، فسكت النبي ﷺ، ثم عاد، فغضب النبي ﷺ ونخسه بقضيب كان معه، ثم قال: «ويحك، لو قلت نعم لوجبت، فاتركوني ما تركتكم، فإذا أمرتكم بأمر فافعلوه، وإذا نهيتكم عن أمر فانتهوا عنه»، وقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إنه قد رفعت لي الدنيا، فأنا أنظر إلى ما يكون في أمتي من الأحداث إلى يوم القيامة، ورفعت لي أنساب العرب، فأنا أعرف أنسابهم رجلاً رجلاً».

فقام رجل، فقال: يا رسول الله، أين أنا؟ قال: «أنت في الجنة»، ثم قام آخر، فقال: أين أنا؟ قال: «في الجنة»، ثم قام الثالث، فقال: أين أنا؟ فقال: «أنت في النار»، فرجع الرجل حزينًا، وقام عبد الله بن حذافة، وكان يطعن فيه، فقال: يا رسول الله، من أبي؟ قال: «أبوك حذافة»، وقام رجل من بني عبد الدار، فقال: يا رسول الله، من أبي؟ قال: «أبوك سعد»، نسبه إلى غير أبيه، فقام عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله، استر علينا يستر الله عليك، إنا قوم قريبو عهد بالشرك، فقال له رسول الله ﷺ: «خيرًا»، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، يعني إن تبين لكم فلعلكم إن

تسألوا عما لم ينزل به قرآنًا فينزل به قرآنًا مغلظًا لا تطيقوه، قوله سبحانه: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ﴾، يعنى عن الأشياء حين ينزل بها قرآنًا، ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾ تبين لكم، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾، يقول: عفا الله عن تلك الأشياء حين لم يوجبها عليكم، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آية: ١٠١]، يعنى ذو تجاوز حين لا يعجل بالعقوبة.

ثم قال عز وجل: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾، يقول: قد سأل عن تلك الأشياء، ﴿مِّن قَبْلِكُمْ﴾، يعنى من بنى إسرائيل، فبينت لهم، ﴿ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ [آية: ١٠٢]، وذلك أن بنى إسرائيل سألوا المائدة قبل أن تنزل، فلما نزلت كفروا بها، فقالوا: ليست المائدة من الله، وكانوا يسألون أنبياءهم عن أشياء، فإذا أخبروهم بها تركوا قولهم، ولم يصدقوهم، فأصبحوا بتلك الأشياء كافرين.

قوله سبحانه: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ حرامًا، ﴿مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ لقولهم: إن الله أمرنا بها، نزلت فى مشركى العرب، منهم: قريش، وكنانة، وعامر بن صعصعة، وبنو مدلج، والحارث وعامر ابنى عبد مناة، وخزاعة، وثقيف، أمرهم بذلك فى الجاهلية عمرو بن ربيعة بن لحى بن قمعة بن خندف الخزاعى، فقال النبى ﷺ: «رأيت عمرو بن ربيعة الخزاعى رجلاً قصيرًا، أشقر، له وفرة، يجر قصبه فى النار، يعنى أمعاءه، وهو أول من سيب السائبة، واتخذ الوصيلة، وحمى الحامى، ونصب الأوثان حول الكعبة، وغير دين الحنفية، فأشبه الناس به أكثم بن لجون الخزاعى»، فقال أكثم: أيضرنى شبهه يا رسول الله؟ قال: «لا، أنت مؤمن وهو كافر».

والبحيرة الناقة إذا ولدت خمسة أبطن، فإذا كان الخامس سقبا، وهو الذكر، ذبحوه للآلهة، فكان لحمه للرجال دون النساء، وإن كان الخامس ربعة، يعنى أنثى، شقوا أذنيها، فهى البحيرة، وكذلك من البقر، لا يجز لها وبر، ولا يذكر اسم الله عليها إن ركبت، أو حمل عليها، ولبنها للرجال دون النساء، وأما السائبة، فهى الأنثى من الأنعام كلها، كان الرجل يسيب للآلهة ما شاء من إبله وبقره وغنمه، ولا يسيب إلا الأنثى، وظهورها، وأولادها، وأصوافها، وأوبارها، وأشعارها، وألبانها للآلهة، ومنافعها للرجال دون النساء، وأما الوصيلة، فهى الشاة من الغنم إذا ولدت سبعة أبطن عمدوا إلى السابع، فإن كان جديًا ذبحوه للآلهة، وكان لحمه للرجال دون النساء، وإن كانت عتاقًا استحيوها، فكانت من عرض الغنم.

قال عبد الله بن ثابت: قال أبى: قال أبو صالح: قال مقاتل: وإن وضعته ميتًا، أشرك فى أكله الرجال والنساء، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء﴾ [الأنعام: ١٣٩]، بأن ولدت البطن السابع جديًا وعناقًا، قالوا: إن الأخت قد وصلت أخاها، فرحمته علينا، فحرما جميعًا، فكانت المنفعة للرجال دون النساء، وأما الحام، فهو الفحل من الإبل إذا ركب أولاد أولاده، فبلغ ذلك عشرة أو أقل من ذلك، قالوا: قد حمى هذا ظهره، فأحرز نفسه، فيهل للآلهة ولا يحمل عليه، ولا يركب، ولا يمنع من مرعى، ولا ماء، ولا حمى، ولا ينحر أبدًا حتى يموت موتًا، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ حرامًا، ﴿مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ ﴿وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من قريش وخزاعة من مشركى العرب، ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾؛ لقولهم: إن الله أمرنا بتحريمه حين قالوا فى الأعراف: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، يعنى بتحريمها، ثم قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [آية: ١٠٣] أن الله عز وجل لم يحرمه.

قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، يعنى مشركى العرب، ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فى كتابه من تحليل ما حرم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ، ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ من أمر الدين، فإنا أمرنا أن نعبد ما عبدوا، يقول الله عز وجل: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾، يعنى فإن كان آباؤهم، ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ من الدين، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [آية: ١٠٤] له، أفتتبعوهم؟.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، وذلك أن النبى ﷺ كان لا قبل الجزية إلا من أهل الكتاب، فلما أسلم العرب طوعًا وكرهًا قبل الجزية من مجوس هجر، فطعن المنافقون فى ذلك، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، يقول: اقبلوا على أنفسكم، فانظروا ما ينفعكم فى أمر آخرتكم، فاعملوا به، ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ من أهل هجر، نزلت فى رجل من أصحاب النبى ﷺ، ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عز وجل ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ فى الآخرة، ﴿جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [آية: ١٠٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ

تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، نزلت فى بديل بن أبى مارية مولى العاص بن وائل السهمى، كان خرج مسافرًا فى البحر إلى أرض النجاشى ومعه رجلان نصرانيان، أحدهما يسمى تميم بن أوس الدارى، وكان من لخم، وعدى بن بندا، فمات بديل وهم فى البحر، فرمى به فى البحر، قال: ﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾، وذلك أنه كتب وصيته، ثم جعلها فى متاعه، ثم دفعه إلى تميم وصاحبه، وقال لهما: أبلغا هذا المتاع إلى أهلى، فجاءا ببعض المتاع وحبسا جامًا من فضة مموهًا بالذهب، فنزلت: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾، يقول: عند الوصية يشهدون وصيته.

﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ من المسلمين فى دينهما، ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، يعنى من غير أهل دينكم النصرانيين، تميم الدارى وعدى بن بندا، ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يا معشر المسلمين للتجارة، ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، يعنى بديل بن أبى مارية حين انطلق تاجرًا فى البحر، وانطلق معه تميم وعدى صاحباه، فحضره الموت، فكتب وصيته، ثم جعلها فى المتاع، فقال: أبلغا هذا المتاع إلى أهلى، فلما مات بديل، قبضا المتاع، فأخذا منه ما أعجبهما، وكان فيما أخذا إناء من فضة فيه ثلاثمائة مثقال منقوش مموه بالذهب، فلما رجعا من تجارتهما دفعا بقية المال إلى ورثته، ففقدوا بعض متاعه، فنظروا إلى الوصية، فوجدوا المال فيه تامًا لم يبع منه، ولم يهب، فكلموا وتميمًا وصاحبه، فسألوهما: هل باع صاحبنا شيئًا أو اشترى شيئًا فخسر فيه، أو طال مرضه فأنفق على نفسه؟ فقال: لا، قالوا: فإنا قد فقدنا بعض ما أبدى به صاحبنا، فقالا: ما لنا بما أبدى، ولا بما كان فى وصيته علم، ولكنه دفع إلينا هذا المال، فبلغناكم إياه.

فرفعوا أمرهم إلى النبى ﷺ، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ

﴿ٱلْمَوْتُ﴾، يعنى بديلب بن أبى مارية، ﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، يعنى من المسلمين، عبد الله بن عمرو بن العاص، والمطلب بن أبى وداعة السهميان، ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير أهل دينكم، يعنى النصرانيين، ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ معشر المسلمين ﴿ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تجارًا ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، يعنى بديل بن أبى مارية مولى العاص بن وائل السهمى، ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾، يعنى النصرانيين تقيمونهما، ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ صلاة العصر، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾، فيحلفان بالله، ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾، يعنى إن شككتم،نظيرها فى النساء القصرى، أن المال كان أكثر من هذا الذى أتيناكم به، ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾، يقول: لا نشترى بأيماننا عرضًا من الدنيا، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، يقول: ولو كان الميت ذا قرابة منا، ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا﴾ إن كتمنا شيئًا من المال، ﴿لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾ [آية: ١٠٦] بالله عز وجل.

فحلفهما النبى ﷺ عند المنبر بعد صلاة العصر، فحلفا أنهما لم يخونا شيئًا من المال، فخلى سبيلهما، فلما كان بعد ذلك، وجدوا الإناء الذى فقدوه عند تميم الدارى، قالوا: هذا من آنية صاحبنا الذى كان أبدى بها، وقد زعمتما أنه لم يبع ولم يشتر ولم ينفق على نفسه، فقالا: قد كنا اشتريناه منه، فنسينا أن نخبركم به، فرفعوهما إلى النبى ﷺ الثانية، فقالوا: يا رسول الله، إنا وجدنا مع هذين إناء من فضة من متاع صاحبنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾، يقول: فإن اطلع على أنهما، يعنى النصرانيين كتما شيئًا من المال أو خانا، ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ من أولياء الميت، يعنى عبد الله بن عمرو بن العاص، والمطلب بن أبى وداعة السهميان، ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾، يعنى مقام النصرانيين، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ﴾ الإثم، ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾، يعنى فيحلفان بالله فى دبر صلاة العصر أن الذى فى وصية صاحبنا حق، وأن المال كان أكثر مما أتيتمانا به، وأن هذا الإناء لمن متاع صاحبنا الذى خرج به معه، وكتبه فى وصيته، وأنكما خنتما، فذلك قوله سبحانه: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ﴾، يعنى عبد الله بن عمرو بن العاص، والمطلب، ﴿أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾، يعنى النصرانيين، ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ بشهادة المسلمين من أولياء الميت، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آية: ١٠٧].

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾، يعنى أجدر، نظيرها فى النساء، ﴿أَن يَأْتُوا۟﴾، يعنى النصرانيين، ﴿بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾، كما كانت ولا يكتمان شيئًا، ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، يقول: أو يخافوا أن يطلع على خيانتهم فيرد شهادتهما بشهادة الرجلين

المسلمين من أولياء الميت، فحلف عبد الله والمطلب كلاهما أن الـذى فى وصيـة الميت حق، وأن هذا الإناء من متاع صاحبنا، فأخذوا تميم بن أوس الـدارى، وعـدى بـن بندا النصرانيين بتمام ما وجدوا فى وصية الميت حين اطلع الله عز وجـل علـى خيانتـهما فـى الإناء، ثم وعظ الله عز وجل المؤمنين ألا يفعلـوا مثـل هـذا، وألا يشـهدوا بمـا لم يعـاينوا ويروا، فقال سبحانه يحذرهـم نقمتـه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾ مواعظـه، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [آية: ١٠٨]، وأن تميم بن أوس الدارى اعترف بالخيانـة، فقـال لـه النبى ﷺ: «ويحك يا تميم، أسلم يتجاوز الله عنك ما كان فى شركك»، فأسلم تميم الـدارى، وحسن إسلامه، ومات عدى بن بندا نصرانيًا.

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ
الْغُيُوبِ (١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ
أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا
فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ
كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا
إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا
وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ
رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا
نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ
(١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا
لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ
فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (١١٥) وَإِذْ قَالَ
اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ
سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي
نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ
أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ
الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ
فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾

قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾، يعنى الأنبياء، عليهم السلام، ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ فى التوحيد، ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ﴾، وذلك أول ما بعثوا عند زفرة جهنم؛ لأن الناس إذا خرجوا من قبورهم تاهت عقولهم، فجالوا فى الدنيا ثلاثين سنة، ويقال: أربعين سنة، ثم ينادى مناد عند صخرة بيت المقدس: يا أهل الدنيا، هاهنا موضع الحساب، فيسمع النداء جميع الناس، فيقبلون نحو الصوت، فإذا اجتمعوا ببيت المقدس، زفرت جهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا ظن أنه لو جاء بعمل سبعين نبيًا ما نجا، فعند ذلك تاهت عقولهم، فيقول لهم عند ذلك، يعنى المرسلين: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ فى التوحيد، ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [آية: ١٠٩]، ثم رجعت عقولهم بعد ذلك إليهم، فشهدوا على قومهم أنهم قد بلغوا الرسالة عن ربهم، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُ الأَشْهَادُ﴾، يعنى الأنبياء، ﴿هَٰؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨].

قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ فى الآخرة، ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾، يعنى مريم، عليهما السلام، ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، فالنعمة على عيسى حين أيده بروح القدس، يعنى جبريل، عليه السلام، ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ صبيًا ﴿وَ﴾ تكلمهم ﴿وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعنى خط الكتاب بيده، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾، يعنى الفهم والعلم، ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾، يعنى علم التوراة والإنجيل، وجعله نبيًا ورسولاً إلى بنى إسرائيل، ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾، يعنى الخفاش، ﴿بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا﴾، يعنى فى الهيئة، ﴿فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾، يعنى الأعمى الذى يخرج من بطن أمه أعمى، ﴿وَ﴾ يبرئ ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾، يمسحها بيده فيبرئها ﴿بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ أحياء، ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾، أى عن قتلك، ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، وهى إحياء سام بن نوح بإذن الله.

فيقوم عيسى ﷺ يوم القيامة بهؤلاء الكلمات خطيبًا على رءوس الخلائق، ويخطب إبليس، لعنه الله، على أهل النار بهذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾، يعنى بمانعكم من العذاب، ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾، يعنى بمانعى من العذاب، ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾، يعنى تبرأت ﴿بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، أى فى الدار الدنيا، وأما النعمة على مريم، عليها السلام، فهى أنه اصطفاها،

يعنى اختارها، وطهرها من الإثم، واختارها على نساء العالمين، وجعلها زوجة محمد ﷺ في الجنة.

قوله سبحانه: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلۡمَهۡدِ﴾، يعنى تكلم بنى إسرائيل صبيًا فى المهد حين جاءت به أمه تحمله، ويكلمهم كهلاً حين اجتمع واستوت لحيته، ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، يعنى خط الكتاب بيده، ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾، يعنى الفهم والعلم، وإذ علمتك التوراة والإنجيل، ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾، يعنى الخفاش، ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾، يعنى فى الهيئة، ﴿فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِىۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ﴾ الذى يخرج من بطن أمه أعمى، فكان عيسى، عليه السلام، يرد إليه بصره بإذن الله تعالى، فيمسح بيده عليه، فإذا هو صحيح بإذن الله، وأحيا سام بن نوح بإذن الله، حيث كلمه الناس، ثم مات فعاد كما كان، ﴿وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾، يعنى عن قتلك حين رفعه الله عز وجل إليه، وقتل شبيهه، وهو الرقيب الذى كان عليه، ﴿إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، يعنى بالعجائب التى كان يصنعها من إبراء الأكمه والأبرص والموتى والطير ونحوه.

﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ﴾، يعنى من اليهود من بنى إسرائيل، ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [آية: ١١٠]، يعنى ما هذا الذى يصنع عيسى من الأعاجيب إلا سحر مبين، يعنى بين، نظيرها فى الصف، ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾، وهم القصارون مبيضو الثياب، وكانوا اثنى عشر رجلاً، والوحى إليهم من الله عز وجل هو إلهام قذف فى قلوبهم التصديق بالله عز وجل، بأنه واحد لا شريك له، فذلك قوله عز وجل: ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِى﴾ أن صدقوا بأنى واحد ليس معى شريك، ﴿وَبِرَسُولِى﴾، عيسى ابن مريم أنه نبى رسول، ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، يعنى صدقنا بما جاء به من عند الله، ونشهد أن الله عز وجل واحد لا شريك له، وأنك رسوله، ﴿وَٱشۡهَدۡ﴾ يا عيسى ﴿بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ [آية: ١١١]، يعنى مخلصون بالتوحيد.

﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾، يقول: هل يقدر على أن يعطيك ربك إن سألته ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، فلا تسألوه البلاء، ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آية: ١١٢]، فإنها إن نزلت ثم كذبتم عوقبتم، ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا﴾، فقد جعنا، ﴿وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾، يعنى وتسكن قلوبنا إلى ما تدعونا إليه، ﴿وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا﴾ بأنك نبى رسول، ﴿وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ

﴿ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ [آية: ١١٣]، يعنى على المائدة عند بنى إسرائيل إذا رجعنا إليهم، وكان القوم الذين خرجوا وسألوا المائدة خمسة آلاف بطريق، وهم الذين سألوا المائدة مع الحواريين.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ ﷺ عند ذلك، ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾، يقول: تكون عيدًا لمن كان فى زماننا عند نزول المائدة، وتكون عيدًا لمن بعدنا، ﴿وَ﴾ تكون المائدة ﴿وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا﴾، يعنى المائدة، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [آية: ١١٤] من غيرك، يقول: فإنك خير من يرزق.

﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ عز وجل، ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا﴾، يعنى المائدة، ﴿عَلَيْكُمْ﴾، فنزلها يوم الأحد، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ﴾ نزول المائدة، ﴿مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آية: ١١٥]، فنزلت من السماء عليها سمك طرى، وخبز رقاق، وتمر، وذكروا أن عيسى ﷺ قال لأصحابه وهم جلوس فى روضة: هل مع أحد منكم شىء؟ فجاء شمعون بسمكتين صغيرتين، وخمسة أرغفة، وجاء آخر بشىء من سويق، فعمد عيسى ﷺ فقطعهما صغارًا وكسر الخبز، فوضعها فلقًا فلقًا، ووضع السويق فتوضأ، ثم صلى ركعتين، ودعا ربه عز وجل، فألقى الله عز وجل على أصحابه شبه السبات، ففتح القوم أعينهم، فزاد الطعام حتى بلغ الركب، فقال عيسى ﷺ للقوم: كلوا وسموا الله عز وجل، ولا ترفعوا، وأمرهم أن يجلسوا حلقًا حلقًا، فأكلوا حتى شبعوا، وهم خمسة آلاف رجل، وهذا ليلة الأحد ويوم الأحد.

فنادى عيسى ﷺ، فقال: أكلتم؟ قالوا: نعم، قال: لا ترفعوا، قالوا: لا نرفع، فرفعوا، فبلغ ما رفعوا من الفضل أربعة وعشرين مكتلاً، فآمنوا عند ذلك بعيسى ﷺ، وصدقوا به، ثم رجعوا إلى قومهم اليهود من بنى إسرائيل، ومعهم فضل المائدة، فلم يزالوا بهم حتى ارتدوا عن الإسلام، فكفروا بالله، وجحدوا بنزول المائدة، فمسخهم الله عز وجل وهم نيام خنازير، وليس فيهم صبى ولا امرأة.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾، يعنى بنى إسرائيل فى الدنيا، ﴿ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ﴾ مريم ﴿إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ﴾، فنزه الرب عز وجل، أن يكون أمرهم بذلك، فقال: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ﴾، يعنى ما ينبغى لى ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾، يعنى بعدل أن يعبدوا غيرك، ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ﴾ لهم ﴿فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى

نَفۡسِي﴾، يعني ما كان مني وما يكون، ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾، يقول: ولا أطلع على غيبك، وقال أيضًا: ولا أعلم ما في علمك، ما كان منك وما يكون، ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [آية: ١١٦]، يعني غيب ما كان وغيب ما يكون.

﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ﴾ وأنت تعلم، ﴿إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾ في الدنيا، ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، يعني وحدوا الله، ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾، قال لهم عيسى ﷺ ذلك في هذه السورة، وفي كهيعص، وفي الزخرف، ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾، يعني على بني إسرائيل بأن قد بلغتهم الرسالة، ﴿مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾، يقول: ما كنت بين أظهرهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي﴾، يقول: فلما بلغ بي أجل الموت فمت، ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، يعني الحفيظ، ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [آية: ١١٧]، يعني شاهدًا بما أمرتهم من التوحيد، وشهيد عليهم بما قالوا من البهتان، وإنما قال الله عز وجل: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، ولم يقل: وإذ يقول: يا عيسى ابن مريم؛ لأنه قال سبحانه قبل ذكر عيسى يوم يجمع الله الرسل، فيقول: ماذا أجبتم؟ قالوا: يومئذ، وهو يوم القيامة، حين يفرغ من مخاصمة الرسل، فينادى: أين عيسى ابن مريم، فيقوم عيسى ﷺ شفق، فرق، يرعد رعدة حتى يقف بين يدى الله عز وجل، يا عيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾.

وكما قال سبحانه: ﴿وَنُودُوا أن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فلما دخلوا الجنة، قال: ﴿وَنَادَى أصْحَابُ النَّار﴾ [الأعراف: ٥٠]، فنسق بالماضي على الماضي، والمعنى مستقبل، ولو لم يذكر الجنة قبل بدئهم بالكلام الأول لقال في الكلام الأول: ﴿وَنَادَى أصْحَابُ الْجَنَّةِ أصْحَابَ النَّار﴾ [الأعراف: ٤٤]، وكل شيء في القرآن على هذا النحو.

ثم قال عيسى ﷺ لربه عز وجل في الآخرة: يا رب، غبت عنهم وتركتهم على الحق الذي أمرتني به، فلم أدر ما أحدثوا بعدي، ف﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ﴾ فتميتهم على ما قالوا من البهتان والكفر، ﴿فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾، وأنت خلقتهم، ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾، فتتوب عليهم وتهديهم إلى الإيمان والمغفرة بعد الهداية إلى الإيمان، ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آية: ١١٨] في ملكك، الحكيم في أمرك، وفي قراءة ابن مسعود: «فإنك أنت الغفور الرحيم»، نظيرها في سورة إبراهيم، عليه السلام، في مخاطبة إبراهيم: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غفورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وهي كذلك أيضًا في قراءة عبد الله بن مسعود.

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾، يعنى النبيين بما قالوا فى الدنيا، فكان عيسى صادقًا فيما قال لربه فى الآخرة، ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ﴾، فصدقه الله بقوله فى الدنيا، وصدقه فى الآخرة حين خطب على الناس، ثم قال: ﴿لَهُمْ﴾، يعنى للصادقين، ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، لا يموتون، ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بالطاعة، ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بالثواب، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الثواب ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [آية: ١١٩]، يعنى النجاء العظيم.

ثم عظم الرب جل جلاله نفسه عما قالت النصارى من البهتان والزور أنه ليس كما زعمت، وأنه واحد لا شريك له، فقال سبحانه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ من الخلق، عيسى ابن مريم وغيره من الملائكة والخلق عباده وفى ملكه، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من خلق عيسى من غير أب وغيره، ﴿قَدِيرٌ﴾ [آية: ١٢٠].

* * *

سورة الأنعام

مكية كلها، إلا هذه الآيات، نزلت بالمدينة، ونزلت ليلاً

وهى خمس وستون ومائة آية كوفى

والآيات المدنية هى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ إلى قوله ﴿...لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الآيات ١٥١ - ١٥٣]، وهى الآيات المحكمات.

وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾ [آية: ٩١] إلى آخر الآية.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ...﴾ [آية: ٩٣]، نزلت فى مسيلمة، ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ...﴾ [آية: ٩٣]، نزلت فى عهد عبد الله بن سعد بن أبى سرح.

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ...﴾ [آية: ٩٣].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ...﴾ [آية: ١١٤]، ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ [آية: ٢٠].

هذه الآيات مدنيات، وسائرها مكى، نزل بها جبريل، عليه السلام، ومعه سبعون ألف ملك، طبقوا ما بين السماء والأرض، لهم زجل بالتسبيح والتمجيد والتحميد، حتى كادت الأرض أن ترتج، فقال النبى ﷺ: «سبحان الله العظيم وبحمده»، وخر النبى ساجدًا، فيها خصومة مشركى العرب وأهل الكتاب، وذلك أن قريشًا قالوا للنبى ﷺ: من ربك؟ فقال: «ربى الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد»، فقالوا: أنت كذاب، ما اختصك الله بشىء، وما أنت عليه بأكرم منا، فأنزل الله عز وجل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا

﴿تَكْسِبُونَ ۝٣ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فحمد نفسه ودل بصنعه على توحيده، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، لم يخلقهما باطلاً، خلقهما لأمر هو كائن، ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، يعنى الليل والنهار، ثم رجع إلى أهل مكة، فقال: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة، ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [آية: ١]، يعنى يشركون.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، يعنى آدم، عليه السلام؛ لأنكم من ذريته، ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾، يعنى أجل ابن آدم من يوم ولد إلى أن يموت، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، يعنى البرزخ منذ يوم ولد إلى يوم يموت، إلى يوم القيامة، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [آية: ٢]، يعنى تشكون فى البعث، يعنى كفار مكة.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أنه واحد، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾، يعنى سر أعمالكم وجهرها، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [آية: ٣]، يعنى ما تعملون من الخير والشر.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، يعنى انشقاق القمر، ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [آية: ٤]، فلم يتفكرون فيها، فيعتبروا فى توحيد الله.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، يعنى القرآن حين جاءهم به محمد ﷺ، استهزءوا بالقرآن بأنه ليس من الله، يعنى كفار مكة، منهم: أبو جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، ومنبه ونبيه ابنا الحجاج، والعاص بن وائل السهمى، وأبى بن خلف، وعقبة بن أبى معيط، وعبد الله بن أبى أمية، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البحترى بن هشام بن أسد، والحارث بن عامر بن نوفل، ومخرمة بن نوفل، وهشام بن عمرو بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وسهل بن عمرو، وعمير بن وهب بن خلف، والحارث بن قيس، وعدى بن قيس، وعامر بن خالد الجمحى، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، ومطعم بن عدى، وقرط بن عبد عمرو بن نوفل، والأخنس بن شريق، وحويطب بن عبد العزى، وأمية بن خلف، كلهم من قريش، يقول الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾، يعنى حديث، ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ﴾ بالعذاب ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [آية: ٥] بأنه غير نازل بهم، ونظيرها فى الشعراء، فنزل بهم العذاب ببدر.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا

ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ
قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ
هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا
يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ
﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ
﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ
إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾

ثم وعظهم ليخافوا، فقال: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم﴾، كفار مكة، ﴿مِّن قَرۡنٖ﴾ من أمة، ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾، يقول: أعطيناهم من الخير والتمكين فى البلاد ما لم نعطكم يا أهل مكة، ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا﴾ بالمطر، يعنى متتابعًا، ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم﴾، يعنى فعذبناهم، ﴿بِذُنُوبِهِمۡ﴾، يعنى بتكذيبهم رسلهم، ﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ [آية: ٦]، يقول: وخلقنا من بعد هلاكهم قومًا آخرين.

﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾، ما صدقوا به، و﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ من أهل مكة، ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾، يقول: ما هذا القرآن، ﴿إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [آية: ٧]، يعنى بين.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ﴾، يعنى هلا، ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾، يعينه ويصدقه بما أرسل به، نظيرها فى الفرقان، نزلت فى النضر بن الحارث، وعبد الله بن أمية بن المغيرة، ونوفل بن خويلد، كلهم من قريش، يقول الله: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا﴾ فعاينوه، ﴿لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، يعنى لنزل العذاب بهم، ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [آية: ٨]، يعنى ثم لا يناظر بهم حتى يعذبوا؛ لأن الرسل إذا كُذبت جاءت الملائكة بالعذاب.

يقول الله: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ﴾، هذا الرسول، ﴿مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾، يعنى فى صورة رجل حتى يطيقوا النظر إليه؛ لأن الناس لا يطيقون النظر إلى صورة الملائكة، ثم قال: ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم﴾، يعنى ولشبهنا عليهم، ﴿مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ [آية: ٩]، يعنى ما يشبهون على أنفسهم بأن يقولوا: ما هذا إلا بشر مثلكم.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، وذلك أن مكذبى الأمم الخالية، أخبرتهم رسلهم بالعذاب فكذبوهم، بأن العذاب ليس بنازل بهم، فلما كذب كفار مكة النبى ﷺ بالعذاب حين أوعدهم استهزءوا منه، فأنزل الله يعزى نبيه ﷺ ليصبر على تكذيبهم إياه بالعذاب، فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد كما استهزئ بك فى أمر العذاب، ﴿فَحَاقَ﴾، يعنى فدار ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾، يعنى من الرسل، ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ﴾، يعنى بالعذاب، ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [آية: ١٠] بأنه غير نازل بهم.

ثم وعظهم ليخافوا، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آية: ١١] بالعذاب كان عاقبتهم الهلاك يحذر كفار مكة بمثل عذاب الأمم الخالية، ﴿قُل﴾ لكفار مكة ﴿لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الخلق، فردوا عليه فى الرعد، قالوا: الله، فى قراءة أبى بن كعب، وابن مسعود فى تكذيبهم بالبعث، قالوا: الله ﴿قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ﴾ فى تأخير العذاب عنهم، فأنزل الله فى تكذيبهم بالبعث، ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أنتم والأمم الخالية، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾، يعنى لا شك فيه، يعنى فى البعث بأنه كائن، ثم نعتهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟﴾، يعنى غبنوا، ﴿أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [آية: ١٢]، يعنى لا يصدقون بالبعث بأنه كائن.

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾

ثم عظم نفسه لكى يوحد، فقال: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾، يعنى ما استقر، ﴿فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ﴾ من الدواب والطير فى البر والبحر، فمنها ما يستقر بالنهار وينتشر ليلاً، ومنها ما يستقر بالليل وينتشر نهارًا، ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما سألوا من العذاب، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ [آية: ١٣] به.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾، وذلك أن كفار قريش قالوا: يا محمد، ما يحملك على ما أتيتنا به، ألا تنظر إلى ملة أبيك عبد الله وملة جدك عبد المطلب وإلى سادات قومك يعبدون

اللات والعزى ومناة، فتأخذ به، وتدع ما أنت عليه، وما يحملك على ذلك إلا الحاجة، فنحن نجمع لك من أموالنا، وأمره بترك عبادة الله، فأنزل الله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ ﴿أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فعظم نفسه ليعرف توحيده بصنعه، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، وهو يرزق ولا يرزق، لقولهم: نجمع لك من أموالنا ما يغنيك، ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، يعني أول من أخلص من أهل مكة بالتوحيد، ثم أوحى إلى النبي ﷺ، فقال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آية: ١٤]، لقولهم للنبي، عليه السلام: ارجع إلى ملة آبائك.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾، إن رجعت إلى ملة آبائي، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [آية: ١٥]، يعني بالعظيم الشديد يوم القيامة، وقد نسخت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ [الفتح: ١]، ﴿إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، يعني الشديد يوم القيامة.

﴿مَّن يُصْرَفْ﴾ الله ﴿عَنْهُ﴾ العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة، ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ﴾ الصرف، يعني صرف العذاب، ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [آية: ١٦]، يعني النجاة العظيمة المبينة.

ثم خوف النبي ﷺ ليتمسك بدين الله تعالى، فقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، يعني يصبك الله بضر، يعني بلاء وشدة، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، يقول: لا يقدر أحد من الآلهة ولا غيرهم كشف الضر إلا الله، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾، يعني يصبك بفضل وعافية، ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آية: ١٧] من ضر وخير.

وأنزل الله في قولهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، يعني يعبدون من دون الله من الآلهة، ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ في ترك دين الله، ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾، إن اتبعت دينكم، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، يعني من المرشدين، و﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، يعني على بيان من ربي، وأنزل الله في ذلك: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا...﴾ إلى آخر السورة، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ لخلقه، ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، قد علاهم وقهرهم، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في أمره ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ [آية: ١٨] بخلقه.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ

وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى
بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا
يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾، وذلك أن كفار قريش قالوا للنبى ﷺ: أما وجد الله رسولاً غيرك ما نرى أحدًا يصدقك بما تقول، وقد سألنا عنك أهل الكتاب، فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر، فمن يشهد لك أن الله هو الذى أرسلك؟ فقال الله للنبى ﷺ: ﴿قُلِ﴾ لهم ﴿أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾، قالوا: الله أكبر شهادة من غيره، فقال الله: ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ بأنى رسول، ﴿وَ﴾ أنه ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ من عند الله، ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾، يعنى لكى أنذركم بالقرآن يا أهل مكة، ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ القرآن من الجن والإنس، فهو نذير لهم، يعنى القرآن إلى يوم القيامة، ثم قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾؟ قالوا: نعم نشهد، قال الله للنبى ﷺ: ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّآ أَشْهَدُ﴾ بما شهدتم، ولكن أشهد ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، قل لهم: ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [آية: ١٩] به غيره.

وأنزل فى قولهم: لقد سألنا عنك أهل الكتاب، فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾، أى صفة محمد ﷺ فى كتبهم ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾.

حدثنا عبيد الله، قال: حدثنى أبى، قال: حدثنا الهذيل، عن مقاتل، قال: إن عبد الله بن سلام، قال: لأنا أعرف بمحمد، عليه السلام، منى بابنى؛ لأنى لا أعلم ما أحدثت فيه أمه، ثم نعتهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، يعنى غبنوا أنفسهم، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [آية: ٢٠]، يعنى لا يصدقون بمحمد ﷺ، بأنه رسول الله، وأنزل الله فى قولهم أيضًا: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾، يعنى القرآن، ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، يعنى من الشاكين بأن القرآن جاء من الله، نظيرها فى يونس: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، يقول: فلا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن معه شريكًا لقولهم: إن مع الله آلهة أخرى، ثم قال: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾، يعنى بالقرآن أنه ليس من الله، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [آية: ٢١]، يعنى

المشركين فى الآخرة يعيبهم، نظيرها فى يونس.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾، وذلك أن المشركين فى الآخرة لما رأوا كيف يتجاوز الله عن أهل التوحيد، فقال بعضهم لبعض: إذا سئلنا قولوا: كنا موحدين، فلما جمعهم الله وشركاءهم، قال لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [آية: ٢٢] فى الدنيا بأن مع الله شريكًا.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾، يعنى معذرتهم إلا الكذب حين سئلوا فتبرأوا من ذلك، فقالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [آية: ٢٣]، قال الله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم﴾ فى الآخرة، ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آية: ٢٤] من الشرك فى الدنيا، فختم على ألسنتهم، وشهدت الجوارح بالكذب عليهم والشرك.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَمِنْهُم﴾، يعنى كفار مكة، ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وأنت تتلو القرآن، يعنى النضر بن الحارث، إلى آخر الآية، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾، يعنى الغطاء عن القلب؛ لئلا يفقهوا القرآن، ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، يعنى ثقلاً، فلا يسمعوا، يعنى النضر، ثم قال: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾، يعنى انشقاق القمر، والدخان، فلا يصدقوا بأنها من الله عز وجل، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ فى القرآن بأنه ليس من الله، ﴿يَقُولُ﴾ الله: قال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾، يعنى النضر: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ القرآن ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [آية: ٢٥]، يعنى أحاديث الأولين، حديث رستم واسفندياز.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾، وذلك أن النبى ﷺ كان عند أبى طالب بن عبد المطلب، يدعوه إلى الإسلام، فاجتمعت قريش إلى أبى طالب ليريدوا بالنبى، عليه السلام، سوءًا، فسألوا أبا طالب أن يدفعه إليهم فيقتلوه، فقال أبو طالب: ما لى عنه صبر، قالوا: ندفع إليك من سبايانا من شئت مكان ابن أخيك، فقال أبو طالب: حين تروح الإبل، فإن جاءت ناقة إلى غير فصيلها دفعت إليكم، وإن كانت الناقة لا تحن إلا إلى فصيلها، فأنا أحق من الناقة، فلما أبى عليهم، اجتمع منهم سبعة عشر رجلاً من أشرافهم ورؤسائهم، فكتبوا بينهم كتابًا ألا يبايعوا بنى عبد المطلب، ولا يناكحوهم، ولا يخالطوهم، ولا يؤاكلوهم، حتى يدفعوا إليهم محمدًا ﷺ فيقتلوه، فاجتمعوا فى دار شيبة بن عثمان صاحب الكعبة، وكان هو أشد الناس على النبى ﷺ، فقال أبو طالب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أغيب فى التراب دفينًا
فانفذ لأمرك ما عليك غضاضة أبشر وقر بذاك منك عونًا
ودعوتنى وزعمت أنك ناصحى فلقد صدقت وكنت قدمًا أمينًا
وعرضت دينًا قد علمت بأنه من خير أديان البرية دينًا
لولا الدمامة أو أحادن سبة لوجدتنى سمحًا بذاك مبينًا

فأنزل الله فى أبى طالب، واسمه: عبد مناف بن شيبة، وهو عبد المطلب: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾، كان ينهى قريش عن أذى النبى ﷺ، ويتباعد هو عن النبى ﷺ، ولا يتبعه على دينه، ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آية: ٢٦]، يعنى أبا طالب.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد ﴿إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، يعنى كفار قريش هؤلاء الرؤساء تمنوا، ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾، يعنى القرآن بأنه من الله، ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آية: ٢٧]، يعنى المصدقين بالقرآن فى قولهم: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾، وذلك أنهم حين قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، أوحى الله إلى الجوارح، فشهدت عليهم بما كتموا من الشرك، فذلك قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم﴾، يعنى ظهر لهم من الجوارح ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ بألسنتهم من قبل أن تنطق الجوارح بالشرك، فتمنوا عند ذلك الرجعة إلى الدنيا، ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ...﴾ إلى آخر الآية، فأخبر الله عنهم، فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ﴾ إلى الدنيا كما تمنوا

وعمروا فيها، ﴿لَعَادُواْ لِمَا﴾، يعنى لرجعوا لما ﴿نُهُواْ عَنْهُ﴾ من الشرك والتكذيب، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [آية: ٢٨] فى قولهم حين قالوا: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، بالقرآن.

لما أخبر النبى ﷺ كفار مكة بالبعث كذبوه، ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [آية: ٢٩] بعد الموت، فأخبر الله بمنزلتهم فى الآخرة، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد ﴿إِذْ وُقِفُواْ﴾، يعنى عرضوا ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾ إنه الحق، ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آية: ٣٠] بالعذاب بأنه غير كائن، نظيرها فى الأحقاف.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ﴾، يعنى بالبعث، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾، يعنى يوم القيامة بغتة، يعنى فجأة، ﴿قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا﴾، يعنى كفار قريش، ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾، يقولون: يا ندامتنا على ما ضيعنا فى الدنيا من ذكر الله، ثم قال: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [آية: ٣١]، وذلك أن الكافر إذا بعث فى الآخرة، أتاه عمله الخبيث فى صورة حبشى، أشوه، منتن الريح، كريه المنظر، فيقول له الكافر: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، قد كنت أحملك فى الدنيا بالشهوات واللذات، فاحملنى اليوم، فيقول: وكيف أطيق حملك؟ فيقول: كما حملتك، فيركب ظهره، فذلك قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾، يعنى ألا بئس ما يحملون.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ﴾، يعنى إلا باطل، ﴿وَلَهْوٌ ۖ﴾ يكون فى الدنيا،

﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾، يثنى على الجنة، يقول: ولدار الجنة أفضل من الدنيا، ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشرك، ﴿أَفَلَا﴾، يعنى فهلا ﴿تَعْقِلُونَ﴾ [آية: ٣٢] أن الدار الآخرة أفضل من الدنيا؛ لأنها بعد دار الدنيا، وإنما سميت الدنيا؛ لأنها أدنى إلينا من دار الآخرة.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾، نزلت فى الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف بن قصى، كان الحارث يكذب النبى ﷺ فى العلانية، فإذا خلا مع أهل ثقته، قال: ما محمد من أهل الكذب، وإنى لأحسبه صادقًا، وكان إذا لقى النبى ﷺ، قال: إنا لنعلم أن هذا الذى تقول حق، وإنه لا يمنعنا أن نتبع الهدى معك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس، يعنى العرب، من أرضنا إن خرجنا، فإنما نحن أكلة رأس، ولا طاقة لنا بهم، نظيرها فى القصص: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧]، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ فى العلانية بأنك كذاب مفتر، ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ فى السر بما تقول بأنك نبى رسول، بل يعلمون أنك صادق، وقد جربوا منك الصدق فيما مضى، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [آية: ٣٣]، يعنى بالقرآن بعد المعرفة.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾، وذلك قبل كفار مكة؛ لأن كفار مكة، قالوا: يا محمد، ما يمنعك أن تأتينا بآية كما كانت الأنبياء تجىء بها إلى قومهم، فإن فعلت صدقناك، وإلا فأنت كاذب، فأنزل الله يعز نبيه ﷺ ليصبر على تكذيبهم إياه، وأن يقتدى بالرسل قبله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ ﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ فى هلاك قومهم، وأهل مكة بمنزلتهم، فذلك قوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، يعنى لا تبديل لقول الله بأنه ناصر محمد ﷺ، ألا وقوله حق كما نصر الأنبياء قبله، ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى﴾، يعنى من حديث ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [آية: ٣٤] حين كذبوا وأوذوا ثم نصروا.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ﴾، يعنى ثقل عليك ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ عن الهدى، ولم تصبر على تكذيبهم إياك، ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، يعنى سربًا، ﴿أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، أى فإن لم تستطع فأت بسلم ترقى فيه إلى السماء، ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ فافعل إن استطعت، ثم عزى نبيه ﷺ ليصبر على تكذيبهم، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [آية: ٣٥]، فإن الله لو شاء لجعلهم مهتدين.

﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟
لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى
ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى
ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ
أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

ثم ذكر إيمان المؤمنين، فقال: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ الهدى، يعنى القرآن، ثم قال: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، يعنى كفار مكة يبعثهم الله فى الآخرة، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آية: ٣٦]، يعنى يردون فيجزيهم. ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا﴾، يعنى هلا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ محمد كما أنزل على الأنبياء ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ للكفار، ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٣٧] بأن الله قادر على أن ينزلها.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ولا فى بر، ولا فى بحر، ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، يعنى خلقًا أصنافًا مصنفة تعرف بأسمائهم، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعنى ما ضيعنا فى اللوح المحفوظ، ﴿مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [آية: ٣٨] فى الآخرة، ثم يصيرون من بعد ما يقتص بعضهم من بعض ترابًا، يقال لهم: كونوا ترابًا.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، يعنى القرآن، ﴿صُمٌّ﴾ لا يسمعون الهدى، ﴿وَبُكْمٌ﴾ لا يتكلمون به، ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، يعنى الشرك، ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ عن الهدى، نزلت فى بنى عبد الدار بن قصى، ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آية: ٣٩]، يعنى على دين الإسلام، منهم: على بن أبى طالب، والعباس، وحمزة، وجعفر.

ثم خوفهم، فقال للنبى ﷺ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ فى الدنيا كما أتى الأمم الخالية، ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾، ثم رجع إلى عذاب الدنيا، فقال: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ من الآلهة ﴿تَدْعُونَ﴾ أن يكشف عنكم العذاب فى الدنيا، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آية: ٤٠] بأنه معه آلهة.

ثم رجع إلى نفسه، فقال: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ﴾،

يعني وتتركون ﴿مَا تُشْرِكُونَ﴾ [آية: ٤١] بالله من الآلهة، فلا تدعونهم أن يكشفوا عنكم ولكنكم تدعون الله، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ الرسل ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، فكذب بهم قومهم كما كذب بك كفار مكة، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ﴾ لكي ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ [آية: ٤٢] إلى ربهم فيتوبون إليه.

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾، يعني الشدة والبلاء، ﴿تَضَرَّعُوا۟﴾ إلى الله وتابوا إليه لكشف ما نزل بهم من البلاء، ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ﴾، يعني جفت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾، فلم تلن، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [آية: ٤٣] من الشرك والتكذيب، ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾، يعني فلما تركوا ما أمروا به، يعني وعظوا به، يعني الأمم الخالية مما دعاهم الرسل فكذبوهم، فـ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾، يعني أرسلنا عليهم ﴿أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾، يعني أنواع الخير من كل شيء بعد الضر الذى كان نزل بهم، نظيرها فى الأعراف، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾، يعني بما أعطوا من أنواع الخير وأعجبهم ما هم فيه، ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾، يعني أصبناهم بالعذاب بغتة، يعني فجأة أعز ما كانوا، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [آية: ٤٤]، يعني فإذا هم مرتهنون آيسون من كل خير.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾، يعني أصل القوم، ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، يعني أشركوا، فلم يبق منهم أحد، ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آية: ٤٥] فى هلاك أعدائه، يخوف كفار مكة.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لكفار مكة يا محمد: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾، فلم تسمعوا شيئًا، ﴿وَخَتَمَ﴾، يعني وطبع ﴿عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾، فلم تعقلوا شيئًا، ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ

﴿يَأۡتِيكُم بِهِ﴾، يعنى هل أحد يرده إليكم دون الله، ﴿ٱنظُرۡ﴾ يا محمد ﴿كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، يعنى العلامات فى أمور شتى فيما ذكر من تخويفهم من أخذ السمع والأبصار والقلوب، وما صنع بالأمم الخالية، ﴿ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾ [آية: ٤٦]، يعنى يعرضون، فلا يعتبرون.

ثم قال يعنيهم: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً﴾، يعنى فجأة لا تشعرون حتى ينزل بكم، ﴿أَوۡ جَهۡرَةً﴾، أو معاينة ترونه حين ينزل بكم القتل ببدر، ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ﴾ بذلك العذاب، ﴿إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [آية: ٤٧]، يعنى المشركون.

﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ بالجنة، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من النار، ﴿فَمَنۡ ءَامَنَ﴾، يعنى فمن صدق، ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ العمل، ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [آية: ٤٨]، نظيرها فى الأعراف.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، يعنى بالقرآن، يعنى كفار مكة، ﴿يَمَسُّهُمُ﴾، يعنى يصيبهم ﴿ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [آية: ٤٩]، يعنى يعصون، فلما خوفهم النبى ﷺ بالعذاب، سألوه العذاب استهزاء وتكذيبًا: إلى متى يكون هذا العذاب الذى تعدنا به إن كنت من الصادقين؟ فقال الله للنبى ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، يعنى مفاتيح الله بنزول العذاب، ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾، يعنى غيب نزول العذاب متى ينزل بكم، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾؛ لقولهم فى حم السجدة: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ [فصلت: ١٤] رسلاً فتؤمن بهم، فأما أنت يا محمد، فلا نصدقك فيما تقول، ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ﴾، يقول: ما أتبع، ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ من القرآن، ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ بالهدى فلا يبصره، وهو الكافر، ﴿وَٱلۡبَصِيرُ﴾ بالهدى، وهو المؤمن، ﴿أَفَلَا﴾، يعنى فهلا ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ [آية: ٥٠] فتعلمون أنهما لا يستويان.

ثم قال: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ﴾، يعنى بالقرآن، ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾، يعنى يعلمون، ﴿أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾، يعنى الموالى وفقراء العرب، ويعلمون أنه ﴿لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾،

يعنى من دون الله ﴿وَلِيٌّ﴾، يعنى قريب ينفعهم، ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ فى ألآخرة يشفع لهم إن عصوا الله، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾، يعنى لكى ﴿يَتَّقُونَ﴾ [آية: ٥١] المعاصى، نزلت فى الموالى عمارة، وأبى ذر الغفارى، وسالم، ومهجع، والنمر بن قاسط، وعامر بن فهيرة، وابن مسعود، وأبى هريرة، ونحوهم، وذلك أن أبا جهل وأصحابه، قالوا: انظروا إلى هؤلاء الذين اتبعوا محمدًا من موالينا وأعرابنا رذالة كل حى وسفلتهم، يعنون الموالى، ولو كان لا يقبل إلا سادات الحى وسراة الموالى تابعناه، وذكروا ذلك لأبى طالب، فقالوا: قل لابن أخيك أن يطرد هؤلاء الغرباء والسفلة، حتى يجيبه سادات قومه وأشرافهم.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾

قال أبو طالب للنبى ﷺ: لو طردت هؤلاء عنك، لعل سراة قومك يتبعونك، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾، يعنى الصلاة له، ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ طرفى النهار، ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، يعنى يبتغون بصلاتهم وجه ربهم، ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آية: ٥٢]، قال: وكانت الصلاة يومئذ ركعتين بالغداة وركعتين بالعشى، ثم فرضت الصلوات الخمس بعد ذلك.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، يقول: هكذا ابتلينا فقراء المسلمين من العرب والموالى بالعرب من المشركين: أبى جهل، والوليد، وعتبة، وأمية، وسهل بن عمرو، ونحوهم، ﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾، يعنى أنعم الله عليهم بالإسلام، ﴿مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، يقول الله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آية: ٥٣]، يعنى بالموحدين منكم من غيره، وفيهم نزلت فى الفرقان: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً...﴾ [الفرقان: ٢٠]، إلى آخر الآية.

ثم قال يعنيهم: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، يعنى يصدقون بالقرآن أنه من الله، ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، يقول: مغفرة الله عليكم، كان النبى ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام، وقال: «الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر معهم وأسلم عليهم»، وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، نزلت فى عمر بن الخطاب، تاب من بعد السوء، يعنى الشرك، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل، ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آية: ٥٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾، يعنى نبين الآيات، يعنى هكذا نبين أمر الدين، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾، يعنى وليتبين لكم ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [آية: ٥٥]، يعنى طريق الكافرين من المؤمنين حتى يعرفهم، يعنى هؤلاء النفر أبا جهل وأصحابه.

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الآلهة، ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [آية: ٥٦] إن اتبعت أهواءكم، وذلك حين دعى إلى دين آبائه.

قوله: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾، يعنى بيان من ربى بما أمرنى من عبادته وترك عبادة الأصنام، حين قالوا له: ائتنا بالعذاب إن كنت من الصادقين، ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾، يعنى بالعذاب، فقال لهم، عليه السلام: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ من العذاب، يعنى كفار مكة، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، يعنى ما القضاء إلا لله فى نزول العذاب بكم فى الدنيا، ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾، يعنى يقول الحق، ومن قرأها: «يقضى الحق»، يعنى يأتى بالعذاب ولا يؤخره إذا جاء، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [آية: ٥٧] بينى وبينكم، يعنى خير الحاكمين فى نزول العذاب بهم.

﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾، يعنى بيدى، ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ من العذاب، ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، يعنى أمر العذاب، ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، وليس ذلك بيدى، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آية: ٥٨].

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ
مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ
مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ
لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ
فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا
يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ
ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾، يعنى وعند الله خزائن العذاب، متى ينزله بكم، ﴿لَا يَعْلَمُهَآ﴾ أحد ﴿إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ من شجرة، ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ كلها، ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [آية: ٥٩]، يقول: هو بين فى اللوح المحفوظ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾، يعنى يميتكم بالليل، ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾، يعنى ما كسبتم من خير أو شر بالنهار، ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، يقول: يبعثكم من منامكم بالنهار، ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، يعنى منتهيًا إليه، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ فى الآخرة، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [آية: ٦٠] فى الدنيا من خير أو شر، هذا وعيد.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ لخلقه، ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، قد علاهم، ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ من الملائكة، يعنى الكرام الكاتبين يحفظون أعمال بنى آدم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ عند منتهى الأجل، ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، يعنى ملك الموت وحده، عليه السلام، ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (١) [آية: ٦١]، يعنى لا يضيعون ما أمروا به، يعنى ملك الموت وحده.

ثم قال: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، ثم ردوا من الموت إلى الله فى الآخرة، فيها تقديم، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾، يعنى القضاء، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [آية: ٦٢]،

(١) أفرط فى الأمر إذا زاد فيه، وفرّط فيه: إذا قصّر، فكما أن قراءة العامة: ﴿لا يُفَرِّطون﴾: لا يقصرون فيما يؤمرون به من تَوَفِّيِّ من تحضر منيته - فكذلك أيضًا لا يزيدون، ولا يَتَوَفَّوْن إلا من أُمِرُوا بتَوَفِّيه. ونظيره قوله جل وعز: ﴿وكُلُّ شيءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَار﴾ انظر: (القرطبى ٧/٧ والكشاف ١٩/٢، البحر المحيط ١٤٨/٤).

يقول: هو أسرع حسابًا من غيره، وذلك قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة: ﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، يعنى الظلل والظلمة والموج، ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا﴾، يعنى مستكينين، ﴿وَخُفْيَةً﴾، يعنى فى خفض وسكون، ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الأهوال، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آية: ٦٣] لله فى هذه النعم، فيوحدوه، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾، يعنى من أهوال كل كرب، يعنى من كل شدة، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [آية: ٦٤] فى الرخاء.

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، يعنى الحصب بالحجارة كما فعل بقوم لوط، فلا يبقى منكم أحد، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، يعنى الخسف كما فعل بقارون ومن معه، ثم قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، يعنى فرقًا أحزابًا أهواء مختلفة كفعله بالأمم الخالية، ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، يقول: يقتل بعضكم بعضًا، فلا يبقى منكم أحد إلا قليل، فقال النبى ﷺ وهو يجر رداءه، وذلك بالليل، وهو يقول: «لئن أرسل الله على أمتى عذابًا من فوقهم ليهلكنهم، أو من تحت أرجلهم، فلا يبقى منهم أحد»، فقام ﷺ فصلى ودعا ربه أن يكشف ذلك عنهم، فأعطاه الله اثنتين الحصب والخسف، كشفهما عن أمته، ومنعه اثنتين الفرقة والقتل، فقال: «أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ بمعافاتك من غضبك، وأعوذ بك منك، جل وجهك، لا أبلغ مدحتك والثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

قال: فجاءه جبريل، عليه السلام، فقال: إن الله قد استجاب لك وكشف عن أمتك اثنتين ومنعوا اثنتين، ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾، يعنى العلامات فى أمور شتى من ألوان العذاب، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾، يقول: لكى، ﴿يَفْقَهُونَ﴾ [آية: ٦٥] عن

الله فيخافوه ويوحدوه، ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿قَوْمُكَ﴾ خاصة، ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ جاء من الله، ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [آية: ٦٦]، يقول بمسيطر، نسختها آية السيف، ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾، يقول: لكل حديث حقيقة ومنتهى، يعنى العذاب منه فى الدنيا، وهو القتل ببدر، ومنه فى الآخرة نار جهنم، وذلك قوله: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٦٧]، أوعدهم العذاب، مثلها فى اقتربت.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾، يعنى سمعت يا محمد، ﴿ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾، يعنى يستهزءون بالقرآن، وقالوا ما لا يصح، قال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾، يعنى فقم عنهم لا تجالسهم حتى يكون حديثهم فى غير أمر الله وذكره، ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، يقول: فإن أنساك الشيطان فجالستهم بعد النهى، ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، يقول: إذا ذكرت فلا تقعد، ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آية: ٦٨]، يعنى المشركين.

فقال المؤمنين عند ذلك: لو قمنا عنهم إذا خاضوا واستهزءوا، فإنا نخشى الإثم فى مجالستهم، يعنى حين لا نغير عليهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، يعنى يوحدون الرب، ﴿مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾، يعنى من مجازاة عقوبة خوضهم واستهزائهم من شىء، ثم قال: ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [آية: ٦٩] إذا قمتم عنهم منعهم من الخوض والاستهزاء الحياء منكم والرغبة فى مجالستكم، فيذكرون قيامكم عنهم، ويتركون الخوض والاستهزاء، ثم نسختها الآية التى فى النساء: ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ...**﴾ [النساء: ١٤٠] ألآية.

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ﴾ الإسلام ﴿ لَعِبًا﴾ ، يعنى باطلاً، ﴿ وَلَهْوًا﴾ ، يعنى هوًا عنه، ﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ ، عن دينهم الإسلام، ﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ ، يعنى وعظ بالقرآن، ﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ﴾ ، يعنى لئلا تبسل نفس، ﴿ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ، يعنى بما عملت من الشرك والتكذيب، فترتهن بعملها فى النار، ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ﴾ ، يعنى قريبًا ينفعهم، ﴿ وَلَا شَفِيعٌ﴾ فى الآخرة يشفع لهم، ﴿ وَإِن تَعْدِلْ﴾ ، يعنى فتفتدى هذه النفس المرتهنة بعملها، ﴿ كُلَّ عَدْلٍ﴾ ، فتعطى كل فداء ملء الأرض ذهبًا، ﴿ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ ، يعنى لا يقبل منها، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعنيهم، ﴿ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ﴾ ، يعنى حبسوا فى النار، ﴿ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ، يعنى النار التى قد انتهى حرها، ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ ، يعنى وجيع، ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ [آية: ٧٠].

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ ، وذلك أن كفار مكة عذبوا نفرًا من المسلمين على الإسلام، وأرادوهم على الكفر، يقول الله لنبيه ﷺ: **﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ﴾** من آلهة، يعنى الأوثان، **﴿مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا﴾** [المائدة: ٧٦] فى الآخرة، ولا يملك لنا ضرًا فى الدنيا، ﴿ وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ ، يعنى ونرجع إلى الشرك، ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ إلى دينه الإسلام، فهذا قول المسلمين للكفار حين قالوا لهم: اتركوا دين محمد ﷺ واتبعوا ديننا، يقول الله للمؤمنين: ردوا عليهم: فإن مثلنا إن اتبعناكم وتركنا ديننا، كان مثلنا ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ وأصحابه على الطريق يدعونه إلى الهدى: أن ائتنا، فإنا على الطريق، فأبى ذلك الرجل أن يأتيهم، فذلك مثلنا لإن تركنا دين محمد ﷺ، ونحن على طريق الإسلام، وأما الذى استهوته الشياطين، يعنى أضلته، ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ ، لا يدرى أين يتوجه، فإنه عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، أضلته الشياطين عن الهدى، فهو حيران، ﴿ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ﴾ مهتدون، ﴿ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ ، يعنى أبويه، قالا له: ﴿ ٱئْتِنَا﴾ ، فإنا على الهدى، وفيه نزلت، والذى قال لوالديه: **﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾** [الأنبياء: ٦٧]، فذلك قوله: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ ، يعنى الإسلام هو الهدى، والضلال الذى تدعونا الشياطين إليه هو الذى أنتم عليه، قل لهم: ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾ ، يعنى لنخلص، ﴿ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آية: ٧١]، فقد فعلنا.

﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

ثم أمرهم بالعمل، فقال لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لمواقيتها، يخبرهم أنه لا تنفعهم الصلاة إلى مع الإخلاص، ﴿وَٱتَّقُوهُۚ﴾، يعنى وحدوه، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [آية: ٧٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّىۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّىۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهۡتُ وَجۡهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيۡـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنًاۚ فَأَىُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾

ثم خوفهم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾، يعنى بأنه لم يخلقهما باطلاً لغير شىء، ولكن خلقهما لأمر هو كائن، ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ﴾ الله للبعث مرة واحدة: ﴿كُن فَيَكُونُۚ﴾، لا يثنى الرب القول مرتين، ﴿قَوۡلُهُ﴾ فى البعث ﴿ٱلۡحَقُّۚ﴾، يعنى الصدق، وأنه كائن، ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ﴾، أى ينفخ إسرافيل، ﴿فِى ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾، يعلم غيب ما كان وما يكون، ثم قال: ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾، يعنى شاهد كل نجوى وكل شىء، ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾، يعنى حكم البعث، ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ [آية: ٧٣] بالبعث متى يبعثهم.

﴿۞وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾[1]، اسمه بكلام قومه: تارح: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا

---

(١) قراءة أُبيّ وابن عباس والحسن ومجاهد والضحاك وابن يزيد المدنى ويعقوب، ورُويت عن=

ﵟءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖﵞ [آية: ٧٤]، وولد إبراهيم بكوتى، وذلك أن الكهنة قالوا لنمروذ الجبار: إنه يولد فى هذه السنة غلام يفسد آلهة أهل الأرض، ويدعو إلى غير آلهتكم، ويكون هلاك ملكك وهلاك أهل بيتك بسببه، فقال نمروذ: إن دواء هذا لهين، نعزل الرجال عن النساء، ونعمد إلى كل غلام يولد فى هذه السنة فنقتله إلى أن تنقضى السنة، فقالوا: إن فعلت ذلك، وإلا كان الذى قلنا لك.

فعمد نمروذ، فجعل على كل عشرة رجال رجلاً، وقال لهم: إذا طهرت المرأة فحولوا بينها وبين زوجها إلى أن تحيض، ثم يرجع إلى امرأته إلى أن تطهر، ثم يحال بينهما، فرجع آزر إلى امرأته، فجامعها على طهر فحملت، قالت الكهنة: قد حمل به الليلة، قال نمروذ: انظروا إلى كل امرأة استبان حملها، فخلوا سبيلها، وانظروا بقيتهن، فلما دنا مخاض أم إبراهيم، عليه السلام، دنت إلى نهر يابس، فولدت فيه، ثم لفته فى خرقة، فوضعته فى حلفًا، ثم رجعت إلى بيتها، فأخبرت زوجها بمكانه، فعمد أبوه فحفر له سربًا فى الأرض، ثم جعله فيه وسد عليه بصخرة مخافة السباع، فكانت أمه تختلف إليه وترضعه حتى فطمته وعقل، وكان ينبت فى اليوم نبات شهر، وفى الشهر نبات سنة، وفى السنة نبات سنتين، فقال لأمه: من ربى؟ قالت: أنا، قال: من ربك؟ قالت: أبوك، قال: فمن رب أبى؟ فضربته، وقالت له: اسكت، فسكت الصبى.

ورجعت إلى زوجها، فقالت: أرأيت الغلام الذى كنا نخبر أنه يغير دين أهل الأرض؟ فهو ابنك، وأخبرته الخبر، فأتاه أبوه وهو فى السرب، فقال: يا أبت، من ربى؟ قال: أمك، قال: فمن رب أمى؟ قال: أنا، قال: فمن ربك؟ فضربه، وقال له: اسكت، ﵟوَكَذَٰلِكَﵞ، يعنى هكذا، ﵟنُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَﵞ، يعنى خلق ﵟٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِﵞ، وما بينهما من الآيات، ﵟوَلِيَكُونَﵞ إبراهيم ﵟمِنَ ٱلۡمُوقِنِينَﵞ [آية: ٧٥] بالرب أنه واحد لا شريك له.

وذلك أن إبراهيم سأل ربه أن يريه ملكوت السموات والأرض، فأمر الله جبريل، عليه السلام، فرفعه إلى الملكوت ينظر إلى أعمال العباد، فرأى رجلاً على معصية، فقال: يا رب، ما أقبح ما يأتى هذا العبد، اللهم اخسف به، ورأى آخر فأعاد الكلام، قال: فأمر الله جبريل، عليه السلام، أن يرده إلى الأرض، فأوحى الله إليه: مهلاً يا إبراهيم، فلا

=سليمانَ التيمى: «لأبيه آزرُ» انظر: (الطبرى ٤٦٧/١١، الكشاف ٢٣/٢، القرطبى ٢٣/٧، البحر ١٦٤/٤، النشر ٢٥٩/٢، الإتحاف ٢١١).

تدع على عبادى، فإنى من عبادى على إحدى خصلتين: إما أن يتوب إلىَّ قبل موته فأتوب عليه، وإما أن يموت فيدع خلفًا صالحًا فيستغفر لأبيه فأغفر لهما بدعائه.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾، دنا من باب السرب، وذلك فى آخر الشهر، فرأى الزهرة أول الليل من خلال السرب ومن وراء الصخرة، والزهرة أحسن الكواكب، ﴿رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ﴾، يعنى غاب، ﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [آية: ٧٦]، يعنى الغائبين الذاهبين، وربى لا يذهب ولا يغيب.

﴿فَلَمَّا﴾ كان آخر الليل، ﴿رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾، يعنى طالعًا أعظم وأضوأ من الكواكب، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾، وهو ينظر إليه، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾، يعنى غاب، ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى﴾ لدينه ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [آية: ٧٧] عن الهدى.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾، يعنى طالعة فى أول ما رآها ملأت كل شىء ضوءًا، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾، يعنى أعظم من الزهرة والقمر، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾، يعنى غابت، عرف أن الذى خلق هذه الأشياء دائم باق، ورفع الصخرة، ثم خرج فرأى قومه يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما تعبدون؟ قالوا: نعبد ما ترى، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾، عبادة رب واحد خير من عبادة أرباب كثيرة، و﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [آية: ٧٨] بالله من الآلهة، قالوا: فمن تعبد يا إبراهيم؟ قال: أعبد الله الذى خلق السموات والأرض حنيفًا، يعنى مخلصًا لعبادته، وما أنا من المشركين، وذلك قوله: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾، يعنى دينى ﴿لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾، يعنى مخلصًا، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آية: ٧٩].

ثم إن نمروذ بن كنعان الجبار خاصم إبراهيم، فقال: من ربك؟ قال إبراهيم: ربى الذى يحيى ويميت، وهو قوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾، فعمد نمروذ إلى إنسان فقتله، وجاء بآخر فتركه، فقال: أنا أحييت هذا وأمت ذلك، قال إبراهيم: فإن الله يأتى بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب، فبهت الذى كفر، يعنى نمروذ، قوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾، وذلك أنهم لما سمعوا إبراهيم، عليه السلام، عاب آلهتهم وبرىء منها، قالوا لإبراهيم: إن لم تؤمن بآلهتنا، فإنا نخاف أن تخبلك وتفسدك فتهلك، فذلك قوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾، يعنى وخاصمه قومه، ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ لدينه، ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾، يعنى بالله من الآلهة، وهى لا تسمع ولا تبصر شيئًا، ولا تنفع ولا تضر،

وتنحتونها بأيديكم، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ﴾، فيضلنى عن الهدى، فأخاف آلهتكم أن تصيبنى بسوء، ﴿وَسِعَ﴾، يعنى ملأ ﴿رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾، فعلمه، ﴿أَفَلَا﴾، يعنى فهلا ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ [آية: ٨٠] فتعتبرون.

ثم قال لهم: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ﴾ بالله من الآلهة، ﴿وَلَا تَخَافُونَ﴾ أنتم بـ﴿أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ﴾ غيره، ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ﴾، يعنى كتابًا فيه حجتكم بأن معه شريكًا، ثم قال لهم: ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ﴾، أنا أو أنتم؟ ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آية: ٨١] من عبد إلهًا واحدًا أحق بالأمن أم من عبد أربابًا شتى، يعنى آلهة صغارًا وكبارًا، ذكورًا وإناثًا، فكيف لا يخاف من الكبير إذا سوى بالصغير؟ وكيف لا يخاف من الذكر إذا سوى بالأنثى؟ أخبرونى أى الفريقين أحق بالأمن من الشر إن كنتم تعلمون.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾
وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ
﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن
ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ
﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ
وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ
وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ
عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ
وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ
لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

فرد عليه قومه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ برب واحد، ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾، يعنى ولم خلطوا تصديقهم بشرك، فلم يعبدوا غيره، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [آية: ٨٢] من الضلالة، فأقروا بقول إبراهيم، وفلح عليهم، فذلك قوله: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ فى أمره ﴿عَلِيمٞ﴾ [آية: ٨٣] بخلقه.

ثم قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾، يعني إبراهيم، ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ﴾ للإيمان، ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾ إلى الإسلام ﴿مِن قَبْلُ ۖ﴾ إبراهيم، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾، يعني من ذرية نوح، ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ﴾، يعني هكذا، ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آية: ٨٤]، يعني هؤلاء الذين ذكرهم الله، ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آية: ٨٥]، ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا﴾ بالنبوة من الجن والإنس ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آية: ٨٦].

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾، يعني واستخلصناهم بالنبوة، ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آية: ٨٧]، يعني الإسلام، ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، يعني ثمانية عشر نبيًا، ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾، فيعطيه النبوة، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ بالله، ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [آية: ٨٨].

ثم ذكر ما أعطى النبيين، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني أعطيناهم الكتاب، يعني كتاب إبراهيم، والتوراة، والزبور، والإنجيل، ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾، يعني العلم والفهم، ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ من أهل مكة بما أعطى الله النبيين من الكتب، ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾، يعني بالكتب، ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [آية: ٨٩]، يعني أهل المدينة من الأنصار.

ثم ذكر النبيين الثمانية عشر، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ﴾ لدينه، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾، يقول للنبي ﷺ: فبسنتهم اقتد، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، يعني على الإيمان بالقرآن، ﴿أَجْرًا ۖ﴾، يعني جميلاً، ﴿إِنْ هُوَ﴾، يعني ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾، يعني تذكرة ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [آية: ٩٠].

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ

ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، يعنى ما عظموا الله حق عظمته، ﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾، يقول: على رسول من كتاب، فما عظموه حين كذبوا بأنه لم ينزل كتابًا على الرسل، نزلت فى مالك بن الضيف اليهودى حين خاصمه عمر بن الخطاب فى النبى ﷺ أنه مكتوب فى التوراة، فغضب مالك، فقال: ما أنزل الله على أحد كتابًا ربانيًا فى اليهود، فعزلته اليهود عن الربانية، فقال النبى ﷺ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا﴾، يعنى ضياء من الظلمة، ﴿وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ من الضلالة، ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾، يعنى صحفًا ليس فيها شىء، ﴿تُبْدُونَهَا﴾ تعلنونها، ﴿وَتُخْفُونَ﴾، يعنى وتسرون، ﴿كَثِيرًا﴾، فكان مما أخفوا أمر محمد ﷺ، وأمر الرجم فى التوراة، ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ فى التوراة ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ﴾ ولم يعلمه ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾، ثم قال فى التقديم: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أنزل على موسى، عليه السلام، ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾، يعنى خل عنهم إن لم يصدقوك، ﴿فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [آية: ٩١]، فى باطلهم يلهون، يعنى اليهود، نزلت هذه الآية بالمدينة، ثم إن مالك بن الضيف تاب من قوله، فلم يقبلوا منه، وجعلوا مكانه رجلاً فى الربانية.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ على محمد ﷺ، ﴿مُبَارَكٌ﴾ لمن عمل به، وهو ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، يقول: يصدق لما قبله من الكتب التى أنزلها الله عز وجل على الأنبياء، ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾، يعنى لكى تنذر بالقرآن أصل القرى، يعنى مكة، وإنما سميت أم القرى؛ لأن الأرض كلها دحيت من تحت الكعبة، ﴿وَ﴾ تنذر بالقرآن ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، يعنى حول مكة، يعنى قرى الأرض كلها، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، يعنى يصدقون بالبعث الذى فيه جزاء الأعمال، ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، يعنى يصدقون بالقرآن أنه جاء من الله عز وجل، ثم نعتهم، فقال: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [آية: ٩٢] عليها فى مواقيتها لا يتركونها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، هذه الآية مدنية، فلا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ

﴿أُوحِىَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾، نزلت فى مسيلمة بن حبيب الكذاب الحنفى، حيث زعم أن الله أوحى إليه النبوة، وكان مسيلمة أرسل إلى النبى ﷺ رسولين، فقال النبى ﷺ لهما: «أتشهدان أن مسيلمة نبى؟»، قال: نعم، فقال النبى ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما»، ثم قال: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، فلا أحد أيضًا أظلم منه، نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح القرشى، من بنى عامر بن لؤى، وكان أخا عثمان بن عفان من الرضاعة، كان يتكلم بالإسلام، وكتب للنبى ﷺ يومًا سورة النساء، فإذا أملى عليه النبى ﷺ: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، كتب: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وإذا أملى عليه: ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ كتب: ﴿سَمِيعًا عَلِيمًا﴾، فقال لقوم من المنافقين: كتبت غير الذى أملى علىَّ، وهو ينظر إليه فلم يغيره، فشك عبد الله بن سعد فى إيمانه، فلحق بمكة كافرًا، فقال لهم: لئن كان محمد صادقًا فيما يقول، لقد أنزل علىَّ كما أنزل عليه، ولئن كان كاذبًا، لقد قلت كما قال، وإنما شك لسكوت النبى ﷺ وهو ينظر إليه، فلم يغير ذلك، وذلك أن النبى ﷺ كان أميًا لا يكتب.

ثم قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، يعنى مشركى مكة، ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾، يعنى فى سكرات الموت، إذ قتلوا ببدر، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ عند الموت تضرب الوجوه والأدبار، يعنى ملك الموت وحده، وهو يقول: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾، يعنى أرواحكم، منهم: أبو جهل، وعتبة بن ربيعة، وشيبة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبى معيط، والنضر بن الحارث، وأبو قيس بن الفاكه، والوليد بن المغيرة، وقريبًا من سبعين قتيلاً، فلما بعثوا فى الآخرة، وصاروا فى النار، قالت لهم خزنة جهنم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾، يعنى الهوان بغير رأفة ولا رحمة، نظيرها فى الأنفال، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فى الدنيا، ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ بأن معه شريكًا، ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [آية: ٩٣]، يعنى وكنتم تتكبرون عن الإيمان بالقرآن.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ فى الآخرة، ﴿فُرَٰدَىٰ﴾، ليس معكم من الدنيا شىء، ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حين ولدوا وليس لهم شىء، ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ فى الدنيا ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾، يعنى ما أعطيناكم من الخير من بعدكم فى الدنيا، ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾ من الملائكة، ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ فى الدنيا، ﴿أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾، يعنى أنهم لكم شفعاء عند الله، لقولهم فى يونس: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]،

يعنى الملائكة، ثم قال: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ وبين شركاءكم، يعنى من الملائكة من المودة والتواصل، ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ فى الآخرة ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [آية: ٩٤] فى الدنيا بأن مع الله شريكًا.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾، يعنى خالق الحب، يعنى البر، والشعير، والذرة، والحبوب كلها، ثم قال: ﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾، يعنى كل ثمرة لها نوى: الخوخ، والنبق، والمشمش، والعنب، والإجاص، وكل ما كان من الثمار له نوى، ثم قال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾، يقول: أخرج الناس والدواب من النطف وهى ميتة، ويخرج الطير كلها من البيضة وهى ميتة، ثم قال: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾، يعنى النطف والبيض من الحى، يعنى الحيوانات كلها، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الذى ذكر فى هذه الآية من صنعه وحده يدل على توحيده بصنعه، ثم قال: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [آية: ٩٥]، يقول: أنى يكذبون بأن الله وحده لا شريك له.

ثم ذكر أيضًا فى هذه من صنعه ليدل على توحيده بصنعه، فقال: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾، يعنى خالق النهار من حين يبدوا أوله، ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ لخلقه يسكنون فيه لراحة أجسادهم، ﴿وَ﴾ جعل ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾، يقول: جعلهما فى مسيرهما كالحسبان فى الفلك، يقول: لتعلموا عدد السنين والحساب، وذلك أن الله قدر لهما منازلهما فى السماء الدنيا، فذلك قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ فى ملكه يصنع ما أراد، ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ [آية: ٩٦] بما قدر من خلقه، نظيرها فى يونس.

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ نورًا، ﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ بالكواكب ليلاً،

يقول: لتعرفوا الطريق إذا سرتم، ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٩٧] بأن الله واحد لا شريك له، ثم أخبر عن صنعه، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، يعنى خلقكم من نفس واحدة، يعنى آدم وحده، ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ فى أرحام النساء، ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فى أصلاب الرجال مما لم يخلقه وهو خالقه، ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾، يعنى قد بينا الآيات، ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [آية: ٩٨] عن الله عز وجل.

ثم أخبر عن صنعه ليعرف توحيده، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، يعنى المطر، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾، يعنى بالمطر، ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾، يعنى الثمار والحبوب وألوان النبات، ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾، يعنى أول النبات، ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾، يعنى من الماء، ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾، يعنى السنبل قد ركب بعضه بعضًا، ﴿وَ﴾ أخرجنا بالماء ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا﴾، يعنى من ثمرها، ﴿قِنْوَانٌ﴾ (١)، يعنى قصار النخل، ﴿دَانِيَةٌ﴾، يعنى ملتصقة بالأرض تجنى باليد، ﴿وَ﴾ أخرجنا بالماء ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾، يعنى البساتين، ثم نعت البساتين، فقال: ﴿مِّنْ﴾ نخيل و ﴿أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا﴾، ورقها فى المنظر يشبه ورق الزيتون وورق الرمان، ثم قال: ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ فى اللون مختلف فى الطعم، ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ حين يبدو غضًا أوله صيصًا، ﴿وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ﴾، يعنى إن فى هذا الذى ذكر من صنعه وعجائبه لعبرة، ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [آية: ٩٩]، يعنى يصدقون بالتوحيد.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

---

(١) قراءة الأعرج: «قَنْوَان»، بالفتح وقراءة أبى عمرو، وهارون. قال ابن جنى: ينبغى أن يكون قَنْوَان هذا اسما للجمع غير مكسر، بمنزلة رَكْب عند سيبويه والجامل والباقر؛ وذلك أن فَعْلان ليس من أمثلة الجمع. انظر: (القرطبى ٤٨/٧، الكشاف ٢٢٣/١، البحر المحيط ١٨٩/٤، العكبرى ١٤٨/١).

﴿وَجَعَلُواْ﴾ يعنى وصفوا ﴿لِلَّهِ﴾ الذى خلقهم فى التقديم ﴿شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ من الملائكة، وذلك أن جهينة، وبنى سلمة، وخزاعة وغيرهم، قالوا: إن حيًا من الملائكة يقال لهم: الجن بنات الرحمن، فقال الله: ﴿وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ﴾، يعنى وتخرصوا، يعنى يخلقوا لله ﴿بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [(١)] يعلمونه أن له بنين وبنات، وذلك أن اليهود، قالوا: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت العرب: الملائكة بنات الله، يقول الله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ نزه نفسه عما قالوا من البهتان، ثم عظم نفسه، فقال: ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾، يعنى وارتفع ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [آية: ١٠٠]، يعنى يقولون من الكذب.

فعظم نفسه وأخبر عن قدرته، فقال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، لم يكونا فابتدع خلقهما، ثم قال: ﴿أَنَّىٰ﴾، يعنى من أين ﴿يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [(٢)]، يعنى زوجة، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، يعنى من الملائكة، وعزير، وعيسى، وغيرهم فهم خلقه وعباده وفى ملكه، ثم قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [آية: ١٠١].

ثم دل على نفسه بصنعه ليوحدوه، فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذى ابتدع خلقهما وخلق كل شىء ولم يكن له صاحبة ولا ولد، ثم وحد نفسه إذ لم يوحده كفار مكة، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾، يعنى فوحدوه، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [آية: ١٠٢]، وهو رب كل شىء ذكر من بنين وبنات وغيرهم.

ثم عظم نفسه، فقال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، يقول: لا يراه الخلق فى الدنيا، ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾، وهو يرى الخلق فى الدنيا، ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ لطف علمه وقدرته حين يراهم فى السموات والأرض، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ [آية: ١٠٣] بمكانهم.

﴿قَدْ جَآءَكُم﴾ يا أهل مكة، ﴿بَصَآئِرُ﴾، يعنى بيان ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾، يعنى القرآن، نظيرها فى الأعراف، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ إيمانًا بالقرآن، ﴿فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ﴾ عن إيمان بالقرآن، ﴿فَعَلَيْهَا﴾، يعنى فعلى نفسه، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [آية: ١٠٤]، يعنى برقيب، يعنى محمد ﷺ.

---

(١) انظر: (الطبرى ١٢/٧، القرطبى ٥٢/٧، الكشاف ٣١/٢، البحر المحيط ١٩٤/٤، والعكبرى ١٤٨/١، النحاس ٥٧٠/١).

(٢) انظر: (الكشاف ٣٢/٢، البحر المحيط ١٩٤/٤).

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، يعني وهكذا ﴿نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ في أمور شتى، يعني ما ذكر، ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾[(١)]، يعني قابلت ودرست، يعني تعلمت من غيرك يا محمد، فأنزل الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ لئلا يقولوا: درست وقرأت من غيرك، ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾، يعني القرآن، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [آية: ١٠٥].

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، وذلك حين دُعي النبي ﷺ إلى ملة آبائه، فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آية: ١٠٦]، يقول الله لنبيه ﷺ: أعرض عنهم إذا أشركوا.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾، يقول: ولو شاء الله لمنعهم من الشرك، ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، يعني رقيبًا إن لم يوحدوا، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [آية: ١٠٧]، يعني بمسيطر، فنسختها آية السيف.

﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وذلك أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يذكرون أوثان أهل مكة بسوء، فقالوا: لينتهين محمد عن شتم آلهتنا أو لنسبن ربه، فنهى الله المؤمنين عن شتم آلهتهم فيسبوا ربهم؛ لأنهم جهلة بالله، وأنزل الله: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[(٢)]، يعني يعبدون من دون الله من الآلهة، ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعلمونه أنهم يسبون الله، يعني أهل مكة، ﴿كَذَٰلِكَ﴾، يعني هكذا ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾، يعني ضلالتهم، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ في الآخرة،

---

(١) وقراءة زيد بن علي. انظر: (معاني القرآن للفراء ١/٣٤٩، الطبري١٢/٢٦، القرطبي ٧/٥٩، البحر المحيط ٤/١٩٧، تهذيب اللغة، لسان العرب «درس»).

(٢) انظر: (البحر المحيط ٤/٢٠٠، الكشاف ٢/٣٣، مجمع البيان ٢/٣٤٧، النشر ٢/٢٦١).

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [آية: ١٠٨].

فلما نزلت هذه الآية، قال النبي ﷺ لأصحابه: «لا تسبوا ربكم»، فأمسك المسلمون عند ذلك عن شتم آلهتهم، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، فمن حلف بالله فقد اجتهد في اليمين، وذلك أن كفار مكة حلفوا للنبي ﷺ، ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ كما كانت الأنبياء تجيء بها إلى قومهم، ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ ليؤمنن بالآية، قال الله لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾، إن شاء أرسلها وليست بيدي، ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وما يدريكم ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [آية: ١٠٩]، يعني لا يصدقون، لما سبق في علم الله من الشقاء.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾، يعني قلوبهم، ﴿وَأَبْصَارَهُمْ﴾ عن الإيمان، ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، يقول: كما لم يؤمن بها أوائلهم من الأمم الخالية بما سألوا من الآيات قبلها، فكذلك كفار أهل مكة لا يصدقون بها إن جاءتهم آية، ثم قال: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [آية: ١١٠]، يعني في ضلالتهم يترددون، لا نخرجهم منها أبدًا.

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤)﴾

ثم أخبر عما علمه فيهم، فقال: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾، وأخبروهم أن محمدًا رسول كما سألوا، لقولهم في الفرقان: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١]، يعني المستهزئين من قريش، أبا جهل وأصحابه، ثم قال: ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾، لقولهم: ابعث لنا رجلين أو ثلاثة من آبائنا، فنسألهم عما أمامهم مما تحدثنا أنه يكون بعد الموت أحق هو؟ ثم قال: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾، يعني عيانًا، قال أبو محمد: ومن قرأه: «قَبلا»، أراد قبيلاً قبيلاً، رواه عن ثعلب، فعاينوه كله، فلو فعلت هذا كله، فأخبروهم بأن الذي يقول محمد حق، ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾، يعني ليصدقوا، ﴿إِلَّا

أن يشاء الله ﴾ لهم الإيمان، ﴿ ولكن أكثرهم ﴾ أكثر أهل مكة ﴿ يجهلون ﴾ [آية: ١١١].

ثم قال: ﴿ وكذلك ﴾، يعنى وهكذا، ﴿ جعلنا لكل نبى عدوا ﴾ من قومه، يعنى أبا جهل عدوًا للنبى ﷺ، كقولهم فى الفرقان: ﴿ وقالوا مال هذا الرسول... ﴾ [الفرقان: ٧] إلى آخر الآية، قوله: ﴿ شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض ﴾، وذلك أن إبليس وكل شياطين بالإنس يضلونهم، ووكل شياطين بالجن يضلونهم، فإذا التقى شيطان الإنس مع شيطان الجن، قال أحدهما لصاحبه: إنى أضللت صاحبى بكذا وكذا، فأضلل أنت صاحبك بكذا وكذا، فذلك قوله: ﴿ يوحى بعضهم إلى بعض ﴾، يقول: يزين بعضهم ﴿ زخرف القول غرورا ﴾، يقول: ذلك التزيين بالقول باطل، يغرون به الإنس والجن، ثم قال: ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾، يقول: لو شاء الله لمنعهم عن ذلك، ثم قال للنبى ﷺ: ﴿ فذرهم ﴾، يعنى خل عنهم، يعنى كفار مكة، ﴿ وما يفترون ﴾ [آية: ١١٢] من الكذب.

﴿ ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾، يعنى ولتميل إلى ذلك الزخرف والغرور قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، يعنى الذين لا يصدقون بالبعث الذى فيه جزاء الأعمال، ﴿ وليرضوه ﴾، يعنى وليحبوه، ﴿ وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ [آية: ١١٣]، يعنى ليعملوا من المعاصى ما هم عاملون.

﴿ أفغير الله أبتغى حكما ﴾، فليس أحد أحسن قضاء من الله فى نزول العذاب ببدر، ﴿ وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا ﴾، يعنى القرآن حلاله وحرامه، وكل شىء مفصلاً، يعنى مبينًا فيه أمره ونهيه، ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ﴾ [آية: ١١٤].

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) ﴾

﴿ وتمت كلمت ربك ﴾ بأنه ناصر محمد ﷺ ببدر، ومعذب قومه ببدر، فحكمه عدل فى ذلك، فذلك قوله: ﴿ صدقا ﴾ فيما وعد، ﴿ وعدلا ﴾ فيما حكم، ﴿ لا مبدل

﴿لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، يعنى لا تبديل لقوله فى نصر محمد ﷺ، وأن قوله حق، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بما سألوا من العذاب، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ [آية: ١١٥] به حين سألوا، ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، يعنى جانبًا من السماء.

﴿وَإِن تُطِعْ﴾ يا محمد ﴿أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، يعنى أهل مكة حين دعوه إلى ملة آبائه، ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعنى يستنزلوك عن دين الإسلام، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ﴾، يعنى وما هم ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [آية: ١١٦] الكذب، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (١)، يعنى عن دينه الإسلام، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [آية: ١١٧].

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [آية: ١١٨]، يعنى بالقرآن مصدقين، وذلك أن كفار مكة حين سمعوا أن الله حرم الميتة، قالوا للمسلمين: أتزعمون أنكم تتبعون مرضاة ربكم؟ ألا تحدثونا عما قتلتم أنتم بأيديكم أهو أفضل؟ أو ما قتل الله؟ فقال المسلمون: بل الله أفضل صنعًا، فقالوا لهم: فما لكم تأكلون مما ذبحتم بأيديكم، وما ذبح الله فلا تأكلونه، وهو عندكم ميتة؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾، يعنى وقد بين لكم ما حرم عليكم، يعنى الميتة، والدم، ولحم الخنزير، ثم استثنى، فقال: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مما نهيتم عن أكله، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ من الناس، يعنى سادة قريش، ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾ أهل مكة ﴿بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعلمونه فى أمر الذبائح، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [آية: ١١٩].

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ﴾، يعنى واتركوا ظاهر الإثم، ﴿وَبَاطِنَهُۥٓ﴾، يعنى الزنا فى

---

(١) انظر: (الإتحاف ٢١٦، البحر المحيط ٤/٢١٠، والقرطبى ٧/٧٢، الكشاف ٢/٣٦).

السر والعلانية، وذلك أن قريشًا كانوا ينكرون الزنا فى العلانية، ولا يرون به بأسًا سرًا، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ﴾، يعنى الشرك، ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ فى الآخرة ﴿بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾ [آية: ١٢٠]، يعنى يكسبون.

وأنزل الله فى قولهم: ما قتل الله فلا تأكلوه: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾، يعنى إن أكل الميتة لمعصية، ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ من المشركين، ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ فى أمر الذبائح، ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ باستحلالكم الميتة، ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [آية: ١٢١] مثلهم، وفيهم نزلت: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِى الأَمْرِ﴾ [الحج: ٦٧]، يعنى أمر الذبائح.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾، يعنى أو من كان ضالاً فهديناه، نزلت فى النبى ﷺ، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾، يعنى إيمانًا ﴿يَمْشِى بِهِۦ﴾، يعنى يهتدى به ﴿فِى ٱلنَّاسِ﴾، أهو ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، يعنى كشبه من هو فى الشرك، يعنى أبا جهل، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾، يعنى من الشرك، يعنى ليس بمهتد، هو فيها متحير لا يجد منفذًا، ليسا بسواء، ﴿كَذَٰلِكَ﴾، يعنى هكذا، ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾، يعنى للمشركين، ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [آية: ١٢٢]، يعنى أبا جهل، وذلك أنه قال: زحمتنا بنو عبد مناف فى الشرف، حتى إذا صرنا كفرسى رهان، قالوا: منا نبى يوحى إليه، فمن يدرك هذا والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبدًا، أو يأتينا وحى كما يأتيه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللّهِ...﴾ إلى آخر الآية.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، يعنى وهكذا ﴿جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ خلت، يعنى عصت، ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾، يعنى جبابرتها وكبراءها، جعلنا بمكة المستهزئين من قريش، ﴿لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾، يعنى فى القرية بالمعاصى حين أجلسوا فى كل طريق أربعة منهم، يقول الله:

﴿وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ﴾، وما معصيتهم إلا على أنفسهم، ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [آية: ١٢٣].

﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾، يعني انشقاق القمر، والدخان، ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾، يعني النبي ﷺ وحده، يقول الله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾، الله أعلم حيث يختص بنبوته من يشاء، ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾، يعني مذلة، ﴿وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ [آية: ١٢٤]، يعني يقولون، لقولهم: لو كان هذا القرآن حقًا، لنزل على الوليد بن المغيرة، أو على أبي مسعود الثقفي، وذلك قولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ﴾ لدينه، ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾، نزلت في النبي ﷺ، يعني يوسع قلبه، ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ عن دينه، ﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ بالتوحيد، يعني أبا جهل، حتى لا يجد التوحيد من الضيق مجازًا، ثم قال: ﴿حَرَجٗا﴾ شكًا، ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾، يقول: هو بمنزلة المتكلف الصعود إلى السماء لا يقدر عليه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾، يعني هكذا، ﴿يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ﴾، يقول: الشر، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [آية: ١٢٥] بالتوحيد.

﴿وَهَٰذَا﴾ التوحيد ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾، يعني دين ربك، ﴿مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، يعني قد بينا الآيات في أمر القلوب في الهدى والضلالة، يعني الذي يشرح صدره للإسلام، والذي جعله ضيقًا حرجًا، ﴿لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ [آية: ١٢٦] بتوحيد الله.

ثم ذكر ما أعد للموحدين، فقال: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾، يعنى جنة الله، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فى الآخرة، ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾، يقول: الله وليهم فى الآخرة، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [آية: ١٢٧] له فى الدنيا، يعنى يوحدون ربهم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾، يعنى كفار الإنس والشياطين والجن، يقول: ويوم نجمعهم، ﴿جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾، ثم يقول للشياطين: ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ﴾، يعنى من ضلال الإنس فيما أضللتم منهم، وذلك أن كفار الإنس كانوا تولوا الجن وأعاذوا بهم، ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ﴾، يعنى أولياء الجن من كفار الإنس، ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾، كاستمتاع الإنس بالجن، وذلك أن الرجل كان إذا سافر فأدركه الليل بأرض القفر خاف، فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه، فيبيت فى جواره آمنًا، وكان استمتاع الجن بالإنس أن يقولوا: لقد سودتنا الإنس حين فزعوا إلينا، فيزدادوا بذلك شرفًا، ﴿وَ﴾ قالت: ﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا﴾ الموت ﴿الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ فى الدنيا، فرد الله عليهم: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾، ومثوى الكافرين، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، واستثنى أهل التوحيد، أنهم لا يخلدون فيها، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾، يعنى حكم النار لمن عصاه، ﴿عَلِيمٌ﴾ [آية: ١٢٨]، يقول: عالم بمن لا يعصيه.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠)﴾

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، يعنى وهكذا، ﴿نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾، فولى الله ظلمة الإنس ظلمة الجن، وولى ظلمة الجن ظلمة الإنس بأعمالهم الخبيثة، فذلك قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [آية: ١٢٩]، يعنى يعملون من الشرك.

ثم قال لهم عند ذلك: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾، يعنى كفار الجن وكفار الإنس، ولا يعنى به الشياطين؛ لأن الشياطين هم أغروا كفار الجن وكفار الإنس، وبعث الله رسولاً من الجن إلى الجن، ومن الإنس إلى الإنس يقصون، فذلك قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، يعنى من أنفسكم الجن إلى الجن، والإنس إلى الإنس، ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾، يعنى آيات القرآن، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، يعنى يوم القيامة،

﴿قَالُوا۟﴾، يعنى قالت الإنس والجن: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ بذلك أنا كفرنا بما قالت الرسل فى الدنيا، قال الله للنبى ﷺ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ عن دينهم الإسلام، ويقول الله للنبى ﷺ: ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فى الآخرة ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ﴾ [آية: ١٣٠] فى الدنيا، وذلك حين شهدت عليهم الجوارح بالشرك والكفر فى الدنيا، ثم قال الخازن، فى التقديم: فـ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾، يعنى مأواكم، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون، ثم استثنى، فقال: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، حكم عليهم حقًا بذلك الهلاك، كفعله بالأمم الخالية فى سورة أخرى.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَـَٔاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾، يعنى معذب أهل القرى ﴿بِظُلْمٍ﴾ بغير ذنب فى الدنيا، ﴿وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ﴾ [آية: ١٣١] عن العذاب حتى يبعث فى أمها رسولاً ينذرهم بالعذاب حجة عليهم.

﴿وَلِكُلٍّ﴾، يعنى كفار الجن والإنس، ﴿دَرَجَـٰتٌ﴾، يعنى فضائل من العذاب فى الآخرة، ﴿مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ فى الدنيا، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [آية: ١٣٢]، هذا وعيد، نظيرها فى الأحقاف.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن عبادة خلقه، ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، يعنى النعمة، فلا تعجل عليهم بالعذاب، يعنى كفار مكة، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ بهلاك، ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم﴾ خلقًا من غيركم بعد هلاككم ﴿مَّا يَشَآءُ﴾، إن شاء مثلكم، وإن شاء أمثل وأطوع لله منكم، ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم﴾، يعنى كما خلقكم ﴿مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [آية: ١٣٣]، يعنى ذرية أهل سفينة نوح، ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ من العذاب فى الدنيا ﴿لَـَٔاتٍ﴾، يعنى لكائن، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [آية: ١٣٤]، يعنى بسابقى الله بأعمالكم الخبيثة حتى يجزيكم بها.

﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ

عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ
وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ
لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ
شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ
دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ
وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا
يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾
وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن
يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾

قوله: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، يعنى جديلتكم، يعنى كفار مكة، ﴿إِنِّي عَامِلٞۖ﴾، على جديلتي التي أمرني بها ربي، ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ﴾، يعنى الجنة، أنحن أم أنتم، ثم قال للنبي ﷺ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ﴾، يعنى لا يسعد ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [آية: ١٣٥] في الآخرة، يعنى المشركين، نظيرها في القصص.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ﴾، يعنى وصفوا لله ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾، يعنى مما خلق، ﴿مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾، يعنى النصيب لآلهتهم مثل ذلك، فما أخرج الله من بطون الأنعام وظهورها من الحرث، قالوا: هذا لله، فيتصدقون به على المساكين، وما أخرج الله من نصيب الآلهة أنفقوه عليها، فإن زكا نصيب الآلهة ولم يزك نصيب الله تركوه للآلهة، وقالوا: لو شاء الله لأزكى نصيبه، وإن زكا نصيب الله ولم يزك نصيب الآلهة، خدجت أنعامهم وأجدبت أرضهم، وقالوا: ليس لآلهتنا بد من نفقة، فأخذوا نصيب الله فقسموه بين المساكين والآلهة نصفين، فذلك قوله: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ﴾، يعنى لآلهتهم مما خرج من الحرث والأنعام، ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، يعنى إلى المساكين، ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ﴾، يعنى آلهتهم، يقول الله: ﴿سَآءَ﴾، يعنى بئس ﴿مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [آية: ١٣٦]، يقول: لو كان معي شريك كما يقولون، ما عدلوا في القسمة أن يأخذوا مني ولا يعطوني.

ثم انقطع الكلام، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، يعنى وهكذا، ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ (١)، كما زينوا لهم تحريم الحرث والأنعام، يعنى دفن البنات وهن أحياء، ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾، يعنى ليهلكوهم، ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ﴾، يعنى وليخلطوا عليهم، ﴿دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾، يقول: لو شاء الله لمنعهم من ذلك، ﴿فَذَرْهُمْ﴾، يعنى فخل عنهم، ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [آية: ١٣٧] من الكذب، لقولهم فى الأعراف: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ (٢)، يعنى حرام، ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾، يعنى الرجال دون النساء، وكانت مشيئتهم أنهم جعلوا اللحوم والألبان للرجال دون النساء، ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾، يعنى الحام، ﴿وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾، يعنى البحيرة أن نتجوها أو نحروها لم يذكروا اسم الله عليها، ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾، على الله، يعنى كذبًا على الله، ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آية: ١٣٨] حين زعموا أن الله أمرهم بتحريمه، حين قالوا فى الأعراف: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

ثم أخبر عنهم، فقال: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ (٣)، يعنى من الولد والألبان، ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾، يعنى البحيرة، والسائبة، والوصيلة، فكانوا إذا أنتجوه حيًا ذبحوه فأكله الرجال دون النساء، وكذلك الألبان، وإن وضعته ميتًا اشترك فى أكله الرجال والنساء، فذلك قوله: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ﴾ الله العذاب فى الآخرة، ﴿وَصْفَهُمْ﴾، ذلك بالتحليل والتحريم، أى جزاءه، ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ حكم عليهم العذاب، ﴿عَلِيمٌ﴾ [آية: ١٣٩] به.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ

---

(١) قراءة أبى عبدالرحمن السُّلمى: «وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِم شُرَكَاؤهِمْ» وقراءة الحسن، وأبى عبدالملك. انظر: (البحر المحيط ٤/٢٢٩، ٢٣٠، السبعة ٢٧٠، الكشاف ٢/٤٢، مجمع البيان ٢/٣٧٠، معانى القرآن للفراء ١/٣٥٧، النشر ٢/٢٦٣، الإتحاف ٢١٧).

(٢) انظر: (الطبرى ١٢/١٤٢، القرطبى ٧/٩٤، الكشاف ٢/٤٣، البحر المحيط ٤/٢٣١).

(٣) انظر: (القرطبى ٧/٩٦، البحر المحيط ٤/٢٣١، معانى القرآن للفراء ١/٣٥٨).

مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ
مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا
تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ
مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ
مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا
ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ
ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ
ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

ثم عابهم بقتل أولادهم وتحريم الحرث والأنعام، فقال: ﴿قَدۡ خَسِرَ﴾ في الآخرة، ﴿ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾، يعنى دفن البنات أحياء، ﴿سَفَهَۢا﴾، يعنى جهلاً، ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ من الحرث والأنعام، ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ الكذب حين زعموا أن الله أمرهم بهذا، يعنى بتحريمه، يقول الله: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ﴾ عن الهدى، ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [آية: ١٤٠]، وكانت ربيعة ومضر يدفنون البنات وهن أحياء، غير بنى كنانة، كانوا لا يفعلون ذلك.

قوله: ﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ﴾، يعنى الكروم وما يعرش، ﴿وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾، يعنى قائمة على أصولها، ﴿وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾، يعنى طعمه، منه الجيد، ومنه الدون، ثم قال: ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا﴾، ورقها فى النظير يشبه ورق الزيتون ورق الرمان، ﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾ ثمرها وطعمها، وهما متشابهان فى اللون، مختلفان فى الطعم، يقول الله: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾، حين يكون غضًا، ثم قال: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [آية: ١٤١]، يقول: ولا تشركوا الآلهة فى تحريم الحرث والأنعام.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ﴾، يعنى الإبل والبقر، ﴿وَفَرۡشٗاۚ﴾، والفرش الغنم الصغار مما لا يحمل عليها، ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من الأنعام والحرث حلالاً طيبًا، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، يعنى تزيين الشيطان فتحرمونه، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [آية: ١٤٢]، كلم النبى ﷺ فى ذلك عوف بن مالك الجشمى، يكنى أبا الأحوص.

ثم قال: أنزل ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ قبل خلق آدم، عليه السلام، ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ (١)، يعنى ذكرًا وأنثى، ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾، ذكرًا وأنثى، ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمن حرم ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى، ونسب ذلك إلى الله: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ من الضأن والمعز ﴿حَرَّمَ﴾ الله عليكم؟ ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ منهما؟ ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؟ ذكرًا كان أو أنثى؟ ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾ عن كيفية تحريم ذلك، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آية: ١٤٣] فيه. المعنى من أين جاء التحريم، فإن كان من قبل الذكورة، فجميع الذكور حرام، أو الأنوثة، فجميع الإناث، أو اشتمال الرحم فالزوجان، فمن أين التخصيص؟ والاستفهام للاستنكار.

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكرًا وأنثى، ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكرًا وأنثى، ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، يعنى من أين تحريم الأنعام من قبل الذكرين أم قبل الأنثيين؟ ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، يقول: على ما اشتمل، ما يشتمل الرحم إلا ذكرًا أو أنثى، فأين هذا الذى جاء التحريم من قبله، وما اشتمل الرحم إلا على مثلها.

يقول: ما تلد الغنم إلا الغنم، وما تلد الناقة إلا مثلها، يعنى أن الغنم لا تلد البقر، ولا البقر تلد الغنم، فإن قالوا: حرم الأنثيين، خصوا ولم يجز لهم أن يأكلوا الإناث من الأنعام، وإن قالوا: الذكرين، لم يجز لهم أن يأكلوا ذكور الأنعام، فسكتوا، يقول الله لنبيه ﷺ: قل لهم: ﴿نَبِّؤُونِى بِعِلْمٍ إن كُنتُمْ صادِقِينَ﴾ بأن الله حرم هذا، ثم قال: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ التحريم، فسكتوا فلم يجيبوه، إلا أنهم قالوا: حرمها آباؤنا، فقال لهم النبى ﷺ: «فمن أين حرمه آباؤكم؟»، قالوا: الله أمرهم بتحريمه، فأنزل الله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾، يقول: فلا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آية: ١٤٤].

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ

(١) انظر: (القرطبى ٧/١٠٤، البحر المحيط ٤/٢٣٩، النحاس ١/٥٨٧، العكبرى ١/١٥٣).

﴿ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾

قالوا: يا محمد، فمن أين حرمه آباؤنا؟ فأوحى الله إلى نبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾، يعنى على آكل يأكله، ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾، يعنى يسيل، ﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾، يعنى إثما، ﴿أَوۡ فِسۡقًا﴾، يعنى معصية، ﴿أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾، يعنى ذبح لغير الله، ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ إلى شىء مما حرمت عليه، ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ ليستحله فى دينه، ﴿وَلَا عَادٖ﴾، يعنى ولا معتديًا لم يضطر إليه فأكله، ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ﴾ لأكله الحرام، ﴿رَّحِيمٞ﴾ [آية: ١٤٥] به إذا رخص له فى الحرام فى الاضطرار.

ثم بين ما حرم على اليهود، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ﴾، يعنى الإبل، والنعامة، والوز، والبط، وكل شىء له خف وظفر من الدواب والطير، فهو عليهم حرام، ﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ﴾، وحرم عليهم الشحوم من البقر والغنم، ثم استثنى ما أحل لهم من الشحوم، فقال: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ﴾، يعنى ظهور البقر والغنم والأكتاف والإلية، ﴿أَوِ ٱلۡحَوَايَآ﴾، يعنى المعى، ﴿أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ﴾ من الشحم ﴿بِعَظۡمٖۚ﴾، فكل هذا حلال لهم، وحرم عليهم شحوم الكليتين والثروب، ﴿ذَٰلِكَ﴾ التحريم، ﴿جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾، يعنى عقوبة بقتلهم الأنبياء وبصدهم عن سبيل الله، وبأكلهم الربا، واستحلالهم أموال الناس بالباطل، فهذا البغى، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [آية: ١٤٦] بذلك، وهذا ما أوحى الله إلى نبيه ﷺ أنه محرم، منه على المسلمين، ومنه على اليهود.

فقال كفار العرب للنبى ﷺ: فإنك لم تصب، يقول الله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ بما تقول من التحريم، ﴿فَقُل﴾ لكفار مكة، ﴿رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ ملأت رحمته كل شىء، لا يعجل عليكم بالعقوبة، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ﴾، يقول: عذابه إذا جاء الوقت على من كذب بما يقول، ﴿عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [آية: ١٤٧]، يعنى كفار العرب.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ

فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ
ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ
حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ مع الله آلهة، يعنى مشركى العرب، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ﴾ أشرك ﴿ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾، يعنى الحرث، والأنعام، ولكن الله أمر بتحريمه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾، يعنى هكذا ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الخالية رسلهم، كما كذب كفار مكة بمحمد ﷺ، ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾، يعنى عذابنا، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾، يعنى بيانًا من الله بتحريمه فتبينوه لنا، يقول الله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [آية: ١٤٨] الكذب.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [آية: ١٤٩] لدينه، ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ الحرث والأنعام، ﴿فَإِن شَهِدُوا۟﴾ أن الله حرمه، ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ يأمر نبيه ﷺ أن لا يصدق قولهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، يعنى القرآن الذى فيه تحليل ما حرموا، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، يعنى لا يصدقون بالبعث الذى فيه جزاء الأعمال، ﴿وَ﴾ الذين ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [آية: ١٥٠]، يعنى يشركون.

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟
ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ
ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ
يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ
فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ﴾، يقول: تعالوا حتى أقرأ ما حرم عليكم، ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ من خلقه، ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾، يعنى برًا بهما، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم﴾، يعنى دفن البنات وهن أحياء، ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ﴾، يعنى

خشية الفقر، ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، يعنى الزنا، ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾، يعنى السفاح علانية، ﴿وَمَا بَطَنَۖ﴾، يعنى الزنا فى السر تتخذ الخليل، فيأتيها فى السر، ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قتلها ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾، يعنى بالقصاص والثيب الزانى بالرجم، والمرتد عن الإسلام، فهذا الحق، ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ﴾، يعنى لكى ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ [آية: ١٥١] أنه لم يحرم إلا ما ذكر فى هذه الآيات الثلاث، ولم يحرم البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام.

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ﴾، إلا ليثمر لليتيم ماله بالأرباح، ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ﴾، يعنى ثمانى عشرة سنة، ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، يعنى بالعدل، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾، يقول: لا نكلفها من العمل إلا طاقتها، ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾، يعنى أولى قربى إذا تكلمتم فقولوا الحق، وإن كان ذو قرابتك فقل فيه الحق، ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾ فيما بينكم وبين الناس، ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ﴾، يعنى لكى ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ [آية: ١٥٢] فى أمره ونهيه.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلًا لِّكُلِّ شَىۡءٍ وَهُدًى وَرَحۡمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾

﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ الذى ذكر فى هذه الآيات من أمر الله ونهيه، ﴿صِرَٰطِى مُسۡتَقِيمًا﴾، يعنى دينًا مستقيمًا، ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾، يعنى طرق الضلالة فيما حرموا، ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾، يعنى فيضلكم عن دينه، ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ﴾، يعنى لكى، ﴿تَتَّقُونَ﴾ [آية: ١٥٣]، فهذه الآيات المحكمات لم ينسخهن شىء من جميع الكتب، وهن محكمات على بنى آدم كلهم.

﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾، يعنى أعطينه التوراة، ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾(١)،

---

(١) انظر: (الإتحاف ٢٢٠، الكشاف ٢/٤٩، معانى القرآن للفراء ١/٣٦٥، والطبرى ١٢/٢٣٦، القرطبى ٧/١٤٢، البحر المحيط ٤/٢٥٠، أمالى ابن الشجرى ٢/٢٣٥، همع الهوامع ١/٣١٢، شرح الكافية ١/٢٤٩، مغنى اللبيب ١/١٥٤).

يقول: تمت الكرامة على من أحسن منهم فى الدنيا والآخرة، فتمم الله لبنى إسرائيل ما وعدهم من قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا...﴾ [القصص: ٥، ٦] إلى آيتين، ثم قال: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَ﴾ التوراة ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة، ﴿وَرَحْمَةً﴾ من العذاب، ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [آية: ١٥٤]، يعنى بالبعث الذى فيه جزاء الأعمال.

﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾، فهو بركة لمن آمن به، ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾، فاقتدوا به، ﴿وَاتَّقُوا﴾ الله ﴿لَعَلَّكُمْ﴾، يعنى لكى ﴿تُرْحَمُونَ﴾ [آية: ١٥٥] فلا تعذبوا.

﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)﴾

﴿أَن تَقُولُوا﴾، يعنى لئلا تقولوا: ﴿إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾، يعنى اليهود والنصارى، ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ [آية: ١٥٦]، وذلك أن كفار مكة قالوا: قاتل الله اليهود والنصارى، كيف كذبوا أنبياءهم، فوالله لو جاءنا نذير وكتاب لكنا أهدى منهم، فنزلت هذه الآية فيهم: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾، يعنى اليهود والنصارى، يقول الله لكفار مكة: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يعنى بيان من ربكم القرآن، ﴿وَ﴾ هو ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من العذاب لقوم يؤمنون، فكذبوا به، فنزلت: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، يعنى بالقرآن، ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾، يعنى وأعرض عن آيات القرآن، فلم يؤمن بها، ثم أوعدهم الله، فقال: ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا﴾، يعنى يعرضون عن إيمان بالقرآن، ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾، يعنى شدة العذاب، ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [آية: ١٥٧]، يعنى بما كانوا يعرضون عن إيمان بالقرآن.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨)﴾

ثم وعدهم، فقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾، يعنى ما ينتظر كفار مكة بالإيمان ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾، يعنى ملك الموت وحده بالموت، ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ يوم القيامة فى ظلل من الغمام، ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾، يعنى طلوع الشمس من مغربها، ثم قال: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾، يعنى طلوع الشمس من المغرب، ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا﴾(١)، يعنى نفسًا كافرة حين لم تؤمن قبل أن تجىء هذه الآية، ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾، يقول: لم تكن صدقت من قبل طلوع الشمس من مغربها، ﴿أَوْ﴾ لم تكن ﴿كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾، يقول: لم تكن هذه النفس عملت قبل طلوع الشم من مغربها، ولم يقبل منها بعد طلوعها، ومن كان يقبل منه عمله قبل طلوع الشمس من مغربها، فإنه يتقبل منه بعد طلوعها، ثم أوعدهم العذاب، فقال الله لنبيه ﷺ: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟﴾ العذاب ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [آية: ١٥٨] بكم العذاب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ الإسلام الذى أمروا به، ودخلوا فى غيره، يعنى اليهود والنصارى قبل أن يبعث محمد ﷺ، ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾، يعنى أحزابًا يهود، ونصارى، وصابئين، وغيرهم، ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ﴾ يا محمد ﴿فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [آية: ١٥٩]، فنسختها آية براءة: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ...﴾ إلى قوله: ﴿صَـٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

﴿مَن جَآءَ﴾ فى الآخرة ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ بالتوحيد والعمل الصالح، ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فى الأضعاف، ﴿وَمَن جَآءَ﴾ فى الآخرة ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، يعنى الشرك، ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ فى العظم، فجزاء الشرك أعظم الذنوب، والنار أعظم العقوبة، وذلك قوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] وافق الجزاء العمل، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آية: ١٦٠] كلا الفريقين جميعًا.

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾

---

(١) انظر: (القرطبى ١٤٨/٧، البحر المحيط ٢٦٠/٤، الكشاف ١٥٠/٢، مغنى اللبيب ١١٣/٢).

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، يعنى الإسلام، ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ مستقيمًا لا عوج فيه، ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، يعنى مخلصًا، ﴿وَمَا كَانَ﴾ إبراهيم ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية: ١٦١] من اليهود والنصارى.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾ الخمس، ﴿وَنُسُكِي﴾، يعنى وذبحى، ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [آية: ١٦٢]، ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾، يقول: ليس معه شريك، ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [آية: ١٦٣]، يعنى المخلصين من أهل مكة.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾، وذلك أن كفار قريش قالوا للنبى ﷺ: ارجع عن هذا الأمر، فنحن لك كفلاء بما أصابك من تبعة، فأنزل الله: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾، يعنى أتخذ ربًا، ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فى السموات والأرض، ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾، يعنى إلا على نفسها، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، يعنى لا تحمل نفس خطيئة نفس أخرى؛ لقلوهم للنبى ﷺ: نحن لك الكفلاء بما أصابك من تبعة، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ فى الآخرة ﴿مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ﴾ فى الدين أنتم وكل قبيلة فى الدين ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾ [آية: ١٦٤] أنتم وكفار مكة، نظيرها فى الروم.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾، يعنى من بعد هلاك الأمم الخالية، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾، يعنى بالدرجات الفضائل والرزق؛ لقولهم للنبى ﷺ: ما يحملك على الذى أتيتنا به إلا الحاجة، فنحن نجمع لك من أموالنا، فنزلت: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾، يعنى ليبتليكم فيما أعطاكم، يقول: يبتلى بعض المؤمنين الموسر بالغنى، ويبتلى بعض المؤمنين المعسر بالفاقة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه فى فاقة أو غنى، يخوفهم كأنه قد جاء ذلك اليوم، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آية: ١٦٥] بعد التوبة.

قوله: ﴿مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾، يعنى كبشًا ونعجة.

﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾، يعنى تيسًا وشاة.

﴿وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ﴾، يعنى جملاً وناقة.

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾، يعنى ثورًا وبقرة.

* * *

سورة الأعراف

مكية، إلا قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ...﴾ [آية: ١٦٣] إلى قوله: ﴿...وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [آية: ١٧٢]، هذه الآيات مدنيات، وهى مائتان وست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿المص ﴿١﴾ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

﴿المص﴾ [آية: ١]. ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، يعنى القرآن، ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ﴾، يعنى النبى ﷺ، ﴿حَرَجٌ مِّنْهُ﴾، يقول: فلا يكن فى قلبك شك من القرآن بأنه من الله، ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾، بما فى القرآن من الوعيد، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آية: ٢]، يعنى تذكرة للمصدقين بالقرآن بأنه من الله عز وجل.

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾

ثم قال لأهل مكة: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يعنى القرآن، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، يعنى أربابًا، ثم أخبر عنهم، فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [آية: ٣]، يعنى بالقليل أنهم لا يعقلون فيعتبرون.

ثم وعظهم، فقال: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ بالعذاب، ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾، وهم نائمون، يعنى ليلاً، ﴿أَوْ﴾ جاءهم العذاب، ﴿هُمْ قَائِلُونَ﴾ [آية: ٤]، يعنى بالنهار.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا﴾، يقول: فما كان قولهم عند نزول العذاب بهم، ﴿إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [آية: ٥]، لقولهم فى حم المؤمن: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [غافر: ٨٤].

ثم قال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾ فى الآخرة ﴿ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾، يعنى الأمم الخالية الذين أهلكوا فى الدنيا: ما أجابوا الرسل فى التوحيد؟ ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [آية: ٦] ماذا أجيبوا فى التوحيد؟

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ أعمالهم ﴿بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [آية: ٧] عن أعمالهم، يعنى عنهم فى الدنيا.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾، يقول: وزن الأعمال يومئذ العدل فى الآخرة، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ من المؤمنين وزن ذرة على سيئاته، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آية: ٨].

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، يعنى الكفار، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾، يعنى غبنوا أنفسهم، فصاروا إلى النار. ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [آية: ٩]، يعنى بالقرآن يجحدون بأنه ليس من الله.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، يقول: ولقد أعطيناكم يا أهل مكة من الخير والتمكين فى الأرض، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ﴾ من الرزق لتشكروه فتوحدوه، فلم تفعلوا، فأخبر عنهم، فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [آية: ١٠]، يعنى بالقليل أنهم لا يشكرون رب هذه النعم فيوحدونه.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾، يعنى آدم، عليه السلام، ﴿ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾، يعنى ذرية آدم، ذكرًا وأنثى، وأبيض وأسود، سويًا وغير سوى، ﴿ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الذين هم فى الأرض، ومنهم إبليس عدو الله: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾ له، ثم استثنى، فقال: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [آية: ١١] لآدم مع الملائكة.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [آية: ١٢]، والنار تغلب الطين.

﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾، قال: اخرج من صورة الملائكة إلى صورة الدمامة، فأخرج من الجنة يا إبليس، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، فما ينبغى لك أن تتعظم فيها، يعنى فى الجنة، ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ منها ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [آية: ١٣]، يعنى من المذلين.

﴿قَالَ﴾ إبليس لربه: ﴿أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [آية: ١٤]، يعنى النفخة الآخرة، يوم يبعث آدم، عليه السلام، وذريته.

﴿قَالَ﴾ الله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ [آية: ١٥]، فلا تموت إلى يوم الوقت المعلوم، يعنى أجلاً معلومًا، وهى النفخة الأولى، ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾، قال: أما إذ أضللتنى.

﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [آية: ١٦]، يعنى لأصدنهم عن دينك المستقيم، يعنى الإسلام.

﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾، من قبل الآخرة، فأزين لهم التكذيب بالبعث، وبالجنة، وبالنار، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، يعنى من قبل الدنيا، فأزينها فى أعينهم، وأرغبهم فيها، ولا يعطون فيها حقًا، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، يعن من قبل دينهم، فإن كانوا على هدى شبهته عليهم حتى يشكوا فيها، وإن كانوا على ضلالة زينتها لهم، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾، يعنى من قبل الشهوات واللذات من المعاصى وأشهيها إليهم، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [آية: ١٧] لنعمتك، فلا يوحدونك.

﴿قَالَ﴾ له: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾، يعنى من الجنة، ﴿مَذۡءُومٗا﴾ منفيًا، ﴿مَّدۡحُورٗاۖ﴾(١)، يعنى مطرودًا، ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾ على دينك، ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [آية: ١٨]، يعنى إبليس وذريته وكفار ذرية آدم منهم جميعًا.

---

(١) انظر: (الإتحاف ٢٢٢، والقرطبى ١٧٦/٧، مجمع البيان ٤٠٤/٢، غيث النفع ٢٢١).

﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، في التقديم، ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾[1]، وهي السنبلة الحنطة، وقالوا: هي الشجرة التي تحتك بها الملائكة للخلود، ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [آية: ١٩] لأنفسكم.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾، يعني إبليس وحده، ﴿لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا﴾، يعني ما غطى عنهما ﴿مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾[2]، يعني ليظهر لهما عورتهما، ﴿وَقَالَ﴾ إبليس لهما: إني خلقت قبلكما، وإني أعلم منكما، فأطيعاني ترشدا، وقال لهما: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ﴾ [آية: ٢٠]، يقول: إن لم تكونا ملكين، كنتما من الخالدين لا تموتان.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾، يعني حلف بالله لهما، ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ [آية: ٢١] إنها شجرة الخلد، من أكل منها لم يمت، فكان إبليس أول من يحلف بالله كاذبًا.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾، يعني زين لهما الباطل، لقوله: ﴿تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ﴾، وحلف على قوله، فغرهما بهذه اليمين، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾، يعني ظهرت لهما عوراتهما، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾[3]، يقول: أخذا يغطيان عوراتهما ﴿مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾، يعني ورق التين الذي في الجنة، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾، يقول: وقال لهما ربهما يوحي إليهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل

---

(١) انظر: (الكشاف ٢/٥٦، مجمع البيان ٢/٤٠٤، العكبري ١/١٥٦).
(٢) انظر: (البحر المحيط ٤/٢٧٩، غيث النفع ٢٢١، الكشاف ٢/٥٧، مجمع البيان ٢/٤٥٤).
(٣) انظر: (القرطبي ٧/١٨١، الكشاف ٢/٥٨، البحر المحيط ٤/٢٨٠).

﴿لَّكُمَآ﴾، يعنى آدم وحواء: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾، يعنى إبليس ﴿لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [آية: ٢٢].

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبنا ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ وتتجاوز عنا، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آية: ٢٣] فى العقوبة، فتاب آدم، عليه السلام، يوم عاشوراء يوم الجمعة، فتاب الله عليه.

وأوحى إليهما: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟﴾ من الجنة، آدم، وحواء، وإبليس، والحية، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، يقول: إبليس لهما عدو، وهما إبليس عدو، ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [آية: ٢٤]، يعنى إلى منتهى آجالكم، وإبليس فى النفخة الأولى.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾، يعنى فى الأرض، ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ عند منتهى آجالكم، ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [آية: ٢٥] يوم القيامة.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾، نزلت فى ثقيف، وبنى عامر بن صعصعة، وخزاعة، وبنى مدلج، وعامر والحارث ابنى عبد مناة، قالوا: لا نطوف بالبيت الحرام فى الثياب التى نقرف فيها الذنوب، ولا يضربون على أنفسهم خباء من وبر، ولا صوف، ولا شعر، ولا أدم، فكانوا يطوفون بالبيت عراة، ونساءهم يطفن بالليل، فأنزل الله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾، يقول: من أمرى كان اللباس فى الأرض، ﴿يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾، يعنى يغطى عوراتكم، ﴿وَرِيشًا﴾(١)، يعنى المال، ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، يعنى من العمل

(١) انظر: (الإتحاف ٢٢٣، البحر المحيط ٢٨٢/٤، الطبرى١٢/٣٦٣، القرطبى ١٨٤/٧، معانى القرآن للفراء ٣٧٥/١، معانى القرآن للأخفش ٢٩٧/٢، الكشاف ٥٨/٢).

الصالح، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، يقول: العمل الصالح خير من الثياب والمال، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الثياب والمال ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ومن صنعه، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾، يعني لكي ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ [آية: ٢٦] فيعتبروا فى صنعه فيوحدوه.

ثم قال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾، يعنيهم، ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فى دينكم أمر الثياب، فيدعها عنكم فتبدى عوراتكم، ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم﴾، يعنى كما فعل بأبويكم آدم وحواء، فأخرجهما ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾، وبدت عورتهما، فذلك قوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾، يعنى ثيابهما، ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾، يعنى عوراتهما، ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾، يقول: يراكم إبليس وجنوده من الشياطين من حيث لا ترونهم، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [آية: ٢٧]، يعنى لا يصدقون.

ثم قال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾، يعنى معصية فيما حرموا من الحرث، والأنعام، والثياب، والألبان، فنهوا عن تحريم ذلك، ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، يعنى بتحريم ذلك، ثم قال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، يعنى بالمعاصى فيحرم ذلك، وقل لهم: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ربكم إنه حرم عليكم ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٢٨] إنه حرمه.

و ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾، يعنى بالعدل، ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾، يعنى وأمر ربى أن تقيموا وجوهكم، يعنى إلى القبلة، ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فى بيعة أو كنيسة أو غيرها، فصلوا قبل الكعبة، وأمرهم بالصلاة والتوحيد، فذلك قوله: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ﴾، يعنى موحدين، ﴿لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [آية: ٢٩]، يعنى كما خلقكم سعداء وأشقياء كذلك تعودون.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ لدينه، ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾، يعنى أربابًا، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [آية: ٣٠]، أنهم على الهدى.

﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ثم قال يعنيهم: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فى كنيسة، أو بيعة، أو غيرها، ﴿وَكُلُوا﴾ من الحرث والأنعام، ﴿وَاشْرَبُوا﴾ من الألبان، ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾، يقول: ولا تشركوا الآلهة فى تحريم الحرث، والأنعام، والثياب، والألبان، مما هو حل لكم، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [آية: ٣١]، يعنى المشركين.

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾، يعنى الثياب، ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ﴾، يعنى الحلال، ﴿مِنَ الرِّزْقِ﴾، يعنى الحرث، والأنعام، والألبان، ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، يقول: أشرك فى الطيبات فى الدنيا المؤمن والكافر، وهى خالصة للمؤمنين يوم القيامة، ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ﴾، يقول: هكذا نبين ﴿الْآيَاتِ﴾، يعنى أمور ما ذكر فى هذه الآية، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٣٢] بتوحيد الله.

ثم أخبرهم بما حرم الله، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾، يعنى الزنا، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، يعنى العلانية، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ فى السر وكانوا يتكرمون عن الزنا فى العلانية، ويفعلوه فى السر، وحرم شرب الخمر، ﴿وَالْإِثْمَ﴾ والمعاصى، ﴿وَالْبَغْيَ﴾، يعنى ظلم الناس، ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، إلا أن يقتص منه بحق، ﴿وَ﴾ حرم ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، يعنى كتابًا فيه حجتكم بأن معه شريكًا، ﴿وَ﴾ حرم ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾ بأنه حرم الحرث، والأنعام، والألبان، والثياب، ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٣٣] أنه حرمه.

ثم خوفهم بالعذاب، فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ العذاب، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1] [آية: ٣٤]، يقول: لا يتأخرون ولا يتقدمون حتى يعذبوا، وذلك حين سألوا النبى ﷺ عن العذاب.

ثم قال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، يعنى مشركى العرب، ﴿إِمَّا﴾ فإن ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ محمد ﷺ وحده، ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾، يعنى يتلون عليكم القرآن، ﴿فَمَنِ اتَّقَى﴾ الشرك ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل وآمن بالله، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آية: ٣٥] من الموت.

---

(١) انظر: (الكشاف ٦١/٢، القرطبى ٢٠٢/٧، البحر المحيط ٢٩٣/٤).

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ
٣٦ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ
ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ
ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن
قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا
جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ
ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن
فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٣٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، يعنى بالقرآن أنه ليس من الله، ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾، وتكبروا عن الإيمان بآيات القرآن، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آية: ٣٦].

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾، يعنى فلا أحد أظلم، ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن معه شريكًا وأنه أمر بتحريم الحرث، والأنعام، والألبان، والثياب، ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾، يعنى بآيات القرآن، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم﴾، يعنى حظهم، ﴿مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾، وذلك أن الله قال فى الكتب كلها: إنه من افترى على الله كذبًا، فإنه يسود وجهه، فهذا ينالهم فى الآخرة، نظيرها فى الزمر: ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾، يعنى ملك الموت وحده، ثم قالت لهم خزنة جهنم قبل دخول النار فى الآخرة: ﴿قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ﴾، يعنى تعبدون، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ من الآلهة، هل يمنعونكم من النار، ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾، يعنى ضلت الآلهة عنا، يقول الله: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [آية: ٣٧]، وذلك حين قالوا: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فشهدت عليهم الجوارح بما كتمت الألسن من الشرك والكفر، نظيرها فى الأنعام.

﴿قَالَ﴾، أى قالت الخزنة: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ النار ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ﴾ النار ﴿لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾، لعنت أهل ملتهم يلعن المشركون المشركين، ويلعن اليهود اليهود، ويلعن النصارى النصارى، ويلعن المجوس المجوس، ويلعن الصابئون الصابئين، ويلعن الأتباع القادة، يقولون: لعنكم الله أنتم ألقيتمونا فى هذا

الملقى حين أطعناكم، يقولون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾[(١)]، يعنى حتى إذا اجتمعوا فى النار ﴿جَمِيعًا﴾ القادة، والأتباع، وقد دخلت القادة والأتباع، ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ دخولاً النار، وهم الأتباع ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ دخولاً النار، وهم القادة، ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ القادة ﴿أَضَلُّونَا﴾ عن الهدى، ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾، يعنى أعطهم عذابًا مضاعفًا ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ ﴿قَالَ﴾ يقول الله: ﴿لِكُلٍّ﴾، يعنى الأتباع والقادة، ﴿ضِعْفٌ﴾ يضاعف العذاب، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٣٨].

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ﴾ دخولاً النار، وهم القادة، ﴿لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ دخولاً النار، وهم الأتباع، ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ فى شىء، فقد ضللتم كما ضللنا، ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [آية: ٣٩]، يعنى تقولون من الشرك والتكذيب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ
ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ
مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾
وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ
أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا
وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُواْ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾
وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ
يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ
ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، يعنى القرآن، ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا﴾، يعنى وتكبروا عن الإيمان بآيات القرآن، ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ﴾، يعنى لأرواحهم ولا لأعمالهم، ﴿أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾، كما تفتح أبواب السماء لأرواح المؤمنين ولأعمالهم إذا ماتوا، ثم قال: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[(٢)]، يقول: حتى يدخل البعير فى خرق الإبرة،

(١) انظر: (القرطبى ٧/٢٠٤، البحر المحيط ٤/٢٩٦، الإتحاف ٢٢٤).

(٢) انظر: (الإتحاف ٢٢٤، البحر المحيط ٤/٢٩٧، الطبرى ١٢/٤٢٨، القرطبى ٧/٢٠٧، الكشاف ٢/٦٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، يعنى وهكذا، ﴿نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [آية: ٤٠] لا يدخلون الجنة.

ثم ذكر ما أعد لهم فى النار، فقال: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾، يعنى فراش من نار، ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾، يعنى لحفًا، يعنى ظللاً من النار، وذلك قوله فى الزمر: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، يعنى وهكذا، ﴿نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آية: ٤١] جهنم، وما فيها من العذاب.

ثم ذكر المؤمنين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾، يقول: لا نكلفها من العمل إلا ما تطيق، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آية: ٤٢] لا يموتون.

ثم أخبر عنهم، فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾، يعنى ما كان فى الدنيا فى قلوبهم من غش، يعنى بعضهم لبعض، وذلك أن أهل الجنة إذا هم بشجرة ينبع من ساقها عينان، فيميلون إلى أحدهما فيشربون منها، فيخرج الله ما كان فى أجوافهم من غل أو أقذار، فيطهر الله أجوافهم، ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]، ثم يميلون إلى العين الأخرى، فيغتسلون فيها، فيطيب الله أجسادهم من كل درن، وجرت عليهم النظرة، فلا تشعث رءوسهم، ولا تغبر وجوههم، ولا تشحب أجسادهم، ثم تتلقاهم خزنة الجنة قبل أن يدخلوا الجنة، فينادونهم، يعنى قالوا لهم: ﴿أن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أورِثْتُمُوهَا﴾، يقول: هاكم الجنة أورثتموها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فلما استقروا فى منازلهم، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾، أى للإسلام ولهذا الخير، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ لدينه، ما كنا لنهتدى فى التقديم، ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾، بأن هذا اليوم حق فصدقناهم، ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [آية: ٤٣].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ من الخير والثواب فى الدنيا، ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ فى الدنيا من العذاب، ﴿قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾، وهو مالك ينادى: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آية: ٤٤]، يعنى عذاب الله على المشركين.

ثم نعت أعمالهم الخبيثة، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعنى دين الإسلام، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، ويريدون بملة الإسلام زيغًا، ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، يعنى بالبعث الذى فيه جزاء الأعمال، ﴿كَٰفِرُونَ﴾ [آية: ٤٥].

ثم قال: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾، يقول: بين الجنة والنار سور، ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾، يعنى على السور رجال ﴿رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من الفريقين ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾، يعرفون أهل الجنة ببياض فى الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه، ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، يسلم أصحاب الأعراف على أهل الجنة، يقول الله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾، يعنى أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة، ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [آية: ٤٦] فى دخولها، وإنما طمعوا فى دخول الجنة من أجل النور الذى بين أيديهم وعلى أقدامهم مثل السراج.

ثم قال: ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾، يعنى قلبت وجوههم، ﴿تِلْقَاءَ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ﴾، يقول: وإذا نظر أصحاب الأعراف قبل أهل النار، ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾ [آية: ٤٧]، يعنى مع المشركين فى النار.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾، هم فى النار، ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾، يعنى بسواد الوجوه من القادة والكبراء، ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ فى الدنيا، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [آية: ٤٨]، يعنى وما أغنى عنكم ما كنتم تستكبرون عن الإيمان، فأقسم أهل النار أن أهل الأعراف سيدخلون النار معهم.

قالت الملائكة الذين حبسوا أصحاب الأعراف على الصراط: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ﴾، يعنى أصحاب الأعراف، ﴿ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ يا أهل النار أنهم ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾، ثم قالت الملائكة: يا أصحاب الأعراف، ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ (١) من العذاب، ﴿وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [آية: ٤٩] من الموت. فقال مقاتل: إن أصحاب الأعراف من أمة محمد ﷺ خاصة، وهم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم، فحسبوا على الصراط من أجل ذنوبهم، ثم دخلوا الجنة بعد ذلك بشفاعة محمد ﷺ.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

---

(١) انظر: (القرطبى ٧/٢١٤، الكشاف ٢/٦٤، البحر المحيط ٤/٣٠٤).

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾، يقول: اسقونا من الماء نشرب، ﴿أَوۡ﴾ أطعمونا ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ من الطعام نأكل، فإن فينا معارفكم وفيكم معارفنا، فرد عليهم أهل الجنة، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾، يعنى الطعام والشراب، ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آية: ٥٠]، وذلك أن الله عز وجل رفع أهل الجنة لأهل النار، فرأوا ما فيهما من الخير والرزق، فنادوا عند ذلك: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ من الشراب والطعام، قال لهم أهل الجنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

ثم نعتهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ﴾ الإسلام، ﴿لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾، يعنى لهوا عنه، ولعبًا يعنى باطلاً، ودخلوا فى غير دين الإسلام، ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ عن دينهم الإسلام، ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ فى الآخرة، ﴿نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ﴾، يقول: فاليوم فى الآخرة نتركهم فى النار، كما تركوا الإيمان، ﴿لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾، يعنى بالبعث، ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، يعنى بالقرآن ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ [آية: ٥١] بأنه ليس من الله.

﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٥٣﴾

﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ﴾، يعنى بيناه، ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾، وهو القرآن، ﴿هُدٗى﴾ من الضلالة، ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ من العذاب، ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [آية: ٥٢]، يعنى يصدقون بالقرآن بأنه من الله.

ثم رجع فى التقديم إلى الذين جحدوا بالقرآن، فقال: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾، يخوفهم، ﴿إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾، يعنى العاقبة، ما وعد الله فى القرآن من الوعد والوعيد، والخير والشر، على ألسنة الرسل، ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾، يعنى يقول فى الآخرة الذين تركوا الإيمان فى الدنيا بالبعث، فإذا ذكروه وعاينوا قول الرسل، قالوا: ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾، بأن هذا اليوم كائن، وهو حق، ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾ من الملائكة والنبيين وغيرها، ﴿فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا، ﴿فَنَعۡمَلَ﴾ من الخير ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ من الشر، يعنى الشرك والتكذيب، يقول الله: ﴿قَدۡ خَسِرُوٓاْ

﴿أَنفُسَهُمۡ﴾، يقول: قد غبنوا أنفسهم، فساروا إلى النار، ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ فى الآخرة ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [آية: ٥٣] فى الدنيا من التكذيب.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٥٤) ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفۡسِدُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٥٦)﴾

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ قبل ذلك، ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ (١)، يقول: يغشى ظلمة الليل ضوء النهار، ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾، يعنى سريعًا، ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ لبنى آدم، ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ﴾، يعنى كل شىء خلق، ﴿وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾، يعنى قضاءه فى الخلق الذى فى اللوح المحفوظ، فله المشيئة فى الخلق والأمر، ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آية: ٥٤]، فيخبر بعظمته وقدرته.

ثم بين كيف يدعونه، فقال: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعًا﴾، يعنى مستكينين، ﴿وَخُفۡيَةًۚ﴾، يعنى فى خفض وسكون، كقوله: ﴿وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]، يعنى تسر بها، فادعوه فى حاجتكم ولا تدعوه فيما لا يحل لكم على مؤمن أو مؤمنة، تقول: اللهم اخزه والعنه، اللهم أهلكه، أو افعل به كذا وكذا، فذلك عدوان، ﴿إِنَّهُۥ﴾ الله، ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [آية: ٥٥].

﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾، وذلك أن الله إذا بعث نبيًا إلى الناس فأطاعوه، صلحت الأرض وصلح أهلها، وأن المعاصى فساد المعيشة وهلاك أهلها، يقول: لا تعملوا فى الأرض بالمعاصى بعد الطاعة، ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفًا﴾ من عذابه، ﴿وَطَمَعًاۚ﴾ فى رحمته، فمن فعل ذلك وهو محسن، فذلك قوله: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آية: ٥٦]، يعنى بالرحمة المطر، يقول: الرحمة لهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرًۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ

---

(١) انظر: (القرطبى ٢٢١/٧، الكشاف ٦٥/٢، الرازى ٢٢٧/٤، البحر المحيط ٣٠٩/٤).

ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا
يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ
قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ
لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ
رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى
ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾(١)، يقول: الرياح نشرًا للسحاب، كقوله: ﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨]، يسير السحاب قدام الرياح، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾، يعنى إذا حملت الريح ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ من الماء، ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾، ليس فيه نبات، ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بالماء من الأرض، ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ﴾، يعنى هكذا، ﴿نُخْرِجُ﴾، يخرج الله ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من الأرض بالماء، كما أخرج النبات من الأرض بالماء، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾، يعنى لكى ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ [آية: ٥٧] فتعتبروا فى البعث أنه كائن، نظيرها فى الروم والملائكة.

ثم ضرب مثلاً للمؤمنين والكفار، فقال: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾، يعنى الأرض العذبة إذا مطرت، ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾، فينتفع به كما ينفع المطر البلد الطيب فينبت، ثم ذكر الكافر، فقال: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ من البلد، يعنى من الأرض السبخة أصابها المطر، فلم ينبت، ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾، يعنى إلا عسرًا رقيقًا يبس مكانه، فلم ينتفع به، فهكذا الكافر يسمع الإيمان ولا ينطق به ولا ينفعه، كما لا ينفع هذا النبات الذى يخرج رقيقًا فييبس مكانه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾، يعنى هكذا ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ فى أمور شتى لما ذكره فى هاتين الآيتين، ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [آية: ٥٨]، يعنى يوحدون ربهم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، يعنى وحدوا الله، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، يقول: ليس لكم رب غيره، فإن لم تعبدوه، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ فى الدنيا ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [آية: ٥٩] لشدته.

(١) وقراءة عاصم. انظر: (الطبرى ١٢/٤٩١، القرطبى ٢٢٩، البحر المحيط ٤/٣١٦، معانى القرآن للفراء ١/٣٨١، الرازى ٤/٢٣٩).

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾، وهم القادة والكبراء لنوح: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [آية: ٦٠].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آية: ٦١] إليكم.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ فى نزول العذاب بكم فى الدنيا، ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ فيها وأحذركم من عذابه فى الدنيا، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ فى نزول العذاب بكم، ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٦٢] أنتم.

وذلك أن قوم نوح لم يسمعوا بقوم قط عذبوا، وقد سمعت الأمم بعدهم بنزول العذاب على قوم نوح، ألا ترى أن هودًا قال لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال صالح لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ﴾ هلاك ﴿عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وحذر شعيب قومه، فقال: ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ من العذاب ﴿مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، فمن ثم قال نوح لقومه: أعلم ما لا تعلمون.

فقال بعضهم لبعض، الكبراء للضعفاء: ما هذا إلا بشر مثلكم، أفتتبعونه؟ فرد عليهم نوح: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٞ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يعنى بيان من ربكم، ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمْ﴾، يعنى نفسه، ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ العذاب فى الدنيا، ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ الشرك وتوحدوا ربكم، ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾، يعنى لكى ﴿تُرْحَمُونَ﴾ [آية: ٦٣]، فلا تعذبوا.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فى العذاب أنه ليس بنازل بنا، يقول الله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾، يعنى نوحًا، ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ من المؤمنين، ﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾، يعنى السفينة من الغرق برحمة منا، ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، يعنى نزول العذاب، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [آية: ٦٤]، عموا عن نزول العذاب بهم، وهو الغرق.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ
(٦٥) قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ
مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
(٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٞ
مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٖ
وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةٗۖ فَٱذْكُرُوٓا ءَالَاءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوٓا أَجِئْتَنَا

لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، ليس بأخيهم فى الدين، ولكن أخوهم فى النسب، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، يعنى وحدوا الله، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، يقول: ما لكم رب غيره، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [آية: ٦٥]، يعنى الشرك، أفلا توحدون ربكم.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾، وهم الكبراء لهود والقادة: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾، يعنى فى حمق، ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ﴾، يعنى لنحسبك ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آية: ٦٦] فيما تقول فى نزول العذاب بنا.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾، يعنى حمق، ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آية: ٦٧] إليكم.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ فى نزول العذاب بكم فى الدنيا، ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ فيما أحذركم من عذابه، ﴿أَمِينٌ﴾ [آية: ٦٨] فيما بينى وينكم.

فقال الكبراء للضعفاء: ما هذا إلا بشر مثلكم، أفتتبعونه؟ فرد عليهم هود: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يعنى بيان من ربكم، ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، يعنى نفسه، ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ العذاب فى الدنيا، ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ فى الأرض، ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ هلاك ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ على غيركم، كان طول كل رجل منهم اثنى عشر ذراعًا ونصفًا، ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾، يعنى نعم الله فوحدوه، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾، يعنى لكى ﴿تُفْلِحُونَ﴾ [آية: ٦٩] ولا تعبدوا غيره.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ﴾ عبادة ﴿مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [آية: ٧٠] إن العذاب نازل بنا.

﴿قَالَ﴾ هود: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾، يعنى إثم وعذاب، ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ إنها آلهة، ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن

﴿سُلۡطَٰنٍۚ﴾، يعنى من كتاب لكم فيه حجة بأن معه شريكًا، ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ [آية: ٧١] بكم العذاب.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾، يعنى هودًا، ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ من المؤمنين، ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾، يعنى بنعمة منا من العذاب، ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ﴾، يعنى أصل القوم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾، يعنى بنزول العذاب، ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [آية: ٧٢]، يعنى مصدقين بالعذاب أنه نازل بهم، وهى الريح.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

ثم ذكر الله ثمود قوم صالح، فقال: ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۗ﴾، ليس بأخيهم فى الدين، ولكن أخوهم فى النسب، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، يعنى وحدوا الله، ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾، يقول: ليس لكم رب غيره، ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾، يعنى بالبينة الناقة، فقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾، لتعتبروا فتوحدوا ربكم، وكانت من غير نسل، وكان الفصيل من نسل، ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾، يقول: خلوا عنها فلتأكل حيث شاءت، ولا تكلفكم مؤونة، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾، لا تصيبوها بعقر، ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ﴾، يعنى فيصيبكم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [آية: ٧٣]، يعنى وجيع فى الدنيا.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ﴾ هلاك ﴿عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ

﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾، يعنى تبنون فى الجبال من الحجارة بيوتًا، ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾، يعنى نعم الله فى القصور والبيوت فتوحدوه، ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [آية: ٧٤]، يعنى ولا تسعوا فيها بالمعاصى.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، يعنى الذين تكبروا عن الإيمان، وهم الكبراء، ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾، أى من قوم صالح، ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾، يعنى لمن صدق منهم بالتوحيد، ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [آية: ٧٥].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، يعنى صدقتم به من العذاب والتوحيد ﴿كَٰفِرُونَ﴾ [آية: ٧٦].

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ ليلة الأربعاء، ﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾، يعنى التوحيد، ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [آية: ٧٧] الذادقين بأن العذاب نازل بنا.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾، يعنى فأصابهم العذاب بكرة السبت من صيحة جبريل، عليه السلام، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [آية: ٧٨]، يعنى فى منازلهم خامدين، أمواتًا.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾، يعنى فأعرض عنهم حين كذبوا بالعذاب، ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى﴾ فى نزول العذاب بكم فى الدنيا، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ فيما حذرتكم من عذابه، ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [آية: ٧٩]، يعنى نفسه.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ
(٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ
(٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ
يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ (٨٤)﴾

﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، يعنى المعصية، يعنى إتيان الرجال، وأنتم تبصرون أنها فاحشة. ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آية: ٨٠] فيما مضى قبلكم.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [آية: ٨١]، يعنى الذنب العظيم.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾، أى قوم لوط حين نهاهم عن الفاحشة، ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم﴾، آل لوط، ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [آية: ٨٢]، يعنى لوطًا وحده، يعنى يتنزهون عن إتيان الرجال.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ من العذاب، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [آية: ٨٣]، يعنى من الباقين فى العذاب.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ الحجارة من فوقهم ﴿مَّطَرًا﴾، ﴿فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣، النمل: ٥٨]، يعنى فبئس مطر الذين أنذروا العذاب، ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد، ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [آية: ٨٤]، يعنى قوم لوط، كان عاقبتهم الخسف والحصب بالحجارة.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ ابن إبراهيم لصلبه، وأرسلنا إلى مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، ليس بأخيهم فى الدين، ولكن أخوهم فى النسب، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، يعنى وحدوا الله، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، ليس لكم رب غيره، ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يعنى بيان من ربكم، ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾، يعنى لا تنقصوا الناس حقوقهم فى نقصان الكيل والميزان، ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾، بعد الطاعة فى نقصان الكيل والميزان، فإن المعاصى فساد المعيشة وهلاك أهلها، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، يعنى وفاء الكيل والميزان خير لكم من النقصان، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آية: ٨٥]، يقول: إن كنتم آمنتم، كان فى الآخرة خير لكم من نقصان الكيل والميزان فى الدنيا، نظيرها فى هود.

﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ﴾، يعنى ولا ترصدوا بكل طريق توعدون أهل الإيمان بالقتل، ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعنى عن دين الإسلام، ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾، يعنى من صدق بالله وحده لا شريك له، ﴿وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾، يعنى تريدون بملة الإسلام زيفًا، ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا﴾، عددكم بعد عذاب الأمم الخالية، ثم ذكرهم النعم، فقال: ﴿فَكَثَّرَكُمۡ﴾، يعنى فكثر عددكم، ثم وعظهم وخوفهم بمثل هذاب الأمم الخالية، فقال: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [آية: ٨٦] فى الأرض بالمعاصى بعد عذاب قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط فى الدنيا، نظيرها فى هود.

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ من العذاب، ﴿وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾، يعنى لم يصدقوا بالعذاب، ﴿فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾، حتى يقضى الله ﴿بَيۡنَنَاۚ﴾ فى أمر العذاب، ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [آية: ٨٧]، يعنى وهو خير الفاصلين، فكان قضاؤه نزول العذاب بهم.

﴿۞قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾، يعنى الذين تكبروا عن الإيمان، وهم الكبراء، ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾، يعنون الشرك، أو لتدخلن فى ملتنا، ﴿قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [آية: ٨٨].

ثم قال لهم شعيب: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ الشرك، يعنى إن

دخلنا فى دينكم، ﴿بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ﴾، يقول: بعد إذ لم يجعلنا الله من أهل ملتكم الشرك، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾، وما ينبغى لنا أن ندخل فى ملتكم الشرك، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾، فيدخلنا فى ملتكم، ﴿وَسِعَ﴾، يعنى ملأ ﴿رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾، فعلمه، ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ﴾، لقولهم لشعيب: لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا، ثم قال شعيب: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ﴾، يعنى اقض ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾، يعنى بالعدل فى نزول العذاب بهم، ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [آية: ٨٩]، يعنى القاضين.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾، وهم الكبراء للضعفاء، ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا﴾ على دينه، ﴿إِنَّكُمۡ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [آية: ٩٠]، يعنى لعجزة، نظيرها فى يوسف: ﴿لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤]، يعنى لعجزة ظالمون.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾، يعنى العذاب، ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ من صيحة جبريل، عليه السلام، ﴿فِي دَارِهِمۡ﴾، يعنى قريتهم، ﴿جَٰثِمِينَ﴾ [آية: ٩١]، يعنى أمواتًا خامدين.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبًا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾، يعنى كأن لم يكونوا فيها قط، ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبًا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آية: ٩٢].

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾، يعنى فأعرض عنهم حين كذبوا بالعذاب، نظيرها فى هود، ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾، فى نزول العذاب بكم فى الدنيا، ﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ﴾ فيما حذرتكم من عذابه، ﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ﴾، يقول: فكيف أحزن بعد الصيحة، ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ [آية: ٩٣] إذا عذبوا.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ
﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ
وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا
عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾
أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن
يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ
إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ
نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ
نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ

مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ فكذبوه، ﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، يعنى قحط المطر، فأصابهم البؤس، وهو الشدة، والضر يعنى البلاء، ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾، يعنى لكى، ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ [آية: ٩٤] إلى ربهم فيوحدونه فيرحمهم.

﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾، يقول: حولنا مكان الشدة الرخاء، ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾، يقول: حموا وسمنوا، فلم يشكروا ربهم، فقالوا من غيرتهم وجهلهم: ﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا﴾، يعنى أصاب آباءنا، ﴿ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾، يعنى الشدة والرخاء مثل ما أصابنا، فلم يك شيئًا، يقول: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾ بالعذاب ﴿بَغۡتَةٗ﴾، فجأة، ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [آية: ٩٥] أعز ما كانوا حتى ينزل بهم، وقد أنذرتهم رسلهم العذاب من قبل أن ينزل بهم، فذلك قوله: ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾، بالشرك، ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

ثم أخبر عنهم، فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ التى عذبت، ﴿ءَامَنُواْ﴾ بتوحيد الله، ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾ الشرك ما قحط عليهم المطر، و ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، يعنى المطر، ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾، يعنى النبات، ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم﴾ بالعذاب، ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [آية: ٩٦] من الشرك والتكذيب.

﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا﴾، يعنى عذابنا ليلاً، ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ [آية: ٩٧].

﴿أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى﴾، يعنى عذابنا نهارًا، ﴿وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [آية: ٩٨]، يعنى لاهون عنه، نظيرها فى طه: ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]، يعنى نهارًا.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ﴾، يعنى عذاب الله، ﴿إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [آية: ٩٩].

﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ﴾، يعنى ورثوا الأرض، ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ هلاك ﴿أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم﴾ بعذاب، ﴿بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾ يخوف كفار مكة، ﴿وَنَطۡبَعُ

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بالكفر، ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [آية: ١٠٠] بالإيمان.

ثم رجع إلى القرى الخالية التى عذبت، فقال: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾، يعنى حديثها، ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، يعنى بيان العذاب، فإنه نازل بهم فى الدنيا، وذلك أن النبى ﷺ أخبر كفار مكة أن العذاب نازل بهم، فكذبوه بالعذاب، فأنزل الله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾، يقول: فما كان كفار مكة ليؤمنوا، يعنى ليصدقوا أن العذاب نازل بهم فى الدنيا بما كذبت به أوائلهم من الأمم الخالية من قبل كفار مكة حين أنذرتهم رسلهم العذاب، يقول الله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ﴾، يعنى هكذا يختم الله بالكفر ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [آية: ١٠١].

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾، وذلك أن الله أخذ ميثاق ذرية آدم على المعرفة، فأقروا بذلك، فلما بلغوا العمل نقضوا العهد، ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [آية: ١٠٢].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾، يعنى من بعد الرسل، ﴿مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾، يعنى اليد والعصا، ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾، يعنى فجحدوا بالآيات، وقالوا: ليست من الله فإنها سحر، ﴿فَانظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [آية: ١٠٣] فى الأرض بالمعاصى، فكان عاقبتهم الغرق.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آية: ١٠٤].

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾، فإنه بعثنى رسولاً، ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يعنى اليد والعصا بأنى رسول الله، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آية: ١٠٥] إلى فلسطين.

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [آية: ١٠٦]، بأنك رسول رب العالمين، وفى يد موسى عصا، فزعم ابن عباس أن ملكًا من الملائكة دفعها إليه حين توجه إلى مدين، فقال موسى لفرعون: ما هذه بيدى؟ قال فرعون: عصا.

﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ من يده، ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [آية: ١٠٧]، يعنى حية بينة، فقال فرعون: فهل من آية غيرها؟ قال: نعم، فأخرج يده، وقال لفرعون: ما هذه؟ قال: هذه يدك، فأدخل موسى يده فى جيبه وعليه مدرعة من صوف مضرية، ثم أخرجها.

فذلك قوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾، يعنى أخرج يده من جيبه، ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [آية: ١٠٨]، لها شعاع كشعاع الشمس يغشى البصر من شدة بياضها.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾، وهم الكبراء، ﴿مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا﴾، يعنى موسى، ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [آية: ١٠٩]، يعنى عالم بالسحر، وذلك أن فرعون بدأ بهذه المقالة فصدقه قومه، نظيرها فى الشعراء.

ثم قال لهم فرعون: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾، وهى مصر، ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [آية: ١١٠]، يعنى تشيرون.

فرد عليه كبراء قومه: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾، يقول: أرجىء أمرهم، يقول: أوقف أمرهم حتى ننظر فى أمرهما، ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [آية: ١١١].

﴿يَأْتُوكَ﴾، يحشرون عليك، ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [آية: ١١٢]، يعنون عالم بالسحر.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾، يعنى جعلاً، ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [آية: ١١٣] لموسى.

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آية: ١١٤]، في المنزلة سوى العظمة، كان هذا يوم السبت في المحرم، والسحرة اثنان وسبعون رجلاً.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ﴾، فقالت السحرة لموسى: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ ما في يدك، يعني عصاه، ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [آية: ١١٥] ما في أيدينا من الحبال والعصي.

﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿أَلْقُواْ﴾ ما أنتم ملقون، ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾ الحبال والعصي، ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾، يعني وخوفوهم، ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [آية: ١١٦].

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾، فصارت حية، ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾، يعني تلقم، ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ [آية: ١١٧]، يعني ما جاءوا به من الكذب.

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾، يعني فظهر الحق بأنه ليس بسحر، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [آية: ١١٨]، يعني بطل ما كانوا يعملون من السحر.

﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ﴾، يعني عند ذلك، ﴿وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾ [آية: ١١٩]، يعني فرجعوا إلى منازلهم مذلين.

﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [آية: ١٢٠] لله.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آية: ١٢١]، قال السحرة: آمنا بـ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [آية: ١٢٢]، فبهت فرعون لردهم عليه.

و ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ للسحرة، ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ ، يعنى صدقتم بموسى، ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ ، يقول: إن هذا الإيمان لقول قلتموه فى المدينة، يعنى فى أهل مصر فى متابعتكم إياه، وذلك أن موسى قال للساحر الأكبر، واسمه شمعون: أتؤمن لى إن غلبتك؟ قال: لآتين بسحر لا يغلبه سحرك، ولئن غلبتنى لأؤمن لك، وفرعون ينظر، فمن ثم قال فرعون: ﴿لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ ، من أرض مصر، يعنى موسى، وهارون، وشمعون رئيس السحرة، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [آية: ١٢٣] فأوعدهم.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ ، يعنى اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو الرجل اليمنى واليد اليسرى، ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [آية: ١٢٤].

فرد السحرة على فرعون، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [آية: ١٢٥]، يعنى راجعين.

﴿وَمَا تَنقِمُ﴾ ، يعنى وما نقمت ﴿مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ ، يعنى صدقنا باليد والعصا آيتان من ربنا، ﴿لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ ، ثم قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا﴾ ، يعنى ألقى علينا ﴿صَبْرًا﴾ عند القطع والصلب، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [آية: ١٢٦]، يعنى مخلصين لله حتى لا يردنا البلاء عن ديننا، فصلبهم فرعون من يومه، فكانوا أول النهار سحرة كفارًا، وآخر النهار شهداء مسلمين لما آمنت السحرة لموسى.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ ، يعنى الأشراف ﴿مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾ ، بنى إسرائيل قد آمنوا بموسى، ﴿لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ، يعنى مصر، يعنى بالفساد أن يقتل أبناءكم، ويستحيى نساءكم، يعنى ويترك بناتكم كما فعلتم بقومه يفعله بكم، نظيرها فى حم المؤمن، ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ (١)، يعنى ويترك عبادتك، ﴿قَالَ﴾ فرعون عند ذلك: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ ، يعنى بناتهم، ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [آية: ١٢٧].

---

(١) انظر: (الطبرى ٣٨/١٣، الكشاف ٨٣/٢، القرطبى ٢٦٢/٧، الإتحاف ٢٢٩، البحر المحيط ٣٦٧/٤).

ثم أمرهم أن يقتلوا أبناء الذين معه، ويستحيوا نساءهم، فمنعهم الله من قتل الأبناء حين أغرقهم فى البحر، وكان فرعون قد كلفهم من العمل ما لم يطيقوا، فمر بهم موسى، عليه السلام، فـ ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ فى التقديم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ على فرعون وقومه، ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ على البلاء، ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ﴾، أرض مصر، ﴿لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾، يعنى الجنة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آية: ١٢٨]، يعنى للموحدين.

فـ ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا﴾ فى سببك ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ الرسالة، يعنون الأذى قتل الأبناء وترك البنات، ﴿وَ﴾ أوذينا ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ بالرسالة، يعنون حين كلفهم فرعون من العمل ما لم يطيقوا مضارة باتباعهم موسى، عليه السلام، قال موسى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾، يعنى فرعون وقومه، ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾ من بعد هلاكهم، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، يعنى أرض مصر، ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [آية: ١٢٩]، فإنما قال لهم موسى، عليه السلام، ذلك من قول الله تعالى فى القصص: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ [القصص: ٥، ٦] إلى آيتين، ففعل الله ذلك بهم، فأهلك عدوهم واستخلفهم فى الأرض، فاتخذوا العجل.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾
فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ
إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ
لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ
وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ
ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ
وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم
بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، يعنى أهل مصر، ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾، يعنى قحط المطر، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، فأصابهم الجوع، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [آية: ١٣٠]، يعنى لعلهم يتذكرون.

﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾، يعنى الخير والخصب، ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾، يعنون نحن أحق بهذا، ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾، يعنى الجوع، والبلاء، وقحط المطر، وهلاك الثمار والمواشى، ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ على دينه، تسألوا أصابنا هذا الشر من سحر موسى، يقول الله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾، يقول: إن الذى أصابهم هو من الله، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ﴾، يعنى أهل مصر، ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [آية: ١٣١] أنه من الله الذى أصابهم.

﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا﴾، يعنى الآيات التسع، ﴿فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [آية: ١٣٢]، يعنى بمصدقين، يعنى بأنك رسول رب العالمين.

﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾، فلما قالوا ذلك أرسل الله ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ السنين، ونقص من الثمرات، والنبات، و ﴿ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾(١)، يعنى باينات بعضها من بعض بين كل آيتين ثلاثين يومًا، ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾، يعنى فتكبروا عن الإيمان، ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ [آية: ١٣٣].

فأما الطوفان، فهو الماء طغى فوق حروثهم وزروعهم مطردًا ثمانية أيام فى ظلمة شديدة لا يرون فيها شمسًا ولا قمرًا، ولا يخرج منهم أحد إلى صنعته، فخافوا الغرق، فصرخوا إلى فرعون، فأرسل إلى موسى، فقال: يا أيها الساحر، ادع لنا ربك أن يكشف عنا هذا المطر، فإن يكشفه لنؤمنن لك، ولنرسلن معك بنى إسرائيل، فقال: لا أفعل ما زعمتم أنى ساحر، فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك، فدعا ربه، فكشف عنهم المطر، فنبت من الزرع والعشب ما لم ير مثله قط، فقالوا: لقد جزعنا من أمر كان خيرًا لنا، فنكثوا العهد، فأرسل الله عليهم الجراد ثمانية أيام، وملئت الأرض حتى كانوا لا يرون الأرض من كثرته، قدر ذراع، فأكل النبات، حتى خافوا ألا يبقى لهم شىء.

فقال فرعون: يا موسى، ادع لنا ربك أن يكشف عنا فنؤمن لك، فدعا موسى ربه، فبعث الله ريحًا، فاحتملت الجراد فألقته فى البحر، قالوا: قد بقى لنا ما نتبلغ به حتى يدركنا الغيث، فنكثوا، فأرسل الله عليهم القمل، وهو الدبى، فغشى كل شىء منهم، فلم يبق عودًا أخضر من الزرع والنبات إلا أكله، قال فرعون لموسى: ادع لنا ربك أن يكشفه عنا ونؤمن لك، فدعا ربه، فأمات القمل، وبقى لهم ما يتبلغون، فنكثوا، قالوا:

---

(١) انظر: (الإتحاف ٢٢٩، القرطبى ٢٧٠/٧، الكشاف ٨٦/٢، مجمع البيان ٤٦٧/٢).

يا موسى، هل يستطيع ربك أن يفعل بنا أشد من هذا؟ فأرسل الله عليهم الضفادع، فدبت في بيوتهم، وعلى ظهورهم، فكان يستيقظ الرجل من نومه وعليه منهم كثرة، فقال فرعون لموسى: ادع لنا ربك فيهلكه، فإنه لم يعذب أحد قط بالضفادع، فدعا موسى ربه، فأمات الضفادع، فأرسل الله مطرًا جوادًا، فجرى بهم الماء حتى قذفهم في البحر.

فقالوا: إنما كان هذا الضفادع من المطر الذى كان أصابنا، فلن يعود إلينا أبدًا، فنكثوا، فأرسل الله عليهم الدم، حتى صارت أنهارهم وركاباهم دمًا، وأنهار بنى إسرائيل ماء عذبًا، فإذا دخل القبطى ليستقى من ماء بنى إسرائيل، صار دمًا ما بين يديه وما خلفه صاف، إذا تحول ليأخذ من الصافى، صار دمًا وخلفه صاف، فمكثوا ثلاثة أيام لا يذوقون ماء صافيًا، فقالوا لفرعون: هلكنا وهلكت مواشينا وذرارينا من العطش، فقال لموسى: ادع لنا ربك ليكشف عنا، ونعطيك ميثاقًا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل، فدعا موسى ربه، فكشفه عنهم، ولما شربوا الماء نكثوا العهد.

فذلك قوله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾، يعنى العذاب الذى كان نزل بهم، ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾، يعنى هذا العذاب كله، ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آية: ١٣٤] إلى فلسطين.

يقول الله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾، يعنى الغرق، ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [آية: ١٣٥] العهد الذى عاهدوا عليه موسى، عليه السلام، لقولهم: لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل إلى فلسطين.

يقول الله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ بلسان العبرانية، يعنى به البحر، وهو نهر بمصر، ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، يعنى الآيات التسع، قالوا: يا أيها الساحر، أنت الذى تعمل هذه الآيات، وإنها سحر، وليست من الله، ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [آية: ١٣٦]، يعنى معرضين، فلم يتفكروا فيها فيعتبرون.

قال فرعون لموسى فى حم الزخرف: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف: ٤٩]، فقال: لا أدعو وأنتم تزعمون أنى ساحر، فقال فى الأعراف: ﴿يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، يعنى سل لنا ربك.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى

بَـٰرَكۡنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ
يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ
فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ ۚ
قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ
أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ
وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾

ثم قال: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا﴾ الأرض ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾، يعنى بنى إسرائيل، يعنى بالاستضعاف قتل الأبناء، واستحياء النساء بأرض مصر، وورثهم ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ المقدسة، ﴿وَمَغَٰرِبَهَا﴾، وهى الأردن وفلسطين، ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾، يعنى بالبركة الماء، والثمار الكثيرة، ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، وهى النعمة، ﴿عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾، حين كلفوا بأرض مصر ما لا يطيقون من استعبادهم إياهم، يعنى بالكلمة التى فى القصص من قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ [القصص: ٥، ٦] إلى آيتين، وأهلك الله عدوهم، ومكن لهم فى الأرض، فهى الكلمة، وهى النعمة التى تمت على بنى إسرائيل.

﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ﴾، يعنى وأهلكنا عمل فرعون وقومه القبط فى مصر، ﴿وَ﴾ أهلكنا ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ [آية: ١٣٧]، يعنى يبنون من البيوت والمنازل.

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾، يعنى النيل، نهر مصر، ﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ﴾، يعنى فمروا على العمالقة يقيمون ﴿عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡ﴾ يعبدونها، فقالت بنو إسرائيل: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ نعبده، ﴿كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ يعبدونها، ﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [آية: ١٣٨].

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ﴾، يعنى مدمر، ﴿مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [آية: ١٣٩].

﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا﴾، يعنى ربًا، ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آية: ١٤٠]، يعنى عالمى أهل مصر حين أنجاكم وأهلكهم.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، يعنى بنى إسرائيل، ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، يعنى يعذبونكم أشد العذاب، ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾، يعنى قتل الأبناء وترك البنات، ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [آية: ١٤١]، يعنى بالعظم شدة ما نزل بهم من البلاء.

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً
وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾
وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ
إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا
وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾
قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ
شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ
عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا
وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ
ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ من ذى القعدة، واعدناه الجبل، ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ من ذى الحجة، ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾، يعنى ربه، ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، وكان موسى ومن معه قد قطعاو البحر فى عشر من المحرم يوم عاشوراء، ثم أعطى التوراة يوم النحر بينهما أحد عشر نهرًا، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾، بنى إسرائيل بخير حين خرج إلى الجبل، ﴿وَأَصْلِحْ﴾، يعنى وأرفق بهم، نظيرها فى القصص: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]، يعنى الرافقين بك، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آية: ١٤٢] منهم.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ﴾ الجبل ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾، يعنى لميعادنا لتمام الأربعين يومًا، ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، فلما سمع كلام ربه، استحلاه واشتاق إلى رؤية ربه، ﴿قَالَ﴾: يا ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ له ربه: إنك ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ﴾، اجعل بينى وبينك علمًا هو أقوى

منك، يعني الجبل، ﴿انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾، وإن لم يستقر الجبل مكانه، فإنك لن تطيق رؤيتي، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾، يعني قطعًا، فصار الجبل دكًا، يعني قطعًا على ستة فرق، فوق ثلاثة بأجبل مكة: بثير، وغار ثور، وحزن، ووقع بالمدينة: رضوى، وورقان، وجبل أُحُد، فذلك قوله: ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾، ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾، يعني ميتًا، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾، يعني رد عليه نفسه، ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من قولي: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آية: ١٤٣]، يعني أول المصدقين بأنك لن تُرى في الدنيا.

﴿قَالَ﴾ له ربه: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾، يقول: اخترتك من بني إسرائيل بالرسالة وبالكلام من غير وحي، ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ بقوة، يقول: ما أعطيتك من التوراة بالجد، والمواظبة عليه، ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [آية: ١٤٤] لله في هذه النعم، يعني الرسالة، والكلام من غير وحي.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ﴾ نقرًا كنقش الخاتم، وهي تسعة ألواح، ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، فقال: ﴿مَّوْعِظَةً﴾ من الجهل، ﴿وَتَفْصِيلًا﴾، يعني بيانًا ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأمر، والنهي، والحد، وكتبه الله عز وجل بيده، فكتب فيها: إني أنا الله الذي لا إله إلا أنا الرحمن الرحيم، لا تشركوا بي شيئًا، ولا تقتلوا النفس، ولا تزنوا، ولا تقطعوا السبيل، ولا تسبوا الوالدين، ووعظهم في ذلك، والألواح من زمرد وياقوت، يقول: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾، يعني التوراة بالجد والمواظبة عليه، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ﴾ بني إسرائيل، ﴿يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾، يعني بأحسن ما فيها، ثم قال قبل ذلك لبني إسرائيل: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [آية: ١٤٥] سنة أهل مصر، فزعم ابن عباس، أن الله حين أغرق فرعون وقومه، أوحى إلى البحر أن يقذف أجسادهم على الساحل، ففعل البحر ذلك، فنظر إليهم بنو إسرائيل، فأراهم سنة الفاسقين.

ثم قال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، يعني يعملون فيها بالمعاصي الكبرياء والعظمة، يعني أهل مصر، يقول: سأصرف عن التفكير في خلق السموات والأرض وما بينهما من الآيات الشمس، والقمر، والنجوم، والسحاب، والرياح، والجبال، والفلك، والبحور، والشجر، والثمار، والنبات، عام بعام، يعني المتكبرين، فلا يتفكرون فتكون لهم عبرة، تعني لأهل مصر، ثم قال يعنيهم: ﴿وَإِن يَرَوْا

﴿كُلَّ ءَايَةٍ﴾، يعنى يروا مرة اليد ومرة العصا، ثم يرون الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، ثم السنين، ثم الطمس.

فرأوا كل آية على حدة، فلم يؤمنوا، ﴿لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾، يعنى لا يصدقون بأنها من الله، ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾، يعنى طريق الهدى، ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، يعنى لا يتخذوه دينًا فيتبعونه، ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ﴾، يعنى طريق الضلالة، ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، يقول: اتخذه دينًا فيتبعونه، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، يعنى بالآيات التسع، ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [آية: ١٤٦]، يعنى معرضين، ولم يتفكروا فيها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، يعنى القرآن، ﴿وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، وكذبوا بالبعث الذى فيه جزاء الأعمال، ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ التى أرادوا بها وجه الله؛ لأنها كانت فى غير إيمان، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [آية: ١٤٧].

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾، بنى إسرائيل، ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، حين انطلقوا إلى الطور، ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾، يعنى صورة عجل جسد، يقول: ليس فيه روح، ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾، يعنى له صوت البهائم، ثم لم يصوت غير مرة واحدة، ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾، يعنى بنى إسرائيل، ﴿أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾، يعنى لا يقدر على أن يكلمهم، ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾، يعنى طريقًا إلى الهدى، يعنى العجل، ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ العجل إلهًا، ﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [آية: ١٤٨]، يعنى مشركين.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾، ندامة وندموا، ﴿وَرَأَوْاْ﴾ وعلموا ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ﴾ عن الهدى، ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾، يعنى ويتجاوز عنا، ﴿لَنَكُونَنَّ

﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آية: ١٤٩] فى العقوبة، فلم يقبل الله توبتهم إلا بالقتل.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ من الجبل، ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾، يعنى حزينًا فى صنع قومه فى عبادة العجل، وكان أخبره الله على الطور بأمر العجل، ثم قال: ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ﴾، يقول: استعجلتم ميقات ربكم أربعين يومًا، ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ من عاتقه، فذهب منها خمس وبقيت أربعة، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ هارون ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ﴾، يعنى إلى نفسه، ﴿قَالَ﴾ هارون لموسى: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١) [آية: ١٥٠].

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾، يعنى تجاوز عنى، ﴿وَلِأَخِى﴾ هارون، ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [آية: ١٥١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهًا، ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ﴾، يعنى عذاب، ﴿مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ﴾، يعنى مذلة، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾، فصاروا مقهورين إلى يوم القيامة، ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، يعنى وهكذا ﴿نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [آية: ١٥٢]، يعنى الذين افتروا فزعموا أن هذا إلهكم، يعنى العجل، وإله موسى.

وكان السامرى جمع الحلى بعد خمسة وثلاثين يومًا من يوم فارقهم موسى، عليه السلام، وكان السامرى صائغًا، فصاغ لهم العجل فى ثلاثة أيام، وقد علم السامرى أنهم يعبدونه؛ لقولهم لموسى، عليه السلام، قبل ذلك: ﴿**ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ**

(١) انظر: (الإتحاف ٣٢١، القرطبى٧/٢٩١، مجمع البيان ٢/٤٨١، البحر المحيط ٤/٣٩٦، تهذيب اللغة «شمت»).

﴿ءَالِهَةٌ﴾، فعبدوا العجل لتمام تسعة وثلاثين يومًا، ثم أتاهم موسى من الغد لتمام الأربعين يومًا.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، يعنى الشرك الذين عبدوا العجل، ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾، أى بعد الشرك، ﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾، يعنى صدقوا بالله أنه واحد لا شريك له، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾، يعنى من بعد الشرك، ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آية: ١٥٣] بهم.

قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ﴾، يعنى سكن، ﴿أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ﴾ بعدما ألقاها، ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا﴾ فيما بقى منها، ﴿هُدٗى﴾ من الضلالة، ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ من العذاب، ﴿لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ [آية: ١٥٤]، يعنى يخافون الله، وأعطى موسى التوراة يوم النحر يوم الجمعة، فلم يطق حملها، فسجد لله، وجعل يدعو ربه ويتضرع، حتى خففت عليه، فحملها على عاتقه.

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾، من اثنى عشر سبطًا، ستة ستة، فصاروا اثنين وسبعين رجلاً، قال موسى: إنما أمرنى ربى بسبعين رجلاً، فمن قعد عنى فلم يجىء فله الجنة، فقعد يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا، ﴿لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾، يعنى لميعادنا، يعنى الأربعين يومًا، فانطلق بهم، فتركهم فى أصل الجبل، فلما نزل موسى إليهم، قالوا: ﴿أرنَا اللهِ جهْرَةً﴾، فأخذتهم الرجفة، يعنى الموت عقوبة لما قالوا، وبقى موسى وحده يبكى، ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ﴾ ما أقول لبنى إسرائيل إذا رجعت إليهم وقد أهلكت خيارهم، رب ﴿لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم﴾، يعنى أمتهم، ﴿مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾ معهم من قبل أن يصحبونى، ﴿أَتُهۡلِكُنَا﴾ عقوبة ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾، وظن موسى، عليه السلام، أنما عوقبوا باتخاذ بنى إسرائيل العجل، فهم السفهاء، فقال موسى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾، يعنى ما هى إلا بلاؤك، ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ بالفتنة ﴿مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي﴾ من الفتنة ﴿مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ [آية: ١٥٥]، قال: فلم يعبد العجل منهم إلا اثنا عشر ألفًا.

﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ

ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، يعنى المغفرة، ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ حسنة، يعنى الجنة، ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾، يعنى تبنا إليك، ﴿قَالَ﴾ الله: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾(١)، يعنى ملأت كل شيء، قال إبليس: فأنا من كل شيء، قال الله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾، يعنى الرحمة، ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، فعزل إبليس، يعنى للذين يوحدون ربهم، ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، يعنى أمة محمد ﷺ، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [آية: ١٥٦]، يعنى بالقرآن يصدقون أنه من الله، قالت اليهود: فنحن نتقى الله، ونؤتى الزكاة، فعزل إبليس واليهود.

ثم نعتهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ على دينه، يعنى محمدًا ﷺ، يعنى بالأمى الذى لا يقرأ الكتب، ولا يخطها بيمينه، ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، يعنى بالإيمان، ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، يعنى الشرك، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، يعنى ما حرم الله من اللحوم والشحوم، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ﴾ محمد ﷺ ﴿ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، يعنى الميتة، والدم، ولحم الخنزير، ﴿وَيَضَعُ﴾ محمد ﷺ ﴿عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾، يعنى مما عهد الله إليهم من تحريم اللحوم، والشحوم، ولحم كل ذى ظفر، ﴿وَ﴾ يضع محمد ﷺ ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ واجبة من التغليظ والتشديد، الذى منه أن يقتل قاتل العمد البتة، ولا يعفى عنه، ولا يؤخذ منه الدية، ويقتل قاتل الخطأ، إلا أن يشاء ولى المقتول فيعفو عنه ونحوه، ولو صدقوا النبى ﷺ لوضع ذلك كله عنهم، ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾، يعنى صدقوا النبى ﷺ، ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾(٢)، يعنى أعانوه على أمره، ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ﴾، يعنى القرآن، ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾، فمن فعل هذا فـ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آية: ١٥٧]، فقال موسى عند ذلك: اللهم اجعلنى من أمة محمد ﷺ.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ

(١) انظر: (الإتحاف ٢٣١، الكشاف ٢/٩٧، البحر المحيط ٤/٤٠٢، مجمع البيان ٢/٤٨٥).

(٢) انظر: (القرطبى ٧/٣٠١، الكشاف ٢/٩٧، البحر المحيط ٤/٤٠٤).

بِاللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ
يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا
عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ
ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا
حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ
سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ
لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾
وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ
تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ
نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ
مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟
بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟
يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ﴾ الأموات، ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياء، ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾، يعنى فصدقوا ﴿بِٱللَّهِ﴾ أنه واحد لا شريك له، ﴿وَرَسُولِهِ﴾، عليه السلام، ﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾، يعنى الذى يصدق بالله بأنه واحد لا شريك له، وبآياته، يعنى القرآن، ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾، يعنى محمدًا، عليه السلام، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾، يعنى لكى، ﴿تَهْتَدُونَ﴾ [آية: ١٥٨] من الضلالة.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾، يعنى بنى إسرائيل، ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾، يعنى عصابة يدعون إلى الحق، ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [آية: ١٥٩]، يعنى الذين من وراء الصين اليوم، القوم الذين أسرى بهم تحت الأرض، وأخرج لهم نهرًا من الأردن من رمل يسمى أردق من وراء الصين يجرى كجرى الماء، أسرى الله بهم تحت الأرض سنة ونصفًا، فإذا نزل عيسى بن مريم كان معه يوشع بن نون، وهم من آمن من أهل الكتاب.

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾، يعنى فرقناهم، ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾، يعنى فرقًا، ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾ فى التيه، ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾، ففعل وكان من الطور، ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾، يعنى فانفجرت من الحجر، ﴿مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ ماء باردًا فراتًا رواء بإذن الله، وكان الحجر خفيفًا، كل سبط من بنى إسرائيل لهم عين تجرى لا يخالطهم غيرهم فيها، فذلك قوله: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾، يعنى كل سبط مشربهم، ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ﴾ بالنهار، يعنى سحابة بيضاء ليس فيها ماء تقيهم من حر الشمس وهم فى التيه، ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ﴾، يعنى النرنجين، ﴿وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾ طير أحمر يشبه السمان، ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ﴾، يعنى من حلال، ﴿مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ من المن والسلوى، ولا تطغوا فيه، يعنى لا ترفعوا منه لغد، فرفعوا وقددوا فدود عليهم، يقول الله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾، يعنى وما ضرونا، يعنى وما نقصونا حين رفعوا وقددوا ودود عليهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [آية: ١٦٠]، يعنى يضرون وينقصون.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾، بيت المقدس، ﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ﴾ أمرنا ﴿حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ﴾، أى باب القرية، ﴿سُجَّدٗا﴾ سجود انحناء، ﴿نَّغۡفِرۡ﴾ بالنون والتاء مبنيًا للمفعول، ﴿لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آية: ١٦١] بالطاعة ثوابًا.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾، فقالوا: حبة فى شعرة، ودخلوا يزحفون على استاهم، ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا﴾ عذابًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ [آية: ١٦٢].

﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، اسمها أيلة، على مسيرة يومين من البحر بين المدينة والشام، مسخوا على عهد داود، عليه السلام، قردة، يعنى اليهود، وإنما أمر الله النبى ﷺ أن يسألهم: أمسخ الله منكم قردة وخنازير؟ لأنهم قالوا: إنا أبناء الله وأحباؤه، وإن الله لا يعذبنا فى الدنيا ولا فى الآخرة؛ لأنا من سبط خليله إبراهيم، ومن سبط إسرائيل، وهو بكر نبيه، ومن سبط كليم الله موسى، ومن سبط ولده عزير، فنحن من أولادهم، فقال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ ﴿ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾، إنما عذبهم الله بذنوبهم.

ثم أخبر عن ذنوبهم، فقال: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾، يعنى يعتدون، ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾، يعنى السمك، ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾، يعنى شارعة من غمرة الماء إلى قريب من الحذاء، يعنى الشط أمنت أن يصدن، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾، يعنى حين لا يكون يوم السبت، ﴿لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ﴾، يعنى هكذا، ﴿نَبْلُوهُم﴾، يعنى نبتليهم بتحريم السمك فى السبت، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [آية: ١٦٣]، جزاء منا، يعنى بما كانوا يعصون.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾، يعنى عصابة منهم، وهى الظلمة للواعظة، ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وذلك أن الواعظة نهوهم عن الحيتان، وخوفوهم فلم ينتبهوا، فردت عليهم الواعظة، ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ﴾، يعنى ولكى ينتهوا فيؤخروا أو يعذبوا فينجوا، ﴿وَلَعَلَّهُمْ﴾، يعنى ولكى ﴿يَتَّقُونَ﴾ [آية: ١٦٤] المعاصى.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾، يعنى فلما تركوا ما وعظوا به من أمر الحيتان، ﴿أَنجَيْنَا﴾ من العذاب ﴿ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾، يعنى المعاصى، ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، يعنى وأصبنا الذين ظلموا، ﴿بِعَذَابٍ﴾، يعنى المسخ، ﴿بَـِٔيسٍ﴾(١)، يعنى شديد، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [آية: ١٦٥]، يعنى يعصون.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾، يعنى عصوا، ﴿عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ من الحيتان، ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ ليلاً: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [آية: ١٦٦]، يعنى صاغرين بعدما أصابوا الحيتان سنين، ثم مسخوا قردة، فعاشوا سبعة أيام، ثم ماتوا يوم الثامن.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا

---

(١) انظر: (الإتحاف ٢٣٢، تهذيب اللغة «بئس»، مجمع البيان ٤٩٢/٢، النشر ٢٧٢/٢، الكشف ٤٨١/١، السبعة ٢٩٦، الطبرى ٢٠٠/١٣، ٢٠١، القرطبى ٣٠٨/٧، البحر المحيط ٤١٢/٤، ٤١٣، التيسير ١١٤، غيث النفع ٢٣٠، العكبرى ١٦٦/١، النحاس ٦٤٧/١، التبيان ١٧/٥).

ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ
يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا
ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ
﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾، يعني قال ربك: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾، يعني بني إسرائيل من يسومهم سوء العذاب، فبعث الله المسلمين عليهم، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مادامت الدنيا، ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِۗ﴾، يعني يعذبهم شدة العذاب، يعني القتل، والجزية، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آية: ١٦٧].

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ﴾، يعني وفرقناهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًاۖ﴾، يعني فرقًا، يعني بني إسرائيل، ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، يعني المؤمنين، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾، يعني دون الصالحين، فهم الكفار، ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، يقول: ابتليناهم بالخصب والشدة، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾، يعني لكي ﴿يَرْجِعُونَ﴾ [آية: ١٦٨] إلى التوبة.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، يعني من بعد بني إسرائيل، ﴿خَلْفٌ﴾ السوء وهم اليهود، ﴿وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني ورثوا التوراة عن أوائلهم وآبائهم، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾، وهي الدنيا؛ لأنها أدنى من الآخرة، يعني الرشوة في الحكم، ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، فكانوا يرشون بالنهار، ويقولون: يغفر لنا بالليل، ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ﴾، يعني رشوة مثله ليلاً، ﴿يَأْخُذُوهُۚ﴾، ويقولون: يغفر لنا بالنهار، يقول الله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعني بغير ما يقولون، لقد أخذ عليهم في التوراة أن لا يستحلوا محرمًا، و ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ في التوراة، ﴿وَدَرَسُواْ﴾(١)، يعني وقرأوا ﴿مَا فِيهِۗ﴾، ما في التوراة، ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾، يعني الجنة، ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ﴾، استحلال المحارم، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آية: ١٦٩].

ثم ذكر مؤمنيهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾، يعني يتمسكون بالتوراة ولا

---

(١) انظر: (الكشاف ٢/١٠٢، القرطبي ٧/٣١٢، مجمع البيان ٢/٤٩٥).

يحرفونه عن مواضعه، ولا يستحلون محرمًا، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [آية: ١٧٠]، نزلت فى ابن شلام وأصحابه.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾، يعنى وإذ رفعنا الجبل ﴿فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾، وذلك أن موسى، عليه السلام، حين أتاهم بالتوراة، وجدوا فيها القتل، والرجم، والحدود، والتغليظ، أبوا أن يقبلوا التوراة، فأمر الله الجبل عند بيت المقدس، فانقطع من مكانه، فقام فوق رءوسهم، فأوحى الله إلى موسى أن قل لهم: إن لم يقروا بالتوراة، طرحت عليهم الجبل، وأرضخ به رءوسهم، فلما رأوا ذلك أقروا بالتوراة، ورجع الجبل إلى مكانه، فذلك قوله: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾، يعنى وأيقنوا أن الجبل واقع بهم، يعنى عليهم، ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ﴾، ما أعطيناكم من التوراة بالجد والمواظبة، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾، يقول: واحفظوا ما فيه من أمره ونهيه، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾، يعنى لكى ﴿تَتَّقُونَ﴾ [آية: ١٧١] المعاصى.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾، يقول: وقد أخذ ربك من بنى آدم بنعمان عند عرفات من ظهورهم، ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بإقرارهم، ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أنت ربنا، وذلك أن الله عز وجل مسح صفحة ظهر آدم اليمنى، فأخرج منه ذرية بيضاء كهيئة الذر يتحركون، ثم مسح صفحة ظهره اليسرى، فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر، وهم ألف أمة، قال: يا آدم، هؤلاء ذريتك أخذنا ميثاقهم على أن يعبدونى ولا يشركوا بنى شيئًا وعلىَّ رزقهم، قال آدم: نعم يا رب، فلما أخرجهم، قال الله: ألست بركم؟ قالوا: بلى ﴿شَهِدْنَآ﴾ انك ربنا، قال الله للملائكة: اشهدوا عليهم بالإقرار، قالت الملائكة: قد شهدنا، يقول الله فى الدنيا لكفار العرب من هذه الأمة: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا﴾ الميثاق الذى أخذ علينا ﴿غَـٰفِلِينَ﴾ [آية: ١٧٢]، وأشهدهم على أنفسهم.

﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟﴾ لئلا تقولوا: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ ونقضوا الميثاق، ﴿مِن قَبْلُ﴾ شركنا، ولئلا تقولوا: ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾، فاقتدينا بهم وبهداهم، لئلا تقولوا: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [آية: ١٧٣]، يعنى أفتعذبنا بما فعل المبطلون، يعنى المكذبين بالتوحيد، يعنون آباءهم، كقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

ثم أفاضهم إفاضة القدح، فقال للبيض: هؤلاء فى الجنة برحمتى، فهم أصحاب اليمين، وأصحاب الميمنة، وقال للسود: هؤلاء للنار، ولا أبالى، فهم أصحاب الشمال، وأصحاب المشأمة، ثم أعادهم جميعًا فى صلب آدم، عليه السلام، فأهل القبور محبسون حتى يخرج الله أهل الميثاق كلهم من أصلاب الرجال وأرحام النساء، ثم تقوم الساعة، فذلك قوله: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٤]، فمن مات منهم صغيرًا، فله الجنة بمعرفته بربه، ومن بلغ منهم العقل أخذ أيضًا ميثاقه بمعرفته لربه، والطاعة له، فمن لم يؤمن إذا بلغ العقل لم يغن عنه الميثاق الأول شيئًا، وكان العهد والميثاق الأول حجة عليهم، وقال فيمن نقض العهد الأول: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾، يعنى من وفاء، يعنى أكثر ولد آدم، عليه السلام، ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، يعنى لعاصين، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾، يعنى هكذا نبين الآيات فى أمر الميثاق، ﴿وَلَعَلَّهُمْ﴾، يعنى لكى ﴿يَرْجِعُونَ﴾ [آية: ١٧٤] إلى التوبة.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾، يعنى أهل مكة ﴿نَبَأَ﴾، يعنى حديث ﴿ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾، يعنى أعطيناه الاسم الأعظم، يعنى بلعام بن باعورا بن ماث بن حراز بن آزر، من أهل عمان، وهى البلقاء التى كان فيها الجبارون بالشام، فإنما سميت البلقاء من أجل أن ملكها رجل اسمه بالق، وذلك أن الملك، واسمه بانوس بن ستشروث، قال لبلعام: ادع على موسى، فقال بلعام: إنه من أهل دين لا ينبغى أن يدعى عليه، فأمر الملك أن تنحت خشبة ليصلبه عليها، فلما رأى ذلك، خرج على أتان له، ليدعو على موسى، عليه السلام، فلما عاين عسكره، قامت به الأتان فضربها، فقالت الأتان: لم تضربنى وهذه نار تتوقد قد منعتنى أن أمشى، فارجع، فرجع، فأخبر الملك، فقال له الملك: إما أن تدعو، وإما أن أصلبك، فدعا على موسى، عليه السلام، باسم الله الأعظم ألا يدخل المدينة، فاستجاب الله له، فبلغ موسى، عليه السلام، فدعا الله أن ينزع ذلك الاسم منه،

فنزع منه الاسم الأعظم، فذلك قوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾، فنزعها الله منه، يعنى الآيات، ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [آية: ١٧٥]، يعنى من الضالين.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ﴾ فى الآخرة ﴿بِهَا﴾ بما علمناه من آياتنا، يعنى الاسم الأعظم فى الدنيا، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، يعنى رضى الدنيا، وركن إليها، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾، أى هوى الملك مع هواه، ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ﴾ بنفسك ودابتك تطرده، ﴿يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ﴾، فلا تحمل عليه شىء ﴿يَلۡهَثۚ﴾ إذا أصابه الحر، فهذا مثل الكافر إن وعظته، فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، مثل بلعام والكفار، يعنى كفار مكة، ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾، يعنى القرآن، ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ﴾، يعنى القرآن عليهم ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾، يعنى لكى ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ [آية: ١٧٦] فى أمثال الله فيعتبروا فيؤمنوا.

ثم قال: ﴿سَآءَ﴾، يعنى بئس ﴿مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، يعنى القرآن، يعنى كفارة مكة، ﴿وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ [آية: ١٧٧]، يعنى أنفسهم ضروا بتكذيبهم القرآن.

﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدۡ
ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ
بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾
وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾
أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي
مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ
فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾ لدينه، ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ﴾ عن دينه، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [آية: ١٧٨]، يعنيهم.

ثم قال: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾، لقول الله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى

سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، فلم تفقه قلوبهم، ولم تبصر أعينهم، ولم تسمع آذانهم الإيمان، ثم ضرب مثلاً، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يأكلون ويشربون ولا يلتفتون إلى الآخرة، كما تأكل الأنعام، ليس للأنعام همة غير الأكل والشرب والسفاد، فهي لا تسمع، ولا تعقل، كذلك الكفار، ثم قال: ﴿بَلْ هُمْ﴾، يعني كفار مكة ﴿أَضَلُّ﴾، يعني أضل سبيلاً، يعني الطريق من الأنعام، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [آية: ١٧٩]، لأن الأنعام تعرف ربها وتذكره، وهم لا يعرفون ربهم ولا يوحدونه.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وذلك أن رجلاً دعا الله في الصلاة، ودعا الرحمن، فقال رجل من مشركي مكة، وهو أبو جهل: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربًا واحدًا، فما بال هذا يدعو ربين اثنين، فأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، يعني الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، ونحوها، يقول: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، فدعا النبي ﷺ الرجل، فقال: «ادع الله، وادع الرحمن، ورغمًا لأنف المشركين، فإنك ما دعوت من هذه الأسماء، فله الأسماء الحسنى»، قال: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾، يعني يميلون في أسمائه عن الحق، فيسمون الآلهة: اللات، والعزى، وهبل، ونحوها، وأساف، ونائلة، فمنعهم الله أن يسموا شيئًا من آلهتهم باسم الله، ثم قال: ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ العذاب في الآخرة ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [آية: ١٨٠].

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾، يعني عصبة يدعون إلى الحق، ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [آية: ١٨١]، فقال النبي ﷺ: هذه لكم، وقد أعطى الله موسى، عليه السلام، مثلها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، يعني بالقرآن، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [آية: ١٨٢]، يعني سنأخذهم بالعذاب من حيث يجهلون، نزلت في المستهزئين من قريش.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾، يعني لا أعجل عليهم بالعذاب، ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [آية: ١٨٣]، يعني إن أخذي شديد، قتلهم الله في ليلة واحدة.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾، يعني النبي ﷺ، يعني من جنون، وذلك أن

النبى ﷺ صعد الصفا ليلاً، فدعا قريشًا إلى عبادة الله عز وجل، قال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [آية: ١٨٤]، يعنى ما محمد إلا رسول بين.

ثم وعظهم ليعتبروا فى صنيعه فيوحدوه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ﴾ إلى ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ من الآيات التى فيها، فيعتبروا أن الذى خلق ما ترون لرب واحد لا شريك له، ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾، يعنى يكون قد دنا هلاكهم ببدر، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾، أى بعد هذا القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [آية: ١٨٥]، يعنى يصدقون.

﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ عن الهدى، ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [آية: ١٨٦]، يعنى فى ضلالتهم يترددون.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾، وذلك أن كفار قريش سألوا النبى ﷺ عن الساعة، ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾، يعنى متى حينها، ﴿قُلْ﴾ هم: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾، وما لى بها من علم، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا﴾، يعنى لا يكشفها، ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذا جاءت، ثم أخبر عن شأنها، فقال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يقول: ثقل على من فيهما علمها، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، يعنى فجأة، ثم قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ عنها فى التقديم، ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، يقول: كأنك قد استحفيت عناه السؤال حتى علمتها، ﴿قُلْ﴾: وما لى بها من علم، ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [آية: ١٨٧]، يعنى أكثر أهل مكة لا يعلمون أنها كائنة.

﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، يقول: «لا أقدر على أن أسوق إليها خيرًا، ولا أدفع عنها ضرًا، يعنى سوءًا، حين ينزل بى، فكيف أملك علم

الساعة؟!»، ثم قال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، فيصيبنى ذلك، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾، يعنى أعلم غيب الضر والنفع إذا جاء، ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾، يعنى من النفع، ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾، يعنى ما أصابنى الضر، ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ من النار، ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالجنة، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [آية: ١٨٨]، يعنى يصدقون.

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾

قوله: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، يعنى من نفس آدم، عليه السلام، وحده، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، يعنى خلق من ضلع آدم زوجه حواء، يوم الجمعة وهو نائم، فاستيقظ آدم وهى عند رأسه، فقال لها: من أنت؟ فقالت بالسريانية: أنا امرأة، فقال آدم: فلم خلقت؟ قالت: لتسكن إلىَّ، وكان وحده فى الجنة، قالت الملائكة: يا آدم، ما اسمها؟ قال: حواء؛ لأنها خلقت من حى، وسمى آدم؛ لأنه خلق من أديم الأرض كلها، من العذبة، والسبخة من الطينة السوداء، والبيضاء، والحمراء، كذلك نسله طيب وخبيث، وأبيض، وأسود، وأحمر، فذلك قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾، يعنى جامعها آدم، ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾، هان عليها الحمل، ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾، يعنى استمرت به بالولد، يقول: تقوم، وتقعد، وتلعب، ولا تكترث.

فأتاها إبليس وغير صورته، واسمه الحارث، فقال: يا حواء، لعل الذى فى بطنك بهيمة؟ فقالت: ما أدرى، ثم انصرف عنها، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾، يقول: فلما أثقل الولد فى بطنها، رجع إبليس إليها الثانية، فقال: كيف تجدك يا حواء؟ وهى لا تعرفه، قالت: إنى أخاف أن يكون فى جوفى الذى خوفتنى به، ما أستطيع القيام إذا قعدت، قال: أفرأيت إن دعوت الله، فجعله إنسانًا مثلك ومثل آدم، أتسمينه بى؟ قالت: نعم، ثم انصرف عنها، فقالت لآدم، عليه السلام: لقد أتانى آت، فزعم أن الذى فى بطنى بهيمة، وإنى لأجد له ثقلاً، وقد خفت أن يكون مثل ما قال، فلم يكن لآدم وحواء هم غير الذى فى بطنها، فجعلا يدعوان الله، ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾، يقولان: لئن أعطيتنا هذا الولد سويًا صالح الخلق، ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آية: ١٨٩] فى هذه النعمة، فولدت سويًا صالحًا.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾
أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ
يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ
صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ
فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ
يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ
ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ
يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾

فجاءها إبليس، وهى لا تعرفه، فقال: لم لا تسميه بى كما وعدتنى، قالت: عبد الحرث فكذبها، فسمته عبد الحارث، فرضى به آدم، فمات الولد، فذلك قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا﴾، يعنى أعطاهما الولد صالح الخلق، ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾، يعنى إبليس شريكًا فى الاسم، سمته عبد الحارث، فكان الشرك فى الطاعة من غير عبادة، ولم يكن شركًا فى عبادة ربهم، ثم انقطع الكلام، فذكر كفار، فرجع إلى أول الآية، فقال الله: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [آية: ١٩٠]، يقول: ارتفع عظمة الله عما يشرك مشركو مكة.

ثم قال: ﴿أَيُشۡرِكُونَ﴾ الآلهة مع الله، يعنى: اللات، والعزى، ومناة، والآلهة، ﴿مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا﴾ ذبابًا ولا غيره، ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [آية: ١٩١]، يعنى الآلهة، يعنى يصنعونها بأيديهم وينحتونها، فهى لا تخلق شيئًا.

ثم قال: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا﴾، يقول: لا تقدر الآلهة منع السوء إذا نزل بمن يعبدها من كفار مكة، ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [آية: ١٩٢]، يقول: ولا تمنع الآلهة من أراد بها سوءًا، فكيف تعبدون من هذه منزلته وتتركون عبادة ربكم؟.

ثم قال للنبى ﷺ: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾، يعنى كفار مكة، ﴿إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾، يعنى النبى ﷺ وحده، ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ﴾ إلى الهدى، ﴿أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ [آية: ١٩٣]، يعنى ساكتون، يعنى النبى ﷺ؛ لأنهم لا يتبعوكم.

ثم أخبر عن الآلهة، فقال: قل لكفار مكة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾، يعنى تعبدون

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الآلهة، إنهم ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [(١)]، وليسوا بآلهة، ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾، يعنى فاسألوهم، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ بأنهم آلهة، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آية: ١٩٤] بأنها آلهة.

ثم أخبر عن الآلهة، فقال ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، ثم قال لكفار مكة: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾، يعنى الآلهة، ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أنتم الآلهة جميعًا بشر، ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [آية: ١٩٥].

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعنى القرآن، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آية: ١٩٦].

ثم قال لكفار مكة: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾، يعنى يعبدون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ من الآلهة، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾، يقدر الآلهة منع السوء إذا نزل بكم، ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [آية: ١٩٧]، يقول: ولا تمنع الآلهة من أرادها بسوء.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

ثم قال للنبى ﷺ: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، يعنى كفار مكة: ﴿لَا يَسْمَعُواْ﴾ الهدى ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [آية: ١٩٨] الهدى.

قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، يقول للنبى ﷺ: خذ ما أعطوك من الصدقة، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾، يعنى بالمعــروف، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [آية: ١٩٩]، يعنى أبا جهل حين جهل على النبى ﷺ، فنسخت العفو الآية التى فى براءة، آية الصدقات، ونسخ الإعراض آية السيف.

قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾، يعنى وإما يفتننك من الشيطان فتنة فى أمر أبى جهل، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ بالاستعاذة ﴿عَلِيمٌ﴾ [آية: ٢٠٠] بها، نظيرها فى حم السجدة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

ثم وعظ النبى ﷺ فى أمر أبى جهل، فأخبر عن مصير المؤمنين والكفار، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ الشرك، ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [آية: ٢٠١]، يقول: إن المتقين إذا أصابهم نزغ من الشيطان، تذكروا وعرفوا أنها معصية، ففزعوا منها من مخافة الله.

ثم ذكر الكافر، فقال: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾، يعنى وأصحابهم، يعنى إخوان كفار مكة هم الشياطين فى التقديم،

---

(١) انظـــر: (القرطبى ٧/٣٤٢، الكشاف ٢/١١٠، شرح الأشمونى ١/٢٥٥، ومغنى اللبيب ١/٢٢، شرح التصريح ١/٢٠١، همع الهوامع ٢/١١٦، البحر المحيط ٤/٤٤).

﴿ يَمُدُّونَهُمْ ﴾(١)، يعنى يلجوهم، ﴿ فِي ٱلْغَيِّ ﴾ ، يعنى الشرك والضلالة والمعاصى، ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [آية: ٢٠٢] عنها ولا يصرونها كما قصر المتقون عنها حين أبصروها.

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ ﴾، يعنى بحديث من القرآن، وذلك حين أبطأ التنزيل بمكة، ﴿ قَالُوا ﴾، قال كفار مكة: ﴿ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾ ، يعنى هلا ابتدعتها من تلقاء نفسك يا محمد؛ لقولهم: ائت بقرآن غير هذا أو بدله من تلقاء نفسك، ﴿قُلْ﴾ لكفار مكة: ﴿ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾ إذا أمرت بأمر اتبعته، ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ ، يعنى برهان، يعنى هذا القرآن بيان من ربكم، ﴿وَ﴾ القرآن ﴿ وَهُدًى ﴾ من الضلالة ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ من العذاب ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [آية: ٢٠٣]، يعنى يصدقون بأن القرآن من الله.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ ﴾ ، يعنى بالذكر القراءة فى الصلاة، ﴿ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا ﴾ مستكينًا، ﴿ وَخِيفَةً ﴾، يعنى وخوفًا من عذابه، ﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ ، يعنى دون العلانية،﴿ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴾ (٢)، يعنى بالغداة والعشى، ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [آية: ٢٠٥] عن القراءة فى الصلاة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ من الملائكة، وذلك حين قال كفار مكة: ﴿ **وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا**﴾ [الفرقان: ٦٠]، واستكبروا عن السجود، فأخبر الله أن الملائكة﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾، يعنى لا يتكبرون﴿ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ كفعل كفار مكة، وأخبر عن الملائكة، فقال: ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُۥ ﴾، يعنى يذكرون ربهم،﴿ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [آية: ٢٠٦]، يقول: يصلون.

* * *

تم بحمد الله الجزء الأول، ويليه بإذن الله الجزء الثانى وأوله سورة الأنفال

* * *

---

(١) انظر: (القرطبى ٧/ ٣٥٢، البحر المحيط ٤/ ٤٠١، الكشاف ٢/١١١، مجمع البيان ٢/ ٥١٣).

(٢) انظر: (القرطبى ٣٥٥/٧، الكشاف ٢/ ١١١، البحر المحيط ٤/ ٤٥٣، العكبرى ١/ ١٦٨، النحاس ١/ ٦٦٢).

فهرس المحتويات

المقدمة ---------- ٣

المصنف في سطور ---------- ٥

الثناء على مقاتل في علم التفسير ---------- ٧

مقاتل وعلم الحديث ---------- ٨

الكتاب في سطور ---------- ١٠

مؤلفات مقاتل في التفسير وعلوم القرآن ---------- ١١

مقدمة المصنف ---------- ٢١

سورة الفاتحة ---------- ٢٤

سورة البقرة ---------- ٢٨

سورة آل عمران ---------- ١٥٦

سورة النساء ---------- ٢١٣

سورة المائدة ---------- ٢٧٦

سورة الأنعام ---------- ٣٣٥

سورة الأعراف ---------- ٣٨٣